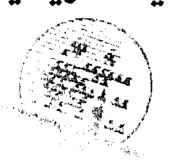
عبد العزيز الثعالبي

من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب

خمسون صورة ووثيقة تاريخية



أعدها للنشر، وقدم لها وعلق عليها

الدكتور صالح الخرفي

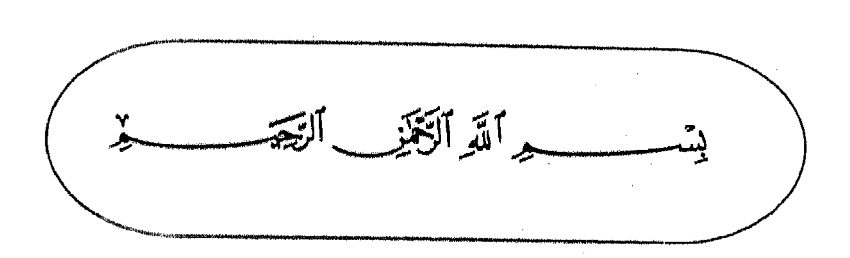
دار الغرب الإسلامي

الطبعة الاولى : 1995

دار الغرب الإسلامي
ص. ب. 5787-113 بيروت



(محمد عبد العزيز الثعالبي : 1876 ـ 1944)


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى من يعود إليه الفضل في الحفاظ
طيلة نصف قرن على الإرث الفكري والقلمي
للشيخ عبد العزيز الثعالبي
إلــى
الحكيم أحمد بن ميلاد

* اختار الله لجواره الحكيم أحمد بن ميلاد يوم الثلاثاء 26 جمادى الأولى 1415 هـ غرة نوفمبر 1994 م. بعد شهر واحد من تاريخ مقدّمة هذا الكتاب، التي قرأتها عليه، فأثنى عليها، ما وسعه حسن الظنّ، وكرم النفس، وطيب الخلق. وكنت أسابق الزمن، حرصاً على صدور هذا الكتاب ـ بإهدائه إليه، وصورته عليه ـ وهو على قيد الحياة، لمعرفتي وقع ذلك على نفسه، التي ما بقي لها من أمل في أواخر أيامه، إلا أن يرى أثراً جديداً للثعالبي، يشقّ طريقه إلى القرّاء. ولكن سبقني إليه الأجل. تغمّده الله برحمته الواسعة.



الحكيم أحمد بن ميلاد في أوائل الثلاثينات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

قبل خمسين عاماً، إختار الله لجواره مؤسس الحزب الحر الدستوري التونسي. الزعيم الراحل، خالد الذكر، الشيخ عبد العزيز الثعالبي، تغمده الله برحمته الواسعة.

كان ذلك صباح يوم الأحد (14) شوال (1363 هـ) (1) اكتوبر (1944م) ولم تنشر جريدة(الزهرة) اليومية خبر وفاته إلا يوم الثلاثاء: ثالث يوم رحيله. وكتبت تحت عنوان (عبقري يسقط في الميدان):[1]

«أمس الأمس، على الساعة العاشرة صباحاً، إنطفأ مشعل وقاد من مشاعل المعرفة والنبوغ، وانهدّ ركن لا يعوض من أركان البراعة والإقتدار، وخفت صوت رنان من أصوات البلاغة القلمية واللسانية، كان دويّه يتجاوب في مختلف القارات، وكان في جميعها محل التقدير والإعجاب، ألا وهو الأستاذ، والمؤرخ الضليع، والكاتب الكبير، والخطيب المصقع الشيخ عبد العزيز الثعالبي، برّد الله ثراه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه».

وقد أبّن الراحل قبل إنزال جثمانه إلى مثواه الأخير في مقبرة (الجلاز)

---

(1) جريدة (الزهرة) السنة (58) العدد (10699) الثلاثاء (16) شوال (1363) هـ (3) أكتوبر (1944)م.

كل من المشائخ والأساتذة (صالح فرحات) و (محمد الشاذلي خزنة دار) و (صالح بن يوسف) و (مصطفى خريف) و (أحمد بن ميلاد) و (الحبيب شلبي) و (عمر الهمامي) وتولى الصلاة على الفقيد الشيخ (محمد الصالح بن مراد) شيخ الإسلام الحنفي[2].

وفي العدد (9) من مجلة (الثريا) الأسبوعية، في أكتوبر (1944) نشرت كلمة تأبين للفقيد تحت عنوان: (حداد الأمة التونسية على المرحوم المنعم الشيخ عبد العزيز الثعالبي) ومما جاء فيها:

«الله أكبر. لقد مات الشيخ الثعالبي.

الله أكبر. لقد انتقل إلى عالم الخلد.

الله أكبر. لقد نودي في تونس، أنّ أديبها الكبير، وعالمها الفذّ وعبقريها النابغ، قد قضى نحبه.

مات شيخ البلغاء. وخطيب المحافل، وإمام المؤرخين، الرجل الذي ملأ صيته الآفاق، وأفعم ذكره المشرق والمغرب.

ارتحل عن هذا العالم الفاني الذي لم يسع روحه. فكانت ترفرف في جوانبه وأجوائه، وضاقت عنه الدنيا، بعد أن جاب (هندها وحجازها ويمنها)

---

(2) نشرت (الزهرة) في عددها (10700) الأربعاء (17) شوال (4) أكتوبر خبراً آخر عن وفاة (الثعالبي) تحت عنوان (الأمة التونسية تشيّع فقيدها إلى مثواه الأخير) ومما جاء فيه:

«كان لنعي الرحالة التونسي الكبير، والخطيب العربي الفذ، وعبقري البيان ولغة القرآن، (الشيخ عبد العزيز الثعالبي) صداه البعيد، وتأثيره البالغ. فخفّت الأمة التونسية بمختلف طبقاتها لتشييع جثمانه إلى مقره الأخير. وكان الموكب رائعاً مؤثراً، حيث سار القوم في سكون وخشوع، وتأثر وإعتبار، وكان النعش مجللاً بالسواد، مكتسياً شعار الحداد».

وضرب في جوانب مشرقيها الأقصى والأدنى. وساح في عراقيها العجمي والعربي. وخطب وده الجاويون والسمطريون.

كان الثعالبي رجل العالم العربي. بل كان الثعالبي رجل العالم الإسلامي، الذي لا تعرف حواجز اللغات واللهجات إلى الحيلولة بينه وبين ما يريد سبيلاً. ففي (كلكوتة) و(بونباي) و (سيلان) له أصدقاء وأحبّة. وفي (الأفغان) و (إيران) له خلان»[3].

***

أفاضت كل من جريدة (الزهرة) و «الثريا» في التنويه بالزعيم الراحل، وتعداد الصفات التي ميزته، وميزت مراحل حياته، وسردت (الثريا) في صفحة كاملة من صفحاتها المعالم البارزة في المسيرة الوطنية للثعالبي وتلك لفتة وفاء منها ومن صاحبها الصحافي الراحل (نور الدين بن محمود). ولكن لم تشر أي من (الزهرة) أو (الثريا) إلى لفظة (الدستور) والثعالبي مؤسسه، ولا قرنت إسمه باسم (الحزب الحر الدستوري التونسي) وهو باعثه. بل هو (أبو الدستور) كما يخاطبه الإمام المصلح الشيخ (عبد الحميد بن باديس)[4].

---

(3) (الأسبوع) العدد (174) الإثنين ذو الحجة (1368) هـ (13) أكتوبر (1949) م.

(4) بعث الشيخ عبد الحميد بن باديس (برقية تهنئة ورجاء) بمناسبة افتتاح نادي الحزب هذا نصّها:

«إلى أبي الدستور الأستاذ عبد العزيز الثعالبي. قسطنطينة (18) رمضان (1356) هـ (21) نوفمبر (1937) م.

الأستاذ عبد العزيز الثعالبي.

أهنئكم بفتح النادي العظيم، راجياً أن يكون به فتح جديد لتونس العزيزة وأفريقيا الشمالية، دمتم للإسلام والعروبة. والعلم والفضيلة.

(عبد الحميد بن باديس) مدير مجلة (الشهاب).

المرجع: (الشهاب) الجزء(9) المجلد(13) رمضان1356 هـ نوفمبر (1937) م.

وكتبت (الشهاب) في الجزء (5) المجلد (13) (10) جويلية (1937) بمناسبة =

وتمر السنوات و (الثعالبي) في طي النسيان، في مثواه الأخير. لا تقام له ذكرى، ولا يرفع له ذكر، ولا يستثير لفتة وفاء، حتى جاء المرحوم (عمر بن قفصية) فكتب سنة 1949 في جريدة (الأسبوع) بعنوان (ذكرى الزعيم..؟) وبإمضاء الحرف الأول من اسمه (ع...) وبعد مقدمة قال: [5]

«دعاني لبسط هاته المقدمة، ما شاهدته في قومي وعشيرتي، من سهو أو تناس عن إحياء ذكرى بطل من خيرة أبطالنا في العصر الحاضر، وزعيم من أكبر زعمائنا وعلم من أعلامنا، وأكتب كتّابنا. وأخطب خطبائنا. وسياسي خطير، وإجتماعي كبير. وفيلسوف جليل. ورحالة شهير، ومؤرخ عظيم، ووطني فذ في وطنيته؟!..

لا شك أيها القارىء الكريم، أنك عرفت هذا الزعيم. قبل أن أذكر لك اسمه. ولا ريب عندي في أن كل تونسي يسمع بهذه الصفات، إلا ويعرف صاحبها، الزعيم الجليل، المقدس المبرور، المرحوم الأستاذ عبد العزيز الثعالبي وذلك لأن صفاته تلك ومزاياه هاته، معروفة من الجميع، وليس في تونس أو في المغرب العربي فقط. بل في كافة بلاد العروبة والإسلام، وفي بلاد أوروبا وأميركا، أيضاً، من يعلم ذلك».

وتذكرني هذه الفقرة للمرحوم (عمر بن قفصية) من صفحة كاملة في

عودة (الثعالبي) فقرة بعنوان (أمة تستقبل أمة). مما جاء فيها:

«نرفع من صميم الفؤاد إلى الشقيقة تونس، تهانينا المخلصة برجوع بطلها المغوار، وزعيمها الأجل، الشيخ الأستاذ عبد العزيز الثعالبي، الذي أصبح من كبار زعماء الإسلام والعربية في العصر الحديث. كما نرفع أحر التهاني إلى الزعيم الصادق برجوعه إلى أرض الوطن، وتبوئه من جديد مقعد القيادة في ميدان العمل لتحرير الوطن».

(5) مجلة (الثريا) أصدرها الصحافي الراحل (نور الدين بن محمود) سنة (1943).

جريدة (الأسبوع) بفقرة عن (الثعالبي) للشيخ عبد الحميد بن باديس سنة (1937):[6].

«عبد العزيز الثعالبي. هكذا أذكره، دون لقب أو صفة. فإن هذا الإسم لم يبق علماً على ذات مشخصة، تحتاج إلى صفاتها وألقابها. بل صار في أذهان الناس علماً على الرجولة والبطولة والزعامة. وعلى التفكير والعمل والتضحية وعلى الإسلام والشرق والعروبة، وعلى وحدة أفريقية، فإذا قلت (عبد العزيز الثعالبي). فقد قلت هذا كله».

* * *

وبعد سنتين، يجدد (ابن قفصية) النداء، ويكرر العنوان، ويقرن هذه المرة (الذكرى بالنسيان) ويديّل العنوان بنقطة إنكار لافتة! مذيّلة هي الأخرى بنقاط متلاحقة، تحمل أكثر من معنى:

(ذكرى زعيم نسوه!...) ولكن الكاتب الوفي للثعالبي، لا يجرؤ هذه المرة حتى على إمضاء مقاله ولو بالحرف الأول من اسمه:[7]

«كنا كتبنا في مثل هذه المناسبة من عام (1949) مقالاً مطولاً على صفحات هذه الجريدة، التي جعلت شعارها، تمجيد العاملين المخلصين، ولفت أنظار الغافلين أو المتهاونين، ومقاومة الغاوين المارقين. كنا كتبنا مقالاً مفصّلاً، لفتنا فيه نظر مؤسساتنا، مبينين أن هذا الإهمال الذي لحق منشىء الحركة الوطنية هو إهانة للوطنية ببلادنا، وازدراء شامل لرجالها. كما أنه عار وشنار في جبين كل تونسي، لن يمحي على مر الدهور، بل سيسجله التاريخ في صفحة سوداء للتونسيين».

---

(6) مجلة (الشهاب) الجزء (7) المجلد (13) رجب (1356) هـ سبتمبر (1937) م.

(7) (الأسبوع) العدد (275) (8) أكتوبر (1951). والمرحوم (عمر بن قفصية) غالباً ما يمضي مقالاته في (الأسبوع) بحرف (ع...) ويغفل الإمضاء تماماً في المقالات المحرجة. ولكن واضح من إحالاته أن المقال من تحريره.

ويضيف في ثنايا المقال:

«أيجدر بأمة مثل أمتنا، متطلعة للمجد، متوثبة للعز، أن تولي من بعث فيها روح التطلع والتوثب، زاوية الإهمال؟ . .

لك الله يا عبد العزيز. فقد تنكّر لك قومك في حياتك الأولى، وأودعوك زاوية النسيان في حياتك الثانية».

* * *

وفي (زاوية النسيان) التي مُني بها (الثعالبي) بعد رحيله، يلتقي (ابن قفصية) مع (الصفاقسي الزيتوني) في جريدة (الإرادة) في (1950/12/9) فيكتب مقال بعنوان (المشعل المنسي) ومما جاء في هذا المقال:

«ولقد رأيت صحافتنا التونسية، تنبّه الشعب، والنخبة المثقفة منه، إلى إحياء الذكريات، لـ (أبي القاسم الشابي) و (كرباكة) و . . . و . . . ومن المؤسف أنني لم أر صحيفة واحدة، ذكرت اسم (الثعالبي) (الظاهر الخفّي) من جملة من دعت لإحياء نبوغهم ومكانتهم. فهل يزاح ستار التعصّب الممقوت، ونرى تونس تحتفل جميعاً بزعيمها الأوّل، وابنها الأوحد، ومجاهدها السابق. لتتدارك ما فات؟! أم سيبقي (مشعلاً منسياً) مرّة أخرى!».

ويعيد (صفاقسي زيتوني) الكرّة مجدّداً وفي جريدة (الإرادة) التي استبعدت في سلسلتها الثانية في أواخر الأربعينات شعار: (لسان الأحرار الدستوريين) واستبقت تحت عنوانها شعار: (إرادة الشعب من إرادة الله، وإرادة الله لا تقاوم). يعيد الكرّة، ومن فوق منبر الجريدة التي دأبت على تصدير صفحتها الأولى بصورة (الثعالبي) وفرائد أفكاره، في السلسلة الأولى من عمرها، عندما صدر العدد الأوّل منها في (23) رمضان المعظم (1352 هـ) (8) جانفي (1934 م).

(حول مشعلنا المنسي...!) يعلنها (صفاقسي زيتوني) الذي عرفنا فيما بعد، أنه الشاعر الراحل (محمّد الشعبوني) عندما أعاد نشر مقاليه في مقدمة كتابه (عبد العزيز الثعالبي في الشعر العربي). أربعون سنة غير كافية لنعرف المسمّى الحقيقي لقولة حق تقال، وكلمة صدق يسجلها التاريخ. ولو لم يصرّح بها الشاعر قبيل رحيله، لذهبت هي الأخرى في (زاوية النسيان)!

(حول مشعلنا المنسي...!) نشرت في (الإرادة) عدد (886) (29) محرّم (1370 هـ) (30) أكتوبر (1951 م) وصدر كتاب (الشعبوني) سنة (1991 م) أليست هي الأربعون سنة؟! لا تنقص.

عدّد الشاعر الراحل في مقاله تسع (أوّليات) للثعالبي. كافية لتجعله ملء السمع والبصر، حيّاً وميّتاً، مصداقاً لقول (المتنبيّ):

وتركك في الدنيا دوياً، كأنّما تناول سمع الدهر، أنمله العشر

1) أوّل تونسي أنشأ حركة في البلاد ما زالت معقل الكرامة والحريّة والمقاومة الشريفة.
2) أوّل تونسي نادى باسم تونس في عاصمة النّور وألّف في قضيتها كتابه الخالد (تونس الشهيدة).
3) أوّل تونسي تأثر بالروح الشرقية وجاء يبث الفكرة الإصلاحية في مجتمعه المنحلّ وبيئته المنهارة ووسطه المنكوب.
4) أوّل تونسي نادى بتثقيف المرأة وحمل على الذين يتخذون من الدين ستاراً يتزلفون به إلى الحكومة. ويضللون بذلك الشعب البريء المغرور.
5) أوّل تونسي يلاقي الصدمات من شعبه والحكومة معاً، فيتقبلها باسماً.
6) أوّل تونسي. جاب الشرق والغرب فكان لسان تونس الداوي، ورائدها الوحيد.
7) أوّل تونسي، جمع بين العلم والسياسة والأدب.

8) أوّل تونسي، مثّل بلاده في المؤتمرات العربية والإسلامية.
9) أوّل من فكّر من أبناء إفريقيا في الدعوة إلى تأسيس الوحدة العربيّة.

وينتهي (الشعبوني) في مقاله المؤثّر إلى هذه الفقرات:

«إن العمل وحده هو الدائم، والوطن هو الذي لا يزول. وأما الأشخاص فهي زائلة لا محالة. وعسانا نراهم يجتمعون قريباً حول ضريح من أحيا الأمة، وخلق من روحه لها قوة عتيدة، هي التي يتظلّلون اليوم تحت رايتها جميعاً. ويصيحون في خشوع رهيب، وصمت عميق: لبيك. أيها الزعيم الأكبر! إنا على العهد باقون من بعدك، وسنظل في طريقك سائرين، حتى نبلّغ الرسالة، ونؤدّي الأمانة في إيمان ووفاء. وحسبنا سعادة الوطن. وكفى!».

ورغم كل هذه المآثر، وتلك الأمجاد، ورغم (الأوليات التسع) وما هي بالجامعة المانعة. فإنّ العناوين اليتيمة التي ظلت ترفرف على روح (الثعالبي) الطاهرة، طيلة أربعين سنة بعد رحيله. لم تتجاوز أربعة عناوين، مثقلة بنقاط حائرة، ونقاط استفهام وإنكار، وفي دائرة مغلقة من (النسيان والتناسي). بمعدّل عنوان واحد، لعقد كامل من الزمن!

1) (ذكرى الزعيم...؟).
2) (ذكرى زعيم نسوي!...).
3) (المشعل المنسي؟).
4) (حول مشعلنا المنسى...!).

* * *

وتمضي السنون، وتتلاحق العقود، ومعهما يتلاحق، النسيان والتناسي والإهمال. تمضي أربعون سنة كاملة، أربعة عقود لا تنقص، بعد رحيل (الثعالبي) ليصدر كتابه الخالد (تونس الشهيدة) سنة 1984 مؤذناً ببعث جديد

للـراحـل مـن مـرقـده الأخيـر. بعـث الـوفـاء والإنصـاف، بعـث التـاريـخ والخلود.[8]

وهكذا بدأ (الثعالبي) يسترجع ملامحه الأصيلة، وبدأت غيوم النسيان والتناسي في الإنحسار. وعاد الراحل إلى الذاكرة التاريخية الواعية، وتعددت رموز الوفاء له، ومصافحة أمجاده من جديد. وفي سنوات معدودات اغتنت (المكتبة الثعالبية) بما ضاقت عنه العقود الطوال. وقيّض الله لتراث الثعالبي يداً أمينة تحفظه، وسراً دفيناً يرعاه وعناية إلهية ردت عنه غوائل الزمن، حتى أصبح اليوم يشق طريقه إلى النور، حاملاً إسمه على أكثر من كتاب، في أكثر من مجال، تراث يجسد هذه الموسوعة الفكرية والعلمية والسياسية التي ميز الله بها (الثعالبي).

إن في إنصاف (الثعالبي) إنصافاً لجيل كامل من حوله، وأجيال تلته، وتأليفاً للقلوب، وتطييباً للخواطر، فليس من السهولة أن تتنكر الأجيال لبانيها، فما الثعالبي إلا رمز لسيادة، وعنوان قيادة، ولسان أمة، تتجاوز تونس إلى أقطار المغرب العربي. وتتجاوز المغرب إلى المشرق، وتتخطاهما إلى العروبة والإسلام، وإلى الرسالة السماوية التي نزلت رحمة للعاملين.

---

(8) ويختم (ابن قفصية) مقاله يقول:

«أما أنت يا عبد العزيز، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يجازيك عنا أحسن الجزاء. وهو المسؤول أن يغدق على روحك الطاهرة شآبيب الرحمة والرضوان، ويتركك بجوار الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء. وحسن أولئك رفيقاً».

(8) صدر كتاب (تونس الشهيدة) بمبادرة كريمة جريئة من (دار الغرب الإسلامي) تعريب الأستاذ (حمادي الساحلي) ومراجعة الأستاذ (محمد العروسي المطوي) وقد صدرت طبعته الأولى سنة (1984) وصدرت له طبعة ثانية سنة (1988) وتصدرت الكتاب هذه الفقرة عنه (للرئيس الحبيب بورقيبة):

«... لقد أخفيت الكتاب تحت غطائي، وطالعته خلسة، وأنا متأثر شديد التأثر. فاطلعت على ما ورد فيه من أرقام، وما تضمّنه من معلومات عن الضحايا والفقر. وشعرت بما جرّه لنا الإستعمار من ذل وهوان، وكنت أبكي».

منذ قرن مضى، كان (الثعالبي) لسان الوحدة الإسلامية، يوم أصدر (سبيل الرشاد) سنة (1895)[9] وبعد قرن من الزمن، يعود داعية الوحدة في ظل الدعوة لـ (إتحاد المغرب العربي). يعود مؤلف (تاريخ شمال أفريقيا) و (روح التحرر في القرآن). و (تونس الشهيدة). يعود كما بدأ، رمزاً للأصالة، رحالة للتفتح. داعية للوحدة، حرباً على الشقاق، نصيراً للحق، عدواً للباطل، وفياً للمبادىء، أبياً للمظالم، صادقاً مع النفس والآخرين.

«أظنكم تعلمون، أنني كنت صادقاً مخلصاً، ما تطرق الهوى قط لفكري أو عملي، فأنا، أنا، منذ نشأت إلى اليوم. ما وضعت يدي أبداً في يد حكومة. ولا واليت ظالماً، ولا أيدت حاكماً مستبداً. بل نشأت وعشت شاباً

---

(9) (سبيل الرشاد) قدم (الثعالبي طالباً باسم (أمير الأمراء سيدي محمد العزيز بوعتور) لإصدار جريدته (سبيل الرشاد) بتاريخ (6) محرم (1313 هـ) و (29) جوان (1895) م، وحفظ الطلب، ولم يتلق رداً عليه. وفي (30) ربيع الثاني (1313 هـ) أكتوبر (1895 م) قدم طلباً جديداً باسم الكاتب العام (روا) ومما جاء فيه:

«إني كنت قدمت مطلباً للوزارة مؤرخاً بغرة محرم الحرام مفتتح شهور عام (1313 هـ) تضمن استمناح مكارم الدولة في إنشاء جريدة عربية بهاته العاصمة التونسية... تحت عنوان (سبيل الرشاد)... فتربصت أكثر من شهر، ولم يرد لي منها جواب، لا بنفي ولا إيجاب، فحينئذ شفعت الأول بثان، وعدت إلى تكرير الطلب بدون توان. وظني أنه ترك مع أخيه في زوايا النسيان، وذهب طي خبر كان. مع أن زميلي البارع (معارك) الإسرائيلي، كان قدم طلباً بعدي للغرض المطلوب تحت عنوان (الحقيقة) فأجيب لطلبه في الحال، مع أن المسألة واحدة».

وكتب على هامش هذا الطلب بخط اليد ما يلي:

«يحفظ بالدوسي بصفة أن كاتبه سيرته غير حميدة، طبق ما عرّف به شيخ المدينة حين سئل عنه عند طلبه للمطلب المذكور».

و (معارك) الذي يشير إليه (الثعالبي) هو (مسعود معارك) يهودي تونسي. قدم طلباً بإصدار جريدة (الحقيقة) باللغة العبرية والعربية، بتاريخ (11) جويلية (1895). وطلب الوزير الأكبر سجله العدلي بتاريخ (1) أوت (1895) وجاء الرد بسيرته الحسنة بإمضاء (يوسف جعيط). وصدرت (الحقيقة) في غرة سبتمبر 1895، وبقي (الثعالبي) من (جوان) إلى (ديسمبر) 1895 ينتظر الرد دون جدوى.

وكهلاً، وها أنذا على أبواب الشيخوخة، قريع الإستعمار، وعدوه المبين»[10].

قالها (الثعالبي) قبل سبعين عاماً، في سنة (1924).

* * *

وكلمة شكر، يفرضها الوفاء للأوفياء للثعالبي حياً وميتاً. لفتة شكر وتقدير، وهي أقل ما يجب للحكيم (أحمد بن ميلاد) متعه الله بالصحة والعافية، حارس تراث الثعالبي منذ نصف قرن، منذ وفاته سنة (1944). ابن ميلاد، الذي فتح لي قلبه ومكتبته وبيته، دون سابق تعارف، إلا ما حملته له من إجلال وإكبار عن بعد، وما قرأته عنه بإعجاب وتقدير. وما أودع الله بين القلبين من تآلف لأول لقاء. وقد أعاد إلى ذاكرتي، بفضله هذا علي، وحسن ظنه بي، قصتي مع رمز الصحوة العربية الإسلامية الحديثة، المرحوم (محب الدين الخطيب) يوم زرته في بيته بجزيرة (الروضة) في القاهرة سنة (1968)[11] دون سابق موعد، أو سابق تعارف، بل معرفة، بما تحمله له الذاكرة من قراءات سابقة، تبعث على الإكبار[12].

فتح (الخطيب) لي قلبه ومكتبته، وخزانته الغنية بالنوادر. وقال، رحمه الله: «خذ ما تشاء ولا أسألك موعداً للرد، فكأنني أعرفك من زمن بعيد» وسلمني مخطوطة (مذكراته) التي نشرتها في مجلة (الثقافة) الجزائرية. يوم كنت رئيس تحريرها في أوائل السبعينات. وصوراً ووثائق تاريخية تناثرت بين صفحات كتبي وخاصة (الجزائر والأصالة الثورية). جزى الله، خير الجزاء

---

(10) سنتعرض لهذه الرسالة في صلب الكتاب، وفي ظهر الغلاف فقرة منها.

(11) يقع بيت المرحوم (محب الدين الخطيب) في الشارع الذي يحمل إسم مجلته (الفتح) وفي الطابق الأرضي للبيت تقع (المكتبة السلفية ومطبعتها) بحي (الروضة) بالجيزة.

(12) كان لـ (الخطيب) رحمه الله فضل كبير عليّ، خاصة فيما يتعلق بأبناء المغرب العربي في المشرق العربي، وقد تعرضت لهذا الموضوع في الكتاب المشار إليه.

(الحكيم أحمد بن ميلاد) على كريم حسن ظنه، وعلى ما بين هذه الصفحات من فضله، وفضل الثعالبي في مكتبته. وأبقاه الله، ذخراً ومرجعاً أميناً للحركة الوطنية في المغرب العربي.

أما (دار الغرب الإسلامي) وعميدها، (الحبيب اللمسي) ففضلها على الكتاب العربي فضل تقصر عنه المجموعات، فكيف الأفراد. وفضلها على تراث الثعالبي، الفضل الأسبق، ويدها في نشر هذا التراث اليد العليا. ولم تزل الدار موصولة العطاء، نابضة الوفاء للحرف العربي الأصيل.

وتحية تقدير للسادة المسؤولين، والأخوات والإخوة العاملين. في كل من (الأرشيف الوطني) و (دار الكتب الوطنية) و (مركز التوثيق القومي) في تونس و (دار الكتب المصرية) في القاهرة، التي يسّرت لي أمر الحصول على نسخة كاملة من مقالات (الثعالبي) في مجلة (الرابطة العربية) بعد ما لاقيت من عناء في البحث عنها وتحديد مظانها وحصرها. تحية شكر على ما لقيت من الجميع، من كريم المساعدة، وتقريب المصادر، وتيسير الإستنساخ، وتوفير الجو المعين على البحث. فلولا تضافر هذه الجهود، ما التأمت حروف على هذه الصفحات، ولا استقامت سطور بين دفتي هذا الكتاب.

«رب. اشرح لي صدري. ويسّر لي أمري،
واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي».
صدق الله العظيم

26 ربيع الثاني 1415 هـ
1 أكتوبر 1994 م

صالح الخرفي
نهج الفاضل بن عاشور
المنزه الخامس
تونس الخضراء

عبقري يسقط في الميدان

امس الامس على الساعة العاشرة صباحا انطفأ مشعل وقاد من مشاعل المعرفة والنبوغ وانهد ركن لا يعوض من اركان البراعة والاقتدار وخفت صوت رنان من اصوات البلاغة القلمية واللسانية كان دويه يتجاوب في مختلف القارات وكان في جميعها محل التقدير والاعجاب ألا وهو الاستاذ الجليل والمؤرخ الضليع والكاتب الكبير والخطيب المصقع الشيخ عبد العزيز الثعالبي برد الله ثراه وجعل الجنة منقلبه ومثواه

لقد اغتالته المنون اثر مرض الزمه الفراش منذ بضع سنين لكنه لم يحرم مريديه من الانتفاع بسلسبيل علمه الفياض وتجربته النادرة ونتائج مشاهداته وسياحاته في الشرق والغرب فكان منزله عبارة عن نناد حافل باهل العلم وبرواد المعرفة يأتونه من كل فج عميق تطلبا للاستنارة وسعيا وراء تشحيذ القرائح بما فيه نفع الجمهور وما فيه تنويه بسالف مجدنا واستنارة لدقائق ماضينا الحافل بالمفاخر وما فيه تبصرة وذكرى للاجيال الحاضرة في السير على سنن السلف المجيد وفي اقتفاء أثره في الفضائل والكمالات ومحامد الصفات . وكان رحمه الله من أشد الناس إيمانا بفضل التآزر وضم الاواصر شديد الغيرة على بلاده حريصا على رفع مستواها من جميع وجوهه عاملا طول حياته على ايقاظ الهمم وحث العزائم في سبيل الخير والنفع العام لم يفارقه حنينه لهذا الوطن حتى في أوقات ابتعاده عنه السنين الطوال فكان سواء في الشرق أو في الغرب يقتبل الوافدين من تونس ويعينهم بوجاهته على قضاء حاجاتهم ويسهل عليهم وسائل إقامتهم في بلاد الغربة وكان متحليا بدماثة الاخلاق ولين العريكة شديدا في الحق حتى ادركته المنية وهو ثابت العزم محافظا باحترام مواطنيه وفي عشية الامس احتفل بتشييع جنازته من دارة الكائنة بنهج الشوك في موكب حافل شاركت فيه سائر طبقات البلاد رحمه الله رحمة واسعة ورزق أهله وذويه ومقدري فضله نعمة الصبر والسلوى .

نعي الثعالبي في جريدة (الزهرة)

حداد الامة التونسية

على المرحوم المنعم الشيخ عبد العزيز الثعالبي

الله اكبر لقد مات الشيخ الثعالبي

الله اكبر لقد انتقل الى عالم الخلد

الله اكبر لقد نودي في تونس ان اديبها الكبير وعالمها الفذ ومفكرها النابغ قد قضى نحبه

مات شيخ البلغاء وخطيب المحافل وامام المؤرخين . الرجل الذي ملأ صيته الافاق . واقسم ذكره الشرق والغرب

ارتحل من هذا العالم الفاني الذي لم يسع روحه فكانت ترفرف في جوانبه واجوائه . وضاقت عنه الدنيا بعد أن جاب نجدها وحجازها ويمنها وضرب في جوانب مشرقيها الاقصى والادنى . وساح في عراقيها العجمي والعربي . وخطب وعده الفاهرون والمستطريون .

كان الثعالبي رجل العالم العربي ينزل في كل بلد منه نسائمه بين اهله وذويه لا يحتفلون به كاجنبي عنهم ولكنهم يكرمونه كاخيهم الاكبر وابيهم الرؤوف .

بل كان الثعالبي رجل العالم الاسلامي الذي لا تعترف حواجز اللغات واللهجات الى الحيلولة بينه وبين ما يريده سبيلا ففي كلكوته وبنباي وسيلان له اصدقاء واحبة . وفي الافغان وايران له خلان .

وبعد فقد ولد الشيخ عبد العزيز ابن العدل الموثق الشيخ السيد ابراهيم ابن السيد عبد الرحمان الثعالبي في اليوم الرابع عشر من شعبان سنة ١٢٩٣ وحفظ القرآن العظيم بكتاب حومة الاندلس بالحاضرة التونسية وقضى في ذلك سبعة اعوام . ثم في سنة ١٣٠٦ انخرط في سلك تلامذة جامع الزيتونة الاعظم واستمر على التعلم فيه الى سنة ١٣١٣

وبعد تخرجه من جامع الزيتونة [illegible] العربية والاسلامية واصدر [illegible] القرآن الحرة . [illegible] [illegible] بباريس [illegible] . [illegible]

وشارك الشيخ في تحرير [illegible] والزيتونة واستمر [illegible]

وقد كانت تتكلم على [illegible] [illegible]

نعي الثعالبي في مجلة (الثريا)

الارشيف الوطني التونسي

طلب بخط (الثعالبي) وإمضائه لاصدار جريدة (سبيل الرشاد)

وتلته أربعة طلبات أخرى وانتظار سنة شهور ولم تأت الموافقة وصدرت الجريدة في (16) ديسمبر (1895) دون موافقة مكتوبة من الحكومة

عـدد ٨ | ثمن النسخة ١٠ صانتيمات | السنة الاولى

صاحب امتيازها ومديرها السياسي محمد عبد العزيز الثعالبي

ABONNEMENTS

Un an. . . . . 8 fr.
Six mois . . . . 5 »
Trois mois. 2 50

Toute correspondance devra être adressée à l'Administration du Journal, rue Es-Sadikia, 14. — TUNIS.

جميع الكاتبات يجب ان تكون خالصة الاجرة باسم ادارة « سبيل الرشاد » نهج الصادقية عدد ١٤ بتونس

Adresse Télégraphique:
MOHAMED ABD EL AHZIZ ETHALB
العنوان التلغرافي الثعالبي

سبيل الرشاد

Sabil Er-Rachad

Journal Scientifique, Politique et Historique

جريدة اسبوعية علمية ادبية سياسية تاريخية

لا ترد الرسائل ادرجت ام لم تدرج

قيمة الاشتراك تدفع سلفا في تونس وملحقاتها

عن سنة .... ٨ فرنكا
عن ستة اشهر .... ٥ »

خارج المملكة

عن سنة .... ١٠ فرنكا
عن ستة اشهر .... ٥ »

اجرة سطر الاعلان ٥٠ صانتيما في الثالثة و ٢٥ صانتيما في الرابعة

يوم الاحد ١ شوال المبارك سنة ١٣١٣ | Direct. et Rédact. en Chef : MOHAMED ABD EL AHZIZ ETHALBI | الموافق ٢٢ مارس سنة ١٨٩٦

تهنئة العالم الاسلامي بعيد الفطر المبارك

المديد . والحق المشهود . والعدل المفقود . النهم العام على خليفة الوجود . فخر الملة والدين . وخليفة رسول رب العالمين . قرة عين الزمان . وفخر مجموعة الكيان . معدن الكرم والاحسان . السلطان ابن السلطان . مولانا السلطان . الغازي في سبيل الله عبد الحميد خان . ادم اللهم جلالته بعين عنايتك محفوظا . وبالسكك

والسلمين الاولى عزوا شعائره ومن اصابتهم فيه المسرات سبيل الرشاد

خبث الجزويت

الجزويت وما ادراك ما الجزويت هم في اوروبا اعز من الكبريت قوم تحالفوا على التضليل وتعاضدوا

ديباجة جريدة (سبيل الرشاد)

صاحب امتيازها ومديرها السياسي (محمد عبد العزيز الثعالبي)

المدخل العام

هذا بعض من كلّ، من تراث (عبد العزيز الثعالبي) الذي قال عنه (عبد الحميد بن باديس):

«هكذا أذكره دون لقب أو صفة، فإنّ هذا الإسم، لم يبق علماً على ذات مشخّصة، تحتاج إلى صفاتها وألقابها. بل صار في أذهان الناس علماً على الرجولة والبطولة والزعامة، وعلى التفكير والعمل والتضحية، وعلى الإسلام والشرق والعروبة، وعلى وحدة أفريقية، فإذا قلت: «عبد العزيز الثعالبي، فقد قلت هذا كلّه»[1].

وهذا البعض من تراث (الثعالبي) إنتظمته دورية واحدة من دوريّات المشرق العربي في الثلاثينات، واستقطبته مجلة رائدة في التبشير بفكرة العروبة في العصر الحديث، والتمهيد لقيام (جامعة الدول العربية) بعد أقل من عشر سنوات من صدور هذه المجلة. تلك هي مجلة: (الرابطة العربية) القاهرية[2].

وعلاقة (الثعالبي) بـ(الرابطة العربية) تتجاوز علاقة الكاتب بمنبر لأفكاره، وصفحات لآثاره، وميدان لجولاته وصولاته. ولكنّها علاقة الزعيم بثمرة من ثمرات جهاده، المؤمن بفكرة، تجسّمت له صفحات سيارة في مشرق الوطن العربي ومغربه. لقد حفلت (الرابطة) في السنوات المحدودة

---

(1) مجلة (الشهاب) الجزء (7) المجلد (13) قسنطينة، رجب (1356) هـ سبتمبر (1937) م. أنظر النص الكامل للمقال في الفصل قبل الأخير من الكتاب.

(2) صدر العدد الأول من (الرابطة العربية) في: ماي / أيار 1936.

من عمرها بآثار العشرات من روّاد النهضة العربية الحديثة، من جميع أرجاء الوطن العربي. ولكنّ (الثعالبي) يبقى الإسم البارز على صفحاتها، المتصدّر لأفكارها، المرجع في ريادتها.

و (الثعالبي) فوق ذلك، أبو (الرابطة العربية) وهي بعد ذلك، إحدى بنات أفكاره في العروبة، هو الذي أوحى بصدورها، وشجّع على بعثها، وجاهد في سبيل قيامها، وكفلها بما أوتي من هيبة الزعامة وحصانتها.

وعندما كانت القاهرة تعيش أيامها الخالدة، احتفاء بالثعالبي، وتوديعاً له في طريق العودة إلى تونس، وتقيم المآدب، وتعلى المنابر، وتفيض في الإشادة والتنويه بمآثر الزعيم العائد حتى سمي الأسبوع الثالث من شهر يونيو (جوان) من سنة 1937[3] بـ (أسبوع الثعالبي). يومها قام (أمين سعيد)[4] رئيس تحرير (الرابطة) في أول حفل يتصدر سلسلة من الحفلات، تقيمه مجلة (الرابطة العربية) وفي دارها يوم (17 يونيو 1937)، يخاطب (الثعالبي) قائلاً:

---

(3) ابتدأت هذه الحفلات والمآدب بحفلة (الرابطة العربية)، 17 يونيو 1937 واستمرت حتى (26) منه يوم سفره إلى الإسكندرية، ومغادرتها يوم (30) على ظهر الباخرة (محمد علي الكبير).

(4) (أمين سعيد): (1892 ـ 1967) من سوريا ولد باللاذقية، وكان والده صحفياً أنشأ جريدة (اللاذقية) سنة 1908، عاش في مصر، وأنشأ فيها مجلة (الرابطة العربية)، ثم عاد إلى وطنه في أوائل الحرب العالمية الثانية، حيث أنشأ فيها جريدة (الكفاح) سنة 1939 واستمرت حتى 1954 صدر له العديد من المؤلفات في تاريخ العروبة والدول العربية والثورات العربية، والشخصيات العربية، نشر في الثلاثينات في (المقتطف) والهلال. وجلّ مؤلفاته صدرت عن مطبعة (عيسى البابي الحلبي) بالقاهرة. أنظر ثبتا ببعض آثاره في (ببليوغرافيا الوحدة العربية 1908 ـ 1980 ص 465) مركز دراسات الوحدة العربية 1983. وانظر (الموسوعة الصحفية العربية) الجزء (1) سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن، حسين العودات. ياسين الشكر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (1991) تونس.

«فسافر، يا سيدي، على بركة الله وتوفيقه، وإنّي لأرجو الله أن يمد في عمرك المبارك السعيد فنحتفل بك في مصر - وفي دار مجلة (الرابطة العربية) التي هي نفحة من نفحاتك، فقد شجعتني على إصدارها، وكفلتها، وكنت لها نعم العون، ونعم النصير - بيوبيلك الماسي،[5] أي بانقضاء خمسين سنة على نزولك إلى حلبة الجهاد المقدس، وتكون مصر والبلاد العربية قد فرغت من عملها السياسي، وأتمّت إنشاء الإمبراطورية العربية التي لا تزال تسعى من (40) سنة لإنشائها. وتجاهد لأجل تكوينها، فتقرّ عينك برؤية صرحها قائماً على ضفاف النيل المبارك»[6].

ذلك مظهر متميّز من مظاهر الزعامة عند (الثعالبي)، ليست تنظيراً فحسب، ولكنها إنجاز. ليست تبشيراً فقط، ولكنها بشائر: مراوحة وفيّة بين القول والفعل، جهود دائبة على تجسيم الفكرة المجردة، في الواقع النابض بالحيوية والإشعاع، ليس غريباً أن يصدر (الثعالبي) (سبيل الرشاد) في تونس في أواخر القرن الماضي، قبل مائة سنة، بالرغم مما في هذه الخطوة من ريادة بالنسبة لتاريخ الصحافة الوطنية في المغرب العربي، فتونس مبعث أمجاده، ومنطلق مآثره، وموطن مفاخره، ومدرج خطواته الأولى في الكفاح، ولكن الجدير بالإعجاب، أن تكون مجلة (الرابطة العربية) في القاهرة في أواسط الثلاثينات من وحي (الثعالبي). وهي مجلة ليست عادية في غمرة المجلات التي تزدهر بها القاهرة في هذه الفترة الحاسمة من عمر الصحوة العربية، ولكنها مجلة رسالة قومية، وداعية وحدة عربية، هي التي طرحت فكرة: (الإمبراطورية العربية التي نبشر بها) من أعدادها الأولى، واستفتت في الفكرة ما لا يقل عن خمسة عشر كاتباً عربياً، كان الثعالبي في

---

(5) لعل صاحب (الرابطة) يؤرخ لكفاح الثعالبي من الوجهة الصحافية، فإذا علمنا أن جريدة (سبيل الرشاد) أصدرها الثعالبي في تونس سنة 1895 فإن اليوبيل الماسي لهذا الكفاح يكون في سنة 1945 ولكن الأجل عاجل (الثعالبي) قبل هذا الموعد بسنة، أو يؤرخ بأول رحلة له إلى المشرق سنة 1897.

(6) انظر تفاصيل هذه الحفلات في ثنايا الكتاب.

صدارة أسمائهم[7] وهي المجلة التي نشرت للمرة الأولى خارطة الوطن العربي المعتمدة حتى اليوم في مؤسسات العمل العمل العربي المشترك وفي شعار جامعة الدول العربية، وقد إلتزمت (الرابطة العربية) بنشر هذه الخارطة على غلافها. ومن بين الأسماء القومية التي إحتضنتها (الرابطة) عبد الرحمان عزام الذي كان أول أمين عام لجامعة الدول العربية[8].

* * *

ومجلة (الرابطة العربية) إحتلت مكانة متميزة بين أبناء المغرب العربي، فقد إمتد نفسها في ظل العروبة التي تحدوها، إلى أقطار شمال أفريقيا، في غمرة من الإحساس بالغبن بين أبناء هذه المنطقة، من أن صحافة المشرق لا توليهم، ما تفرضه الإخوة في الدين واللغة. من العناية والمؤازرة في محنتهم القومية مع المستعمر الأجنبي، وبالأخصّ الصحافة المصرية. فقبل صدور (الرابطة) بسنة كتب (علي كاهية)[9] من تونس إلى (محمد لطفي جمعة)

---

(7) من بين الأسماء التي شاركت في هذا الإستفتاء من أبناء المغرب العربي، بجانب (الثعالبي) المؤرخ الجزائري (مبارك الميلي)، بعث ردّه من الجزائر، ونشر في العدد (21 من المجلة وقد نشرت الردود ابتداء من العدد (8) يوليو/ تموز 1936 حتى العدد (25) نوفمبر 1936. أما بقية الأسماء فهي حسب تتابع نشر ردودها كما يلي: عبد العزيز الثعالبي، محمد علي علوبة باشا، علي عبد الرزاق، أحمد خشبة، أحمد حسين، زكي مبارك، عبد الرزاق السنهوري، فريد عز الدين، عبد الرحمان شهبندر، سليم علي سلام، عبد الحميد العبادي، نجيب الإمتازي، مبارك الميلي، حسن صدقي الدجاني، الياس قنصل.

(8) عبد الرحمان عزام: تولى منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية من يوم تأسيسها في 19 مارس 1945 نشر عن العرب والعروبة والوحدة العربية في أشهر المجلات الشرقية في الثلاثينات والأربعينات، من مقالاته: (العرب أمة المستقبل) العدد (308) السنة السابعة 1351 هـ مجلة (الفتح). (الإمبراطورية العربية، وهل آن أن تتحقق؟ مجلة (الهلال) المجلد (42) 1934 (الوحدة العربية) (الهلال).

(9) علي بن مختار كاهية (1877 ـ 1956) درس في الزيتونة، من مؤسسي الحزب الحر الدستوري، وفي منزله بتاريخ 14 مارس 1920 صيغت المطالب الثمانية للحزب، =

المحامي، بتاريخ 19 محرم 23/1354 ماي 1935، يقول: «تكرّمتم، أن أعملتمونا بعبارات متواضعة، لا تصدر إلا من رجل عظيم مثلكم نصها بحروفها: «إننا مستعدّون لخدمتكم في كل ما تأمرون به» وكم صادف هذا الإعلام منّا محلاً، وحلّ في قلوبنا مكانة، حيث أنّنا منذ زمن طويل، ونحن نضرب أخماساً في أسداس، سائلين أنفسنا، ما بال إخواننا المصريّين، وبالأخص منهم الطبقة التي تشتغل بمسائل الجامعة الإسلامية والعربية، لا ينزلون تونس المنزلة التي ينبغي أن تحتلّها من ذلك الميدان، حيث نراهم في نشراتهم، يعبرون عن العراق أو عن سوريا وفلسطين بالأخت، والأخت الشقيقة، ويهتمون بشؤونها إهتمامهم بشؤون مصر، بينما نراهم يهملون التعرّض للحركة التونسية. وحوادثها مع الحكومة الغاصبة، ويعبرون عن تونس إن جاء ذكرها عرضاً في سياق الأخبار العمومية، بعبارات جافة، لا رائحة للعطف فيها، حاشا، القليل من الجرائد الدينية والمليّة مثل جريدة (الفتح) و (الشورى)، و (كوكب الشرق) و (البلاغ) في عهدهم الأخير. وكذا البعض من المجلات المصورة مثل (اللطائف)»[10].

= وأهمها المطالبة بالدستور وبرلمان نيابي. وحكومة مسؤولة أمامه. كان صديقاً ملازماً للثعالبي. استقبله في منزله بنهج الباشا رقم (36) يوم خروجه من السجن في ماي 1921. وأقام الثعالبي في منزل كاهية ثلاثة أيام، يستقبل الوفود المهنئة، ظل على وفائه للثعالبي حتى وفاته. في سنة 1920 صدرت مجلة (الفجر) الدستورية بإمتيازه، ساهم في تحرير (الإتحاد) و (الفجر) و (النديم) و (الإرادة) و (النهضة) و (العالم). أنظر: (أضواء على الصحافة التونسية). عمر بن قفيصة (حياة كفاح) أحمد توفيق المدني. (أعلام الإعلام) محمد حمدان.

(10) من وثيقة عن (محمد لطفي جمعة والثعالبي) أمدني بها مشكوراً الدكتور محمد صالح الجابري، وتتضمن الوثيقة صوراً خطية لبعض الرسائل المتبادلة بين جمعة والثعالبي، خاصة بعد عودة الأخير إلى تونس سنة 1937، والأحداث المؤسفة التي تلت هذه العودة. والوثيقة من إعداد (رابح لطفي جمعة) وبتاريخ 1985، القاهرة، تقع الوثيقة في (71) صفحة، غير صور الرسائل الخطية التي تقع في (19) صفحة، ومن العجيب أن الوثيقة تضمّ فقرات منقولة نقلاً حرفياً من كتاب الدكتور الجابري (الشعر التونسي المعاصر) دون أية إشارة إلى مصدرها.

إستبشر الأدباء والكتاب من أبناء المغرب العربي بصدور (الرابطة) وتوالت عليها رسائل التهنئة، وتيمنت الأوساط الفكرية باسمها، بعثاً جديداً للإخوة القومية، بعد أن باعدت بينها عوامل التجزئة الإستعمارية. فكتب (أحمد رضا حوحو)[11] من المدينة المنورة إلى (أمين سعيد) يقول:

«كنا نتألم من تفرق كلمة العرب، وكم كنا نؤمل إتحادهم. والآن، والحمد لله قد زال الألم، وحقق الأمل، وذلك بظهور (الرابطة العربية) التي ستربط - إن شاء الله - جميع العرب بعضها ببعض. فأهلاً وسهلاً بالرابطة العربية، ومرحى مرحى أيها الأستاذ الجليل، لقد خدمت العرب والإسلام، بتآليفك الكثيرة، ومقالاتك المفيدة، وها أنت اليوم تنشىء لهم رابطة تربطهم، ومجلة تبحث عن طرق سعادتهم وتسعى في تقدمهم وجمع كلمتهم»[12].

أما الكاتب الشاعر (محمد السعيد الزهري)[13] عضو إدارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورئيس كتلة الجمعيات الإسلامية بعمالة وهران، فقد كتب إلى صاحب (الرابطة) من الجزائر يقول:

---

(11) (أحمد رضا حوحو 1911 - 1956): شهيد الثورة الجزائرية، رائد القصة والمسرحية في الحجاز والجزائر، وكاتب المقالات النقدية والإجتماعية، ومؤسس الفرق الفنية والمسرحية، والكاتب العام لمعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، عاش في الحجاز من سنة 1934 - 1945 وفي مجلة (المنهل) نشر أولي قصصه ومسرحياته في الثلاثينات، للتوسع أنظر: (شهيد الثورة الجزائرية أحمد رضا حوحو) في الحجاز 1934 - 1945 صالح الخرفي، دار الغرب الإسلامي 1992.

(12) نشرت رسالة (حوحو) في العدد (23) من (الرابطة) أكتوبر 1936.

(13) (محمد السعيد الزاهري 1899 - 1956) الكاتب والشاعر والصحافي وأحد أقطاب الحركة الإصلاحية في الجزائر، درس في جامع الزيتونة نشر في مجلات الشرق في العشرينات والثلاثينات. من بينها (الفتح) و (المقتطف) و (الرسالة) انظر: (محمد السعيد الزاهري) سلسلة (الأدب الجزائري الحديث د. صالح الخرفي. الجزائر 1986).

«قرأت كثيراً من مقالاتكم النفيسة التي تنقلها صحف هذه البلاد، وأعجبت بكم وبما تكتبون في سبيل العروبة. واطلعت على جانب من كتبكم القيّمة فراقتني، وعزمت أن أقتني مجموعة كاملة منها، عسى أن ينتفع أبناء هذا الوطن بما تكتبون، وعسى أن ينبعث في نفوسهم الإعتزاز بالقومية العربية.

وقرأت اليوم في بعض الصحف أنكم أصدرتكم مجلة أسبوعية بإسم (الرابطة العربية) فكتبت إليكم هذا الكتاب، راجياً منكم أن تتفضلوا بإرسالها إلينا من أول عدد إلى الآن»[14].

ودأبت (الرابطة) من السنة الأولى لصدورها، على تتبّع الأحداث البارزة في أقطار المغرب العربي، فنشرت عن (المؤتمر الإسلامي) في الجزائر سنة 1936 وعن محنة (حزب الشعب) الجزائري، والزج بزعمائه في السجن في نفس الفترة، وعن الحركة الوطنية في المغرب، بل إن أحمد توفيق المدني، تطوّع ابتداء من العدد (28) من المجلة بمراسلة نصف شهرية تنشرها تحت عنوان (أخبار الشمال الإفريقي) وبإمضاء (المتصور) وقد قدمت أول مراسلة له بهذه الفقرة:

«تفضل أحد كرام الوطنيين العاملين في الشمال الإفريقي، فتطوع بكتابة مقالة في كل أسبوعين للرابطة العربية، يصف بها حالة الشمال الإفريقي، وهذه أولى مقالاته النفيسة، فننشرها شاكرين»[15].

---

(14) نشرت رسالة (الزاهري) في العدد (20) من (الرابطة) اكتوبر 1936.

(15) (أحمد توفيق المدني 1899 ـ 1983) المؤرخ، والكاتب السياسي. أحد أقطاب الحركة الوطنية في المغرب العربي. وأحد المؤسسين لحزب الدستور، وبسببه نفته السلطات الفرنسية من تونس إلى الجزائر، وفيها نشط ضمن (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ونشر في صحافتها (الشهاب والبصائر) نشر في أول عهده بإمضاء (المنصور) وبه صدرت له (تقاويم المنصور) وكان يحرر بدون إمضاء (في الشمال الإفريقي) و (الشهر السياسي في الشرق والغرب) في مجلة (الشهاب) =

وفي مستهل السنة الثانية من عمر المجلة: سنّت بادرة كان لها أطيب الأثر على أبناء العروبة مشرقاً ومغرباً، وذلك بنشر تقويم سنوي، لأهمّ الأحداث في السنة المنصرمة تحت عنوان (ما ربحته القضية العربية في خلال السنة الأولى لظهور مجلة الرابطة العربية. إحصاء، وشكر، وعهد).

وتناول هذا الإحصاء في الفقرة (5) عقد المؤتمر الإسلامي في الجزائر[16] وعالجت الفقرة (6) اضطهاد زعماء الحركة الوطنية في المغرب. أما الفقرة (7) فقد جاءت بهذه الصيغة:

«عاد زعماء الحركة العربية المشردون إلى أوطانهم، فاستقبلت سوريا

= وبإمضاء (أبو محمد) في جريدة (البصائر) في الأربعينات، (منبر السياسة العالمية) شغل مناصب وزارية ودبلوماسية أثناء الثورة التحريرية، وبعد الإستقلال، صدرت له عدّة مؤلفات في تاريخ الجزائر وتاريخ الحركة الوطنية في المغرب العربي (أولها: (تاريخ الجزائر) سنة (1931) وآخرها (حياة كفاح) في ثلاثة أجزاء، الجزائر 1976.

(16) عقد المؤتمر الإسلامي يوم 7يونيو/حزيران1936 بقاعة (الماجستيك: أطلس اليوم) بحي (باب الواد) بالجزائر العاصمة، وانبثق عن المؤتمر، وفد حمل مطالب الشعب الجزائري إلى حكومة (الجبهة الشعبية) في باريس، وكانت حديثة العهد باستلام السلطة.

وتألّف الوفد بالصيغة الآتية:

من نواب قسنطينة:

الدكتور بن جلول، الصيدلي فرحات عبّاس، الأستاذ طاهرات.

من نواب الجزائر:

الدكتور عبد الوهاب، الصيدلي عبد الرحمان بوكردنة، عمارة فرشوخ.

من نواب وهران:

المحامي عبد السلام بن الطالب، المحامي محمد القلعي، بنعودة باش تارزي.

عن المناطق العسكرية:

الدكتور سعدان.

ومن العلماء:

الشيخ عبد الحميد بن باديس، الشيخ البشير الإبراهيمي، الشيخ الطيب العقبي.

في الأسبوع الماضي زعيمها الأكبر الدكتور (عبد الرحمان شهبندر) [17] وإخوانه الأبرار، وقائد ثورتها البطل المغوار (سلطان باشا الأطرش)[18]

وعن الشبان العاملين:

الأستاذ طاهرات العربي، الأستاذ بن حاج، المهندس عبد الرحمان بوشامة.

أنظر (الرابطة) سنة 1936، و (الشهاب) ج (4) م (12) جوليت 1936.

وقد تتابعت على صفحات مجلة (الرابطة العربية) الفقرات التي تعالج وقائع المؤتمر ونتائجه، واستهلتها بما يلي:

«يسر (الرابطة العربية) أن تكون أول جريدة في الشرق العربي، تنشر أخبار المؤتمر الإسلامي الذي عقد في مدينة الجزائر يوم الأحد 7 يونيو الجاري، للبحث في شؤون مسلميها، مع نشر رسوم المؤتمر وقراراته، فقد تلقتها يوم الأربعاء 17 منه، أي يوم صدور عددها الماضي، من أحد مؤازريها في الجزائر، فحال ضيق الوقت دون نشرها وها هي تذيعها اليوم».

(17) (عبد الرحمان شهبندر دمشق 1879 ـ 1940) من رموز الحركة الوطنية في سوريا ورائد من رواد النهضة العربية الحديثة، وداعية من دعاة العروبة، عاش فترة من حياته في مصر، معاصراً للثعالبي فيها، يعمل للقضية العربية بالتعاون مع اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، شارك في الثورة السورية في جبل الدروز، والغوطة سنة 1925. ونجا من مشانق (جمال باشا) سنة 1916، تخرّج من الجامعة الأمريكية في الطب وعمل أستاذاً بها، وفي مستهل القرن، كان عضواً عاملاً في (الحلقة الإصلاحية) التي كان على رأسها المرحوم (الشيخ طاهر الجزائري)، كاتب بليغ، وخطيب مؤثر، للتوسع انظر (عبد الرحمان الشهبندر) حياته وجهاده، حسن الحكيم، الدار المتحدة للنشر، لبنان 1985.

(18) (سلطان باشا الأطرش) بطل الثورة السورية في وجه الإحتلال الفرنسي والتي تزعمها في جبل الدروز سنة 1925، والتي تغنّى بها شوقي في قصيدته التي مطلعها:

سـلام مـن صبـا (بـردى) أرق   ودمـع لا يكفكـف يـا (دمشـق)

ثم يضيف:

دم الثـوار، تعـرفـة (فـرنسـا)   وتعلـم أنـه، نـور، وحـقّ

وللحـريـة الحمـراء، بـاب   بكـل يـد مضـرّجـة، يـدق

ومـا كـان (الـدروز) قبيـل شـر   وإن أخـذوا، بمـا لـم يستحقّـوا

ولكـن، ذادة، وقـراة ضيـف   كينبـوع الصفـا، خشنـوا ورقـوا

وصحبه الأخيار، وتستعد تونس لإستقبال بطل نهضتها، ورمز أمانيها السيد عبد العزيز الثعالبي. ولا يزال خارج بلاده من (14) سنة. ولا ريب أنّ عودة هؤلاء المجاهدين الأبرار، والقادة العظام إلى بلادهم. واشتراكهم في إدارتها وتوجيهها نحو المثل الأعلى مؤذن بتقدّمها ونجاحها».

وتطوّع من جانبه المؤرخ الجزائري (مبارك الميلي) باستكمال الصورة القومية لإحصاء الرابطة العربية السنوي، بتزويد المجلة بأخبار الجزائر، قائلاً:

«حضرة الأستاذ، رأيتكم اعتنيتم بتصفية حساب العرب مع السنة الراحلة فلم تنسوا عرب الجزائر، فازددت يقيناً بأن (الرابطة العربية) تجدّ في تطبيق معناها بكل دقّة، وأردت أن أعينكم على هذا الإغناء بكلمة عن الجزائر في فاتحة السنة الحاضرة».

وهكذا، حفلت صفحات مجلة (الرابطة العربية) بنفحات من المغرب العربي، وتصدّرتها أسماء، مبدعة أو مراسلة، أو محاورة في قضايا الوطن العربي، وكانت مجلة (الفتح) للمرحوم (محب الدين الخطيب)[19] في

---

(19) (محب الدين الخطيب: دمشق 1886 ـ القاهرة 1969).

علم من أعلام النهضة العربية الحديثة، والصحوة الإسلامية في أوائل القرن: عمل مع (الشريف حسين بن علي) في مكة بعد قيام الثورة العربية) وتولّى رئاسة تحرير جريدة (القبلة) ثم التحق بالحكومة العربية في دمشق أثناء حكم الملك فيصل سنة 1919، وأقام مدة في اليمن، ثم إستقر به المقام في القاهرة حيث أصدر مجلة (الفتح) سنة 1928، وأسس المطبعة السلفية ومكتبتها، وأصدر (الزهراء) وسلسلة كتيّب (الحديقة)، وكان من مؤسسي (جمعية الشبان المسلمين)، ومن المؤسسين الأوائل للجمعيات العربية المناهضة للإستبداد التركي ومنها (جمعية النهضة العربية) يوم كان طالباً في الأستانة سنة 1906. وكان أحد أعضاء حلقة (الشيخ طاهر الجزائري) ويعتبره والده الروحي. ويقول: عن الشيخ طاهر عرفت عروبتي وإسلامي، والشيخ طاهر من منطقة القبائل هاجر إلى الشام بعد احتلال الفرنسيين للجزائر.

ويعترف (الخطيب) بالفضل في جهاده الإسلامي، وكفاحه الصحافي، وتوجهه =

العشرينات سباقة في هذا التوجّه نحو المغرب العربي وقضاياه، والتفتح على معاناة هذه المنطقة في مواجهة المحتل ومدافعة أذنابه، ومؤازرة الصحوة الإسلامية والحركات الإصلاحية في أقطار الشمال الإفريقي.

وكان البعد الإسلامي لمجلة (الخطيب) هو الذي يشدها إلى هذه الربوع، فتعاطفت معها الحركات السلفية، ونقلت عنها. وساهم رجالها في تحرير صفحاتها، وصياغة افتتاحيات بعض أعدادها. فطالعت (الفتح) قرّاءها في المشرق والمغرب بأسماء مثل (اطفيش)[20] و (الزاهري)

= العربي الإسلامي، لرجال من المغرب العربي في طليعتهم الشيخ طاهر، وسليمان الباروني، والخضر بن الحسين وتقيّ الدين الهلالي، وإبراهيم اطفيش (أبو إسحاق).

استقبلني دون سابق موعد ولأول مرة في منزله بالروضة سنة 1968، فسلمني نسخة من مذكراته بخط يده قائلاً، خذ ما تشاء من هذه المذكرات وانشر منها ما تشاء، ولا تعجب فإنكم تفهمونني هناك، أكثر مما يفهمونني هنا، وخذ ما تشاء من الوثائق النادرة والصور التاريخية، ولا أسألك موعداً للردّ، فكأنني أعرفك منذ زمن بعيد» وتوفي رحمه الله ومذكراته معي في الجزائر وقد نشرتها بمجلة (الثقافة) يوم كنت رئيس تحريرها، من العدد (6) 1972 إلى العدد (18) 1973 في عشر حلقات.

(20) أبو إسحاق إبراهيم أطفيش (بني يسجن الجزائر 1886 ـ القاهرة 1965 م) ابن أخ قطب الأئمة، من رجال العلم، والتفقّه في الدين ومن رواد الحركة الوطنية والنضال السياسي في المغرب العربي في فجر شبابه، ومن رواد النهضة الإسلامية، والجمعيات الإصلاحية، والصحافة، والتحقيق، والتأليف في المشرق العربي بعد نفيه من طرف السلطات الإستعمارية الفرنسية من تونس إلى القاهرة.

أشرف على البعثة العلمية الميزابية في تونس سنة 1917 م وشارك في تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي بزعامة عبد العزيز الثعالبي، وكان أصغر عضو في لجنته المركزية، ومن أنشط أعضائه، مواقف وطنية، ومحافل سياسية، وجولات خطابية وإعلامية، ومظاهرات تاريخية في مسيرة الحركة الوطنية في تونس.

وبسبب هذا النشاط السياسي حكمت عليه السلطات الفرنسية بالنفي إلى القاهرة سنة 1923 وقطعت عليه الطريق دون البقاء في تونس أو الرجوع إلى موطنه الأصلي =

و(الإبراهيمي)[21] ....

= الجزائر لما كان يتمتع به (أبو إسحاق) من مكانة رائدة في بني قومه، ولما كان له من تأثير بالغ في مواطنيه.

وفي القاهرة سرعان ما التف رجال العلم والأدب والصحافة والسلطة والسياسة حول (أبو إسحاق) فكان الحاضر في كل مشروع خيري أو موقف وطني حتى قال عنه (محب الدين الخطيب) صاحب مجلة (الفتح) وقد عدّه من أصحاب الفضل عليه مع الشيخ طاهر الجزائري وسليمان الباروني وتقي الدين الهلالي وغيرهم:

«هبط صديقنا الأستاذ العلامة الشيخ إبراهيم أطفيش وادي النيل مهاجراً إليه من وطنه الجزائر من قبل أن يولد (الفتح) واكتسبنا صداقته من السنة الأولى التي اتّخذ فيه الوطن المصري وطناً ثانياً له. فكنا نحن وجميع أفاضل المصريّين نعجب بصدقه وصلابة دينه، واستعداده للمشاركة في كل خير، فما قامت لخير الإسلام جماعة من ذلك الحين ولا أرسل المنادون إلى الفلاح صوتهم في أمر، إلا كان الأستاذ أبو إسحاق الشيخ إبراهيم أطفيش في مقدمة المعينين على ذلك، ومقالاته المتعددة في هذه الصحيفة (الفتح) وفي أختها (الزهراء) دليل على حسن بلائه في سبيل وحدة المسلمين جزاه الله خيراً».

(21) الإبراهيمي محمد البشير 1889 ـ 1965 علم من أعلام النهضة الإصلاحية في الجزائر وخطيبها وكاتبها، وثاني أثنين من روّادها، بعد مؤسسها (ابن باديس). رحل إلى الشرق سنة 1912، وأقام فترة في القاهرة، وحضر بعض الدروس في الأزهر، والتقى أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، ثم استقر في المدينة المنورة مع أسرته التي سبقته إلى الحجاز، وتابع دراسته في الحرم النبوي. وفي سنة 1917 كانت أسرة الإبراهيمي من بين المرحّلين من طرف الأتراك إلى دمشق بعد استفحال ثورة الشريف حسين. قام بالتدريس في الجامع الأموي، وفي (مكتب عنبر) بدمشق، عاد إلى الجزائر سنة 1920 ليبدأ حركته ازصلاحية مع (ابن باديس) و (الطيب العقبى) والثلاثة جمعهم اللقاء في المدينة المنورة سنة 1912، وتأسيس (جمعية العلماء) سنة 1931.

نشط الإبراهيمي في الحركة الإصلاحية، مربّياً ومعلماً في مدارسها، وواعظاً وخطيباً في محافلها، وكاتباً مرموقاً في صحافتها، وبسبب نشاطه المعادي لفرنسا نفته السلطات الإستعمارية إلى الصحراء سنة 1940 سنة وفاة (ابن باديس) رئيس =

و(بوكوشة)[22] و(ابن باديس)[23] و(المدني) من الجزائر، . . . .

جمعية العلماء، وانتخب (الإبراهيمي) خلفاً له وهو في المنفى، وبعد إطلاق سراحه بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية أعاد للجمعية نشاطها وأصدر (البصائر) في سلسلتها الثانية وكان رئيس تحريرها، ويحرر افتتاحياتها. في سنة 1952 سافر إلى الشرق مشرفاً على البعثات العلمية الجزائرية في الجامعات العربية، وافتتح مكتباً لجمعية العلماء في القاهرة، وكان لسان الجزائر في المحافل الفكرية والأدبية، وأصبح مسكنه في مصر الجديدة ملتقى العلماء والأدباء، والمناضلين والمسؤولين الجزائريين أثناء الثورة التحريرية، وفي سنة 1961 أنتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. وعاد إلى الجزائر غداة استقلالها. وكان أول خطيب في أول صلاة جمعة تقام في جامع (كتشاوة) الذي سبق للفرنسيين أن حوّلوه إلى (كاتدرائية) غداة احتلال الجزائر سنة 1832.

أثار الإبراهيمي في الصحف والمجلات في المشرق والمغرب، عديدة، ومتنوعة، صدر له في حياته (عيون البصائر) وهي افتتاحياته لهذه الجريدة، دار المعارف، القاهرة 1962، ثم صدرت له بعد وفاته (آثار الإبراهيمي) في أجزاء عدة.

يتميّز (الإبراهيمي) بأنه رجل العروبة وازسلام في الجزائر الحديثة.

(22) (حمزة بوكوشة) (1907 ـ)

من أركان النهضة الإصلاحية في الجزائر، وأحد رموز (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ومن رجال التربية التعليم في مدارسها الحرة، تخرّج من (جامع الزيتونة)، كاتب وشاعر، نشر في الصحافة التونسية في العشرينات والثلاثينات وخاصة جريدة (الوزير) التي كان يراسلها بإنتاجه الشعري والنثري، وبأخبار الجزائر ونشر في صحافة جمعية العلماء في الجزائر وخاصة (الشهاب) و (البصائر) بعد الإستقلال أكمل دراسته في الحقوق، وشغل مناصب مرموقة في القضاء، منها (عضو المجلس الأعلى للقضاء).

(23) عبد الحميد بن باديس (قسنطينة 1889 ـ 1940 م).

زعيم الحركة الإصلاحية في الجزائر، ومؤسس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) سنة 1931 ورئيسها حتى وفاته، درس بجامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية بالعاصمة التونسية، وكانت (الخلدونية) بؤرة الأفكار الوطنية والإتجاهات التحررية، وخاصة محاضرات (البشير صفر)الذي يتميّز بروحه الوطنية والذي يعتبر من بناة تونس الحديثة، وقد قال عنه (ابن باديس):

و (الحضـر حسيـن)[24] و (الثعـالبـي) . . . .

«وأنا شخصياً أصرّح بأنّ كراريس (البشير صفر) الصغيرة الحجم، الغزيرة العلم، هي التي لها الفضل في إطّلاعي على تاريخ أمتي وقومي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر».

سافر (ابن باديس) إلى الحجاز وفيها التقى بزعيمين من زعماء الحركة الإصلاحية (الإبراهيمي) و (العقبي) وكان هذه اللقاء قبل الحرب العالمية الأولى، وفيه تمّ الإتّفاق بين الثلاثة على العودة إلى الجزائر وتأسيس حركة إصلاحية هناك، وكان ابن باديس أول العائدين أثناء الحرب، ثم لحقه الإبراهيمي، والتحق بهما العقبي سنة 1920 م.

ولـ (ابـن باديـس) فـي الإصـلاح ـ اليـد العليـا، والمبـادرة السبـاقـة، والعطـاء الموصول، مربياً، ومعلماً، ومحاضراً، وخطيباً، وكاتباً، وهو من روّاد الصحافة الوطنية الجزائرية إلى جانب (أبي اليقظان) و (عمر بن قدّور) و (عمر راسم) و (العقبي) و (الزاهري) و (الأمير خالد).

وتعتبر (الشهاب) التي أنشأها (ابن باديس) في أواسط العشرينات واستمرت حتى وفاته إلى جانب (البصائر) في سلسلتها الأولى مرجع الحركة الإصلاحية ونهضتها الفكرية والأدبية في حياة (ابن باديس).

(24) (حسين محمد الخضر: 1873 ـ 1958).

من أصل جزائري من بلدة (طولقة) ولد بـ (نفطة) بالجنوب التونسي، من أبرز خرّيجي (جامع الزيتونة) سنة 1898، ورائد من روّاد النهضة الإسلامية العربية الحديثة أثناء وجوده في تونس، وبعد رحلته إلى الشرق، رحل إلى الجزائر مرّتين في أول القرن وأصدر مجلة (السعادة العظمى) سنة 1904، ودرّس بالزيتونة والصادقية والخلدونية، ونادى بإصلاح التعليم الزيتوني سنة 1906، رحل إلى المشرق سنة 1912 وأقام فترة في القاهرة، ثم بارحها إلى دمشق عن طريق فلسطين. وفي دمشق التقى بأسرته التي سبقته إلى الشام، ثم إنتقل إلى الأستانة حيث استقرّ خاله العلامة محمد المكي بن عزوز، وعاد إلى تونس في نهاية نفس السنة 1912 ليستعد للهجرة نهائياً إلى المشرق والتحاقه بأسرته، وفي دمشق درّس بـ (المدرسة السلطانية) ودخل السجن في عهد (جمال باشا) سنة 1916 وبعد تبرئته التحق بالأستانة للعمل في وزارة الحربية التركية مع مواطنه التونسي (علي باش حانبة)، وأوفدته السلطات التركية إلى برلين في مهمة وطنية لإثارة المتاعب في شمال أفريقيا ضد فرنسا، ونسق =

و (القليبـــي)[25] مـــن تـــونـــس، . . . .

جهوده في برلين مع المناضل محمد باش حانبة في سبيل تحرير المغرب العربي.

عاد إلى دمشق بعد قيام الحكومة العربية بقيادة الملك فيصل، وفي سنة 1919 كان من الأعضاء الأوائل في (المجمع العلمي العربي) عند تأسيسه.

وفي سنة 1920 انتقل محمد الخضر حسين للإستقرار نهائياً في القاهرة، في سنة 1924 كان من المبادرين لتأسيس «جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية» وفي سنة 1925 ثارت قضية (الخلافة الإسلامية) بعد إلغائها من (مصطفى كمال باشا) سنة 1924 فألف الشيخ (الخضر) كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) ردّاً على كتاب الشيخ علي عبد الرازق.

وألف سنة 1927 كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) رداً على كتاب (طه حسين). وفي سنة 1928 كان من الداعين لتأسيس (جمعية الهداية الإسلامية) وإصدار مجلة (الهداية الإسلامية) وفي نفس السنة تم ترسيمه للتدريس بالجامع الأزهر ورئاسة تحرير مجلته (نور ازسلام)، وفي سنة 1933 كان اسم الشيخ (الخضر) ضمن أول قائمة الأعضاء العاملين في (مجمع اللغة العربية الملكي) الذي تأسس سنة 1932.

وفي الثلاثينات والأربعينات تعدّدت أوجه النشاط للشيخ (الخضر) شاعراً وكاتباً، ومحاضراً ومؤلّفاً، صدر له ديوان (خواطر الحياة) سنة 1946، وتوالى عطاؤه العلمي والأدبي في المجلاّت ذات التوجه العربي الإسلامي مثل (الفتح). وفي سنة 1950 تم تعيينه بين أعضاء (هيئة كبار العلماء) في مصر، وبعد قيام الثورة سنة 1952 وقع عليه الإختيار شيخاً للأزهر، واستقال من المشيخة سنة 1954 لاعتلال صحّته ورغبته في التفرّغ للحياة العلمية.

كان الشيخ العلامة (محمد الخضر حسين) رحمه الله من وجوه المغرب العربي البارزة في المشرق العربي في النصف الأول من القرن العشرين.

للتوسّع، انظر (محمد الخضر حسين) محمد مواعدة. الدار التونسية للنشر 1974.

(25) القليبي محمد محي الدين) تونس 1899 دمشق 1954).

من رموز الحركة الوطنية والنضال السياسي والقلمي في المغرب العربي، ومن أبناء المغرب العربي الذين حملوا همومه وقضاياه إلى الشرق كتابة في الصحافة. وحضوراً في المحافل، وإسهاماً في حركات التحرر العربي مغرباً ومشرقاً.

= خلف (الثعالبي) بعد رحيله إلى الشرق سنة 1923 في إدارة الحزب الحر الدستوري وجابه مكر المقيم العام (لوسيان سان) بصدق إيمانه بالقضية التونسية، وراسخ ثباته على المبادىء الدستورية، وأشهر قلمه الفذّ في وجه (دعاة الهزيمة) وفي قضايا ساخنة تصدّى لها الحزب الدستوري مثل (المؤتمر الإفخارستي) وإقامة تمثال الكاردينال لافيجري) في مدخل نهج (جامع الزيتونة) وقضية (التجنيد) وإبعاد رجال الدستور إلى الجنوب سنة 1934 حتى ألحق بهم.

ساهم في سبيل استقلال ليبيا، وأقام في القاهرة، وناضل في صفوف (الإخوان المسلمين) و (الشبان المسلمين) ونشر في الصحافة القاهرية.

وشارك في (المؤتمر الإسلامي) في القدس. وناضل من أجل فلسطين في الأردن، ثم إنتهى به المطاف في (دمشق) وقد اعتلّت صحته، ونالت الأيام من جسمه ولم تنل من عزيمته وصدق مبادئه، ووافاه الأجل في نوفمبر 1954.

وفي جهاده الصحافي، ترأس تحرير (الإتحاد) و (المبشر) و (الأمة) و (الزهرة) ونشر في (الفتح) القاهرية ومن المرجح أنّ الفصول التي نشرت في هذه المجلة عن (المؤتمر الإفخاريستي) و (التجنيد) والتي أصدرها (محب الدين الخطيب) في كتيبات مستقلة سنة (1349) هـ و (1352) من المرجح أن تكون من تحرير (القليبي).

يمتاز أسلوب (القليبي) بطول النفس، ووضوح الفكرة، والقول الفصل في القضايا الشائكة، وأغلب مقالاته نشرت افتتاحيات للجرائد التي ارتبطت به. وفي المواقف الحاسمة كان يمضي بـ (عصام).

رحل إلى الجزائر في الثلاثينات وكتب عن رحلته في جريدة (الزهرة).

رثاه الشاعر الجزائري، الداعية المصلح (أحمد سحنون) في جريدة (البصائر):

أيّ وجه، أطفأ الموت سناه!	أي طود، عاصف الدهر طواه!
مات (محي الدين) ما أشأمه	ناعياً، جدّد للقلب أساه
مات لكن لم يمت، من عمره	كله، في طاعة الله قضاه
عاف دنياه، فلم يستهوه	كل ما فيها، ولم يغوحجاه
إنما كل أمانيه، بها	نهضة الشرق، وتحرير حماه
لم يعش عبد هواه. إنّما	عاش حراً، طيّب الله ثراه

للتوسع، أنظر: (أضواء على الصحافة التونسية) عمر بن قفصية، دار بوسلامة للطباعة والنشر 1972.

و (الباروني)[26] من طرابلس و (الهلالي)[27] ....

(26) (سليمان الباروني 1873 م 1940 م).

بطل الحرب الطرابلسية في وجه الغزوة الإيطالية، وحامل السيف والقلم، كاتب شاعر، درس في جامع الزيتونة وفي وادي ميزاب في حلقات العلامة الشيخ محمد بن يوسف (أطفيش) في (يسجن)، أصدر في القاهرة سنة 1906 جريدة (الأسد الإسلامي)، وأسس (مطبعة الأزهار البارونية)، وفيها أصدر ديوانه وبعض مؤلفاته وفي سنة 1908 بعد عودة الدستور العثماني انتخب نائباً عن الجبل الغربي في مجلس المبعوثين في الأستانة. ومنذ سنة 1911 تصدّى للهجمة الإيطالية الغادرة على طرابلس قائداً وجندياً، وعارض فكرة الصلح مع إيطاليا، وأسس سنة 1918 (الجمهورية الطرابلسية) التي لم تعمّر، كما طاردته السلطات الإستعمارية، الإيطالية والفرنسية والإنجليزية، وتواطأت على منعه من الإقامة في أيّ بلد يقع تحت سيطرتها. واضطر إلى الإقامة في فرنسا في أواسط العشرينات وانقطع عنه المدد في (مرسيليا) إلا من أبناء (وادي ميزاب) في جنوب الجزائر، وكان يسمّيهم (إخوان الصفا) لصدقهم وثباتهم، ثم إستقر في العراق سنة 1929، ثم تحول إلى عمان سنة 1938. ثم توجّه إلى الهند سنة 1940 حيث وافاه الأجل المحتوم في (بومباي)، للتوسع انظر (سليمان الباروني باشا في أطوار حياته) جزآن، أبو اليقظان الحاج إبراهيم 1956 المطبعة العربية، الجزائر، (سليمان الباروني) آثاره، محمد مسعود جبران، الدار العربية للكتاب 1991.

(27) (الهلالي تقي الدين: 1893 ـ 1987).

من علماء الدعوة السلفية. ومن الأقلام الرائدة في الصحوة الإسلامية في أوائل القرن، غزير الإنتاج، كثير الأسفار، قضى عشرين سنة من عمره 1921 ـ 1942) في التنقل بين مصر والهند والعراق والحجاز وألمانيا، عمل في إذاعة برلين العربية ونشر في العشرينات في مجلة (الفتح)، أصدر في الهند مجلة (الضياء) وأصدر بعد عودته إلى المغرب مجلة (لسان الدين) في (تطوان).

قال عنه (محب الدين الخطيب) صاحب (الفتح) سنة 1937:

«الفاضل فاضل حيثما كان، كما أن الشمس شمس شرقت أم غربت، والأستاذ العلامة السيد محمد تقي الدين الهلالي، صاحب الفصول الممتعة، والبحوث الجليلة في صحيفة الفتح ـ من أفاضلنا الذين أجمع على الإعتراف بفضلهم الشرق والغرب، والعرب والعجم، والمسلمون وغير المسلمين، فهو في الحجاز نار على =

و (بلافريج)[28] من المغرب.

فلما صدرت (الرابطة العربية) في الثلاثينات ببعدها القومي، وأقطار المغرب العربي في ذروة مواجهتها مع المحتل، وجدت فيها الأنفاس المكبوتة متنفّساً، ومنبر تشهير بسياسة الظلم والإضطهاد تحت حكم الأجنبي:

«فربما يكون في التشهير بها (فرنسا) في العالم، وبالخصوص القسم الشرقي منه، ما فيه ردع وزجر لها، لأن القوم يستاؤون من نشر فضائحهم أمام الشرقيين ويحبّون أن يحمدوا بينهم بما لم يفعلوا، لغرض لا يخفى على الفطن اللبيب»[29].

علم شهرة وفضلاً. وفي الهند تبوّأ منصّة التدريس في أرقى جامعاتها، وفي العراق معروف بدؤوبه على خدمة هذه الأمة، وحرصه على خيرها، وهو الآ في ألمانيا موضع الحرمة من أركان جامعة (بون) التي يتولّى التدريس بها.

انظر مجلة (الشهاب) ح (5) م (13) جوليت 1937. وانظر (السلفية الوهابية بالمغرب) مخلص السبتي. منشورات المجلة المغربية للإجتماع السياسي 1993.

(28) (بلا فريج أحمد).

من رموز الحركة الوطنية في المغرب العربي: ومن مؤسسي (جمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين) في باريس سنة 1927 درس بالقاهرة، ثم بـ (السربون)، وأحد المضطهدين من السلطات الإستعمارية في المغرب بسبب معارضتهم للظهير البربري سنة 1930، وأحد المؤسسين البارزين (كتلة العمل الوطني) سنة 1934 و (الحزب الوطني لتحقيق المطالب) سنة 1937، والمبادر بتأسيس (حزب الإستقلال) سنة 1943 الذي قدّم عريضة المطالبة بالإستقلال التاريخية في 11 يناير 1944. وكان أمين عام حزب الإستقلال.

وبلافريج كاتب باللغة العربية، وباللغة الفرنسية وخطيب متميّز بهما، وكانت له علاقات بالأمير شكيب أرسلان. ونشاطات في سبيل فلسطين. نشر في مجلة (الفتح) للتوسّع. أنظر «(الأحزاب السياسية في المغرب، ر. ريزيت. منشورات المجلة المغربية لعلم الإجتماع السياسي. و (علال الفاسي رائد الحركة الوطنية المغربية) محمد العلمي مطبعة الرسالة، الرباط، 1980.

(29) من الرسالة السابقة لعلي كاهية.

وتجاوزت الرابطة العربية النشر لأقلام من المغرب العربي، إلى النقل عن صحافته، وإعادة نشر بعض الإفتتاحيات الحاسمة، والكلمات الصريحة في القضية الوطنية مثل افتتاحية (عبد الحميد بن باديس) لمجلة (الشهاب)، (الشمال الإفريقي، كيف يجب أن يعالج)[30].

وربما أثارت (الرابطة) قضايا لها مساس بعروبة هذا الجزء من الوطن العربي، أو تشكيك في أصالة هذه العروبة، أو توجّس من مصيرها، فتتصدّى مجلة (الشهاب) برحابة صدر وعمق إيمان لهذه النظرة الإرتجالية المحتكمة إلى مظاهر مفتعلة، فتعيد نشر المقال ثم تعقب عليه التعقيب الحاسم، والقول الفصل.

نشر عبد الحميد العبادي في (الرابطة)[31] مقالاً بعنوان: (بلاد عربية تحتضر فيها العروبة) وقال: «لست أقصد أيها القارىء الكريم بتلك البلاد إلا المغرب الإسلامي. الحق، إن العروبة والإسلام ماتا في الأندلس بالسيف، أما في المغرب فيقضيان صبراً».

فتعيد (الشهاب) نشر المقال، ليذيّله ابن باديس حاسماً بإسم العروبة: «كلا، بل هي اليوم تزدهر «فقال لهم الله موتوا، ثم أحياهم».

فما مات، من كانت بقاياه مثلنا   شباب، تسامى للعلاء وكهول

* * *

تلك هي (الرابطة العربية) نفحة من نفحات إقامة (الثعالبي) في القاهرة، ومصدر جل هذه النصوص بين يدي القارىء. والزعامة الأصيلة

---

(30) (الشمال الإفريقي وكيف يجب أن يعالج) افتتاحية (ابن باديس) لمجلة (الشهاب) ج (9) م (13) رمضان 1356/1937. وأعيد نشر الإفتتاحية في (الرابطة العربية) العدد (83) 1938.

(31) نشر مقال (العبادي) في (الرابطة) عدد (45) أفريل 1937. وأعادت (الشهاب) نشره في ج (3) م (13) ربيع الأول 1356 هـ ماي 1937.

تنبت في أي أرض تحلّ، وتزهر في أي مربع تقيم. معطاء، منجبة، ما دامت الديار ديار عروبة وإسلام. لا يضيرها النفي، فإشعاعها يطوي المسافات، ولا تحاصرها المطاردة، فالمشاعر تندّ عن الحصار. كذلك كانت نظرة (ابن باديس للثعالبي) وكذلك كانت كبوة الإستعمار في ملاحقة (الثعالبي):

«فالإستعمار هو نفي الثعالبي لمصلحته هنا، والإستعمار هو ردّ الثعالبي لمصلحته هنالك، وأبى الله، إلا أن يستفيد الشرق والعروبة والإسلام من الثعالبي هنالك، ويستفيد الشرق والعروبة والإسلام من الثعالبي هنا. فاعتبروا يا أولى الأبصار»[32].

وبعد، فإن هذه النصوص للثعالبي في مجلة (الرابطة العربية) تحريراً مباشراً منه، أو نقلاً وصياغة لمحاضراته وأحاديثه، أو إملاء منه على بعض الملازمين له إعجاباً وتقديراً. وتلك هي أوجه العطاء المتدفّق عند الثعالبي، يتعب الكاتب، ولا يتوقف المملي، وقد يتعاقب على الكتابة غير واحد، لأن عطاء الزعامة الغنية فوق طاقة الفرد المحدودة[33].

---

(32) انظر المقال في القسم قبل الأخير من الكتاب، وقد نشر في ج (7) م (13) رجب 1356 هـ سبتمبر 1937.

(33) يذكر (محمد علي دبوز) رواية عن (الشيخ أبي اليقظان) شيخ الصحافة الجزائرية الذي صدرت له ثماني جرائد في الفترة من 1926 إلى 1938 وأحد الملتفين حول (الثعالبي) في الإنطلاقة الأولى للدستور في مستهل العشرينات وأحد الكتّاب والشعراء المشيدين بالحزب شعراً ونثراً وكان رئيس البعثة العلمية من أبناء (وادي ميزاب) في تلك الفترة، يقول (دبّوز):

«واصطفى الشيخ الثعالبي أبا اليقظان، فصار يملي عليه مقالاته التي ينشرها في صحف عديدة، فكان يسرع في أغلب أيام أسبوعه إلى دار بعثة أبي اليقظان مع الضحى، فيجلس لقراءة الصحف اليومية، ثم يملي مقالاً أو مقالين أو ثلاث مقالات على أبي اليقظان فيكتبها، فيستمر عملهما حتى الظهر، فيتغذى الشيخ الثعالبي مع البعثة، ثم يستأنف الشيخ الثعالبي بعد الغذاء والشاي إملاء مقالاته على أبي اليقظان، فينيب أبو اليقظان لحاجة قد تعرض له، أحد كبار الطلبة في الكتابة للشيخ =

هذه النصوص بتنوّع صيغها في مجلة واحدة من مجلات الشرق العربي، وفي سنوات قليلة من أواسط الثلاثينات، مقتطعة من أربعين سنة من الكفاح من أجل العروبة والإسلام، والتحرر الوطني. ومقارعة المستعمر. إنجليزياً أو فرنسياً، إيطالياً أو اسبانياً، بأقنعته المختلفة، احتلالاً وحماية، وانتداباً ووصاية.

هذه النصوص، مظهر آخر من عظمة الثعالبي، وملمح مشرق من زعامته، وقبس وامض في أفق نضاله، وعرق نابض في انتمائه الإسلامي وعزّته القومية، وسموّ مجنّح بالوطن العربي فوق التجزئة والتشتيت والقطرية من صنع غاصب البلاد، واحتكام أمين إلى الوشائج التاريخية في صياغة هذا الوطن الواسع، صياغة الوحدة والتوحد، مبدأً ومصيراً.

إن التبشير بالإمبراطورية العربية الحديثة في سنة 1936، والوطن العربي تحت حكم الأجنبي، ورسم حدود هذه الإمبراطورية، وصياغة خارطتها، وتسمية عواصمها. وعرض هذا التصور المبكّر على الواقع العربي المعاصر، وإن اختلفت بعض الجزئيات، ليعطي صورة باعثة على الدهشة والإعجاب بعمق الرؤيا وصدقها عند بعض الرواد الأوائل في النهضة العربية الحديثة وفي طليعتهم (الثعالبي):

«تمتد حدود الإمبراطورية العربية ـ التي صار تحقيقها أمنية كل عربي، ناهض، متعلم، بل المثل الأعلى لكل عربي، وقد أنشأنا هذه المجلة لبث الدعاية لها، والتبشير بها ـ من خليج فارس، ديار بكر شرقاً، حتى المحيط

الثعالبي الذي يستمر في إملائه عليه إلى المغرب، لا يتعب ولا يرتج عليه، وذلك لقوة عارضته، وعبقريته في البلاغة.

انظر (أعلام الإصلاح في الجزائر) محمد علي دبوز الجزء الثالث، الطبعة الأولى 1398 هـ 1978. مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر.

الأطلسي غرباً، ومن جبل طوروس شمالاً حتى أواسط أفريقيا غرباً»[34].

هل يضير الرواد في شيء، أن الواقع العربي بالنسبة للوحدة لم يتخط الحلم بعد؟ بعد نصف قرن من التبشير بها! بل يزيدهم فخراً، أن (14) قطراً عربياً ضمتهم خارطة الإمبراطورية سنة 1936[35]، شقت طريقها إلى إنتزاع

---

(34) الأستاذ مبارك الميلي في ردّه على مشروع (الإمبراطورية العربية) الذي نشرته (الرابطة) انتقد لفظ (الإمبراطورية) انتقاداً موضوعياً وواقعياً وهو ما أثبتت الأيام صحّته، قال رحمه الله:

«وإني أستنكر لفظ (الإمبراطورية) لأنه من مواد القاموس السياسي، والسياسة بمدلولها الحاضر: (1937) ميدان الدسائس والوساوس. ومبعث الحذر من الجار، والتباس النصوح بالغدّار، فتفقد الثقة، ويضيع وقت الرجال، باستخراج رموز الأقوال.

والرشد أن لا يمسّ وضع «العالم العربي» الحاضر من الوجهة السياسية، بأدنى تغيير، وكل محاولة لتغييره مخاطرة وبيلة، لا يتناولها لفظ البناء ولكنّها تدخل في معنى الهدم.

وليس إنشاء المعاهدات والمحالفات بين دول «العالم العربي» من تغيير الوضع السياسي الذي أحذره، وأحذّر منه، كما أنها ليست من إنشاء الإمبراطورية العربية في شيء.

وواجب الصحافة الصادقة الرزينة ومن أهلّته مواهبه لأن يكون حديث الأجيال ليتبوّأ منزلة سامية في التاريخ العربي. هو العمل المنظّم لتوحيد (العالم العربي) في كل مظاهره الحيويّة. وتنمية الروابط بين شعوبه، وتجنّب توحيده سياسياً فإن الحياة السياسية أراها في وضعنا الحاضر نتيجة لا مقدّمة».

هذا كلام (الميلي) منذ ما يقرب من (60) عاماً، والجزائر في وضع إستعماري بغيض، وجلّ أقطار الوطن العربي في وضع مشابه. ولم نزل اليوم في أواخر القرن العشرين. وجامعة الدول العربية تعدّ (21) دولة عربية، حرّة، مستقلة في حاجة ماسّة إلى عدم الخلط بين المقدّمات والنتائج في قضية الوحدة العربية.

(35) تمّ تحديد الدول العربية في مشروع (الإمبراطورية) في مجلة (الرابطة) كما يلي)

وتضم الأقطار الآتية:

(1) مسقط (عمان).

حريتها واستقلالها. وانضوت كلها وزيادة عليها تحت علم جامعة الدول العربية، أليس (بيت العرب) مظهراً من مظاهر الحلم العربي في الوحدة؟ وهذه التجمعات الإقليمية مشرقاً ومغرباً أليست، هي الأخرى، إرهاصات، وتشوّفات لسبل الوحدة؟

التبشير بالوحدة العربية قبل نصف قرن، لم يكن ضرباً من جموح العاطفة، وإن كانت مبرّرة في مرحلة القهر الأجنبي. والتطلع إليها، والوطن العربي، مغلوب على أمره، وغاصبه حاكم فيه بأمره، ليس من قبيل المتاجرة بعواطف المستضعفين، والإستهتار ببطش الأقوياء، ولكنّه الإنتصار المؤمن بالمستضعف حتى يقوى، والتحدي المستهتر بالقوي حتى يتداعى.

لقد قاسى (الثعالبي) السجن المتعاقب، والإبعاد المطّرد، والضرب في شرق الأرض وغربها، والمحاصرة من الأبعدين وذوي القربى، والمطاردة بعيداً عن البيت والأسرة، فلم يزدد إلا وثوقاً بدعوته في غمر التنكر لها،

= (2) البحرين.
(3) الكويت.
(4) العراق.
(5) الشام بحدوده الطبيعية أي، كيليكية، ولبنان، وسوريا الداخلية، وفلسطين وشرق الأردن.
(6) مصر.
(7) السودان.
(8) الحجاز.
(9) نجد.
(10) اليمن بحدودها الطبيعية، بما فيها النواحي التسع، وعدن.
(11) طرابلس الغرب وبرقة.
(12) تونس.
(13) الجزائر.
(14) المغرب الأقصى بحدودها الطبيعية.

وتفانياً في قضية أمته في سورة الحرمان من بيته، قال (محمد صبيح)[36] رواية عن (الثعالبي):

«لم أسيء إلى مخلوق قط، إلا زوجتي، فقد اقترنت بها منذ ثلاثة وعشرين سنة، ولم أمكث معها غير سنوات خمس، أما ما تبقى فقد قضيته في النفي والسجن. وحتى هذه السنوات الخمس، لم أكن خالصاً لها، فإن الحركة الوطنية التي أشتغل بها في تونس، كانت شغلي الشاغل، كنت أنزل من البيت في الصباح الباكر، قبل أن يستيقظ أحد، وأمضي إلى عملي في مقر الحزب الحر التونسي، وأظل منهمكاً فيه إلى ما بعد منتصف الليل. وكانت زوجتي تنتظرني أحياناً ساهرة مستيقظة، حتى إذا رأتني أخذت تعاتبني على ما أضيع من حقها، ونمضي في خلاف وخصام. لقد حملت إلى كل من لقيت ومن عرفت، السعادة والغبطة، إلا زوجتي. فقد احتملت معي أقسى ما تحتمله امرأة في الوجود. لقد غادرتها رجلاً في مطلع قوته، وها أنذا أعود

---

(36) (محمد صبيح)

من رجال السياسة والصحافة في مصر، وكان ملازماً للثعالبي، معجباً به، ناقلاً عنه وهو في القاهرة، أو مراسلاً له وهو خارجها، وبين الإثنين مراسلات عديدة، وكان يكاتبه الثعالبي بـ(ابني الأعزّ الأستاذ صبيح) ويمضي رسائله إليه بـ (أبوك المحب) وأغلب ملخّصات الثعالبي في (الرابطة العربية) من تحريره يمضيها بإسمه الصريح، أو بحرف (ص). كان من أركان (حزب مصر الفتاة) في الثلاثينات: وتولّى رئاسة صحف هذا الحزب الناطقة باسمه، (الثغر) سنة 1937، و (مصر الفتاة) سنة 1938، وعانى من المضايقة والسجن. فكتب إليه (الثعالبي) يقول:

«لك الله يا صبيح فكم أشفق عليك، وأنـت في ذلك البرد. الناحل الذي لا يطيق ضغط الأقفال، وقد لا يجمل بمثلي، أن يقول لك اتئد لأن النفس العظيمة مجبولة على القيام بالعظائم، إذ العبرة بجوهر الروح لا بالجسد، وإنّما أقول لك سر دائماً، ولكن بخطى متّزنة، فإنها تصل بك إلى حيث تريد من غير إجهاد لا يطيقه البدن، فإنّ لبدنك عليك حقاً، أما الخطى السريعة فهي أدنى إلى العثار، وأنا أخشى عليك منه، وأريدك على مجانبته، وإلا فما الذي أفضى بك إلى السجن؟».

إليها وقد اشتعل رأسي شيباً. ومع هذا فلن أكون لها وحدها، ولكني سأكون كعهدي القديم لبلادي وعقيدتي»[37].

* * *

الأطماع في الوطن العربي، لم تزل متكالبة، والسهر الدائب على تمزيق وحدته لم تغف له عين، والمؤامرات في قلب هذا الوطن، مترصّدة لشرايينه، متربّصة بها. والأسرة العربية بمفهوميها الضيق الواسع، لم تزل متطلعة إلى التئام شملها، وسكينة عيشها، ووفرة كرامتها. وفي غمرة هذه المحن يتنامى الشعور بوحدة الأمة أكثر من ذي قبل، لأنها المخرج الوحيد من الظلمات إلى النور.

قالها (ابن باديس) في مجلة (الشهاب) في الجزائر، يوم قالها (الثعالبي) في مجلة (الرابطة العربية) في القاهرة. سنة 1937:

«إن الإتحاد الإسلامي، والوحدة العربية، بالمعنى الروحي، والمعنى الأدبي، والمعنى الأخوي. هما موجودان. تزول الجبال ولا يزولان. بل هما في إزدياد دائم بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب، ضد العروبة والإسلام»[38].

صدع بها الأجداد وسيف الغاصب على رقابهم. فكيف نختنق بها نحن الأحفاد، وعلم الحرية مرفرف! إنا إذا الخاسرون»[39].

* * *

(37) انظر النص الكامل في القسم الخاص بـ (الثعالبي بأقلام كبار الكتاب).

(38) مجلة (الشهاب) ج (9) م (13) قسنطينة. رمضان 1356 هـ نوفمبر 1937.

(39) إشارة إلى الآية الكريمة رقم (14) من سورة (يوسف عليه السلام):

«قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة، إنا إذا الخاسرون» صدق الله العظيم.


★ زعيم تونس الشيخ عبد العزيز الثعالبي ★

بحالك تدرك الخضراء قصدا
وتبلغ عاجلاً تلك المهمة
وتبلغ من مطالبها الاماني
وترقى في العلا بعلو همة
الا ياسعد تونس باسناها
ومن ره الخطوب المدلهمة
تلقيت الشدائد باصطبار
كما استصغرت هاتيك الملمة
لذاك لاح رسمك في جلال
يتوج بالفضائل صدر امة

الشيخ محمد الرياحي

الشيخ صالح بن يحي

الثعالبي ورفيقاه في النضال السياسي محمد الرياحي وصالح بن يحيى في جريدة (الأمة) بمناسبة إلقاء القبض عليهم وإيداعهم السجن سنة (1920)

وتبقى كلمة، لا محيد عنها.

إن النصوص التي تكتسي صبغة (الشهادة التاريخية) مثل (الكلمة الحاسمة) كما تناقلتها الأجيال، أو (بيان الأستاذ الثعالبي إلى الشعب التونسي، كما عنونتها مجلة (الرابطة العربية) هذا البيان بالصيغة التي نحتت به كلماته، والرويّـة التي أحاطت به، تحريراً لفقراته، وموعداً لإعلانه، وشعوراً عميقاً بخطورته. وتبرئة للضمير أمام الله والتاريخ:

«كنـت وعـدت، بعـد إرفضـاض إجتمـاع الهيـأتيـن: الحـزب الحـر الدستوري التونسي، والديوان السياسي على غير طائل من الوفاق الذي دعوتهم إليه يوم (20 جمادى الأولى سنة 1357 وفق 1 أغسطس سنة 1937) أن أذيع بياناً مفصلاً على الشعب التونسي الكريم، أطلعه فيه على نتيجة سعيي في عقد الوفاق، وكان في وسعي أن أفضي بها إلى الأمة قبل هذا الميعاد المضروب، لكنني أفسحت في المدة، لأمكن الناكبين عن الوفاق من الجادة المثلى التي يسير عليها المسلمون، جادة الإتحاد التي فرضها الله عليهم في محكم التنزيل بآية:

«واعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها»[40].

هذه (الشهادة التاريخية) لئن حكمت لها، أو عليها، الوقائع المعاصرة لصياغتها، والأحداث المكتنفة لنشرها، فإنها اليوم بعد مضي ما يقرب من ستين عاماً، وقد توارت الأحداث في سجل الزمن، وتعاقبت الأجيال، تبقى (شهادة) في عهدة التاريخ، أمينة من أية مصادرة، وللتاريخ، والتاريخ وحده حق الحكم لها، لا عليها.

---

(40) سورة (آل عمران) الآية رقم (103).

وهذه (الوثيقة التاريخية) لم تعد إرثاً لتونس فحسب، ولكنها إرث شمال أفريقيا بالأمس، والمغرب العربي المتطلّع إلى الإتحاد اليوم. والثعالبي عندما يرتجل خطيباً، أو يملي محاضراً، تتفاوت الآذان في إستيعاب عطائه، والأفهام في تلبية ندائه. ولكنّه عندما ينحت الكلمة نحتاً، ويقدّها من صخرة الواقع المرير، في منعرج تاريخي، ومفترق مصيري. وذروة من اليأس في إصلاح ذات البين، فإنما يكتب للتاريخ المقبل، أكثر مما يكتب للمحنة المدبرة، ويخاطب الأجيال في رحم ذلك التاريخ، أبعد من مخاطبته جيل الأحداث الساخنة، ويطرح العبرة الباقية لتاريخ قد يعيد نفسه.

زار الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس تونس سنة 1937[41] مرتين، الأولى في شهر (ماي) للمشاركة في الذكرى العشرين لوفاة أستاذه في (الخلدونية) (البشير صفر). والثانية في شهر (أوت) يحمل تهنئة الجزائر لشقيقتها بعودة الشيخ الثعالبي، الذي يحرص (ابن باديس) على مخاطبته بـ (الأب العزيز سيدي عبد العزيز)، وقد وجّه تحية (شكر ووداع) بعد عودته إلى الجزائر، بعد زيارته الأولى، وقال:

«أودّع الأمة التونسية الكريمة، شاكراً لها ولصحافتها الراقية ما أبدته نحوي من عواطف الود الأخوي الذي فاق كل تقدير، وإن الذي، يسرّني ـ حقاً ـ من ذلك هو أنه كان موجهاً في الحقيقة نحو المبدأ الذي دعوت إليه في خطبي وهو: الأحتفاظ بالذاتية العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي كلّه، والإعلان بوحدة أقطاره الأربع ـ طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ـ في الحاضر والمستقبل، مثلما هي ثابتة في الماضي، وأفضل الود والإكرام، ما كان للمبادىء الخالدة، وجاءت فيه الأشخاص الفانية على التبع».

و (ابن باديس) كان أحد الشهود التاريخيين لقضية (الوفاق) وقد ورد

---

(41) أصداء الرحلتين وما كتب عنهما في الصحافة التونسية، في مجلة (الشهاب) الجزء (5) المجلد (13) جويلية (1937).

إسمه في (الكلمة الحاسمة)، قبل ثلاث سنوات من وفاته، وكان حريصاً على متابعة هذه القضية التي أرّقته، وشغلت صفحات متوالية من مجلة (الشهاب) في قسنطينة، انطلاقاً من وحدة الشعور بمحنة المغرب العربي، وتجاوبه في السرّاء والضرّاء، وأنّ زعامة (الثعالبي) تتجاوز تونس إلى أقطار الشمال الإفريقي[42].

---

(42) كانت القلوب متصافية بين أبناء المغرب العربي، والإحساس بالمصير المشترك يوحد الشعور، والمعاناة من الظالم الغاصب يرص الصفوف، ويجابه كل محاولات المستعمر الفرنسي لشقها، ويبصر ذوي البصائر بمكائده لفضحها. وشهد عقد الثلاثينات وعقد الأربعينات أزهى فترات التضامن بين الحركات الوطنية في المغرب العربي وأقسى فترات البطش بها، وبث الفرقة فيها، وضرب بعضها البعض، والمستعمر من وراء كل ذلك. ولذلك هبّت الصحافة الواعية، والأقلام الراشدة في مختلف الأقطار تتبادل النصح، وتدرأ الأخطار، وتتناوب التوعية بها، دون أية حساسية أو شعور بالتطاول على (سيادة وطنية) فليست هناك سيادة أصلاً. وإنما هناك عدو مشترك، ومصائب يجمعن المصابين. كما قال (شوقي).

فلأول ما ابتليت الأسرة الدستورية في تونس بمحنة الصراع، بادر الشيخ عبد الحميد بن باديس للحضور إلى تونس من قسنطينة للتهنئة بقدوم الثعالبي، ولدعم جهوده في سبيل الوفاق، وكان أحد الحاضرين في الجلسة الأولى للوفاق، دون أي شعور بالتطفل، بل كل الشعور بالواجب الأخوي، وبادرت مجلة (الشهاب) الجزائرية بالإفاضة فيما دعته بـ(الفتنة الملعونة) واستهلت مقالها بهذه الفترة الصارخة:

«الله، الله، في وطنكم، أيها التونسيون، فالرعاة تتنازع، والذئب على الباب، ولئن أكله الذئب، وأنتم عصبة، إنا إذاً لخاسرون».

وأعادت جريدة (الإرادة) التونسية نشر المقال تحت عنوان: (صوت علماء الجزائر ورأيهم في فتنة الشقاق في تونس).

وبعد عشر سنوات، في سنة (1949) عانت الحركة الوطنية في الجزائر من مثل ما عانت منه أختها في تونس، من صراع بين الإخوة، والمستعمر من وراء كل ذلك، هنا وهناك، فكتبت (الإرادة) بدافع الأخوة تحت عنوان «(كلمة إلى إخواننا الجزائريين) ومما جاء في المقالة الإفتتاحية:

«هذا أول مقال خطته أنامل الزعيم الأكبر، بعد قدومه لتونس العزيزة، نقلناه عن جريدة (العمل) الدستورية، لأن آمال الشمال الإفريقي وآلامه واحدة. فكلمة الزعيم، هي للأفارقة كلهم، وبلسانهم أجمعين»[43].

* * *

لقد كانت حياة (الثعالبي) على امتدادها، وتشعّبها، وتباين مواقعها، وتعدّد جبهائها. كانت معركة حاسمة من أجل (الكلمة الحاسمة) كلمة الحق، على منبر حرّ، وصحافة حرّة، وحزب حرّ، وأمة حرة. فلو رصدنا الفصل الأول من هذه المعركة، والثعالبي في العشرين من عمره، يتطلع لاصدار (سبيل الرشاد) سنة (1895) وتتبّعنا أدوار هذا الفصل، متعاقبة متتالية حتى سنة (1912) سنة أبعاده مع رفاقه في (الشبيبة التونسية) لرأينا عجباً من إصرار الثعالبي في سبيل صحافة حرّة لا في تونس فحسب، وإنما في الجزائر والمغرب وحتى في مصر. ورأينا أعجب من ذلك في عناد المستعمر لسدّ كل أبواب الرجاء في وجه الثعالبي، وتضييق الخناق عليه، وتجنيد الأذناب

= «نودّ من صميم أفئدتنا، أن نفتح صدر جريدتنا لأقلام جميع الكاتبين من إخواننا أبناء القطر الشقيق، وأن تكون (الإرادة) ميداناً للدفاع عن ذلك القطر، كما هي ميدان دفاع عن القضية التونسية، فإننا نعتبر أن المغرب العربي قطر واحد، يسكنه شعب واحد. وإن فرقت بين أجزائه السياسة، فإن السياسة لا يمكن أن تستطيع حل روابط الوحدة التي عقدها، الدين الواحد، والدم الواحد، واللغة الواحدة، والمصلحة الواحدة. وأخيراً الخطر الواحد».

ومن المؤسف حقاً، أن هذه الصفحات المشرقة من وحدة النضال في المغرب العربي، وهذه الأيام الخالدة في المجابهة الواحدة، للمستعمر الواحد. كثيراً ما يقع التعتيم عليها، والسكوت عنها، في منعرج تاريخي نحن فيه أحوج ما نكون لهذه العبر التاريخية، فهي المرجع الأمين لمبدأ إتحاد المغرب العربي، والمدخل السليم لقيام هذا الإتحاد.

(43) (كلمة إلى الشعب التونسي) نشرت في جريدة (العمل) عدد (37) جمادى الأولى (1956 هـ) غرة أوت (1937م).

لمطاردته، وتلويث سمعته، والاحتكام في إسلامه إلى رموز السلطة الاستعمارية الفرنسية.

كانت معركة الثعالبي معركة مزدوجة، معركة مع المتسلّط على الوطن، ومعركة مع الضالعين في ركابه. لم يهدأ لها نفس، حتى النفس الأخير.

(سبيل الرشاد)

جريدة علمية، أدبية، سياسية، تاريخية، صدر العدد الأول منها في (29) جمادى الثانية 1313 هـ (16) ديسمبر 1895م.

تعرضت (سبيل الرشاد) في عددها (7) بتاريخ (25) رمضان (1313 هـ) (8) مارس (1896 م) لفتوى لشيخ الإسلام (أحمد بن الخوجة) دون التصريح باسمه في الجريدة، ولكن شيخ الإسلام فهم التعريض به فيما نشر، فوجه خطاباً مطولاً إلى الكاتب العام (مسيوروا) تحت عنوان (لا إله إلا الله) جاء فيه:

«الهمام العالم، الحازم الكاتب العام (مسيوروا).

أما بعد الدعاء لكم بالسعادة الأبدية، فننهي إلى جنابكم، أن هناك إنسان يقال له عبد العزيز الثعالبي، أحدث جرنالا، سماه سبيل الرشاد، تجرأ فيه على مقام المشيخة الإسلامية بجهله المظلم، وخطابه الفاحش، وتنزيل كلام العلماء في غير محلّة..».

وبعد الإفاضة في الشكوى من الثعالبي والتحامل عليه، إنتهى شيخ الإسلام إلى مخاطبة (روا) بما يلي:

«وإذا كان العبد الضعيف، رئيس الديانة الإسلامية، تجوسر على فتواي بالجهل، فكيف لغيري من أهل الشرع، فنرغب منكم أيها الصديق الحازم المبادرة لتعطيل هاته الجريدة، والإنتصاف من صاحبها، لينزجر هو وأمثاله عن أمثال هاته التصورات الصادرة عن غير إدراك».

محمد عبد العزيز الثعالبي

المذكور أعلاه المستكن بتونس يريد السفر خارج
المملكة وانه قدم ضمانا لتسديد الديون التي [illegible]
عليه وطلب ان ياتي بضامن ملي [illegible] 40000 فرنك

المذكور أعلاه كان صاحب جريدة سبيل الرشاد وتوقف
ثم انه ابطل الجريدة الارشيف الوطني التونسي
وكان قدم مطالب بعد سلب للسفر لمصر
على [illegible] الكاتب العام في اجابته للسفر
وصفح مطلبه

(الثعالبـي) يطلب الموافقة على السفر إلى مصر سنة (1896م)
بعد إيقاف جريدته (سبيل الرشاد)
ويتمّ تعجيزه بضامن مالي رصيده (40,000) فرنك فرنسي وتحفظ طلباته

وكانت الشكوى بتاريخ (6) شوال (1313 هـ) (19) مارس (1896 م).

وفي العدد (8) تعرضت (سبيل الرشاد) لقاضي (مجاز الباب) بهذه الفقرة:

«لدينا معلومات خصوصية تتعلق بأعمال قاضي (مجاز الباب) في تجاوزه حدود وظيفته القانونية، وارتكابه ما لا يليق بناموس مقامه الشرعي، وحيث كان ظننا الحسن في الشيخ المومي إليه. أن هذا الإلمام كفي في ردعه، اكتفينا بإدراج هذه الأسطر القليلة وألا فسنو في البيان بكل تبيان. ومن أنذر فقد أعذر».

ورفع قاضي (مجاز الباب) شكوى من الثعالبي إلى الوزير الأكبر (محمد العزيز بوعتور) بتاريخ (17) شوال (1313 هـ) (30) مارس (1896 م) وأشر شيخ الإسلام على هامش الشكوى بما نصه:

«يعرب شيخ الإسلام بأن سبيل الرشاد توقف، إلى أن يصدر إذن في ذلك، يبحث عن الفصل الذي تشكي منه قاضي (مجاز الباب).

وفي (7) ذو القعدة (1313 هـ) (20) أفريل (1896 م) وجه الوزير الأكبر إلى شيخ الإسلام (أحمد بن الخوجة) مكتوباً هذا نصه:

«وبعد. فقل بلغنا مكتوب جنابكم المؤرخ في (15) شوال وفي (29) مارس الفارطين فيما يتعلق بمحرر جريدة (سبيل الرشاد) وعلمناه لسيادتكم أنه وقع إيقاف الجريدة المذكورة، إلى أن يصدر الإذن بما يعتمد عليه في شأنها والله تعالى يحرس مقامكم والسلام».

وبمثله كتب لقاضي المجاز جواباً على مكتوبه.

* * *

وهكذا، توقفت (سبيل الرشاد) سبعة شهور من أفريل حتى نوفمبر 1896 وصدر العدد (11) منها في (26) جمادى الأولى (1314 هـ) الموافق

لـ (1) نوفمبر 1896 م. ثم احتجبت نهائياً بعد هذا العدد الوحيد.

وفي (17) أفريل الإفرنجي (1897 م) وجه (الثعالبي) كتاباً إلى الكاتب العام للدولة التونسية، ومما جاء فيه:

«سيدي، لا يخفاكم أني كنت بذلت مجهودي في سبيل التوصل لإيجاد وسيلة أتخذها لتحصيل أود المعيشة. فلم أر أيسر من إيجاد جريدة دورية، بعد عناء شديد. لكنها قد صادفت في سبيلها كثيراً من الصعوبات لما لها من الصفة السياسية، خصوصاً بعد صدور الإرادة السنية القاضية بتقديم الضمان المضعضع لأركان الجرائد العربية لعدم توفر الرغبات فيها. ولذلك عزمت على تبديل منهجها السياسي بالمباحث العلمية الفلسفية في شكل كراس شهري، فإذا سمحت حضرتكم لإصدارها بتلك الصفة فلا بأس أن تتنازلوا لإعلامي كما هو المعتاد من شيمكم اللطيفة من الأخذ بناصر المعارف وبنيها».

***

وضاقت السبل بالثعالبي وعزّت لقمة العيش، في الفترة التي تعثرت فيها جريدته (سبيل الرشاد) فوجّه بتاريخ (17) شعبان 1313 هـ (1) فبراير 1896 م. خطاباً إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور: «إني أستمنح من عواطف مقام عظمتكم الإنخراط في سلك الوكلاء بالمحاكم التونسية». وحفظ الطلب في (الدوسي) كما توضح التأشيرة الجانبية.

وفي أوائـل (1897) بعد توقف (سبيل الرشاد) نهائياً، لم تضق السبل بالثعالبي فحسب، وإنما ضاقت به تونس، وتبخرت نداءاته، وتلاشت طلباته، ولم تغنه شيئاً أوصاف التعظيم والإجلال التي يكيلها للوزير الأكبر، والكاتب العام:

«الصدر الهمام، عمدة الوزراء الفخام، نخبة الأمراء الكرام، سيدي محمد العزيز بوعتور».

«مركز قطر الدائرة، وحقيقة الأمثال السائرة، من فتحت له أبواب الإقبال في أفق الأعمال حضرة الكاتب العام السيد (روا)».

لم تجد الأوصاف شيئاً، وقد تعددت وتلاحقت في صدور الرسائل، ولـم يجد الوقوف على العتبات أملاً في اللقاء والمواجهة، فقد تردد (الثعالبي) على (روا) في فترة لاحقة عشر مرّات فلم يأذن بدخوله.

استجمع (الثعالبي) كبرياءه وكرامته، ووجه رسالة ضارعة إلى (سيدنا ومولانا علي باشا باي) يرجوه المساعدة على الخروج من تونس، والتوجه إلى القاهرة لإصدار (سبيل الرشاد) على ضفاف النيل:

«لكنني ارتأيت أخيراً أن أنقل الصحيفة من هذه الديار لأسباب لا تخفى على ذوي الأنظار، خصوصاً بعد صدور القانون الأخير، القاضي على سائر الجرائد بتقديم الضمان، أو تلغي بالمرة من هذا المكان. فتقوى أملي غايته، وبلغ مقصدي نهايته، وها هي ستظهر بوادي النيل، ناشرة في تلك البقاع، مذيعة بين سكان هاتيك الإصقاع. حديث ذكركم الذي سارت به الركبان، وتنشر على الشرق من أزهار مآثركم، ما تقرّ له العيان، وتتشنف بنغمات أوتار مجدكم الآذان».

وينتهي (الثعالبي) في رسالته إلى (الأمير المعظم) في ضراعة أن يساعده لا على الخروج فحسب، من تونس، وإنما على الفرار منها:

«فإني آليت بحياتكم أن لا أبقى بهذه الديار، إلا ما بقي من تعليل النفس، بالحصول على رشفة من رحيق مكارمكم، حتى يمكن لي بها الإفتخار، وأستعين بها على الفرار، من هذا القرار».

وبالرغم من كل ذلك، تأتي التأشيرة على جانب الرسالة لتنصّ: (يحفظ ولا يعطى له (بصبرت).

ولكن (الثعالبي) بما طبع عليه من إصرار، ورفض الإقامة على الذل، وما جبل عليه من تحدّي، وحب المغامرة، استطاع الإفلات والفرار إلى

طرابلس براً، فكانت رحلته الأولى إلى المشرق، بعد مماطلة شديدة في منحه الأذن بالسفر من طرف السلطات الفرنسية، وتعجيزه بطلب الضمانات الباهضة، والتأشير على طلباته بـ (الحفظ) وبأن (سيرته غير حميدة).

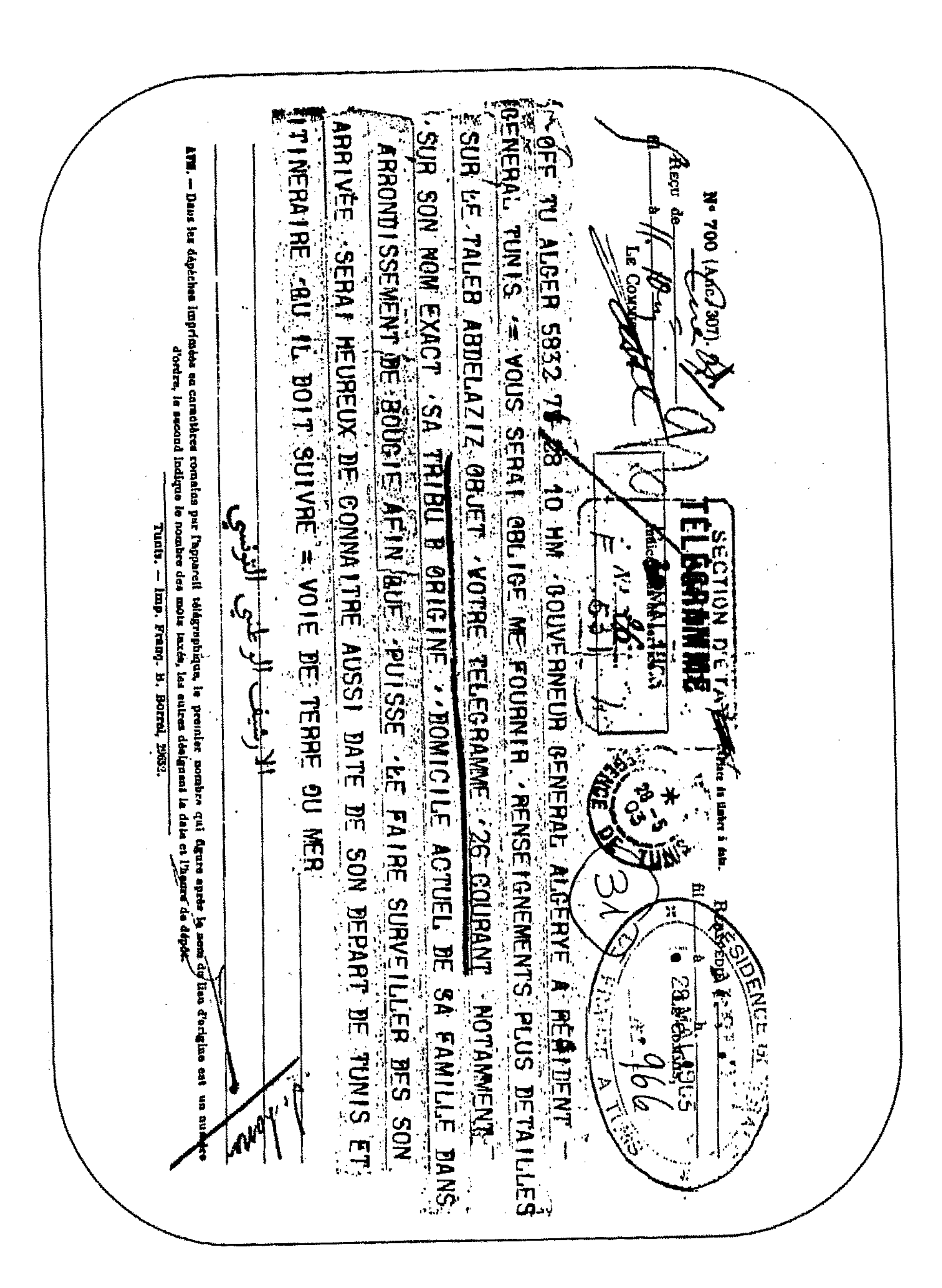
وبعد العودة من المشرق، التمس (الثعالبي) لطموحه الصحافي، وجهة أخرى خارج تونس، فتوجه إلى الجزائر في سنة (1903) ومنها أبحر إلى المغرب، ثم عرّج ثانية على الجزائر في طريق العودة إلى تونس.

وفي (19) ديسمبر (1903) وجّه الثعالبي خطاباً إلى الكاتب العام بالدولة التونسية، ومما جاء فيه:

«كنت سافرت إلى الجزائر، ومنها أبحرت إلى مملكة المغرب الأقصى، وهناك عزمت على إبداء مقاصدي بنشر جريدة عربية، تكون بمثابة المرآة المجلوة لأمة البربر. يرون بها أنفسهم، ويعتبرون بها في غيرهم، ففاتحت بهذا العزم سفارة الدولة الفخيمة هناك، كي لا أقدم على عمل بدون اعتماد عليها، وبعد إجراء اللازم، رخّصت لي بنشرها.

ولما انتهت المسألة إلى هذا الحد، رجعت بالآخرة إلى الجزائر لأنهاء الغرض الذي دعاني إلى السفر إليها أول مرة. وهناك علمت أن الحكومة تودّ نشر جريدة عربية تكون مثابة لشؤون الجزائريين، فوددت أن أكون مفادياً بحياتي أمام هذا المشروع الجليل، فقدمت التماساً بذلك إلى سمو الوالي العام، فقبل الطلب وسمح بالجواب، ولم يثن عزمي عن الإبرار بالعمل إلا التوقف عن الإسترشاد برأيكم في إختيار أحد القطرين لأني لا أودّ الشروع في عمل لا تكون لك فيه الخيرة، ما دمت أعدّ نفسي نشئاً تونسياً».

ولم يتلق (الثعالبي) رداً من الكاتب العام على هذا المشروع المسكوت عنه، وما كان لـ (م. روا) الذي حاصر نشاط (الثعالبي) في تونس، وأوقف، أو أوعز إلى إيقاف جريدة (سبيل الرشاد) قبل ست سنوات، أن يسمح له بالنشاط من جديدة خارج تونس، وبعيداً عن المراقبة والمطاردة. خاصة وأن الحاكم العام في الجزائر في هذه الفترة، الذي وافق الثعالبي على إنشاء جريدة



N° 700 (Anc. 307)

SECTION D'ETAT

TELEGRAMME

OFF TU ALGER 5832 78 28 10 HM GOUVERNEUR GENERAL ALGERYE A RESIDENT –
GENERAL TUNIS = VOUS SERAI OBLIGE ME FOURNIR RENSEIGNEMENTS PLUS DETAILLES
SUR LE TALEB ABDELAZIZ OBJET VOTRE TELEGRAMME 26 COURANT NOTAMMENT
SUR SON NOM EXACT SA TRIBU D ORIGINE DOMICILE ACTUEL DE SA FAMILLE DANS
ARRONDISSEMENT DE BOUGIE AFIN QUE PUISSE LE FAIRE SURVEILLER DES SON
ARRIVEE SERAI HEUREUX DE CONNAITRE AUSSI DATE DE SON DEPART DE TUNIS ET
ITINERAIRE QU IL DOIT SUIVRE = VOIE DE TERRE OU MER

تعقّب زيارة (الثعالبي) للجزائر سنة (1903)
برقية تبادل بيانات تفصيلية واحتياطات مشدّدة
بين الحاكم العام في الجزائر والمقيم العام في تونس

سولاي الاجل الهمام سعادة الكاتب العام بالدولة التونسية

كنت سافرت الى الجزائر ومنها الى عاصمة المغرب الاقصى وهناك عزمت على
ابراز مقاصدي بنشر جريدة عربية (وقد كانت كاتبت السعادة بذلك) تكون بمثابة
المرآة المجلوة للامة العربية يرون بها انفسهم ويعتبرون بها غيرهم وبعد البحث
بهذا الغرض مدة بدار الدولة المخزنية هناك لم اقف على محل بدون اعتماد عليها
وبعد اجراء اللازم رخصت لي بنشرها (وان كانت بلاد المغرب لا تحتاج الى جرائد)
ولما استقصت المصارف الى هذا الحد رجعت بالاخرة الى الجزائر لانماء الغرض
الذي دعاني الى المجيء اليها اول مرة وهناك علمت ان الحكومة تود نشر جريدة
عربية تكون مثابة لشؤون الجزائريين فوددت ان اكون مساعدا بحياتي
امام هذا المشروع الجليل وعرضت التماسا بذلك الى سمو الوالي العام
فقبل الطلب وسمح بالجواب ولم يثن عزمي عن الابرار بالعمل الا التوقف
على الاستعداد بمالية مع اختيار اهل الفكر لانه لا اود المشروع في محل
لا تكون فيه حيثية الجريدة ما دمت اعد نفسي نشأ تونسيا .

وعلى كل حال على الحكومة التونسية من حرج اذا اقترحت عليها كلمة
تشجيع على هذا المشروع ان كانت محله من الصحف ولو كان بالاشتراك
او بغيره حتى اكون واثقا برضاها على الدوام والمأمول الجواب والسلام

عبد العزيز الثعالبي

رسالة نادرة بخط (الثعالبي) وإمضائه عن محاولاته سنة (1903)
لإصدار جريدة عربية في الجزائر أو المغرب

عربية، هو (شارل جونار) الذي جاء لفتح (قلوب المسلمين) كما يقول، والذي ينظر إليه الجزائريون بنظرة تشوبها مسحة من التفاؤل.

وبعد تبخّر هذا المشروع للثعالبي في الجزائر أو المغرب، حاول من جديد، وأعاد الكرّة، بخطاب بتاريخ (20) جانفي (1904) إلى (روا):

مولاي، الشهم الهمام.

أقدم لسعادتكم هذا الجدول بياناً للمصاريف اللازمة، مع مراعاة الآكد فالآكد منها عسى أن يحظى برعاية نظركم السامي، حتى إذا وقع لديكم موقع المقبول، فالرجاء أن تسمحوا بجعل مبلغ الإعانة في السنة الأولى، مناسبة للمصاريف، لتتأكد بذلك ضمانة إستمرار الجريدة مع سلوك الخطة المرضية التي هي أمل الجميع».

* * *

وهكذا تستمر جهود (الثعالبي) اليائسة في سبيل عطاء صحافي يخدم به أمته، وتصطدم هذه الجهود بصخرة الإصرار الاستعماري على كبت أي نفس يمكن أن يكون سبباً ليقظة أو صحوة أو حيويّة، يخشى الدخيل عواقبها.

وحتى سنة (1909) يجد (الثعالبي) متنفّسة في جريدة (التونسي) رئيس تحرير لنسختها العربية، متضامناً مع (علي باش حامبة) في نفس وطني صميم، متنام متصاعد حتى الغزو الإيطالي لطرابلس سنة 1911، ثم أحداث (الجلاز) ومقاطعة (الترمواي) وإلقاء القبض على (الثعالبي) و (باش حانبه) ورفاقهما سنة 1912.

* * *

في بداية الحرب العالمية الأولى، والأطماع الأوروبية تتجه نحو الخلافة العثمانية للإنقضاض على ما تبقى من ممالكها، ولاقتحام عاصمة الخلافة في الأستانة. كان الصراع على أشدّه بين تركيا متحالفة مع المانيا،

وانجلترا متحالفة مع فرنسا وهما الدولتان المستعمرتان لشمال أفريقيا إلى جانب إيطاليا.

مع بدايات الحرب سنة (1914) كان الأمل لا يزال يراود رجال السلطة في الأستانة لاسترجاع ما ضاع من الدولة العثمانية في الشمال الأفريقي، فجاءت فكرة توجيه حملة تركية بقيادة (جمال باشا) لاحتلال مصر من جديد، وافتكاكها من التسلّط الإنجليزي.

ولكنّ خطة هذه الحملة، كانت أوسع بكثير من دخول مصر، على أمل أن الحملة عند نجاحها تستأنف زحفها غرباً نحو طرابلس، فتونس، وحتى الجزائر والمغرب الأقصى.

كان الجوّ السياسي مشحوناً في كل هذه الأقطار، وكانت المشاعر الملتهبة تغطّي الساحة الوطنية. فالحزب الوطني في مصر كان في ذروة مواجهته للإنجليز خاصة بعد خروج الزعيم (محمد فريد) شبه منفى من القاهرة، سنة 1912، وإبعاد (الخديوي عباس حلمي الثاني) سنة 1914 وكان يبدي في الظاهر تعاطفاً مع الحركة الوطنية، ولذلك أصرّ الإنجليز على عدم عودته، وتعيين عمّه السلطان حسين كامل بدلاً منه.

وطرابلس لم تزل حديثة العهد بمواجهة الغزوة الإيطالية سنة 1911 والحرب الطرابلسية لم تضع أوزارها بعد، وإنما هي بين كر وفرّ، ولذلك عندما تسلّم (أنور باشا) وزارة الدفاع في الأستانة، طلب من (سليمان باشا الباروني) الذي كان عضواً في مجلس الأعيان بالتعيين جزاءاً على جهاده ضدّ الإيطاليين، طلب منه الرجوع إلى طرابلس، واستئناف الجهاد من جديد، انتظار للحملة التركية على مصر.

وفي وزارة الدفاع في عاصمة الخلافة كان هناك عنصر محرّك لهذه الخطة، يضع لها الإمكانيات المتاحة له، مسؤولاً عن التشكيلات الشرقية في وزارة الحربية، ذاك هو (علي باشا حانبه) الزعيم الوطني التونسي، الذي حمل معه مبعداً من تونس سنة (1912) كل الحقد والكراهية للاستعمار

الفرنسي في بلاده، وواتته الفرصة في موقع السلطة في الأستانة لتجسيم مطامحه الوطنية في زحف عسكري نحو بلاده.

قال (سليمان باشا الباروني) في معرض تصحيحع لما ورد من خلط في كتاب (حياة الشرق) لمحمد لطفي جمعة بين محمد باش حانبة، وأخيه علي باشا حانبة ونسبة مآثر الأخير للأول، كتب (الباروني) إلى (جمعة) يقول:

«ولما أعلنت الحرب العمومية، وأحدث (أنور باشا) وزير الحربيّة (دائرة التشكيلات الشرقية) عيّن (علي بك) مديراً لها، فقام بإدارتها أكثر مما يرجى منه. وكان له صوت مسموع وحرمة عند أنور باشا، وهو المكلف بإرسال ما يلزمنا وما نطلبه من وزارة الحرب من المهمات اللازمة لحربنا في طرابلس الغرب مدة الحرب العمومية كلها. وكان (علي بك) يعلّق علي انتصاراتنا في طرابلس آمالا عظيمة نحو وطنه تونس الخضراء. حتى أنه عزم على زياتنا أخيراً في غواصة، لما تقرر إجراء الترتيبات على الحدود الغربية الطرابلسية استعداداً للزحف على تونس، ليحضر بنفسه تعيين مواقع سوق الجيش والذخيرة والتلغراف واللاسلكي، ويشاهد أول التحركات ويعود إلى القسطنطينية للسعي في تقويتها».

لم يكن (الثعالبي) غائباً عن هذه الخطة، بل كان في صميمها، وكان عمقاً إستراتيجياً لها، وكان يهيىء الجو لوصولها، ويشكل الخلايا السرية لتمهيد الأرضية لها. لقد إختار أن يعود إلى تونس في الوقت الذي أصرّ فيه (علي باشا حانبة) على البقاء في تركيا ما دام الوضع في وطنه على ما تركه عليه سنة 1912، تباينت المواقع بين الرجلين، ولكن المشاعر الوطنية واحدة، والخطط السياسية متكاملة مع التحرّكات العسكرية.

يروى (أبو اليقظان) أحد المقربين من (الثعالبي) في هذه الفترة، وموضع ثقة الزعيم الدستوري في الأمور السرية الخطيرة.

«في سنة (1917) أنشأ الشيخ (عبد العزيز الثعالبي) في تونس جمعية

سرية فدائية، غرضها إحداث حركة تحريرية في المغرب العربي كلّه، ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى. وفي تونس كان رئيسها هو الشيخ الثعالبي، ومعه خمسة أعضاء والجمعية تتركب من ستة، ولكل من هؤلاء الستة أن يستأذن الجمعية في إنشاء فرع من أناس تثق بهم الجمعية وترضاهم، يكون هو رئيسهم لا يعرفون غيره من أعضاء الجمعية المركزية.

وكان للشيخ (صالح بن يحيى) فرع من (الميزابيين) في تونس يتركب من ستة: (أبو اليقظان) (الشيخ يوسف بن بكير) (الشيخ عبد الله بن إبراهيم أبو العلاء) (الناصر بن صالح ملالي) (أحمد بن الحاج إبراهيم بن كاسي) (عمر بن محمد بو حجام) وكان لنا جلسة في كل أسبوع تحت رئاسة الشيخ صالح. وكنا لا نعرف غيره من أعضاء اللجنة الأصلية. كان هو صلتنا بها، ينقل إلينا أوامرها.

وكان القائد التركي (جمال باشا) عازماً على إحتلال مصر، ثم غربها إلى الجزائر والمغرب الأقصى، وكان المغرب الكبير يستعدّ لوصوله، ويّمنى نفسه بالتحرير فأنشأ في أنحائه كلها فروعاً لهذه الجمعية السرّية، فصارت تستعدّ لوصوله، لتثير المغرب كله على فرنسا، إذا طرقت جيوش الدولة العلية أبوابه.

فلما أخفقت خطة (جمال) لاحتلال مصر ألغيت هذه الجمعيات السرية».

ولم تفشل حملة (جمال) فحسب، وإنما إقتحم أسطول الدول المتحالفة ضد تركيا، أبواب (الدردنيل) لاحتلال عاصمة الخلافة، وقبل الوصول إلى قلب العاصمة كان الزعيم (علي باشا حانبة) قد لفظ أنفاسه الأخيرة غماً وكمداً.

إنّها صفحة مشرقة من صفحات البطولة، لا تقاس بنتائجها السلبية، في فترة تاريخية معاكسة، بين دول إستعمارية متصاعدة. وإمبراطورية متهاوية،

تعيش آخر أيامها. إنما تقاس بالإصرار على التضحية حتى النفس الأخير ليبقى إرث الإصرار متعاقباً عبر الأجيال.

واتجه (الثعالبي) بعد هذه التجربة المريرة، والغصّة الخانقة، إلى العمل السياسي، وكانت هذه الانتكاسة بداية الانتفاضة للحزب الحرّ الدستوري الذي يشهد ميلاده بعد سنتين من رحيل (باشا حانبة) مأسوفاً عليه. ولكن الإستعمار يبقى أبداً بالمرصاد لرموز الحركة الوطنية، لا يمهل إلا ترقّباً للانقضاض، ورحيل الوطنيين في قاموس الاستعمار، رحيلان، رحيل نهائي أو رحيل إلى أجل معلوم. وطعم الرحيلين واحد، مرّ علقم. تعقبه راحة أبدية في الأوّل، وموت بطيء في الثاني.

وكذلك كان المصير لـ (الثعالبي) سنة (1923).

في شهر جويلية (1923) ودع (الثعالبي) تونس[44]، وداع المضطر، كسير النفس، مهيض الجناح، قليل النصير، كثير الأعداء. استبد به الأبعدون، وانقلب عليه الأقربون. وبدهاء ومكر المقيم العام (لوسيان سان) أحكم الحصار حول الثعالبي، حتى لا يبقى له منفذ إلا الخروج من الوطن. حوصر في لقمة عيشه، وجرعة مائه. وروقب في متنفسه وهوائه. وسُلط عليه أعوان الأمن من بين يديه ومن خلفه، يعدّون عليه أنفاسه، ويتعقبون خطواته، ويتوعدون من اقترب منه. فلم تبق حوله إلا الفئة الصابرة المؤمنة، التي نصحته بالخروج إبقاءاً عليه. وعلى الحركة التي يرعاها، لأن السلطات الفرنسية، كانت عاقدة العزم على التخلص منه مهما كلفها الأمر، وكذلك فعلت برمز الحركة الوطنية في الجزائر، وفي نفس السنة (الأمير خالد الجزائري)[45] حفيد الأمير عبد القادر الجزائري.

---

(44) غادر (الثعالبي) تونس يوم الأربعاء (18) حويلية (1923) متجهاً إلى إيطاليا، ورواية تقول يوم الخميس (19).

(45) غادر الأمير خالد الهاشمي الجزائر منفياً في شهر أوت (1923) متجهاً إلى مصر، وأجبرته السلطات الفرنسية على مغادرة العاصمة الجزائرية قبل هذا التاريخ بثلاثة أشهر أقامها في بلدة (عين البيضاء) شرق الجزائر، عند صهره قاضي هذه البلدة.

كتب (الثعالبي) من عدن بتاريخ (11) أكتوبر (1924) يقول:

«نعم. يجب أن أبقى في تونس، وأستمر على الجهاد والتضحية حتى ندرك ساعة النصر، ونحرز على الفوز. ولكن لماذا خرجت؟».

لم أخرج أشراً أو بطراً. بل خرجت مضطراً. وكلكم تعلمون ذلك، أم تريد أن أكاشفك بالسر المخجل؟ وأنا آنف أن يخطه قلمي. لكن تدوينه واجب لرجل مثلي، حياته اليوم ليست له. بل هي للأجيال والتاريخ.

إن تونس التي كنت أنفق عليها من مواهبي، وأغذيها من روحي، تركتني على أسوإ ما يكون من حالات الاضطرار، وأظهرت عجزها التام عن تغذية جسمي، فخرجت ألتمس الرزق في غيرها، بعد أن آليت أني سأواليها بما عودتها به من الأغذية الروحية، وقد فعلت، وما فترت عنها أبداً»[46].

وفي شهر (جويلية 1937) عاد (الثعالبي) إلى تونس، ليواجه محنة الشقاق والوفاق في الأسرة الدستورية، محنة التصدع في (الحزب الحر الدستوري التونسي): «لما شجر الخلاف في الحزب الحر الدستوري التونسي، أواخر سنة (1933) لم أتصل بأخباره إلا في فبراير سنة (1934) وأنا في (بورمة) وقد شق عليّ كثيراً أن ينقلب الحزب الذي لاقيت في تأسيسه أشد الآلام من سنة (1918) إلى سنة (1923) وكان قصدي من تأسيسه أن يكون أداة صالحة لخدمة البلاد، وتوحيد جهودها على الخير، ولم شعثها

---

(46) ورد في كتاب (الثعالبي والحركة الوطنية) رواية عن الحكيم أحمد بن ميلاد ما يلي:

«ذكر لي الشيخ الثعالبي يوماً، أنه أرسل إلى الحبيب باي عند انتصابه على العرش، يذكره بوعوده في إعانة الوطنيين على نيل مطالبهم، وأهمها الدستور فأجابه: (إذا أردت أن أتدخل لدى المقيم العام ليعطيك (قيادة) أو منصباً سامياً، فيا حبذا وإلا، فالزم مكانك».

ويروى (ابن ميلاد) في مقدمته لكتاب (تاريخ شمال أفريقيا) للثعالبي: «كان الشيخ الثعالبي يجلس أحياناً بمقهى (السطنبولي) بحي (الحفاوين) فقال له صاحب المقهى ذات يوم، يا سيدي، إن الشرطة قد أعلمتني بأن وجودك هنا غير مرغوب فيه. فالرجاء ألا تتسبب في غلق المقهى، الذي هو مورد رزقي وأنا رب عائلة وأبناء».

لاسترجاع حقها السليب. فعز علي أن ينقلب أداة شغب، ومثاراً للفتن الداخلية بين أهل الوطن الواحد، وكـانت رسائل المواطنين تلاحقني من قطر إلى قطر في طريقي إلى الصين، وكل هذه الرسائل تطالبني بأن أسرع بالعودة إلى الوطن لإنقاذ الموقف، وإصلاح ذات البين، وإعادة التيار القومي إلى مجراه الطبيعي».

* * *

ولكن (الثعالبي) الذي جبل على الإصرار، والصبر والمصابرة والمرابطة. لم يتسلم للداء العياء، ولم يستكن للإحباط المقعد. بالرغم من تطاول (الفلتاء) كما يسمّيهم، والتآمر على حياته غير مرّة، وتسخير الأقلام المأجورة للنيل منه، وتشويه سمعته.

الرجل الذي وهبه الله (بسطة في العلم والجسم) هدّه المرض جسماً، وعزّ عليه روحاً. حتى وهو على مسافة أيام من أجله المحتوم. كان يحمل همّ (الحزب الحر الدستوري التونسي) يتسامى به بعيداً عن الصغائر التي زرعت في طريقه لتلهيه عن الرسالة الخالدة، التي أسس من أجلها على تقوى من الله ورضوان، عن الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال «فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان».

كان (الثعالبي) يسابق الأجل في أواخر أيامه، ليصل بالحزب إلى الغاية الأسمى، التي بينّها من يوم تأسيسه قبل ربع قرن، وهي استقلال تونس. فأشار بعقد (مؤتمر سرّي) والحرب العالمية الثانية دائرة الرحى، وتمّ عقد المؤتمر، كما تشير مخطوطة (محمد الحبيب شلبي) عن تاريخ (الحركة الوطنية) في شهر سبتمبر (1944) قبل أسبوع من وفاة الثعالبي. وما كان له أن يحضره وهو على فراش الموت، ليلقى ربه راضياً مرضياً، (المؤتمر السرّي للحزب) ضمه منزل الحكيم أحمد بن ميلاد في زنقة الرياض بالحلفاوين، كما روي لي، وروت زوجته. وانفضّ المؤتمر عن قرار حاسم: «المطالبة بالاستقلال التامّ» ونظراً لظروف الحرب القائمة، فوّضت اللجنة التنفيذية في اختيار الوقت المناسب للإصداع بهذا القرار.

في افتتاحية (الإرادة) في العدد الأول من سلسلتها الثانية (707) الثلاثاء (28) ربيع الثاني (1367 هـ) (3) مارس (1948 م) وتحت عنوان (فاتحة عهد وتاريخ جديد) جاء ما يلي:

«وفي يوم (5) شوال (1363 هـ) (22) سبتمبر (1944 م) عقد حزبنا مؤتمراً عاماً (سرياً) قرّر فيه - والحرْب لا تزال دائرة الرحى - المطالبة بحق الأمة الكامل في الحريّة والاستقلال. (وأن يجعل غايته من الجهاد الذي يضطلع به، هي التحصيل على الاستقلال التام للبلاد، وتمكينها من حكم نفسها بنفسها، وفق دستور ديمقراطي حرّ).

وبعد اتخاذ الحزب لهذا القرار العظيم الأهمية، ودّع هذا العالم الفاني، إلى الرفيق الأعلى، حضرة الزعيم العظيم الجليل الشيخ عبد العزيز الثعالبي، مؤسس حزبنا علي تقوى من الله ورضوان، ومشيّد أركانه على دعائم ثابتة من الإيمان بالله، وبحق الوطن الكامل، ومن الإخلاص للأمة، والرعاية لمصالحها، والدفاع عنها بكل ما أوتي من توفيق ونشاط. فكانت النكبة بوفاة الزعيم الجليل عظيمة، والمصاب فادحاً. وكان العزاء الوحيد الذي وجده رفقاؤه وأبناؤه، بديلاً عن فقده. هو أنّه رحمه الله، لم يفارق هذه الحياة الدنيا إلى جنان الخلد، حتى رأى مؤتمر حزبه، يصل إلى اتخاذ ذلك القرار العظيم الأهمية. وحتى علم أنّ الدعوة إلى الاتحاد أخذت تمشي في الأمة، تمشّي البرء في الجسم العليل».

وبعد سنوات سبع شداد، من عودة (الثعالبي)، معاناة نفسية، ومقاساة صحية، وبعد سبعين سنة، ثلثها في الحل والترحال. والضرب في أرض الله، وأرض الإسلام، بعيداً عن الوطن والأسرة، والأحبة ورفاق درب البطولة، وما تبقى في الثلثين، صراع مرير مع المستعمر، وصراع أمر منه، مع التخلف، والإستكانة والإستخداء و (دعاة الهزيمة)[47]. بعد كل ذلك.

---

(47) نشرت جريدة (الإتحاد) في عددها (59) (15) جمادى الثانية (1341) هـ (2) فيفري (1923) م افتتاحية حاسمة تحت عنوان (دعاة الهزيمة) ومما جاء فيها: =

هدأت النفس الزكية، واستراح الجسد المضني، وصعدت الروح إلى بارئها:

«يا أيتها النفس المطمئنة، إرجعي إلى ربك، راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي».

صدق الله العظيم

= «خصلتان ذميمتان، اليأس والجبن، كلاهما فتاك، وكلاهما قاتل، فليتطهر منهما من أحس بهما، إن رام السعادة، وأما الداء الثالث الذي أشير إليه في هذه العجالة وهو الطمع، فلا دواء فيه، لأنه داء مقصود وأصحابه جديرون بالشفقة.

هذه الأمراض الثلاثة التي حلت بآحاد، لا يقعقع لهم بشنان، فأوجس منهم بعض أصدقائي خيفة، وطلبوا مني بيان رأيي فيها، ففعلت بإيجاز ونصيحتي الأخيرة التي أسديها لأبناء بلادي، أن لا يكثروا حول هؤلاء المصابين ترديد كلمة (الخيانة) فإنها تهيج أوجاعهم، ويصيبهم منها مس من الجن. يحسبون به أنهم على شيء، وهم خلو من كل شيء، وإنني أرى أن الخيانة لا ينطبق مدلولها إلا على من كان بيده أمر عام، وتعمد التفريط فيه.

أما أولئك الضعفاء، فدعوهم بـ (المهزومين) وكفى».

والإفتتاحية بدون إمضاء ولعلها لـ (الشاذلي بن الخطاب) صاحب الجريدة أو لـ (محي الدين القليبي) أما (محمد الجعايبي) فقد كتب في جريدة (الصواب) عدد (397) (3) أوت (1923) بعد خروج الثعالبي بأسبوعين:

«فإننا نلفت نظر القراء إلى أن وجود الحزب، ونموه وظهوره في مظهره العظيم لم يكن من صنيع الشيخ عبد العزيز، ولا من تأثير زعامته عليه. بل هو نتيجة عمل العاملين، وإخلاص المخلصين من رجال الحزب الأبطال.

وبهذا تم هذا البناء الشامخ على قاعدة التكامل العام. بحيث لم يصب الشيخ عبد العزيز من هذا التأسيس إلا بقدر ما يصيب كل فرد من أفراد العاملين.

وبهذا البيان يتضح لكل من له وجدان أن سفر الثعالبي لا يترتب عليه هدم هذا البناء ولا تقويض أركانه البتة».

وعندما حاول (الجعايبي) إبداء مشاعره الطيبة نحو (الثعالبي) بعد عودته سنة (1937) ذكرته جريدة (الإرادة) بهذه المقالة، وجدير بالذكر أن (الجعايبي) هو الذي سلم الثعالبي تذكرة سفره مع مبلغ من المال من الإقامة الفرنسية العامة عند خروجه سنة (1923).

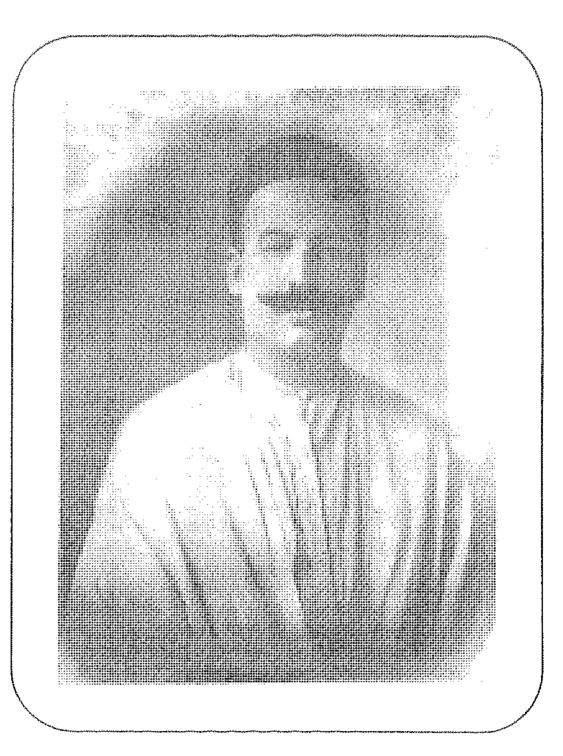
المراجع: جريدة (الإتحاد) و (الإرادة) و (الثعالبي والحركة الوطنية).



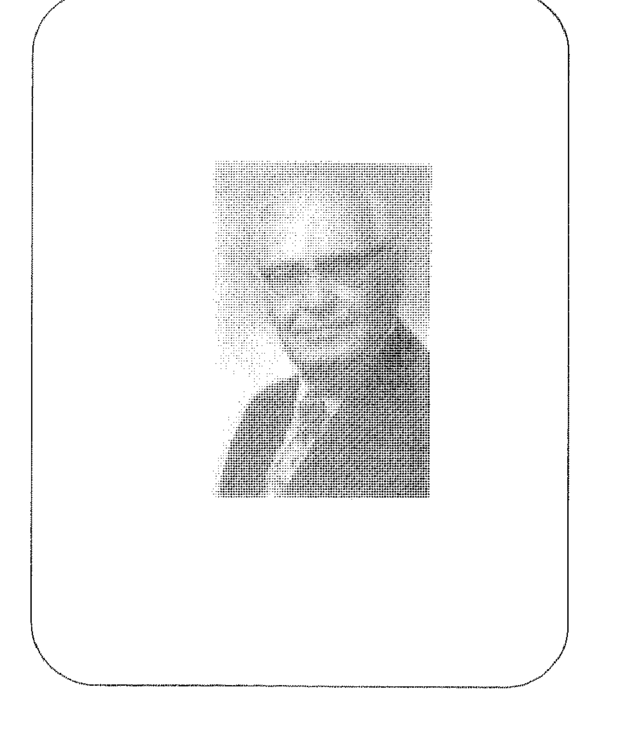
(الشيخ طاهر الجزائري
1852 ـ 1920)
قال عنه الخطيب:
«عن الشيخ طاهر الجزائري
عرفت عروبتي وإسلامي».



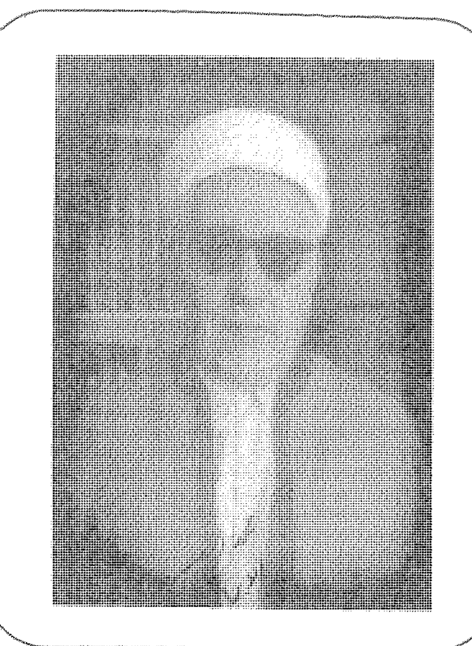
(محبّ الدين الخطيب
1886 ـ 1969).



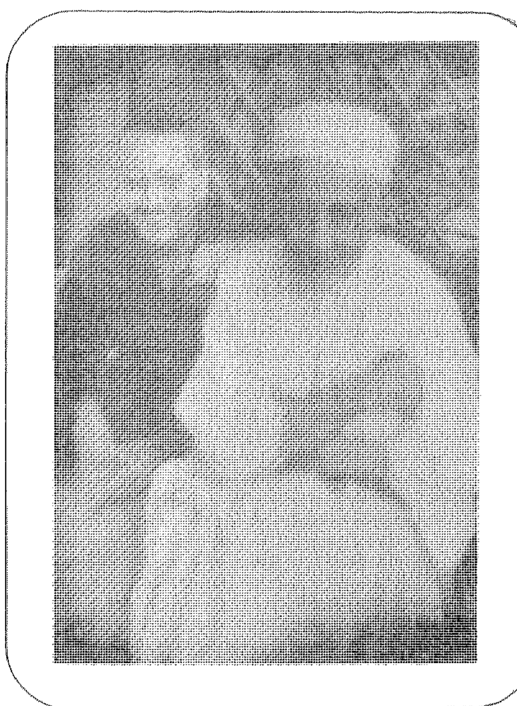
محيي الدين القليبي
(1899 ـ 1954)



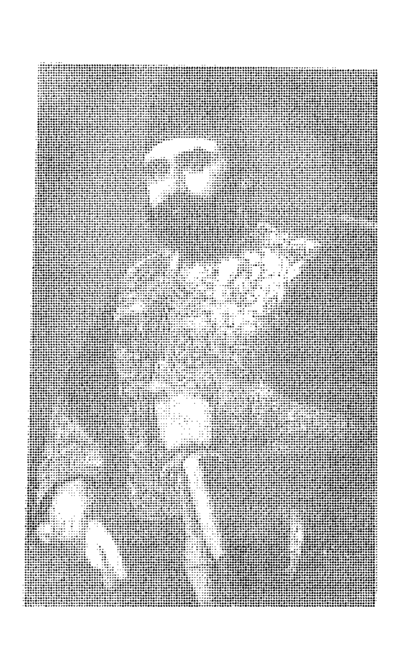
أحمد توفيق المدني :
(1899 ـ 1983)



صورة مهداة إلى المؤلف
بخط الشيخ
محمد البشير الإبراهيمي



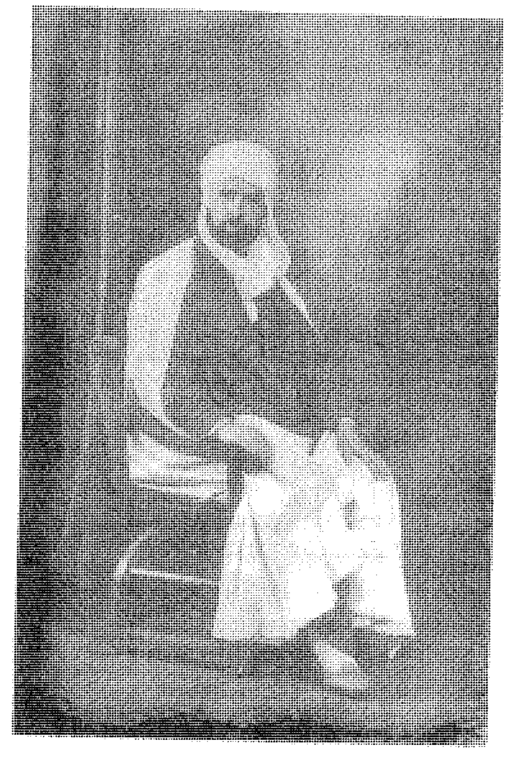
صورة للمؤلّف
مع الشيخ الإبراهيمي في أواخر
الخمسينات في القاهرة



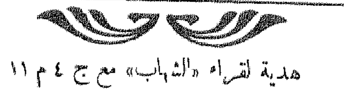
(سليمان الباروني 1873ـ1940)
بلباس مجلس المبعوثان في
الأستانة



الأمير خالد حفيد الأمير
عبد القادر الجزائري
(1875 ـ 1936)



رسم الاستاذ مبارك بن محمد الميلي
العضو بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأحد وعاظها
على مبدأ الآيـة : « قل انما انذركم بالوحي »



هدية لقراء «الشهاب» مع ج ٤ م ١١

(مبارك الميلي : 1897 ـ 1945)

من
آثار الثعالبي وأخباره

في سبيل الوحدة العربية

نهضة العرب
ضرورية لسلامة العالم وانقاذه من مشاكله

للأمة العربية من ماضيها الفاخر ومجدها الباهر وموقعها الطبيعي الممتاز، مقام عظيم يعرفه الدارسون لتاريخ العرب وجغرافية البلاد العربية، لكن يظهر أن العرب المتأخرين الذين جهلوا أنفسهم لم يعنوا أقل عناية بهذه الدراسات، بل جهلوها فأخلدوا إلى الإستسلام والرضى بالهوان تاركين للمستعمرين الغربيين أن يحلوا محلهم في كل ما له مساس ببلادهم وتدبير شؤونهم وتسيير مقدراتهم، واستطابوا العيش في كنف هؤلاء المتغلبين حتى أصبحوا ينظرون لأنفسهم بنظر أولئك فيهم كأنهم لم يكونوا أحفاد الفاتحين ساسة العالم ومروضي الأمم.

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام[1]

إن نظرة واحدة يلقيها عرب اليوم على المصور الجغرافي تكفي لإدراك المنزلة العظيمة التي لبلادهم بين الممالك والأقطار، ففي البلاد العربيّة تلتقي جميع خطوط المواصلات العالمية براً وبحراً وجواً وهي معبر الشرق إلى

(1) البيت من قصيدة المتنبي التي مطلعها:

لا افتخار، إلا لمن لا يضام مدرك، أو محارب لا ينام

وقبل هذا البيت المستشهد به، قول المتنبي:

ذلّ من يغبط الذليل بعيش ربّ عيش، أخفّ منه الحمام

كل حلم، أتى بغير اقتدار حجّة، لاجىء إليها اللئام



حضرات السادة الاجلاء الذين اجتمعوا في دار العروبة بمصر للمداولة في شأن تخليد ذكرى فقيد العرب المغفور له الحسين بن علي وتنظيم حفلة تأبينه وهم من اليمين الى اليسار: الصف الاول: الشيخ احمد فهمي المحامي الشرعي. الدكتور عبد الرحمن شهبندر. الاستاذ عبد العزيز الثعالبي. الدكتور احمد قدري قنصل العراق في مصر. الاستاذ احمد زكي باشا شيخ العروبة. السيد عبد الملك الخطيب. الاستاذ التفتازاني. الاستاذ محمد لطفي جمعه المحامي. الصف الثاني: الحاج شفيق الحسامي. الاستاذ تيسير ظبيان. الدكتو محمد مختار عبد اللطيف. الدكتور محمد سلمان. محمد افندي توفيق. الاستاذ كاظم الدجيلي سكرتير القنصلية العراقية بمصر

طبعت بمطبعة الطائف المصورة باب اللوق بمصر

الثعالبي مع رجال العروبة والإسلام في القاهرة سنة 1931

الغرب وطريق الغرب إلى الشرق ومن هذه الناحية كانت ذات مركز ممتاز في نظر الساسة وقواد الحروب قديماً وحديثاً. وهذا المركز الممتاز خولها فيما سلف من الأحقاب حق السيادة على العالم كما خولها إياه اليوم وإلى ما شاء الله ما دامت الأمم محتاجة إلى تبادل المنافع وإلى التعاون الاقتصادي ومن فضول القول تكلف الدلائل على إثبات هذه الحقيقة الناصعة التي لا يصح الجدل فيها.

فبلاد لها هذا الشأن العظيم يكفي وحده لجعل أهلها لا سادة لأنفسهم فحسب بل سادة العالم طراً. ولم لا وهذا البحر المتوسط يغمر نصفه الشرقي العرب بعد أن سادت فيه مدنيتهم وسياستهم قروناً طوالاً ومنه شعت أنوار حضارتهم في أقطار كثيرة من أوروبا. وهذا البحرّ الأحمر والبحر الأخضر (الأطلسي) وخليج العجم هي في الواقع بحيرات عربية وشطوطها مأهولة بالعرب والمستعربين وما زال العرب يسودونها بعنصر يتهم القوية وآدابهم ولغتهم، وليست مقدراتها لأحد سواهم، لهم الأرض والعدد وما عليهم إذا أرادوا أن يعيدوا سطوتهم السياسية إلا أن يلموا شعثهم ويرأبوا صدعهم وبذلك تعود عظمتهم سيرتها الأولى.

ولا ينقص الأمم التي تكون لها هذه المواقع البحرية شيء من وسائل التغلب إلا العلم والتكاثر، والعرب بحمد الله كثيرون في أقطارهم يملأون أطراف القارتين آسيا وأفريقية، وبلادهم تمتد من تخوم البلوجستان إلى ضفاف البحر الأخضر (المحيط الأطلانطيقي) وتعدادهم يبلغ قرابة 100 مليون نسمة وفي بلادهم من موارد الخامات وينابيع الثروة ما لا يوجد في أقطار العناصر الأخرى. أضف إلى ذلك أن مدنيات كثيرة نشأت في بلادهم كما أن هذه البلاد كانت طريقاً للمدنيات التي نشأت في غيرها ثم إستقرت فيها، فهي بذلك موطن المدنيات وملتقى الحضارات، ولها فوق ذلك من المميزات والخصائص القومية ما يجعلها في عصام من الإندماج في الأمم التي مرت عليها، فهي ذات وحدة عنصرية قوية قائمة على وحدة اللغة والدين والتاريخ والمصالح المشتركة، يضاف إلى ذلك عنصر حديث من عناصر

السكون الإجتماعي، وهو عنصر التذكر والكراهيّة للطغيان الإستعماري، كما أنه لا يفصل بعض أقطارها عن بعض فاصل طبيعي أو عرقي سوى أوضاع سياسية أرغمت على قبولها إرغاماً لا صلة لها بنفسيتها، وقد تختلف قوة وضعفاً باختلاف مناطق النفوذ الأجنبي ودرجة تأثيره فيها ومهما بالغنا في تقدير أثره فإنه ليس في قوته أن يحلل ما لديها من عقيدة متأهلة فيها وهي (قدسية الذاتية العربية) ولست أظن أنه يوجد عربي بلغ ما بلغ من الاستخذاء يحترم هذه الأوضاع السياسية النابية عن قوميته وعقيدته ويؤمن بها فهو يراها كيداً أجنبياً فرض عليه لتحقيق رغبة منافية لمصلحة قومه. والأوضاع السياسية كالأحداث تزول بزوال القوى الباعثة عليها.

ومهما كانت ظروف الأقطار العربية فعلى كل عربي يشغل فراغاً في محيط هذه الأمة أن يشعر بالمنزلة العظيمة التي لامته في هذا العالم وأن ينتبه للمكائد التي تدبر لها هنا وهناك لاعاقتها عن السير في الحياة وتجزئة أقطارها وصرفها عن إدراك حقوقها الطبيعية التي تميزها بين الأمم، وأن ينظر إلى حالتها الحاضرة نظرة تشاؤم وإشفاق مع بذل الجهد في استئلاف النفوس للتخلص منها، والعمل على توثيق حاضر الأمة بماضيها.

والعربي أينما كان، لم يبلغ به الإنصراف عن التفكير في المستقبل إلى فقدان الشعور بالعزة القومية أو الحنين إلى تجديد عهد مدنيته العظيمة وهي ميراثه الغالي وأثر قرائح أجداده. ومن السخافة القول بمنابذتها أو تكليف الطامع الغربي بانتقاء ما يصلح لنا منها، وهو جاهد في تحطيمها وصرفها عنها وأن نكل إلى خصوم نهضتنا تدبير أمرها وقد ران الغرض على قلوبهم والغرض يعمي البصائر عن الحق، ولو انصف هؤلاء لأدركوا أن نهضة العرب ضرورية لسلامة العالم وإنقاذه من المشاكل التي تعصف به، بسبب التكالب على إستعمار بلادهم.

ولا يجوز للعرب مطلقاً أن يغضوا الطرف عن هذه الحقيقة، فسلامة العالم بين أيديهم. وفي اليوم الذي تتحرر فيه البلاد العربية من الإستعمار

ويكون للعرب شأن في إدارة السياسة العالمية، تستحيل المنافسات الدولية إلى وفاق ووئام بين الأمم ذات العناصر القوية، فالمنازعات القائمة بين الدول سببها سياسة التغالب وهضم حقوق العنصريات الضعيفة فإذا أتيح لكل عنصر أن يحكم نفسه بنفسه تزول جميع أسباب الأثرة الدوليّة وحب التغلب على قاعدة سلب حريات الأقوام المستضعفة لاحراز القوة والتمكن من السيادة العالمية وهي موضع نزاع وقلق بين المتغلبين من الانجلوسكسون والسلاف واللاتين والجنس الأصفر.

ولن يكفل سلامة العالم الإتفاق بين هذه العناصر ما لم يكن للعرب ضلع فيه لأن لهذه العناصر مواقع محلية متأقلمة لا تشرف منها على العالم بعكس مواطن العرب الواقعة كما قلنا في ملتقى خطوط المواصلات الكبيرة ولسكانها حق الإشراف الطبيعي على الأمم، وهذا الحق جعلهم ذوي خصائص طبيعية لا توجد في العناصر الأخرى، وهي القدرة على امتصاص الأمم واستلابها، فما احتل العرب قطراً ولا دوخوا مملكة إلا واندمج أهلوها فيهم ولم يقصر العرب قط في إنصافهم، وكانوا يرفعونهم إلى مستواهم ويشركونهم في جميع ما لهم من الحقوق والمميزات.

والوسيلة الوحيدة للاحياء والتجديد عند العرب هو تفاهم العرب فيما بينهم بدون واسطة الحكومات، على ما يضمن سلامتهم وتقدمهم والرجوع به إلى نهضتهم الأولى، وهذا ما يجب أن يفكر فيه زعماء الأمة العربية وقادة الرأي فيها والأمل أن تكون مجلة (الرابطة العربية) الغراء مجالاً لأقلامهم في هذا الموضوع الخطير[2].

---

(2) مجلة (الرابطة العربية) العدد (7) 8 يوليو 1936.

الامبراطورية العربيّة التي نبشّر بها

«طاف مندوب الرابطة العربية على فريق من الزعماء والمفكرين في القاهرة يسألهم رأيهم في الإمبراطورية العربية التي تدعو مجلة الرابطة إلى تحقيقها وتبشر بها وفي الأساليب التي يجب أن تتبع في إيجادها، فتلقى الأجوبة الآتية التي ننشرها تدريجياً(3)».

حديث الثعالبي،

بدأ المندوب استفتاءه بمحادثة الزعيم الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي فدار بينهما الحديث الآتي:

س ـ هل أزف وقت التبشير ببعث الامبراطورية العربية؟

ج ـ أجل... هذا هو وقت العمل لإيجاد كيان هذه السياسة الجديدة، ومصر هي التي ينبغي أن يستقرّ فيها أولاً التبشير ببعث الإمبراطوريّة العربيّة لأنها تقع على شاطىء البحرين المتوسط والأحمر واتصالها عن طريق الحدود البريّة بالعالم العربي في آسيا وشمال أفريقية ووسطها وشرقها، ييسر لها القيام بهذا الدور الخطير، ومصر الآن مركز الثقافتين العربية والإسلاميّة ومن هذه النقطة، نقطة العمل الثقافي يجب أن يبدأ المبشرون بالامبراطورية العربية عملهم.

س ـ ما هي تفاصيل الخطة التي تشيرون باتباعها في مصر؟

ج ـ أولاً يلزم تأسيس رابطة قلمية تتألف من عدد كبير من الكتاب

---

(3) انظر أسماء الذين شاركوا في هذا الإستفتاء في هوامش (المدخل العام).

وحملة الأقلام، وتكون مهمتها تغذية الفكرة بالنشر في الصحف وبتأليف الكتب وبالالحاح في نشر هذه الآراء الجديدة بشتى الأساليب.

ثانياً ـ يجب العمل على زيادة عدد البعثات العلمية التي تفد إلى المعاهد المصريّة فالعدد الحاضر من الطلاب العرب الذي لا يزيد على 500 لا يكفي لتغذية الفكرة بسفارات قوية... وإنما نريد آلافاً من الشبان يجتمعون في معهد واحد على ثقافة واحدة[4].

---

(4) تحقيقاً لهذا التوجّه التربوي والثقافي كانت (الإدارة الثقافية) من بين الإدارات الأساسية التي أنشئت في صلب الأمانة العامة لجامعة الدول العربية عند قيامها سنة 1945، وإنشاء (معهد المخطوطات العربية) سنة 1964، وقيام (معهد البحوث والدراسات العربية) سنة 1952 ثم تكثيف أنشطة هذه المؤسسات وبلورتها في إنشاء (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) سنة 1971، بقرار من وزراء المعارف والتربية العرب في بغداد سنة 1964.

وجاء في دستور المنظمة وفي (المادة الأولى) من أغراض المنظمة ما يلي:

«هدف المنظمة هو التمكين للوحدة الفكرية بين أجزاء الوطن العربي عن طريق التربية والثقافة العلوم، ورفع المستوى الثقافي في هذا الوطن حتى يقوم بواجبه في متابعة الحضارة العالمية، والمشاركة الإيجابية فيها».

وقد تضافرت جهود هذه المؤسسات القومية بدءاً بالإدارة الثقافية في سبيل إرساء الدعائم الفكرية والتربوية والثقافية للوحدة العربية، وصياغة النصوص المرجعية لهذه الوحدة. مثل (ميثاق الوحدة الثقافية العربية) سنة 1964. و (دستور المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) في نفس السنة. وإنجاز الإستراتيجيات القومية في التربية والثقافة والعلوم (إستراتيجية تطوير التربية) سنة 1973 و (الخطة الشاملة للثقافة العربية) سنة 1985.

وعلى مدى نصف قرن منذ قيام الجامعة العربية في أواسط الأربعينات، عقدت في ظل المؤسسات التربوية والثقافية النابعة منها، والتابعة لها، عشرات المؤتمرات الوزارية المتنوعة، والمؤتمرات العلمية المتخصصة. والحلقات الدراسية الشاملة، ونتج عنها إرث حضاري في القرارات والتوصيات والبيانات. ونشر المئات من الكتب المرجعية، والموسوعات النوعية، وصياغة العديد من (التشريعات الثقافية). =

ثالثاً ـ يجب علينا أن نعني أكبر عناية بدراسة تاريخنا وأدبنا والبحث في العناصر الخفية التي إجتمعت لدين الإسلام وشعب الجزيرة ولسان العرب وتمكنت من هضم شعوب باسرها وإحالتها إلى طبيعتها، وفي أسباب هذه المرونة وخفاياها التي لم تتوفر لشعب من الشعوب الفاتحة في أدوار التاريخ.

رابعاً ـ والكشف عن أمجاد تاريخنا وفلسفة نشوئنا القومي، يستتبع العمل على توحيد مصادر الثقافة في البلدان العربية كلها.

خامساً ـ ثم إن التعاون الإقتصادي بين البلدان العربية، بالبحث عن مصادر المواد الأوليّة فيها والعمل على استهلاكها ضمن نطاقنا القومي الكبير يزيد في أربطة التوحيد بل يحيلها إلى صلات مادية ملموسة النفع[5].

ومن الممكن بل من الضروري أن تهتمّ طوائف من شباب مصر المثقف بارتياد البلدان العربية دارسة منقبة تعمل على معرفة حقائق الحياة الاقتصاديّة في البلدان العربية، وعلى نشر دعاية واسعة النطاق مبينة لها جميعاً فوائد التبادل الاقتصادي والثقافي.

س ـ إن كلمة «الامبراطورية العربية» تحمل قائلها وسامعها على أن

= وتخريج أجيال من أبناء الوطن العربي على مبدأ (الثقافة العربية الواحدة، والموحدة). وهو ما دعا إليه الثعالبي في أواسط الثلاثينات، وهو ينادي بالأمة العربية الواحدة.

(5) لم يزل حلم (التعاون الإقتصادي بين البلدان العربية) الحلم المؤرق لقادة الوطن العربي وشعوبه. والمؤرق في الوقت ذاته للأعداء الذين لا يريدون خيراً لهذا الوطن. وكلما قارب الحلم أن يكون حقيقة: تكالبت قوى الشر والعدوان على إجهاضه. وتكريس التجزئة الإقتصادية في الوطن العربي، وإخضاع ثرواته وخيراته لإبتزاز القوى الخارجية. وحرمان المواطن من خيرات وطنه. وفرض التبعية عليه في قوته وقوت عياله.

يبحث عما يمكن أن يترتب على تحقيقها من إنقلاب في نظم الحكم الحاضرة فيكف يمكن أن تعالج هذه المسألة.

ج ـ هذا التفكير سابق لأوانه. نحن الآن نريد أن نقرب بين الشعوب العربية ونوحد الرأي العام المستنير الذي يؤمن بوجوب إيجاد سياسة مشتركة

ويدرك من نفسه الحقائق التاريخيّة والجغرافية التي تغيب عنه، ويفهم على وجه صحيح معنى ما ورد في الذكر من أن الله جعلنا أمة وسطاً لنكون شهداء على الناس[6]، وما في هذا التنبيه الإلهي من إشارات جغرافية إلى مركزنا من العمل بكوننا صلة الوصل بين الشرق والغرب طرداً وعكساً. . . وبدلاً من أن نستغل هذا المركز فنهيمن على العالم، أغفلنا شأنه فسيطر علينا العالم، وهذا راجع بالطبع إلى كسلنا وعدم فهمنا لمعنى السيادة في نطاقها الواسع.

إن الحديث في نظم الحكم لبلداننا بعد أن يتمّ تحريرها ليس هذا وقته، بل يترك للمستقبل ليكيف نفسه بنفسه، يترك لعقل جبار، لا بد من أن يظهر عند الحاجة إليه ليستغل هذه الوحدة الدينية والتاريخية والأدبية واللغويّة. . . وحدة الأمل والألم، ليرسم على ضوء الرغبات العامة نظام حكم تراعى فيه هذه الظروف مجتمعة.

س ـ هل يصلح المؤتمر الإسلامي أساساً لبناء هذه الفكرة الجديدة؟[7].

---

(6) إشارة إلى الآية الكريمة (143) من سورة (البقرة):

«وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً. لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول. ممن ينقلب على عقبيه. وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله. وما كان الله ليضيع إيمانكم. إن الله بالناس لرؤوف رحيم». صدق الله العظيم.

(7) (المؤتمر الإسلامي في القدس): افتتح ليلة (27) رجب سنة (1350 هـ) وقد إرتجل فيها (الثعالبي) خطبة نشرتها مجلة (الجامعة العربية) التي أصدرها الأستاذ (منيف الحسيني) في القدس.

ج ـ قام المؤتمر الإسلامي بدور عظيم وهو تعميم فكرة التعاون بين المسلمين، وهو لا يستطيع أن يصنع أكثر من هذا، أما قضية توحيد الكيان العربي فتحتاج إلى أن يغض العاملون لها، الطرف عن مصالح المسلمين، غير الإسلامية حتى يحلوا مشاكلهم الخاصّة.

س ـ إذن نحن نقترح أن تؤلف هيئة عربيّة[8] يجتمع فيها ممثلون لشعوبنا جميعها لتتوفر على دراسة هذا البرنامج القومي.. فما رأيكم؟

ج ـ هذا حل موفق، ولكني أرى أن يعقد مؤتمر هؤلاء المندوبين في مصر مدداً من الزمن ـ أربع سنوات أو نحوها ـ من كبار رجال العروبة النازلين هنا، وتكون مهمته أول الأمر ثقافية، وتبدأ بحوثه:

1 ـ بلفت أنظار الشعوب العربية إلى وضعها الجغرافي، ورسم مصور شامل لبلداننا يطبع ويوزع على أوسع نطاق، وتدرس على أساسه جغرافية العرب في المدارس[9].

---

(8) رصدت مجلة (الرابطة العربية) في ختام السنة الأولى لصدورها في العدد (51) مايو 1937 (ما ربحته القضية العربية) من أنشطة هادفة إلى الوحدة العربية. وأنهت تقريرها السنوي بما يلي:

«وانتشرت فكرة الإتحاد العربي إنتشاراً كبيراً في هذه الأقطار، وصارت عقيدة للقوم ومذهباً. فلا تلقى شيخاً ولا يافعاً ولا كهلاً، لا يحدثك عن الإتحاد وفوائده ومنافعه، وضرورة العمل له، والأخذ به، والسعي لتحقيقه بأقصر ما يمكن من الوقت، وشعب هذه حاله، وهذا شأنه لا بد أن يبلغ ما يريده.

فمجلة (الرابطة العربية) تسجل هذه الحركات في مطلع عامها الثاني، فخورة بقومها مباهية، واثقة من المستقبل، وتعاهد أنصارها على أن تكون في سنتها الثانية كما كانت في سنتها الأولى لسان صدق للقضية العربية، وترجماناً لها: تؤدي رسالتها على أصدق وجه وأكمله».

(9) إن تركيز (الثعالبي) على المدخل الثقافي والتربوي لمشروع الوحدة العربية، يبرهن عن بعد نظر وعمق خبرة، ودراية أصيلة بأن التحولات الحضارية في التاريخ لا يمكن إنجازها والإطمئنان على مصيرها إلا إذا قامت على أرضية ثقافية تؤصل بنية =

2 ـ ثمّ يتدرج المؤتمر إلى بحث منهاج للدراسة العربية المشتركة في البلدان العربية.

3 ـ ثم يعمل على زيادة الصلاة الشعبية بين بلداننا بالمصاهرة والتزاور.

4 ـ ثم يدعو إلى استغلال رؤوس أموالنا في مناطق الإستغلال الصالحة مثل الخليج الفارسي واليمن والحجاز[10].

= المجتمع في قاعدته الجماهيرية العريضة، لتصبح الأساس المتين للمشروع الحضاري الوليد، والضامن الأمين لبقائه وثباته في وجه الأعاصير.

وقد كان من نتائج هذا التوجه السليم من رواد الوحدة العربية والمبشرين بها قبل قيام جامعتها، أن حرصت جامعة الدول العربية منذ قيامها على عقد سلسلة من المؤتمرات الثقافية والتربوية:

(المؤتمر الثقافي الأول للبلاد العربية) سنة 1947 في لبنان. و (المؤتمر الأول للآثار في البلاد العربية) سنة 1947 في دمشق و (المؤتمر الثقافي الثاني) سنة 1950 في القاهرة و (مؤتمر وزراء المعارف في الدول العربية) سنة 1953 و (المؤتمر العلمي العربي الأول) سنة 1953 و (مؤتمر التعليم الإلزامي) سنة 1956، و (المؤتمر الثاني لوزراء التربية والتعليم والمعارف العربية) في بغداد سنة 1964 والذي إنبثقت عنه (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم).

(10) مجلة (الرابطة العربية) عدد (8) 15 يوليو 1936.

ألم يأن للعيث الإستعماري أن ينتهي في الشرق!

لقد هبط الأروبيون بالشرق في العصور الأخيرة غزاة فاتحين، وكانت أسلحتهم الأولى براقة خداعة استهوت الباب المترفين، فمن تحف نادرة ومفارش وثيرة وأقمشة أخاذة وأدوات فاتنة ومشروبات خلابة يغزون بها قصور الأمراء والأكابر يحتلون بها أذواق القوارير من الهيف والريم[11]. وتمادوا في غزوهم التدريجي البيوت والأذواق إلى أن اتصلوا بمنازل الطبقات الوسطى وكانت في عصام من كل أجنبي دخيل، حتى أصابتها العدوى فأوبقتها. ثم تقدموا منها إلى بيوت السواد ولم يتعفّفوا عن الأكواخ والخيام.

وكلما تقدموا خطوة حف بهم الإقبال والإستحسان، وهجر الناس متاعهم ومصنوعاتهم وصاروا يرمقونها شزراً بعين الترف[12] المستهتر إلى الغث البالي من الخرق، والتقليد أعمى لا يبصر النور ولا يتمشى إلا في ظلام الليل البهيم.

---

(11) (القوارير) مفردها (قارورة): الزجاجة، يستقر فيها الشراب أو العطر. وشبهت النساء بالقوارير لضعف بنيتهنّ ورقتهن ولطافتهن وجاء في الحديث النبوي «عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتي النبي ﷺ علي بعض نسائه ومعهن أم سليم. فقال: ويحك يا أنجشه (غلام أسود مملوك للنبي (ص) رويدك سوقك بالقوارير». وكان الغلام صاحب صوت جميل.

و (الهيف) بكسر الهاء جمع مفردها (هيفاء) المرأة، ضامرة البطن، رقيقة الخاصرة.

و (الريم) بكسر الراء جمع، مفردها (ريم) بفتح الراء، وسكون الياء: الظبي الخالص البياض. وكل الأوصاف الثلاثة تشبيه للنساء.

(12) (الترف) بكسر الراء. صيغة مبالغة من (الترف) بفتح الراء.

وكانت حكومات الشرق يومئذ مستغرقة في الإهمال والغفلة يفتنها الزخرف وينهنهها[13] البهرج فأخذت تشجع هذا النوع من الغزو الفاتك بالأمم غير منتبهة للخطر ولا جاعلة للإقتصاديات حساباً، وهي مادة الحياة في الأمم فضلاً عن تنشيط الصناع المحليين، واستبدال ما يصنع بأيديهم عما يجلب إليهم، وقاية لثروة البلاد من الإستنزاف بل إنها أعرضت عن ذلك وسمحت بإغراق الأسواق بتلك المفاتن الأجنبية حتى صارت من جملة الحاجيات التي لا غناء عنها.

وحسبنا أن نقول أنّ من أدق نتائجها إعطاء الإمتيازات الأجنبية وتمكين الغرباء من حق الاستيطان في بلاد الشرق.

وطبيعي أن يتلو هذا الإقبال على القنية[14] والشراء، الإعجاب ببدعة المصنوع ومهارة الصانع وذكاء المورد، وغير ذلك مما ينزع بالناس إلى الدعايات للبلاد التي يستوردون منها. وتعمير الأذهان الغافلة بالحديث المبالغ فيه عن تقدمها في العلم والصناعة والإختراع والإكتشاف وهو شيء يبعث الروعة والروع في القلوب دون التلفت للأخذ بأسباب الحزم وتلافي النقائص لرد هذه الغارة الشعواء[15] عن حمي البلاد.

وما أشد فتكات التضليل بنفوس البسطاء المعجبين بغيرهم حين يلقنون أنهم أعلى منهم كعباً وأذكى عقولاً وأسمى إدراكاً فقد كان لها أثره. فإن الشرقيين لما إتصلوا بالأوروبيين تصوروا فيهم المثل الأعلى في الحياة وإن التفاوت بينهما بعيد جداً، وأينما حل هذا الأروبي بسط على الأنام رواق اليسر والرخاء والتقدم، ناهيك بتصور مخدوع في عقل ضعيف تخونه المقاييس

(13) (نهنهه) عن الأمر: كفّه، وزجره فكفّ، ولعلها التبست على الشيخ الثعالبي. وهو يقصد (ويغريها البهرج).

(14) (القنية) بكسر القاف وضمّها، ما اكتسبه الإنسان من الإقتناء.

(15) (الشعواء) من (أشعى) القوم الغارة: أشعلوها. والغارة الشعواء: المتفرقة المنتشرة في كل اتجاه.

فكل شيء مجهول يبهره يتصوره عظيماً من كل نواحيه كبيراً في معانيه بحدود الأشياء عنده. إن كانت أبعاداً يقدرها بمسافة ما بين السماء والأرض، وإن كانت من الكميات قطع لها حساب المئات من السنين!

وهكذا عرف الشرقي الأروبي على الغيب فأكبره ومشى خلفه وهو يجهله على التحقيق، ولا يعرف منه إلا صورة مفتعلة صاغها الوهم في ذهنه بتأثير الدعاة من تجار اليهود الذين يفتنون بكل شيء يأتي إلينا من الخارج.

ولم يكد ينتهي الغزو الإقتصادي بالإستحواذ على الأموال والمكاسب حتى تلاه الغزو السياسي وبسط النفوذ على الحكومات الفردية وإحلال الأجانب في مرافق البلاد محل الوطنيين وإشراكهم فعلاً حظوظ الملك وتحريرهم من الدخول تحت الأحكام المحلية وجعلهم فوق القوانين لا يسألون عما يفعلون وتمكنوا بهذه الطريقة الماكرة من الطعن في شرائعنا والنقد لمصادرها نقداً غير نزيه يراد به التهديم.

وتحت هذا التأثيرالقاسي،إستخذت النفوس وتعطلت العقول وأضحت السنة الدعاة من الشرقيين مقاول للأروبيين يرددون على أسماع قومهم ما يتلقفونه عنهم من النذر بفساد المصير من سلوك ملوكهم إن لم يلتجئوا إلى كنف دولهم تحميهم من غوائل أنفسهم وتنقذهم من مصير جهالتهم.

وكانوا في ذات الوقت يحذرون الملوك بما يتصيدونه من الأقوال عن غضب شعوبهم عليهم وتنمرهم عن الطاعة لهم وأنهم لا نجاة لهم من مصيرهم المحتم إلا تحت ظلال أعلام دولهم. وكانت ويا للخجل بلاطات هؤلاء الملوك محشوة بزنابير[16] الماكرين لبث هذه السموم وقد يندر بينهم من يشعر بأثر جريمته الفظيعة على الوطن الذي أنبته وأعزه وأكرمه.

---

(16) (الزنابير) مفردها (زنبور) ذكر النحل.

وما زال ذلك دأب تجار بضاعة الممالك في توسيع شقة الخلاف بين الحاكم والمحكوم، حتى سقط أغلب بلاد الشرق في أيديهم بلدة إثر بلدة. ومن العجب العجاب أن أسباب السقوط كانت كلها واحدة لا تفاوت بينها وذلك من أقطع الأدلة على تمكن الغفلة في تلك الشعوب وجهلها بتصاريف الأمور. وما كنا نجد شعباً فكر في درء الكارثة التي حلت بغيره عن نفسه بل كان يظنها تنجيه من السقوط!

وبعد وقوع الكوارث وضياع الإستقلال من أيدي الشرقيين اختلطوا بالأروبيين وامتزجوا بهم وأخذوا عنهم ووقفوا على دخائلهم وخفايا قلوبهم وقاسموهم ويلات الحروب وبذلوا أرواحهم في سبيلهم فماذا أفادوا منهم؟

إن السؤال محرج للغاية وأشد منه إحراجاً، الجواب عنه فإنه بالرغم من تبدل الزمن وتغير الحال ويقظة روح الشعوب إلى المطالبة بحقوقها نجد أروبي اليوم يغالط نفسه في كفاءة الشرقي ويوهم نفسه أنه ما زال يراه في الصورة الساذجة التي عرفه بها آباؤه في أوائل القرن الثامن عشر، لذلك فرض على نفسه أن يعامله بالصورة التي كان يعامل بها أباؤه أسلافه مع مبالغة في الشفوف[17] والرياء فهو في نظره لا يستحق شيئاً من مباهج الحياة سوى التفقير والتجهيل أما القوت والكساء فحسبه منهما الخرق والفتات.

لا أيها السيد، إنك واهم في تصورك لنفسية الشرقيين من معاصريك توهم آبائهم من قبل في تصور عظمة آبائك، وكم أردى الوهم من أمم، ولا يخيل إليك أن تفوقك عليه في أي ناحية من نواحي القوة يسيغ لك حرمانه من الحق الطبيعي، فإن القوة ليست في المادة الصامتة وهي حق يستطيع أن يتملكه كل إنسان بل هي كامنة في الإرادة المحجبة عن الأنظار، وهي متى همت

(17) (الشفوف) من (شف) الثوب. إذا رقّ فحكي ما تحته. والمقصود بها هنا. المداهنة المفضوحة.

فعلت، ونحن نريد توجيهها إلى الخير المحض الذي لا شر فيه، لإنعاش هذا الشرق العتيد، بلاعة الأمم[18] حتى نعيش مع بعضنا على وفاء بلا دجل ولا ختل[19] وعفا الله عما سلف[20].

---

(18) (بلاعة الأمم) البلّاعة والبلّوعة والبالوعة، بئر يحفر، ضيّق الرأس. يجمع فيه المطر وجرى تعميم اللفظ على كلّ مسرب للمياه.

ويكاد ينفرد الثعالبي ـ فيما قرأت ـ بهذا التعبير الموفق عن الشرق (الشرق بلاعة الأمم).

(19) (الختل) الخداع.

(20) هذا المقال نشر في جريدة (الإرادة) عدد (43) السنة السادسة. الأحد 29 ربيع الثاني 1358 هـ 18 جوان 1939 م.

أما لهذا الطمع من آخر؟

لقد سئمت النفوس ومجت الآذان حديث الصحف المعاد عن الديمقراطية والدكتاتورية، بعد أن بلوناهما فلم نجد منهما غير الجشع والطغيان الإستعماري الذي أعضل[21] داؤه في الأمم القوية وأمسى وأصبح عصيّ[22] العلاج. رغم ما يبدو على البعض من تلك الدول من إهتمام لدفع الكارثة وضمان السلام؟!

فمنذ الساعة الرهيبة التي قامت فيها ألمانيا لإسترداد حريتها في العمل وعمدت إلى كسر القيود التي كبّلتها بها معاهدة (فرساي)[23] والقلق مستحوذ على الأفكار في أغلب أقطار أوربا وهو يساور ساسة الدول الكبيرة قبل غيرهم مخافة توثب خصيمتهم العنيفة من منطقة الحصار لإكتساح الدويلات التي أقيمت بجوارها كرقيب عليها. واقتناص نصيبها من هذه التركة الثمينة المخلفة عن حليفتها القديمة امبراطورية النمسا. فتصبح دولة بالغة العظمة مرهوبة وبسبب ذلك يختل التوازن السياسي الذي تحرص على بقائه الدول الديمقراطية الحرص كله، تفادياً من الرجوع إلى عهد التنافس في حمل السلاح.

كانت الدول الماثلة في عصبة الأمم تراقب ألمانيا بعين ساهرة داخل

---

(21) (أعضل) الداء. أعجز شفاؤه الأطباء. ومنه (الداء العضال).

(22) (عصيّ): متمنّع، صعب العلاج.

(23) (معاهدة فرساي). سنة 1918 في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

حدودها وهي تكاد تعد عليها أنفاسها وإذا بالديمقراطية المهلهلة تنفلق من ناحية الشرق الأقصى عن خروج اليابان إلى الفتح في الصين وطرد مستعمري الفرنسيين منها، فيتسع الخرق على الراقعين إلى خروج ايطاليا عنها أيضاً لمواثبة بلاد (النجاشي)[24] التي كان لها كرسي وثير بين مقاعد الحراسة في جامعة الأمم فتنقض عليها بجنودها في وضح النهار على مشهد من تلك الدول المتكلفة بصيانة الديمقراطية والمحافظة على ميثاق السلامة بين الملل فدكّت الحبشة دكاً عنيفاً قذف عاهلها المسكين (هيلاسلاسي) إلى الخارج يلتمس إنصاف العصبة. فكان الجواب الحازم التحلل من جميع القيود والمواثيق المقطوعة على لسان قالتها. وتقديم الدول غصن الزيتون لإيطاليا الفاشيستية المعتدية على الكرامة الدولية ثم يتلو ذلك الإعتراف الصريح باستلحاق الحبشة رغم ما كانت تصرّح به من التوعد للإيطاليين وتأكيد الضمان باستقلال مملكة أسد يهوذا[25]. ومن يعبأ بعد ذلك بجمعية الأمم؟

فقد رأينا الدول الدكتاتورية بعد أن فارقت العصبة تتكتّل وتتجمّع لمناهضة دعاية الدولة اليهودية الثالثة[26] والحقيقة إنما كانوا يتآمرون على تقليم أظفار دول العصبة المقنعة بطيلسان[27] الديمقراطية ومحاسبتها على ما

---

(24) (النجاشي) ملك الحبشة. وهو الذي سيّر جيشه بقيادة أبرهة الأشرم الحبشي أمير اليمن، لهدم الكعبة في عام مولد الرسول ﷺ، وفي القصة نزلت سورة (الفيل).

(25) (يهوذا) أحد أبناء يعقوب الإثني عشر، وهم آباء أسباط (قبائل) إسرائيل الإثنتي عشرة، وإليهم تشير الآية الكريمة: «وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما» الآية (16) من الأعراف.

وكان سبط يهوذا أشد بأساً من جميع الأسباط، وصاحب السلطة الملكية إلى أن إنقرض حكم اليهود عقب تسلّط الرومانيين على أورشليم.

للتوسع. أنظر (محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان) عبد العزيز الثعالبي 1985. دار الغرب الإسلامي.

(26) (الدولة اليهودية الثالثة). لعله يقصد (انجلترا)؟

(27) (الطليسان): الرداء الأسود المهترىء.

كان لهم معها من تراث، ومساعدة بعضهم في التسلط على الممالك التي لهم فيها أربة، وتوسيع مجال الإمتداد والتوسع غير مكترثين بالديمقراطيين ولا حاسبين لهم حساباً.

ومن هنا تولّدت أغلب مشاكل السياسية الحاضرة المتلبدة في الآفاق الدولية ولا يخفى ما في تكاثفها من خطر ينذر الأمم بشر مستطير. ولبث الفريقان المتواثبان يتراشقان بالتهم فكل فريق يلقي على الآخر تبعة الزج بالعالم في أتون الهلاك، ولا يعلم أحد سوى الله كيف تكون النجاة من هذه الكارثة.

لم تكن الخلافات الدولية دائرة حول ترجيح مبدأ على آخر بين الدكتاورية والديمقراطية بل المسالمة وراء ذلك فهي تدور حول التطاحن على السيادة العالمية بين محورين متكافئين في القوة والمعدات، محور انكلتيرة وفرنسة تظاهره أمريكية، ومحور ألمانية وإيطالية، تشد أزره اليابان. ويغلب على الأول الحذر خوف سوء المغبة، وعلى الثاني المغامرة وهو يريد انتزاع نصيبه بالقوة من تركة الأقوام التي اغتصبها الشق الأول.

فقد وضع يده على أهم بقاع المعمور ونقاط المواصلات بعد تجريد أهاليهما من الإستقلال واتخاذهم متاعاً يستغلّه كيف يشاء فكان هذا الإستئثار سبباً لتفوقه في العدد والعدد والمال[28].

وأما المحور الثاني فإنه يشعر بتفوّقه على الأول في النسل والعلم والصناعة لذلك لا يريد أن يبقى محصوراً داخل حدوده محروماً من المرافق والخامات، يعيش تحت رحمة غيره دون أن يكون له شيء من نصيبه. فهو يحاول هدم تلك الأطواق التي أحيط بها، ورفع العثرات الملقاة في طريقه لكي يذهب حيث يشاء.

---

(28) العدد بفتح العين، والعدد بضمّها.

فالنزاع إذن دائر بين المحورين على تقسيم خيرات الأمم المأسورة رغم أنفها، وإرادة التسلط على أقطارها لا على ترجيح مبدأ على مبدأ لتحقيق راحة تلك الأمم والتنفيس عنها كما يدّعيه المهوشون من الجانبين، وعلى هذا المقياس فلا فائدة لنا نحن معاشر الشرقيين في المفاضلة بين المحورين ومنزعهما واحد.

أما الديمقراطية الحقة فهي التي تقرّر حقوق الأقوام وتصون الحريات من الغوائل مهما كان مصدرها أتوقراطياً أم ديمقراطياً وأين هذا من عمل دول تجري سياستها على قواعد الإسترقاق للأمم والجماعات.

فهذه بريطانيا رأس الديمقراطية المقنعة نجدها متسلطة على سدس سكان الكرة الأرضية لها جبل طارق وجزيرة مالطة وقبرص وفلسطين والسودان المصري وأعالي النيل ونيجيرية والصومال وممباسة وزنجبار ودار السلام وجزائر القمور وموزنبيك وعدن والمحميات التسعة في جنوب اليمن والبحرين والشاطىء العربي من بلاد الخليج والبلوج وأرض السند والتبت والهند وبرمة وبلاد المضيق وهنكنغ. تلك الأقطار الشاسعة الغنية فهل كان وجودها هناك برغبة من أهاليها واختيارهم تفضيلاً لديمقراطيتها البارة بهم، أم هي هناك جاثمة على صدورهم بقوة السيف والنار؟

وهل يقال أيضاً أن الأقطار الأخرى المشمولة بالنفوذ الفرنساوي في شمالي أفريقيا ووسطها وغربيها وجيبوتي وجزيرة مدغشكر ورينيون وموريتيون وبواندشري وأنام والتونكين وسوريا احتلتها برضاء أهلها واختيارهم أم غير ذلك!.

وأين الديمقراطية العادلة من الديمقراطية العسكرية التي تقوم على أسنة الحراب[29] وقهر الأمم؟ وهل أعد لنا الفاشو والنازي شيئاً آخر غير هذا وما يماثله. أما الديمقراطية الهزيلة التي يطرب بها جوق الإستعمار الجوال في

---

(29) (الحراب): مفردها (الحربة) بفتح الحاء وسكون الراء.

الطرقات ولا شك وليدة الخلل الذي لا يطرق ساحة المستملكات وبالأخص بلاد الحمايات والإنتدابات، لندع الماضي الكريه يذهب بما فيه، ولنسأل أهل العصر الحاضر من سكان تلك الأقطار هل يشعرون بالطمأنينة في نفوسهم، أم يدركون نعمة الإستقرار في بلادهم، أم يعيشون في جو بوليسي قاتم، يسود فيه الروع والفقر والجهل، لا يفقهون من النظام الحديث إلا عرض الطاعة في صغار، وآداء الجبايات دون أن يكون لهم لقاء ذلك من مقابل يكفل لهم السيادة، والإستمتاع بنصيب من الحريات التي وهبها الله للناس جميعاً ولكن سلبها منهم حكام الديموقراطيات!

لم نذهب بعيداً؟ فقد تسلط الديمقراطيون على بلادنا وعاهدوها على احترام الإستقلال، ولما عصفوا به سألناهم في احتشام ماذا صنعتم بالعهود والمواثيق التي قطعتموها لنا على أنفسكم(30)؟ قالوا ألا تمدون أعينكم وتبصروا ما أمتعناكم به فضلاً منا ومنة. فقد جدناكم هملاً في بلاد ليس فيها حدود ولا جنسية! كأنهم عثروا علينا في (الزولو) لا في بلاد جعلها الله مستقراً للمدنيات قبل أن تعبر منها إلى أوروبة.

ليس ما يكتب من أوصاف الدول كافياً لإظهار طبيعتها ما لم يطابق

---

(30) تقول جريدة (الإرادة) في الذكرى السابعة والستين لمعاهدة (باردو) (ماي 1881):

«يتوهم البعض مع الأسف الشديد أن نصوص معاهدتي الحماية تقتضي أن سمو باي تونس قد تنازل لفرنسا عن سيادته، تتصرف فيها كما تشاء. ما دامت حمايتها منصوبة على البلاد التونسية. والواقع أن هذا كلّه من قبيل الوهم والمغالطة، ويستطيع التونسي أن يجزم بحقه الكامل، وأن يتأكد بأن نصوص معاهدتي الحماية لا تتعرض لكيان الحكومة التونسية بسوء، ولا تعارض في وجودها، ووجوب مباشرتها لجميع الشؤون التونسية في دائرة الإستقلال الداخلي والسيادة المطلقة لسمو الباي».

للتوسع، أنظر: (معاهدات الحماية على حقيقتها) جريدة (الإرادة) عدد (716) السنة الخامسة عشرة.. الأربعاء 2 رجب 1367 هـ 12 ماي 1948. وفي العدد أيضاً (وحي الذكرى) للأستاذ (الحبيب شلبي). في نفس الموضوع.

خبرها مخبرها فقد عرفنا الدول الديمقراطية وخبرناها ولم نعد في حاجة لمن يعرفها إلينا. أما الدول الديكتاتورية فقد بدأنا نتعرف إليها من الأحداث التي أنزلتها بالبلاد التي احتلتها، ويكفينا من ذلك أن نتصفح أخبار اليابان في الصين، وايطالية في طرابلس الغرب والحبشة والبانية، وألمانية في تشيكوسلوفاكية. والخطاب كما قيل يقرأ من العنوان. وماذا بعد النكبة غير الخراب والدمار.

لا شك أن أحشاء أروبا تتمحض عن أحداث جسام قد تؤول إلى حرب طاحنة أشد هولاً من الحرب العظمى ولا سبب لذلك غير الإستعمار وما هو التطفيل المردي الذي نربأ بكرامة الدول عنه ولا نجد لها مبرراً فيه وكان خليقاً بها أن تقلع عنه إن لم يكن لاتقاء خطره فلا أقل من الشعور بقبح أثره في نفسية المستعمر قبل المستعمر لأن الحياة الطفيلية يستحيل أن تكون مبررة ولو في نظر الأقوام. فكيف بالأباة يرفضون أن يعيشوا عالة على كد غيرهم! لذلك نرى أنّه لا بد أن يأتي يوم على الإنسان المهذب يشعر فيه بهذه المعرة فيتحاماها وغير بعيد أن يكون قريباً، فقد ظفح الكيل وبلغ الحزام الطبيين[31] والواقع يثبت أن الإستعمار أصبح ينظر إليه في جميع أشكاله كعبء ثقيل تنوء به ظهور الدول وهو يكلّفها أضعاف ما تفيده منه وقد يستغرق مجهودات الشعوب التي يستعمرون بإسمها بدل أن تنفق على توفير الرّخاء والحظوظ وهو عين الخطل[32] الذي ينبغي للأمم أن يتجنّبوه.

لقد حان للدول العظمى أن تفكر في إنهاء هذه المهزلة المسلحة وتعويضها بأسلوب أرفق بالشعوب المستعمرة والتنفيس عنها بما لا يدع أثراً

(31) (الطبي) بضمّ الطاء وكسرها حلمات الضرع. والمثل العربي (بلغ الحزام الطبيين) أو (جاوز الحزام الطبيين) يضرب لاشتداد الأمر وتفاقمه حين يتسبب ركض المطية في تراجع حزامها إلى الخلف حتى يبلغ ضرعها.

(32) (الخطل): النزق والطيش. وفساد الرأي.

للضغائن والأحقاد كإطلاق حرية التجارة والمناقلة وفتح الثغور[34] والأسواق للنشاط الإقتصادي بين الأمم، لا ميزة لواحدة على أخرى إلا فيما يتعلق بحماية منتوجات البلاد ووقاية يدها العاملة من المنافسات.

ذلك هو التدبير السلمي لإقرار الأمن بين الأمم الذي يمكن الإستغناء به عن الجيوش، وإعادة ديمقراطية الشعوب وضمان حريتها وإلغاء المؤامرات النابية عن مدنية العصر الحديث.

والحروب مهما كانت نتائجها فهي في نظر الفلاسفة الروحيين أثر سيء للحماقة وضعف الخلق، وقد أطبقت الشرائع والآداب على استنكارها إلا في مقام الدفاع عن النفس وأين هذا من استغراق الدول المعاصرة في تحضير الجحافل والأساطيل والطيارات والغازات الخانقة وأصناف المقذوفات وإعدادها للفتك بالأبرياء الذين يسوقونهم إلى تلك المجازر البشرية دون أن تكون لهم أقل رغبة فيها. وأما نحن الشعوب المظلومة فإننا مع شدة مقتنا للعدوان وكراهيتنا للمعتدين لم نزل ننفر من الحروب ولا نريدها لأحد كائن من كان لما فيها من الفتك بالأرواح. أما الذين يثيرونها وهم وراء مكاتبهم فإنهم يكونون بمنجاة منها لا تصيبهم شظاياها! وليتها لا تعدوهم ليذوقوا وبال أمرهم فهم وحدهم الجناة على الإنسانية المظلومة[34].

(33) (الثغور): مفردها (ثغر) في الأصل موضع المخافة من فروج البلدان، وعمّم على السواحل والموانىء.

(34) نشرت المقالة افتتاحية في جريدة (الإرادة) عدد (358) السنة السادسة. الأربعاء 28 صفر 1358 هـ 19 أفريل 1939.

الوحدة العربية في طور التحقيق

ليست الوحدة العربية أمنية كاتب متهوس ولا حلم مؤرخ مختال، أو خيال شاعر واهم، ولا خاطرة متردّية في ذهن مكدود، لكنها حقيقة واقعية لا ريب فيها، يغالطنا في تصويرها أدباء الفلسفة السفسطائيّة الذين يكابرون في الحقائق العلمية لغرض يرمون إليه، وقد أفضى بهم الأمر إلى تجاهل المحسوسات التي لها أعيان ومشخّصات تحمل في ثنيها أقدم تاريخ للخليقة قبل أن تنبت أصول الأروبيين في ذرى البلاد الآرية[35].

فالوحدة العربية كيان عظيم ثابت غير قابل للتجزئة والإنفصال يشغل قسماً كبيراً من رقعة آسية الغربية وشطراً من أفريقية يمتد رأسه في الشرق من المحيط العربي ويسير مغرباً غرباً إلى المحيط الأطلانتيكي ويضمّ في هذا الشطر بين لابتيه[36] نصف القارة الإفريقية.

والعرب بقسميهم أصولاً وفروعاً الآهلون لهذه الأقطار الشاسعة

(35) عالج الثعالبي التاريخ القديم بأكثر من مؤلف. وفي إتجاهات متعددة. انظر:
- محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان. تقديم ومراجعة حمادى الساحلي. دار الغرب الإسلامي 1985.
- مقالات في التاريخ القديم، جمع وتعليق جلول الجريبي. دار الغرب الإسلامي 1986.
- تاريخ شمال أفريقيا، جمع وتحقيق الدكتور أحمد بن ميلاد. محمد إدريس. تقديم ومراجعة حمادى الساحلي، دار الغرب الإسلامي 1987.

(36) (اللابة) لغة: الأرض ذات الحجارة السوداء. ومثلها (الحرة) بفتح الحاء ومنها: «حرّم الرسول ﷺ ما بين لابتي المدينة. وهما حرّتان تكتنفانها.

الفاصلة بين آسية وأروبة ما زالوا حريصين على عروبتهم ويتفاهمون بلغة آبائهم رغم كل مجهود خارق بذلته أوربوبة لصرفهم عنها. ولغتهم هي العربية الشريفة لغة الإسلام في الشرق والغرب، ومصدر شعورهم وشعائرهم، ومبعث أذكارهم وأحاسيسهم ومهبط وحي عظمتهم. تلك اللغة القيمة التي أفاضت على السنة الأمم مصطلحات العلوم. وقواعد السياسة وآداب السلوك ومعاني الفلسفة والدين، ووضحت أصول الأحكام وترتيب النظام وأساليب التعامل وطرائق المعيش وكشف المعميات عن الأسرار ومخابىء العقول، في عصور مظلمة كان الناس فيها لا يتواصلون إلا بظبات[37] السيوف وأسنة الرماح دأبهم القتل والتناحر في سبيل التغلب وامتلاك الرقاب.

ولا شبهة في أن وحدة الرقعة الجغرافية واللغة والدين والتهذيب والتاريخ هي المجال الحيوي لوحدة الأجناس. إذن فجميع الظواهر البارزة التي تطالعنا بها تلك الإقطار المتماسكة تدلنا دلالة قاطعة على ثبوت وحدتها العربية من غير مواربة ولا جدال.

أجل لقد حدثت في غضون الماضي هنات كانت لها عواقب وخيمة وهي تغلب الترك على مقاليد السياسة الإسلامية بإسم الإسلام الذي قوض بناء الجنسيات ولم يقم وزناً للعنصريات فأساء الأتراك استعمالها كما أساؤوا للعرب، وأبعدوهم عن مقاليد الأحكام وأوهنوا بلادهم بالتجزئة والتفريق فتهاون العرب بذلك وأسلسوا لهم قيادهم تفادياً من حدوث انقسام جنسي في الإسلام، وركنوا لهم عن طواعية لا عن إستخذاء.

ولكن الأتراك لم يقدروا هذه اليد البيضاء بل أفحشوا في توهينهم لقاء رد غائلة الإعتداء عن بلاد الإسلام ووقوفهم في وجه أروبة. وما زال العرب يسايرونهم ويصابرونهم على هناتهم حذراً من تصدع بناء الوحدة الإسلامية التي شيدوها بأيديهم، إلى أن برز قرن الشعوبية النكراء في أروبة فاغترّ بها الأتراك وهم الأغرار، وجنحوا إلى تتريك العناصر الواقعة تحت نفوذهم

(37) (الظبات) مفردها (الظبة) وهو حد السيف.

فكان ذلك نذير سوء للعرب، وعدوه منهم مروقاً عن الإسلام الذي كان يجمع بينهم ووجدوا في هذا المروق ما يسوغ لهم الخروج عليهم فنابذوهم في ساعة الشدة وطعنوهم من خلف اعتماداً على وعود غرارة أسرفت لهم فيها انكلترا برجوع مملكتهم المنهارة إلى ما كانت عليه في عصر الأمويين، وذهلوا عن تقدير ألاعيب السياسة الأروبية وقلة جدارة الذين كانوا يفاوضونهم باسم العرب. ولم يفطنوا في تلك الساعة للمطامع الأروبية التي كانت فاغرة لإبتلاع بلادهم الواقعة في خطوط المواصلات، لا بلاد الأتراك التي لا تهم أحداً غير الروس، وهم قد انفصلوا يومئذ عن الجبهة الأروبية ولم يكن الأتراك بالكثرة التي يخشى منها السواس الأروبيون كما يخشون العرب.

فالعرب إذن كانوا ضحية الترك قديماً وحديثاً قبل أن يصيروا ضحية لأوروبة، ويظهر أن الترك ما زالوا يتابعون خططهم الجهنمية في تقويض كيان العرب حتى بعد إنفصالهم ووقوفهم وجهاً لوجه أمام أروبة بدل أن يساعدوهم ويتعاونوا معهم على إعلاء شأن الشرق، والأتراك مهما تباعدوا عن الإسلام فهم شرقيون مثل العرب وليس لهم ما يبررون به (تأوربهم) سوى قطعة صغيرة بقيت لهم في الجناح الشرقي من بلاد (البلكان) التي ما زالت تصطخب بالمخاطر، ولا يقدرون أن يرسخوا أقدامهم ما لم تساعدهم علي ذلك جحافل العرب.

ومبالغة في النكاية بالعرب فإن الأتراك تعاقدوا مع الدول المنتدبة على البلاد العربية لإعاقتهم من السير نحو التقدم لقاء سلخ لواء الإسكندرونة العربي[38] عن سوريا وذلك لكي تحول دون وصول العراق إلى البحر المتوسط يوم يحاول إنقاذ سورية من غير طريق الصحراء.

فلندع الدول المناوئة تسرف في غوايتها نحو العرب فإن من يعرف

---

(38) (لواء الإسكندرونة): استلم الأتراك (سنجق الإسكندرونة) في 22 يوليو/ تموز 1939 بعد أن سلخه الإنتداب الفرنسي من الأراضي العربية السورية. واللوا جزء لا =

حيوية هؤلاء القوم لا يشك في أنّ هذه التدابير لا تستطيع خنق روحيتهم فضلاً عن أن تحول بينهم وبين التقدم وهم الذين سبقوا جميع الأمم إلى بناء الممالك وإقامة المدنيات وصمدوا لجميع الهجمات التي توالت عليهم طوال خمسة آلاف سنة وإن الفترات التي تمر عليهم في هداة السكون ما هي إلا فترات استجمام الراحة ثم يعقبها النشاط.

ولا شك أن العرب قد أفاقوا من غشيتهم التي أعقبت الحرب العظمى وإن لم تكن هذه الأفاقة متساوية في جميع أقطارهم لكنها ذات مغزى عميق في تقدير مصائر الأمور فإن ما يجري من التاهبات في العراق ونجد ومصر مما يقوي صلب الأمة العربية ويدفع بقية أعضائها إلى الانتباه[39].

ولن نكون مجازفين إذا قلنا إن الأمة العربية آخذة في الإستعداد للقيام بدورها التمدني الذي تخلفت عنه بضعة قرون، تحت تأثير نظرة خاطئة كانت وبالاً عليها. وليس من الهيّن أن تظل أمة يبلغ تعدادها عشرات الملايين منكسة الرأس إلى الأبد، وهي القابضة بيدها على مفاتيح خطوط المواصلات، ومعابر المدنيات، ولا ينقصها شيء غير قليل من الصلابة والإدّكار[40].

= يتجزأ منها. وكلّها سياسة الدول الإستعمارية في تمزيق أوصال الوطن العربي. وإحكام الحصار على منافذه البرية والبحرية. وكان تعداد سكان (الإسكندرونة) نحو الثلاثين ألفاً. واللواء يمثل موقعاً عسكرياً منيعاً على البحر المتوسط، ويضمن حماية بحرية للأناضول في جنوب تركيا.

(39) شهد الوطن العربي في أواسط الثلاثينات مخاضاً وطنياً وسياسياً، وتدافعاً مع قوى الإحتلال والإستعمار، وكان من نتائج هذا الغليان السياسي معاهدة سنة 1936 مع الإنجليز في مصر، ومعاهدة سنة 1936 مع الفرنسيين في سوريا، والتململ السياسي في العراق الذي مهد لثورة رشيد علي الكيلاني في أوائل الأربعينات وشهدت هذه الفترة إبرام معاهدة (صداقة ودفاع) بين العراق والسعودية واليمن. وقد اعتبرت هذه المعاهدة نواة (الحلف العربي العام).

(40) نشرت هذه المقالة للشيخ عبد العزيز الثعالبي في مجلة (الشهاب) الجزائرية، الجزء (6) المجلد (15)، جمادى الثانية 1358 هـ جويلية 1939 م. وقد نقلتها (الشهاب) عن جريدة (الإرادة) التونسية، وأعادت (الإرادة) نشرها بعد وفاة الثعالبي عدد (709) 23 مارس 1948.



(الشيخ محمد الخضر حسين: 1873 ـ 1958) أحد المؤسسين لـ (جمعية الشبان المسلمين) بالقاهرة. سنة 1927 وعضو المجلس الإداري الأول للجمعية وهو في الصورة مع أعضاء المجلس. يتوسط الجالسين (عبد الحميد سعيد) رئيس الجمعية. عن يساره (الشيخ الخضر) فـ (أحمد تيمور باشا) وعن يمين الرئيس (عبد العزيز جاويش) من أصل تونسي من (صفاقس) فـ (محب الدين الخطيب) فبقية أعضاء المجلس. وعن يسار الواقفين (علي شوقي) نجل (أحمد شوقي).

الإســـلام
نظام اجتماعي وحضارة وعمل

أبنـــائـــي:

لا عجب إذا كنت لا أعرف حتى الآن عنوان المحاضرة، فإن كل فكرة تتقدم العمل تموت، ولذا كان من الواجب أن تكون بنت أوانها، وإلا لم تكن شيئاً مذكوراً، والخطيب الذي لا يخاطب ضمائر الناس، ولا ينفذ إلى أرواحهم، فهو ليس بذلك الخطيب، لهذا لم أستطع أن أترسم طريقة، أو أعين موضوعاً. قيل لي إنك ستتكلم إلى شبان هم في سلم الإرتقاء، وكنت أتصور أن هناك شباناً تختلف مداركهم، فإذا خطبت في موضوع فوق أذهانهم، أكون قد أجهزت عليهم، وإذا نزلت عن مستواهم أكون قد قسوت على فريق منهم، فأنا في حيرة بين أن أختار لكم موضوعاً يكدح العقول، ويحتاج إلى بحث دقيق، وأن أتكلم في مسائل سائرة لا ثائرة، هي أقرب إلى شؤون المسلمين.

أظن أن كل المواضيع متقاربة، والتقسيم اعتباري، والعبرة أن يتصل المتكلم بأذهان الحاضرين، وأظن أنكم بحمد الله في سوية أرقى مما تصورت.

كنت أريد أن أتكلم عن الإسلام كدولة، وكمبدأ، وكقومية، ولكن الموضوع يحتاج إلى بحث طويل، وأكتفي بالكلام عن الإسلام كنظام إجتماعي، وحضارة، وعمل أحدث إنقلاباً عظيماً، يدهش الأجيال، كما أدهش الأمم من قبل.

في نظري أن كلمة الإسلام والمسلمين عبارة عن الغاز وأحاجي، مهما

حاول المرء أن يدرك مداها، فإنه يقف موقف الحيرة.

نعرف أن هناك رجلاً إختاره الله ليكون للعاملين بشيراً ونذيراً، ولا أدري ماذا كان يقول المؤرخون، عن هؤلاء العرب الذين أرسل إليهم ذلك الرسول الكريم وتربى بين أحضانهم، من أنهم غلاظ الأكباد، وهذا قول لا ظل له من الحقيقة، فالإسلام ظهر في قوم كانوا أرقى شعوب العالم حينذاك، والأمة التي كانت تشتغل بالتجارة، وتقوم بواسطة التبادل بين أمم كثيرة، يستحيل أن تكون في هذه الدرجة من الإنحطاط التي يصورها المؤرخون.

والمؤرخون كانوا يتلمسون تاريخ العرب، فيما ورد من أشعار البدو الجفاة، أما الأدب الحضري، الذي يمثل هذه البيئة العربية الحية، فإنه ضاع، ولم يصل إلى أيدينا منه إلا نزر يسير. لذا لا نستطيع أن نتصور تاريخنا في العصر الجاهلي إلا في القرآن الكريم، والسنة السمحة. ولكن من أوتى قليلاً من الفهم، يستطيع أن يدرك تلك الحال التي كان عليها العرب، الذين بعث إليهم النبي ﷺ.

ظهر النبي ﷺ يدعو قومه إلى الحق، وأظنكم تعلمون أن كل حركة تلقى شدة ومقاومة، والمبدأ الذي يقوم على أساس القراع هو الذي سيسود «فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»، ولولا النضال الذي قام في وجه الإسلام ما ثبت الأسلام، وقويت دعائمه، فمحك المبادىء هو الصراع، الذي يقع بينها وبين الباطل. والذي يأخذ الشيء بالتسليم يذهب لساعته، فالصراع العنيف الذي دار بين النبي وخصوم دعوته، والذي دار بين أشبال العرب وشيوخه هو الذي دعا إلى ثبات الإسلام وتمكنه في العالم.

رأينا الإسلام بعد مائة سنة ضارباً بجرانه من الصين إلى المحيط الأطلنطي، ومن الفلكا إلى جنوب إفريقية، وهي مدة لا يمكن أن ينبغ فيها ذكر عائلة من العائلات، قد تتمكن عائلة إذا جاهدت وكافحت أن تظهر في محيطها، لا في العالم كله، أما هذا الدين الحنيف فيظهر في العالم بلا أنصار

ولا أعوان، بلا مال ولا عصبية، يغلب العالم أجمع، من أطراف الصين إلى أطراف المغرب، يمد أذرعته على ثلاث قارات. دين يتحول في القلوب إلى عقيدة راسخة، وشعور منبث في العقول، كأنه ما فارقها منذ الخليفة، ما هذا السحر؟ ما هذا السحر والطلسم؟ هذا هو السحر الحق، لا يستطيع الإنسان مهما أوتي من الفصاحة وبعد النظر أن يصور تلك الحقيقة، التي تتعالى فوق الأذهان، وقد نستطيع ذلك بصورة نسبية، تقول هذا حق بالنسبة إلى كذا، وعدل بالنسبة إلى كذا، هذا هو تأثير الحق، والهداية الالهية التي تشرف على النفوس، فتهديها إلى سبل الرشاد.

يقول الأعداء إن الإسلام دين، يحمل الناس عليه بالإكراه، ولولا الإكراه ما رأينا مسلماً، ويوجد كثير من المسلمين يصدقون هذا عن غفلة وغرور وضلال. تعرفون أن النبي لما ظهر داعياً ما كان معه أحد سوى دينه وإيمانه وثباته، هذا هو الجيش الذي مكنه من الإستيلاء على نفسية العرب، ومكن أصحابه من الفوز العظيم. لا الرمح، ولا السيف، ولا القوس، ولا الحجارة كافية لإزالة العقائد من مواطنها، لولا الهداية الإلهية، التي كانت تظهر في تعاليمه الغراء، والطريقة التي وضعها لهداية الناس.

هناك بلاد فتحها السيف، مثل إيران، ومصر، وسوريا، وشمال أفريقية وبلاد التركستان، وهذه البلاد لا يمكن أن ننكر أن للسيف الأثر الفعال فيها، لا لحمل الناس قسراً على إعتناق الإسلام، ولكن لتأمين دعوته، وإزالة سطوة الأعداء من طريقة، فالإسلام إنتشر فيها بالسيف، والهداية الإلهية لا بالسيف وحده.

وهناك بلاد أخرى ما عرفت السيف، مثل: تمبكتو، برنو، السنغال، الكنغو، السودان المصري، زنجبار، دار السلام، أغلب أقاليم الحبشة، وما سمعنا من هناك دولة ساقت الجيوش إلى هذه الأقاليم لارغامها على اعتناق هذا الدين المجيد. ربما يتوهم بعض الغافلين أن العقلية في هذه البلاد دون غيرها، ولذلك بادرت إلى اعتناق الإسلام، ولكن أين آثار هذه الجهود

الجبارة، وتلك المغريات الفاضحة، والأموال الطائلة، التي تبذلها جمعيات التبشير، وبعثات الكاتوليك والبروتستانت؟ لا نرى هذا كله باعثاً على تنصير هؤلاء الناس، وإغرائهم، إلى اعتناق المسيحية من هذه السبيل، وفوق ذلك نلحظ أقواماً أخرى، دخلت راغبة في دين الله أفواجاً، في غير القارة الأفريقية، كالملايو، وجاوه، والفلبين، والصين، وما عرف في تاريخ الإسلام أن جيوشاً غزت هذه الأقطار أو فتحتها، فكيف وصل إليها الإسلام، بل كيف ثبتت أصوله، ونمت فروعه، وزكت ثماره في هذه البقاع النائية البعيدة، على أن البلاد التي تكونت فيها الدول الإسلامية ترى فيها الإسلام قليل الإنتشار، عكس البلاد التي لم تتكون فيها دول، فإن مملكة «حيدر أباد»، تأسست في عهد التيموريين، وقبل الاحتلال الإنجليزي بمائة عام، وعدد سكانها اليوم يبلغون أربعة عشر مليوناً، مع أن عدد المسلمين فيها لا يتجاوز مليوناً وثلاثمائة ألف، وفي البنغال التي لم يتأسس فيها حكم للمسلمين، وكانت خاضعة للهندوس بلغ عدد المسلمين «60» في المائة، وبلاد الملايو ويبلغ عدد سكانها اثني عشر مليوناً، قد إعتنقت الدين الإسلامي، لدعاية بسيطة، نسميها لهواً ولعباً، ومهما كانت الدعاية ضعيفة فإن الإسلام قد مد رواقه في بلاد الملايو والجاوه بلا جيش، ولا فتح واهراق دماء، بل أنار تلك الآفاق المظلمة بقليل من التشويق وحسن الإرشاد، فإن من أغرب ما يقصه علينا التاريخ أن من أهم أسباب انتشار الإسلام في تلك الأقطار النائية أنه وفد إلى مدينة «جرسي» من البلاد الجاوية ثمانية يعرفون بالسادة المغاربة، يقال أن البرتغاليين نفوهم عن بلادهم، ويذكرون أنه كان لهم تابع جليل القدر، يسميه الجاويون «بلابلو» أي «البهلول» (وقبره مشهود يتبرك به الزوار المسلمون خارج مدينة جكجا الجاوية، في إحدى ولاياتها المعروفة «بجكجاكارته») وكان هذا التابع العظيم من عباقرة الدعاة فقد اكتشف بفطنته وذكائه ما للموسيقى من أثر فعال في نفوس الجاويين، وهيامهم بأنغامها المشجية، فبنى لها معهداً في الظاهر، وكان في الباطن مسجداً، وأقام حوله سوراً عظيماً، فتح فيه باباً واحداً، جعل من حوله في

الداخل دككاً، يجلس عليها الموسيقاريون، يشنفون الآذان قبل أوقات الصلاة، فيهرع الجاويون، لاستماعهم من كل مكان، وأقام داخل السور مسجداً عظيماً، وأحاطه ببركة من الماء، بحيث لا يصل المصلي إليه، إلا بعد اجتياز هذه البركة. وقد جعل رسم الدخول لسماع الموسيقى كلمة الشهادة، ثم الإغتسال، وأداء الصلاة.

وهكذا رأينا هذا الداعية القدير يحول الجاويين بهذه الوسيلة الشائقة الظريفة من البوذية إلى الإسلام، من غير حرب ولا قتال، وهكذا يفتح الحق مغالق القلوب، لتمكين الدين الآلهي من النفوس، واحلاله محل السيادة من الأمم بكل وسيلة، ولو كانت هينة في نظر بعض الناس.

أرأيتم كيف أن فرقة موسيقية واحدة كانت سبباً لهداية أمم في الأرخبيل الهندي، يتجاوز تعدادها ستين مليوناً من النفوس؟

وهذه الصين، تلك الامبراطورية العظيمة، التي يبلغ عدد سكانها زهاء خمسمائة وخمسين مليوناً من النفوس، التي لم يتطرقها فاتح من المسلمين نجد عدد المسلمين فيها يعظم ويتكاثر يوماً بعد يوم، وقد بلغ في تقدير بعض الإحصاءات الأخيرة، نحو ثمانين مليون نسمة، اقبلوا على الإسلام من تلقاء أنفسهم من غير ضغط ولا إكراه، بل بالهداية والتوفيق الالهي، كما أقبل عليه سكان بلاد الملايو، ومعظم سكان القارة الأفريقية!

هذه صورة مجملة لأثر الإسلام في الماضي، أما حال أممه في العهد الحاضر فهي كما تشاهدون وتعلمون، فقد إنهزمنا عسكرياً، وتخلينا عن مراكزنا المتقدمة، في سيادة العالم، بحيث لم تصبح لنا سيادة سياسية، ولا دولة ذات شأن بين دول العالم، وصرنا والأسف يملأ ما بين الجوانح سوقة وأذناباً، نتنصف الأمم، والأمم التي تنحدر إلى هذه الهوة ليس في إمكانها أن تحتفظ بميزاتها البالية، بل تنحط إنحطاطاً مريعاً في كل شيء، تنحط في الخلق، والعلم، والأدب، والاقتصاد وبسبب ذلك تفقد شعورها بالكرامة والعظمة، ويزول عنها الشعور بالحاجة إلى السؤدد والرجحان، والرضاء

بالدون من العيش، في كنف المتغلب عليها، شأنها التظلم والبكاء، ومن خصائص هذا الوجود أن لا كرامة لمتظلم بكاء، ومن كان هذا شأنه فهو غير خليق بالبقاء، وبطن الأرض أجدر به من ظهرها.

وبالرغم من ذاك فإن للمسلم الذي يؤمن لله حق الأيمان ميزة خاصة، لا تفارقه، وإن غلب على أمره، وهي عدم الاستسلام لعوامل الفناء والإنحلال، تقوى فيه غريزة اليقظة والإنتباه، التي يستمد مقوماتها من آيات الكتاب المجيد (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس) (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر). وفي مقدور المسلم المتذوق لحلاوة الايمان بهذه الحقائق الالهية أن يهيمن على العالم متى شاء بقوة هذه العقيدة، وكل إنسان إذا آمن بشيء تمثل فيه، فمن آمن بكمال العظمة كان عظيماً. ومن هنا نستطيع أن ندرك أسباب إنحطاطنا، وضعفنا، فإن مجرد اعتقادنا في أنفسنا بأننا ضعفاء أذلاء نستكين ونصبح ضعفاء أذلاء، وهذا الإعتقاد مرض عارض لا بد لنا من إزالته بإرساخ الأيمان في قلوبنا، وإرساخه يتوقف على عزيمة صادقة من أنفسنا نواصل بها العمل لتحقيق أمانينا، وإذا لم نبادر إلى ذلك قبل أن يتأصل فينا هذا المرض وقعنا في الهلاك وساء المصير.

ومن شاء أن يعرف مدى الأديان وأثرها إن كان صلاحاً أو فساداً، فقد يحسن به أن يتعرف آثارها في الأقوام حين ظهورها، فإذا كانت مفيدة نافعة حكمنا بصلاحيتها، وإلا تركناها وبحثنا عن غيرها. أما الإسلام فشمسه الساطعة لم تزل مشرقة الآثار على الأنظار، فقد ظهر وانتشر على العالم في فترة قصيرة محدودة، بحيث لم يمض عليه عشرات من السنين حتى رأينا قواد الأمويين يتبسطون في أقصى ممالك العالم، فهذا المهلب بن أبي صفرة ينازل القوقاز ويسير بجيوشه قدماً إلى نهر الملكة، وذاك قتيبة بن مسلم الباهلي يرود خلال التركستان وهو يواصل فتوحاته إلى مشارف الصين، ومن ناحية أخرى نرى «محمد بن القاسم الثقفي» يمرح بجيوشه في بلاد البلوخستان ثم

يمد ذراعيه إلى الهند فيطوي منها السند وبلاد الملتان.

هذا في مشرق الشمس، وأما في مغربها فنجد القائد العظيم «حسان بن النعمان الغساني» يسير بين لبات شمال أفريقية، وهو يدوخها مملكة إثر مملكة، ينشر في آفاقها هداية الإسلام، وعدل الخلفاء، بحيث لم يمض قرن كامل على ظهور هذا الدين الهادي، حتى رأيناه بسعي هؤلاء القواد الأربعة الكبار يعم سلطانه أغلب الكرة الأرضية، ويدخلها بين صلب وترائب الإسلام، كأنها أمة واحدة، ذات شعور موحد، تدين بالطاعة لخلفائها الكرام.

وهنا يمكننا أن نجعل موازنة بين ما فعله الإسلام السمح، وما فعله الإستعمار الغاشم، فهذه انجلترة، وهي سيدة دول العالم اليوم، بلا مدافع، استولت على الهند منذ مائة نيف وخمسين سنة، ومع ذلك فإنها لم تستطع أن تطبع إقليماً واحداً من هذه البلاد بالطابع الانجليزي، كما طبعها الإسلام كلها بطابعه، وما زال أثره خالداً فيها إلى هذا اليوم، وسيبقى خالداً إلى الأبد إن شاء الله.

وهذه فرنسا في شمال أفريقية بالرغم من قساوتها وشدتها في الأحكام، وما تعامل به سكان تلك البلاد من ظلم وإرهاق، لحمل الناس على ترك عربيتهم ودينهم، خصوصاً بعد خروجها من حرب السبعين لكي تجعل عبر المتوسط بلاداً إفرنسية ثانية، لحماً ودماً وعقيدة، وذلك بالقانون المعروف الذي دعته قانون التجنيس بعد حرب السبعين، وأرادت تجربته في الجزائر، فلم تفلح، فقد أتاحت للجزائري إذا تجنس بالجنسية الإفرنسية التمتع بجميع حقوق الفرنساويين، له مالهم، وعليه ما عليهم، ومع ذلك فإن الجزائري يترفع عن أن يخرج عن قومه ودينه ليكون إفرنسياً، ويرى في ذلك سبة وعاراً لجزائريته المسلمة، فهو يفضل أن يحتمل أنواع الأصر والعذاب عن أن يكون نبيلاً إفرنسياً، يؤذي بلاده، لذلك لم يتجنس من الجزائريين المسلمين غير عدد ضئيل من أوشاب الناس وحثالاتهم (في النيف والستين سنة التي مضت

على تشريع قانون التجنس الذي قصد به محو الذاتية الجزائرية)، لا يزيدون عن 2500 نسمة بين آباء وزوجات وأطفال، وإنها لعمر الله بطولة خارقة في الاحتفاظ بالقومية العزيزة، يجب أن تؤثر عن الجزائريين الأباة، فتقدر لهم وتذكر.

ما هذا السر المصون الذي جعل تلك الأمم التي تملأ شطر البحر المتوسط تعتز إلى هذا الحد بقوميتها، وتتحمل في سبيل المحافظة عليها بقوة خارقة، أقسى ما يكون من الابتلاء، وأشد ما عرف من الإضطهاد، وأنكى صنوف الحرمان؟

السر في ذلك هو العقيدة، فإن هذه الأمم المبتلاة في حياتها تعتقد إعتقاداً جازماً بأن الله تعالى ابتلاها بما أصابها إمتحاناً لها في صدق إيمانها (والأيمان لا يثبت بغير إمتحان)، كما جاء ذلك في آيات الكتاب العزيز (ألم أحسب الناس أن يتركوا، أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين)، فهم يتقبلون هذا الإمتحان بقلوب ملؤها الإيمان، ومراس عجيب، مطمئنين بالعدل الإلهي، الذي وعدهم بالاستخلاف في الأرض، إن صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وبرزوا في الإمتحان، كما استخلف الذين من قبلهم، ووعد الله حق وصدق، كما جاء في محكم التنزيل (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين).

وليس لهذا الاصطبار الطويل معنى إلا إستجماع القوى المتفرقة، وشحذ العزائم لصد الغارة، ومحو العار ثم تعقبه الوثبة، ولكل غيبة أوبة، ولكل اغفاءة يقظة، والدنيا دول يتعاورها الناس، ونحن إذا اغلبنا اليوم على أمرنا، فلا شك بأننا سنعيد الكرة رغم أنوف المعوقين الجاحدين، الذين يوهمون دهماءنا بأن هزيمتنا أبدية كي يفوزوا بأسلابنا.

فأنتم يا معشر الشباب المعصوم، وإليكم يساق الحديث، عليكم وحدكم المعول في ترميم بناء هذا المجتمع، واسترداد الشرف المضاع،

فانهضوا للعمل، بارك الله فيكم، واجتهدوا وجدوا، ولا تنسوا أبداً ذكرى مجد الأجداد العتيد، لتعيدوه سليماً غير مثلوم، واذكروا الماضي الفاخر الذي فصلتم عنه رغم إبائكم حتى تستردوه، ابكوه بكاء مراً يقرح الجفون، فإنه لا حياة للأمم إلا بالبكاء والندم على ما فات، عيشوا بالألم للألم، فإن الحياة تزكوا بالآلام، وتنتعش بالدموع، والوصول إلى العلياء لن يكون إلا عن طريق الآلام. والسلام عليكم أبنائي، واستودعكم الله، الذي لا تضيع لديه الودائع. ؟

(*) نشرت في مجلة (روضة المعارف) العدد (1) السنة الثامنة شهر رمضان المبارك (1354) كانون الأول / ديسمبر 1935 وألقيت محاضرة على طلبة (كلية الزوضة) بالقدس الشريف.

أمراض العالم العربي
كيف نشأت وما هي وسائل الإصلاح؟؟

ظهرت الرسالة المحمدية بعدما غشي العالم من الطغيان الآري ما غشيه من ظلم، وإرهاق، وضلال، فدعت الأمم قاطبة إلى إعتناق السلام، والطمأنينة، وحماية الوجدان، وحرية الفرد، وجعل الناس سواسية في الحقوق، إخواناً في الله، متكافئين في الدماء، متكافلين في الواجبات، ما آمنوا بالله، وكفروا بالطواغيت، ونزعوا نير الجبارين من الرقاب.

ولم تكد تنتشر هذه التعاليم الالاهية الحقة في الآفاق، حتى أحدثت هزة عنيفة في قلوب الضعفاء الذين أرهبهم الاستعباد، ووجدوا فيها لأنفسهم جنة من العسف والإرهاق وجور الآريين الطغاة.

ولم تكن هذه الدعوة الخارقة لتفرع أسماع العرب دون غيرهم بل دوت في آذان الآريين أنفسهم بحيث لم يتحرك الدعاة الأولون للاسلام من الحجاز حتى هبت الممالك تستقبلهم بظبات السيوف وألسنة الحراب التي أعدها أكاسرة الفرس، وقياصرة الرومان، للفتك بمن يحاول المساس بسلطانهم الغاشم ـ ولكن بقلوب خاشعة مليئة بالإيمان، معترفين بأنهم لا يسيرون قيد قتر إلا في سبيل الإنقاذ وتحرير القلوب والعقول من الهلاك. وخذلوا حكامهم المتعسفين وتجندوا مع القادمين لنصرة الحق، وما كانوا يعدلون بهم أحداً من البشر سوى القديسين الأبرار والملائكة الأطهار الذين نوهت

بذكرهم الكتب المقدسة، وكانوا يحسبون ما ذكرته عنهم من صفات هي من مبتكرات الخيال، فإذا بها حقائق راهنة تمثلت في أولئك الأبطال الذين تخرجوا في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي أسسها محمد بن عبد الله، بحيث لم يتوسط عدد الخلفاء الراشدين حتى رأينا دعائم آية الفرس مقوضة في المشرق، ثم تصاب بالاندثار، ويذهب الفرس إلى ما هو أبعد من ذلك مذهب الإعتقاد في العرب بأنهم رسل الإنقاذ الذي هلك دونه مصلحهم العظيم مزدك، وشاهدوا من ناحية أخرى آرية الروم تنهار تحت أقدام الطلائع من المسلمين في المواقع التي اصطدموا فيها ـ في سورية، وبرقة، وطرابلس وأفريقية.

ولولا الفتنة الملعونة التي حدثت بشأن الخلافة، وكان موقد جذوتها عبد الله بن سبأ اليهودي، وما استتبعته من أحداث، كمقتل الخليفة الثالث الشهيد ذي النورين ـ عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ على يد خليط من الجنود الذين لا يفهمون مغامز الدعايات السياسية التي يدبرها الأعداء لاتصلت الفتوحات الإسلامية في عهده برومة والقسطنطينية، ولكان شأن الإسلام غير الذي هو فيه الآن من مكائد الآريين.

ولكن وقع ما وقع ولا حيلة في الأمر الواقع، وقد كان من بعض نتائجه تلك الأخطاء الفادحة التي ما كان المسلمون يتوقعون صدورها من أهل الصدر الأول للإسلام، ولم يقف أثرها عند تلك الوقائع المحزنة بل إتصل بتقويض الدولة الأموية، وهي في عنفوان شبابها وبتقويضها إنهدم كيان العرب، وانتقلت مقاليد الإسلام إلى الطورانيين، ثم تدلت منهم بعد فترة طويلة إلى الآريين الغربيين وأصبح لهم الأمر بالفرض والدعة في الوقت الحاضر.

مناهضة العرب وهدم نفوذهم

كانت الدولة على عهد الخلفاء الراشدين عربية بأتم معاني الكلمة لحماً ودماً، لا ينازعهم فيها منازع من مسلمة الأعاجم وهم لهم تبع، ولما آلت الخلافة إلى الأمويين كان عدد الذين أسلموا من الأعاجم يبلغ أضعاف

أضعاف عدد العرب، ونجم في عهدهم من أثر فتنة الخلافة عدة أحزاب عربية تحرض على الإنشقاق، وكان من أشدهم إغراقاً في ترويج هذه الفتنة ـ الخوارج، والشيعة، كانوا يسيرون جماعاتهم إلى الأعاجم يدعونهم إلى الثأر، وشق العصا في وجوه الأمويين، وكانوا لا يتحاشون في ذلك عن تحريك النعرة الجنسية التي أزالها الإسلام، ومال زال ذلك دأبهم حتى لووا قلوبهم، وانتظموا أحزاباً تمردت على العرب، وما لبثوا حتى رفعوا عقيرتهم بالدعوة إلى الشعوبية النكراء، ويتعللون في إثارتها بما يلقونه من جفاء الحكام وغطرستهم وأنهم لم يقدموا على ما أقدموا عليه إلا لكي يقلدوا العرب في الإعتزاز بالعنصرية. وما كانوا يستطيعون أن يرفعوا أصواتهم بهذا الهراء لو لم يجدوا مؤازرة فعلية من تلك الأحزاب. وبلغ من إنتكاثهم أن تجندوا لبني العباس في فارس وخراسان لحرب الأمويين ونقل تاج الخلافة إلى العباسيين، وبتتويجهم في غفلة الدهر إنتهى حكم العرب الأقحاح، وخلفه لأمد محدود الحكم العربي الآري.

ولكي نرفع الستار عما استتر في غضون هذا الإنقلاب ينبغي أن نكاشف القراء بوصية إبراهيم الإمام الى قائده الكبير أبي مسلم الخراساني حيث أرسله إلى خراسان لتأسيس الدولة وهاكم نصها بالحرف الواحد:

«يا عبد الرحمن إنك صرت رجلاً منا آل البيت فاحفظ وصيتي، أنظر هذا الحي من اليمن فاكرمهم، وحل بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم».

«وانظر إلى هذا الحي من ربيعة، فاتهمهم في أمرهم، ولا تركن إليهم.».

«وانظر إلى هذا الحي من مضر، فإنهم العدو الغريب الدار، فاقتل من شككت في أمره منهم، ومن كان في أمره شبهة، ومن وقع في نفسك منه شيء، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار وتتهمه فاقتله».

ومن هذه الوصية الصريحة يتبين لنا الأساس الذي قامت عليه الدولة

العباسية وهو مناهضة العرب، وهدم كيانهم والإعتزاز بالآريين والطورانيين، ولا يخفى ما في ذلك من إنعاش روح القومية في العنصرين وهدم الروح العربية التي كانت مخاضاً لما جاءت به الرسالة المحمدية لانقاذ العالم.

ذلك الداء الوبيل الذي نزل بالعرب منذ فجر دولتهم، واستمر يعمل على تهديمهم إلى أن إستفحل الخطب في أيام المعتصم باتحاد الوزراء، والوكلاء، وقواد الجيوش، من أغلبية الأتراك، فكان هم هؤلاء جميعاً موجهاً لإحياء العنصرية التركية، وتمكين الأتراك من إدارة الشئون، والاضطلاع بسياسة الملك، ولم يكادوا يتوفقون لذلك حتى عمدوا إلى تمزيق الدولة العباسية شر ممزق.

ثم أقاموا على أطلالها دولهم ـ كالسمانية، والغزنوية والبويهية والسلجوقية، وما إليها، وأقصوا العرب عن الرياسة، وإدارة الأعمال، وصرفوهم عن الوظائف، ثم عوضوهم عن ذلك كله بالاصطناع من طريق الصدقات والإحسان إلى أن ذابوا فيهم وانقرضت سلائلهم من تلك البلاد التي فتحت بسيوف آبائهم.

وأما الذين بقوا من العرب قابعين في الجزيرة فقد انزووا في أكنان الذل والصغار، ولم يبق لهم شأن يذكر إلا في الأندلس وشمال أفريقية، وهؤلاء أنفسهم لم يلبثوا إلا يسيراً حتى هوى نجمهم بسبب الإنقسام، والتغافل عما أصاب إخوانهم في المشرق، فتسلط عليهم الأسبان، ولم تقم قائمة للعرب من ذلك العهد. ولولا ظهور الدولة العثمانية وهيامها بإضعاف الأسبان، وإقبالها على مطاردتهم في شمال إفريقية لآلت إلى ما آل إليه أمر الأندلس، ذلك الفردوس المفقود، ولكان أمر العرب فيها أثراً بعد عين.

نتائج هذه الحال ووسائل العلاج

إنطوى العرب بعد أن فقدوا صولة الحكم في جميع الأقطار وذبلت مدنيتهم، وتغلبت على لسانهم رطانة الأعاجم، واستعاضوا عن أدب القوة والفلسفة الواقعية تلك الرخاوة التي تلازم المرتزقين والمصطنعين عندما

يشعرون بالخيبة والإنكسار، وليس من طبيعة الصائل المتغلب أن يكف عن المغلوب، حين يتسلط عليه، أو يسعفه بالإنفلات من شركه، بل يجد في توهينه وتمويعه وإذابة ما كان يتحصن به من إباء وخلق كريم.

هذا ما نكب به العرب في جميع أقطارهم منذ تسلط عليهم الأتراك على طول عهدهم.

ولما جاء دور تغلب الآريين الغربيين، وجدوهم موطئي الرقاب خانعين للاستعباد، فقراء النفوس، ليس لديهم من الحصانة ما يخففون به عن أنفسهم وطأة القادمين.

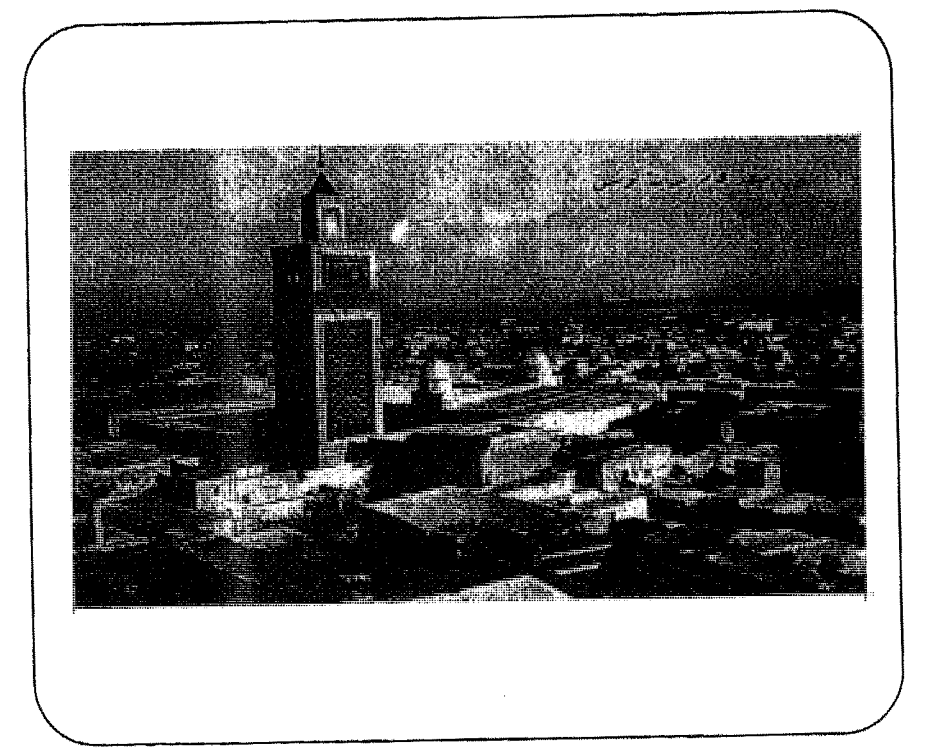
تلك هي علة العلل فيما مني به العالم العربي من انحطاط ولن يهيب بإنقاذه إلا إحياء الرسالة التي قام بها محمد بن عبد الله سيد العرب والعجم بعد تجريدها مما علق بها من أدران الضعف وهذر التأويل، وإعادة ما كان لها من قوة ونصاعة. نعم، ولكن هناك سؤال يرتسم في الأفق: من يتصدى للقيام بتنفيذ هذه المهمة الشاقة العظيمة والأمة كما وصفناها، منحنية الظهر مثقلة بارزاء الماضي، وهي على ما هي عليه ـ من جهل، وفاقه، وفقر في الأخلاق والآراء؟

هل بادية العرب يوكل إليها إنقاذ ذلك التراث في العصر الحاضر ـ عصر الكهرباء والنور، وهي لم تزل تتخبط في عصر الجمل، وقد أضاعت ما كان لها من ميزات قديمة من تعقل وشيم بتأثير التقليد الأعمى، وسذاجة الفهم لروح الدين؟ أم نوجه الأنظار إلى الممالك الأخرى التي بدأت تضطلع بقسطها من التقدم الإجتماعي والسياسي، والإنتظام في سلك الدول، وهو الأقرب إلى المعقول؟ إلا أنه قد يصطدم بالوضع الإقليمي الذي تترسمه تلك الدول، وإن كان الأمر في الواقع أكبر من مجهود دولة أو دولتين، لأنه يتصل بقلب وضع عنصر من أكبر عناصر الأمم ليسد فراغ خطوط المواصلات العالمية، المارة بين قارتي آسيا وأفريقية.

أما رأيي الخاص ـ في النظر في حيوية الرسالة الكريمة، وتوجيهها

وجهتها العلمية والسياسية والإجتماعية في الوقت الحاضر ـ فلست أرى لها أهلاً غير الجامعات التي تكون لها خطط مدققة في الأحياء والتجديد ـ لا تلك الجامعات المتزمتة التي لا تخرج غير عقول آلية تتحرك بإرادة غيرها، وذلك قد لا يتوافر لها في الساعة الحاضرة إلا في مصر، والعراق، وفلسطين ـ إن خرجت من محنتها غير مهيضة الجناح، ومع ذلك فلى يقين لا يتزلزل في الرجعة طال الزمن أو قصر، ولكن تحديد وقتها موكول للتقادير.

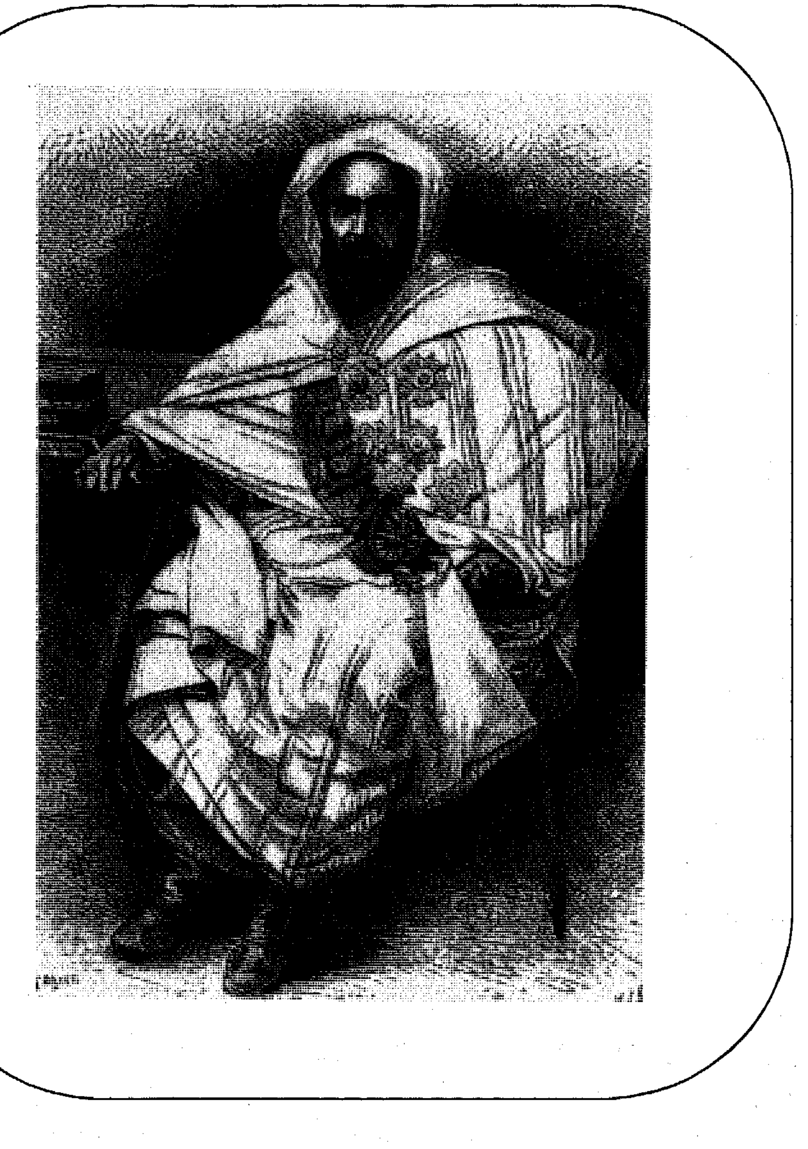
هذا رأيي جئت به اليوم ألقبه بين الآراء لعله يكون كاشفاً لداء العالم العربي ودوائه، بواسطة الهلال الأغر، والرجاء أن يكون مفيداً، وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.



(*)نشرت بمجلة (الهلال) عدد خاص (1939).



في سبيل وحدة المغرب العربي



رمز المقاومة في المغرب العربي للاحتلال الأجنبي ورافع لواء الجهاد
سبعة عشر عاماً في وجه أوّل حملة أوروبية على العالم الإسلامي في العصر الحديث
من (1830 إلى 1847)
الأمير الفارس الشاعر عبد القادر الجزائري (1808 ـ 1882)

ما يجب أن نعرف عن شمال أفريقية

«رأت الرابطة العربية أن تمهد للمؤتمر الذي تعمل لعقده في العام القادم[1] بنشر نبذ علمية وتاريخية عن وحدات الأمة العربية، ليعرف بعضها بعضاً معرفة وثيقة. وقد طرحنا على زعيم تونس الكبير الأستاذ الثعالبي السؤال الآتي: إلى أي عهد ترجع صلة شمال أفريقية بالأمة العربية وهل تعد أجزاؤها الآن وحدة قوميّة واحدة على الرغم من التقسيم السياسي الحاضر؟ فتفضل بالإجابة الآتية»:

---

(1) كانت مجلة (الرابطة العربية) تنوي الدعوة إلى عقد (مؤتمر عربي عام) لمناقشة قضايا الوطن العربي، تربوياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً يعدّ له ويشارك فيه بصفة خاصة رجال العروبة والإسلام من أبناء مصر، ومن أبناء وأحرار الأقطار العربية الأخرى الذين اضطرتهم الظروف السياسية الإستعمارية إلى مغادرة أوطانهم واللجوء إلى مصر ومواصلة نضالهم الوطني في القاهرة التي فتحت ذراعيها في الثلاثينات لهؤلاء الأحرار. وأتاحت لهم فرصة حرية التعبير والإصداع، في صحافتها الزاهرة في تلك الفترة، وعلى منابر أنديتها ومحافلها، وجمعياتها الفكرية والثقافية.

ومن أبرز الأسماء المهاجرة إلى القاهرة في هذه الفترة: محمد الخضر حسين، وعبد العزيز الثعالبي من تونس، وإبراهيم طفيش من الجزائر، والأمير عبد الكريم الخطابي من المغرب، والدكتور عبد الرحمان الشهنبدر وسلطان باشا الأطرش من سوريا، وكذلك أمين سعيد صاحب (الرابطة)، ومن فلسطين محمد علي الطاهر صاحب (الشوري) يعزز جانب هؤلاء وغيرهم، دعاة الفكرة العربية من المصريين أمثال الدكتور منصور فهمي، وأحمد شفيق باشا رئيس (جمعية الرابطة الشرقية) ومحمد علوية باشا والشيخ علي سرور الزنكلوني، والشيخ عبد الله عفيفي، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد صبيح، وعبد الرحمان عزام وأحمد زكي باشا، شيخ العروبة.

إذا رجعنا إلى تاريخ الهجرات البشرية الأولى يظهر لنا أن خميرة الأمة الأفريقية من الفينيقيين، وهم بلا شك عرب أقحاح وقد كانوا أمة تجارة وسياحة، ترتاد أساطيلهم الشواطىء بحثاً عن الأسواق التي يصرفون فيها بضائعهم، وفي أثناء رحلاتهم هذه في البحر المتوسط أخذوا ينزلون شواطىء أفريقية ومع مضي زمن ـ أعتقد أنه ليس قصيراً ـ أنشأوا عدة أسواق على شواطىء البحر المتوسط الجنوبية، وكانت جهودهم جهود أفراد، لا دخل فيها لرقابة الحكومات أو الجماعات المنظمة، ويشبه عملهم إلى حد كبير عمل الجاليات السورية التي ترتاد أميركا في التّاريخ الحديث، وما أشبه الليلة بالبارحة! وقد أحدث هؤلاء التجار في أزمنة غير محدودة على وجه الدقة مراكز بحريّة للتجارة منها سفاقس وحترموت (سوسه) وبنزرت والعتيقة وبونا وجيمه وطنجة[2]. ثم أخذ التجار يفدون إلى هذه المراكز ويقيمون فيها ويعمرون ويتصلون بسكان الصحراء في الداخل، الذين تسلسلوا من العصور الأولى للنشأة البشرية، فيأتون لهم بالدمى (الآلهة) من مصنوعات صور وصيدا وبيروت ويأخذون حاصلات البلاد كريش النعام وسن الفيل والتبر

ويبدو أن فكرة هذا (المؤتمر العربي) لم تخرج إلى حيز الوجود. ولكن فكرة العروبة ظلت في تصاعد وتنامي حتى تجسمت في (الجامعة العربية) في الأربعينات.

وقد نشرت جريدة (الأسبوع) التونسية في أواسط الخمسينات صورة تجمع في القاهرة بين المشايخ إبراهيم طفيش، ومحمد الخضر حسين وعلي سرور الزنكلوني، وعبد العزيز الثعالبي والدكتور منصور فهمي. وكتبت تحت الصورة:

«الجامعة العربية قبل الحرب الثانية. نحلى صدر ـ الأسبوع ـ بهذه الصورة الثمينة لأنها تحتفظ بذكرى جليلة، يوم كان هؤلاء يفكرون في الوحدة العربية. فسقيا لهذه الأيام التي حققت أحلام هؤلاء الأعلام.

(2) عالج الثعالبي هذه الحقبة التاريخية بتوسع واستفاضة في كتابه: (مقالات في التاريخ القديم) الفصل الأول: الدور القرطاجي.

انظر الكتاب، جمع وتحقيق جلول الجريبي، دار الغرب الإسلامي 1986 و (بونا) التي أشار إليها الثعالبي، هي المسماة اليوم (عنابة) وتقع شرق الجزائر.

وبعض المعادن، وبعد أزمنة متطاولة تكاثروا وأصبحت هذه المراكز مدناً وموانىء وأسواقاً للتجارة والحضارة والعمل. وصادف أن حدث خلاف في بلاد الفينيقيين على وراثة العرش فرت على أثره وارثة الملك الشرعية الأميرة عليسا ديدو[3] إلى شواطىء تونس. وتروي الأساطير القديمة أنها التمست من الأمير البربري في جزيرة شريك الأذن لها بالنزول في قطعة أرض مساحتها قدر مساحة جلد ثور فوجد طلبها هيناً فأمر بتحقيقه، فعمدت إلى هذا الجلد وقصته سيوراً دقيقة، فامتد إلى مساحة مدينة قرطاجنة المعروفة، وهنا أدرك أمير البربر حيلتها ولكنه أعجب بذكائها فاقرها على ما أخذت وبنت الأميرة قرية (حديشت) أو القرية الحديثة وهي التي حرفها الرومان لما نقلوا الاسم إلى لغتهم فصارت قرطاج، ولما كانت مؤسسة هذه المدينة من سلالة ملكية نظر إليها السكان نظرة تقديس واتخذها الفينيقيون الذين يرتادون هذه البلاد ويقيمون فيها عاصمة لهم، وألفوا فيها أوّل جمهورية عرفها التاريخ، كانت حكومتهم مؤلفة من مجلسين: مجلس شيوخ ومجلس تنفيذ، وأعضاء المجلسين ينتخبون من المدن الفينيقية التي ذكرناها وغيرها من المدن التي استجدت بعد هذا لتمثيلها في المجلسين ومن ذلك الوقت استقرّ الفينيقيون في شمال أفريقية، وأنشأوا دولة تجارية لم تلبث حتى صارت دولة إستعمارية قائمة نشرت سيادتها في القارة الثانية. قارة أوربا، فوطدوا نفوذهم في بلاد الغال واسبانيا وشواطىء أخرى من البحرين المتوسط والأطلسي وارتادت بعوثهم أماكن كثيرة منها جزائر الخالدات ومما لا شك فيه أن البحرية

---

(3) جاء في المرجع السابق عن (عليسا ديدو):

«واستمر توافد الفينيقيين على تلك السواحل الإفريقية، وعددهم يتكاثر ويزداد، والسكان يتلقونهم بالترحاب عملاً بشيم العرب، إلى أن قدمت الأميرة (عليسة ديدو) في مراكبها الملكية، من مدينة صور مغاضبة لأخيها الملك الذي قتل زوجها للإستئثار بالملك دونه، فنزلت على الساحل الشرقي من خليج تونس، واشترت هناك مساحة واسعة من الأرض. وكان ذلك في حدود (880) قبل الميلاد، واختطت عليها المدينة العظيمة (قريت حديشت) التي حرّف الرومان اسمها إلى (قرطاجنة).

الإفريقية كانت تحاول اكتشاف قارة أميركا بدليل ما روي عن بعثة حنون التي قامت في أسطول كبير تحت قيادة هذا العالم صوب الغرب ولكنه وصل بها إلى جزائر الخالدات ثم عاد.

هذا هو الإتصال الرسمي بين أفريقية وبلاد العرب الذي استقر وتشكل في البلاد ولكن اتصال شمال أفريقية بجزيرة العرب سابق لهذا العهد (أي يرجع إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة).

فقد كان الضيق الاقتصادي يقذف بأفواج من سكان الجزيرة لا إنقطاع لها إلى أفريقية مجتازة شاطىء البحر الأحمر وصحراء سينا، ومنها ما كان يستقر في وادي النيل ومنها ما كان يستأنف رحلته حتى جبال الأطلس وهكذا كان البحث عن الكلأ وأسباب الرزق حافزاً للعرب الأول إلى التبسط والامتداد من مصر إلى المحيط الأطلسي.

وهناك غير العنصر الفينيقي والعنصر العربي، عنصر آخر كان ينحدر إلى شمال أفريقية من الناحية الشماليّة عن طريق بلاد الغال واسبانيا وينتشر في جبال الأطلس ومن هذين السبيلين: سبيل الشرق (العرب ومنهم الفينيقيون) والغرب (أوربا) تكون عنصر ممتزج هو ما يسمى البربر. ونجد في تقاليده إلى الآن الكثير من عادات العرب الجاهلية خصوصاً أنظمة الأسرة (الأنكحة والمواريث) التي يجري أكثرها على غرار الجاهلية. والظاهر أن العنصر الغالب في هذه الهجرات هو العنصر العربي لأنه أصبح أكثرية في البلاد.

وقد تفاعلت اللغات كما تفاعل الناس وتكونت من المزيج لغة مستقلة هي اللغة البربرية بلهجاتها المختلفة، والحقيقة إن نعت السكان الأول لشمال أفريقية بالبربر هو من الاصطلاحات الرومانية التي أخذت على علاتها.

هذا هو العنصر الأصلي وهو يتألف كما أسلفنا من بقايا عنصر قديم ومن الفينقيين وأهل الغال والعرب... وثمت عنصر آخر وهو الخليط الذي

نشأ في البلاد بعد عهد الفينيقيين الذي أنهاه الفتح الروماني، وهو يتكون من الوافدين الجدد في ذيول الاستعمار الروماني.. ثم تلاهم الوندال الذين حكموا البلاد نحو قرن، ولكن هؤلاء استقروا في البلاد وأسس دولتهم (جنسريك)[4] على قواعد محلية غير تابعة لدولة خارجية فأصبحوا مدة حكمهم شبه وطنيين ثم جاء البيزنطيون ومن هؤلاء ومن الوندال والرومانيين تكون عنصر أطلق عليه العرب «الأفارقة».

ولما جاء الفتح الإسلامي، وجد هذا الوضع في البلاد، وكانت منقسمة إلى قسمين حسب النظم الرومانية من جبال الأطلس إلى البحر المتوسط، وهذا يسمى إفريقية، وهو الجزء المتحضر الذي استقرت فيه السلطات ووفد إليه المهاجرون أول ما وفدوا، والقسم الثاني جنوب الأطلس واسمه «نوميديا» وكانت أفريقية تحت السلطان المباشر لكل الحكومات من عهد القرطاجنيين إلى عهد البيزنطيين، وأما نوميديا فكانت تحت سلطة أمراء من البربر خاضعين لحماية حكومات أفريقية المتعاقبة.

ويتضح من هذه المقدمة التاريخية أن في البلاد من قديم العهود عنصرية عربية قوية، كانت تغذيها الهجرات التي لم تنقطع أصلاً حتى جاء الفتح الإسلامي وكل ما صنع هذا الفتح أنه قلب نظام الحكم وجعله نظاماً إسلامياً عربياً، ووحد إدارة البلاد، وأزال قسميها السابقين وعدها مملكة واحدة شمالها وجنوبها. ولم يجد الفتح الإسلامي عناء كبيراً من السكان الجنوبيين، وإنما كان يجد مقاومة من الأفارقة وهم الوافدون من شمال البحر المتوسط (أوربا) وبالنظر لتأثير الروح السامي في أغلبية السكان سهل على الحكومة الجديدة قلب أوضاعها حسب النظم التي أرادتها. ولم يمض أمد طويل حتى إعتنقت البلاد الإسلام، واندمجت كلها في القومية العربية. ولذا لا يستطيع المؤرخ ـ مهما تجافى عن الحقائق العلمية ـ أن يفصل شمال

---

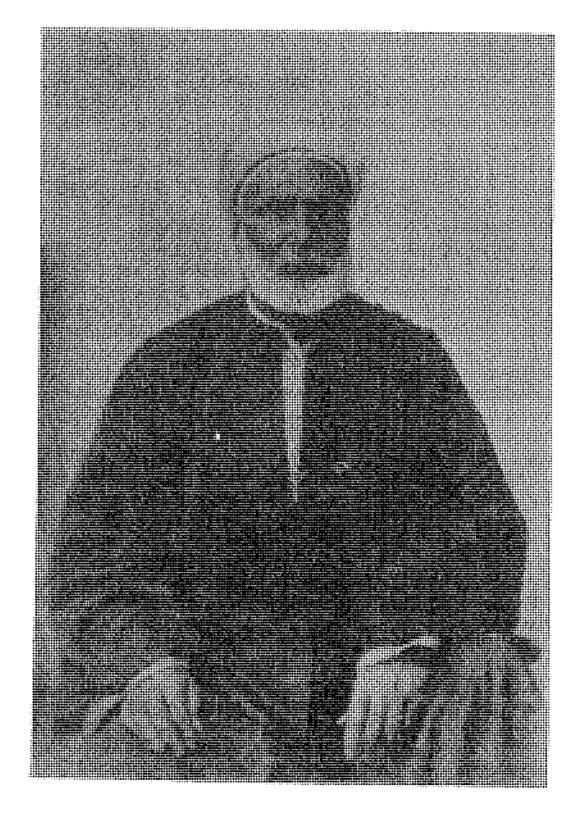
(4) جنسريك ورد في كتاب (مقالات في التاريخ القديم) بصيغة (جونسيق). وهو كما يقول الجامع والمعلق (Genseric) ملك أسبانيا القندالي مات سنة 477 م.

أفريقيّة عن الأمة العربية ولا يسعه إلّا أن يقول أنها جزء متمم لوحدتها، مع وجود عناصر دخيلة ابتلعتها بحكم تأثير الأقوى فيمن هو دونه.

ثم أن الإسلام أنشأ في شمال أفريقية حضارة، فكانت كل ظاهرة من مظاهر المدنية تتجاوب في هذا القسم من الامبراطوريّة العربية بحكم الوحدة في الشعور والتفكير والعقيدة والجنس.

ومما يستحق الذكر أنه كان من ضمن نظم الدولة الأموية التي نشرت الحكم العربي في شمال أفريقية أن جعلت ولاية أفريقية ممتدة من حدود مصر حتى المحيط الأطلسي، وكانت هذه المنطقة العظيمة وحدة في التقسيم الإداري من النصف الثاني للقرن الأول الهجري، واستمرت على ذلك حتى ظهر إدريس الأكبر، وفصل إقليم المغرب الأقصى عن الخلافة العباسية. ولكن دولة بني الأغلب التي عنيت بالفتح في أوربا، وإنزال ممالكها تحت ظل السيادة الإسلامية لم تشأ أن تريق دماء المسلمين في سبيل اكتساح هذه الإمارة الصغيرة التي تولاها الأدارسة، وكذلك استمر الحال في عهد الدولة العبيدية التي انتقلت إلى مصر، وتسمت فيها بالدولة الفاطمية، فخلفتها في الحكم الدولة الصنهاجية التي عملت على نشر روح الاستقرار والعلم، ونبغ في عهدها كبار العلماء والفقهاء وتأسست معاهد الثقافة والصناعة والعمارة، وبذا أكملت ما بدأ فيه بنو الأغلب. وزالت العنصريات وارتفعت كلمة واحدة، هي السيادة العربية... واستمر هذا العهد الإصلاحي حتى حدث الهجوم الهلالي المكون من سبع مئة ألف أعرابي في أواسط القرن الخامس، فأزال معالم الحضارة حيثما وجدها، وأضعف سلطان الدولة الصنهاجية فلفت ذلك نظر النرمنديين في أوربا، وأغراهم باكتساح سلطان المسلمين من أوربا ثم أخذوا يتجهون إلى شمال أفريقية في أوائل القرن السادس الهجري وفي منتصف هذا القرن فر الحسن بن علي آخر ملوك هذه الأسرة إلى الجزائر مستنجداً[5].

(5) نشر المقال في مجلة (الرابطة العربية) العدد (12) أغسطس 1936.



رسم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده
ننشره بمناسبة الاحتفال العظيم الذي أقيم في القطر المصري
بذكراه الثلاثين
أخذ هذا الرسم بعاصمة الجزائر أيام زارها الاستاذ في صفر ١٣٢١هـ ١٩٠٣ م

هدية «الشهاب» لقرائه مع الجزء: ٦ – م ١١

1 ـ الشيخ محمد عبده في تونس

2 ـ كيف التقت مصر بتونس

قال الزعيم الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي رداً على سؤالنا له عن زيارات الإمام الشيخ محمد عبده لتونس:

ـ كان الأستاذ الإمام رحمه الله يؤمن إيماناً كبيراً بالوحدة الإسلامية، وكان جم النشاط عميق التفكير، حاد الذكاء، وكان ينتهز كل فرصة ليزور البلدان الإسلامية، وقد زار تونس مرتين الأولى في نحو سنة 1883 أي عقب حوادث الثورة العرابية[6]، وكان في طريقه إلى أوربا للحاق بالسيد جمال الدين الأفغاني.

---

(6) (الثورة العرابية) انضم محمد عبده إلى العرابيين بعد مظاهرة (عابدين) في 9 سبتمبر أيلول 1881، وانغمس في الدعوة إلى الثورة بكل قواه العقلية والفكرية، والخطابية والقلمية. وبعد هزيمة الثورة في سبتمبر 1882، سجن ثلاثة أشهر، ثم حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات في 24 ديسمبر 1882 ولكن الإقامة في المنفى امتدت إلى ست سنوات.

وتشير بعض المصادر إلى أن الزيارة الأولى للإمام محمد عبده لتونس كانت سنة 1884 لا وهو في طريقه إلى أوروبا للحاق بالسيد جمال الدين الأفغاني في باريس وإصدارهما جريدة (العروة الوثقى) وإنما بعد إستقراره في باريس وتوقف هذه الجريدة في 17 اكتوبر 1884 وكان صدورها بتاريخ 13 مارس 1884، ولم يصدر منها إلا ثمانية عشر عدداً.

وفي طريق العودة إلى بيروت من باريس، ويأس الإمام من العمل السياسي زار تونس متجهاً الوجهة الإصلاحية التربوية التي عرف بها حتى آخر حياته.

وكان في ذلك الوقت شاباً ثائراً، ينادي بوجوب اتحاد المسلمين، ويؤمن بإمكان إعادة الدولة الإسلاميّة تحت ظل لواء واحد. وهذه الدّولة هي التي تستطيع طرد أوربا من الشرق. وقد أسس (جمعية العروة الوثقى) لهذه الغاية وبشر بمبادئها في تونس أثناء هذه الزيارة وجمع لها من التبرعات 20 ألف فرنك.

وكانت الحالة الفكرية في تونس أثناء هذه الزيارة مضطربة أشد الإضطراب، واستمعت الآذان، والتفتت الأذهان إلى روح التجديد الديني وطريقة استغلالها في الأعمال السياسية، وكانت محور حركته، وهي التي أبعدته عن البحث في العقائد المجردة ومناقشتها. والتف حوله الوزراء والعلماء والوجهاء لما كان يتمتع به من سمعة حسنة وللحيوية التي كانت تشيع في دعوته[7].

والإمام محمد عبده، في زيارته الثانية لتونس في جمادى الثانية 1321 سبتمبر 1903 ذكر ـ شخصياً ـ في جريدة (الحاضرة) بأن زيارته الأولى لتونس كانت في أوائل (1302 هـ) وهي توافق (1884) م. و(الأفغاني) هو مؤسس (العروة الوثقى) الجمعية والصحيفة.

أنظر المراجع الآتية:

الإمام محمد عبده، مجدد الدنيا بتجديد الدين. د. محمد عمارة. دار الشروق 1988 القاهرة. الموسوعة الصحفية العربية، الصحافة العربية في بلدان المهجر. تأليف جماعة. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1991.

جريدة (الحاضرة) التونسية، العدد (761) والعدد (762) سبتمبر 1903 المقال الإفتتاحي: (حضرة الأستاذ مفتي الديار المصرية): و (مذاكرة مع فضيلة الأستاذ محمد عبده مفتي الديار المصرية).

الرحلة الحجازية، محمد السنوسي، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع تونس (1398 ـ 1978)، الجزء الثالث، صفحة (287).

(7) من أبرز الوجوه الإصلاحية في تونس التي لازمت الشيخ محمد عبده، في زيارته الأولى لتونس الشيخ محمد السنوسي صاحب (الرحلة الحجازية) وكان من أعضاء (جمعية العروة الوثقى) والداعين لها في تونس، وبجهوده انخرط فيها رجال من أعيان العلماء والأدباء.

وبعد هذه الزيارة ذهب إلى أوربا، فأقام في باريس حيناً، ثم ظل ينتقل بينها وبين لندره حتى أقفلت جمعية العروة الوثقى، وذهب السيد جمال الدين إلى لندرة وأصدر جريدة (ضياء الخافقين)[8]، فعاد الإمام إلى بيروت، وكان على صلة بكبار التونسيين وعلي الأخص الشيخ سالم الحاجب[9] وكان هذا

= وقد أفاض (السنوسي) في رحلته في الحديث عن الإمام محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني. وقال عن الإمام:

«وحضر عندي ليلة الأربعاء السادس والعشرين من صفر الخير سنة (1302) واسترسل إجتماعنا به إلى أن قضى موسم المولد الشريف. وسافر يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأول قاصداً التوجه على طريق مالطة ونابولي ثم إلى باريس. ورأينا منه أثناء ذلك من ثقوب الفكر، وفصاحة اللسان، وكمال الدراية، واستحضار المسائل من العلوم العقلية ما تطابق المخبر والخبر، وأغنى بالعيان عن البيان مع ماله من الدهاء والتحنّك بالتجارب، وحدة الذكاء، وبداهة الجواب.

انظر (الرحلة الحجازية) ج (3) صفحة (287).

وانظر (الحركة الأدبية والفكرية في تونس)، محمد الفاضل بن عاشور. معهد الدراسات العربية العالية القاهرة 1955 صفحة (43).

(8) جريدة (ضياء الخافقين) لم يصدرها (جمال الدين الأفغاني) وإنما (حبيب السلموني) (1860 ـ 1940) في لندن في الأول من فبراير / شباط من سنة 1892. وفي هذه السنة كان السيد (الأفغاني) قد إستقر بالأستانة. بينما كان الإمام (عبده) قد عاد إلى القاهرة سنة 1889، في عهد (الخديوي توفيق) وتولى منصب مستشار في محكمة الإستئناف سنة 1891.

انظر: (الموسوعة الصحفية العربية: المهجر) وجريدة (الشرق الأوسط) العدد(5005) 1992/08/11 (فجر الصحافة العربية في أوربا. الدكتور علي شلش، وكذلك العدد (5007).

(9) (الشيخ سالم بوحاجب) (1827 ـ 1924) من رجال الدين والفكر والإصلاح والتعليم في تونس في القرن الماضي، تولى التدريس بجامع الزيتونة فاستقطب حوله النخبة المثقفة، وكان من المساعدين للوزير خير الدين في تأليف كتابه (أقوم المسالك في معرفة الممالك)، ومن الذين استعان بهم خير الدين في بعض الإصلاحات الأساسية، مثل إنشاء (المدرسة الصادقية) و (إدارة الأوقاف) وسافر في مهمات خارجية للحكومة التونسية، ومن بينها التحاقه بالجنرال حسين في إيطاليا للتحقيق في =

الشيخ من العلماء العصريين، إلاّ أنه يختلف عن الأستاذ الإمام في أنه كان رجل دولة، قليل الإتصال بالشعب بعكس صديقه الذي عمل مع الحركات الشعبية[10]، ولم تكن له نزعة وطنية شديدة في كهولته، وإن كان قد بدأ أول أمره ثائراً، مثل الإمام فقد ألف مع نفر من زملائه الشبان جمعية سرية أحدثت أول انقلاب دستوري في تونس، مضى عليه إلى الآن مائة سنة[11]. وكانت

إختلاس أموال الدولة التونسية. في سنة (1906) إنخرط في المجلس الشرعي، وتقلد وظيفة (مفتي المالكية) ثم مشيخة الإسلام المالكية سنة 1919.

ويعتبر الشيخ سالم بوحاجب مع أستاذه الشيخ محمود قبادو، ومعاصريه محمد بيرم والجنرال حسين، وتلميذه محمد السنوسي، والوزير خير الدين، من رموز الإصلاح الديني والسياسي والتعليمي في تونس في النصف الأخير من القرن الثامن عشر.

وكان الشيخ (بوحاجب) أحد الملازمين للشيخ (محمد عبده) في زيارته الأولى والثانية لتونس.

انظر: (الحركة الفكرية والأدبية في تونس) محمد الفاضل بن عاشور. 1986 (الرحلة الحجازية) محمد السنوسي. تحقيق (علي الشنوفي) الشركة التونسية للتوزيع 1976 (أعلام تونسيون) الصادق الزمرلي. تقديم وتعريب حمادي الساحلي، دار الغرب ازسلامي.

(10) يشير الثعالبي إلى مشاركة الإمام عبده في الثورة العرابية وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

(11) (قانون عهد الأمان) كان في عهد (محمد باشا باي) وبتاريخ 20 محرم 1273 هـ 9 سبتمبر 1957 م وأما الإعلان عن (الدستور) وتكوين المجالس فقد كان في عهد (محمد الصادق باشا باي) وبتاريخ 17 رجب 1277 هـ 29 جانفي 1861 م. وبذلك لا يكون مرّ على أحدهما مائة عام عند الحديث عنهما في سنة 1936.

وأما (الجمعية السرية) فربما يقصد الثعالبي عضوية الشيخ سالم بوحاجب في اللجان التي شكلها الوزير خير الدين لضبط الإصلاحات الأساسية. ومن بينها (إعلان الدستور) في 1861، والدي قال عنه (الزركلي) في (الإعلام): «ولكنه ظل حبراً على ورق» وأرخه بـ 1284 هـ 1867 م.

انظر (الإعلام) الجزء (2) صفحة (375) ترجمة خير الدين التونسي، الطبعة (2) 1954. وانظر: (الرحلة الحجازية) الجزء (2).

البلاد في أواخر ذلك العهد تتمتع باستقلال داخلي واضح المعالم، فلما قبض هؤلاء الشبان على أزمة الحكم فقدوا صلتهم بالشعب. . وكثيراً ما كان الشيخ سالم الحاجب يسافر إلى أوروبا لأداء مهام سياسيّة فأضاءت له هذه السفارات طريق التفكير الحر، واطلع على أنماط من الحياة الحديثة، فآثرها في بيته، وفي تفكيره، فلما التقى بالشيخ محمد عبده، وجد من آرائه وأفكاره ما ربطهما بأواصر ودّ متين. وفي هذه النقطة التقت تونس بمصر على أيدي زعيمين من زعماء الدين فيهما[12].

وفي سنة 1903 أي بعد عشرين سنة من الزيارة الأولى رحل الأستاذ الإمام إلى تونس رحلة ثانية، وكان الشيخ سالم على قيد الحياة فاجتمعا[13].

وكانت الحياة الفكرية في تونس في مطلع القرن الحاضر تنقسم إلى قسمين:

1 ـ دعوة إلى الإصلاح الديني، والتجديد الفكري يقوم بها جماعة من

---

(12) كانت دائرة الإمام محمد عبده في تونس أوسع من الشيخ سالم بوحاجب، وخاصة في زيارته الثانية. وإن كان الرجلان يلتقيان في الوجهة الإصلاحية لقاء يجعلهما رمزاً لالتقاء المشرق والمغرب.

(13) كان الإمام محمد عبده في زيارته الثانية لتونس ضيفاً على الأميرة نازلي هانم وزوجها في قصرهما بالمرسي. ومن جملة المحتفين به مآدب ودعوات وتبادل زيارات السيد خليل بوحاجب زوج الأميرة ونقيب الأشراف الشيخ أحمد الشريف باش مفتي المالكية. والشيخ محمد محسن الأكبر. والشيخ أحمد بيروم المفتي الحنفي، والشيخ الطيب النيفر القاضي المالكي، والشيخ مصطفى رضوان، والشيخ محمد البشير بن الخوجة والشيخ سالم بوحاجب، والطيب الجلولي، والشيخ الشاذلي بن الخوجة، والشيخ محمد بيرم. والسيد عمر بوحاجب والسيد محسن زكرياء، وعلي بوشوشة مدير جريدة (الحاضرة) والشيخ الطاهر بن عاشور، وغيرهم مما يصعب حصره.

وزار الإمام (عبده) جامع الزيتونة، ومكتبته العلمية، وطلب استنساخ بعض مخطوطاتها النادرة لمكتبة الأزهر، وزار إدارة الأوقاف والمدرسة الخلدونية ومكتبتها، وكان رجال الخلدونية من أكثر التونسيين التفافاً حول الإمام محمد عبده.

الشباب المتعلم الذي يعمل في الحكومة أو يتصل بها، وهذه الصلة حملت هؤلاء الشبان على الاعتدال في آرائهم السياسية، وإيثار العافية والبعد عن كل عمل يعرضهم لسخط السلطات الحاكمة. ولم تنشأ هذه الآراء عفواً، بل عمل على إيجادها مبشر فرنسي إسمه البيرلوزون[14]، جاء تونس بفكرة ترمي

---

(14) (روبير لوزون): 1882 ـ 1976).

ضابط فرنسي، ومفكر وكاتب في خدمة الثورة العمالية في أوائل القرن. التحق بتونس سنة 1913، واشترك في الحرب العالمية الأولى، وبعد قيام الثورة الشيوعية سنة 1917 وإعلان الهدنة في الحرب في نوفمبر 1918، بدأت الفكرة الشيوعية تنتشر في أوربا وكانت في بداية عهدها تنادي بالحرية والعدالة والمساواة والأخوّة، وحق تقرير المصير للشعوب المضطهدة، والسعي في سبيل رفع مظالم الإستعمار عن الشعوب التي وقعت تحت سيطرته.

وفي سنة 1920 كان للشيوعيين نواب في البرلمان الفرنسي، وبادر (لوزون) وهو في تونس بتأسيس شعبة للحزب الشيوعي الفرنسي. سمّوها (الحزب الشيوعي) وانخرط في هذا الحزب بعض الشبان التونسيين المتحمسين للمبادىء التي رفعها الحزب.

في نوفمبر (1921) أصدرت الجماعة التي يتزعمها (لوزون) بعض الجرائد التي تنطق بإسمها، وكان أولها جريدة (حبيب الأمة) ثم (حبيب الشعب) بعد إيقاف الأولى من طرف الحكومة. وتتابع الإيقاف، وتتابعت الجرائد: (النصير) (البصير) (الإستبداد) إلخ. ولما توقفت جرائد الحزب الشيوعي نهائياً. تبنّى بعض الجرائد مثل (المضحك) و (الوداد) وإصدار بعض المنشورات منها خلاصة لكتاب (تونس الشهيدة) للثعالبي. ونصوص شعبية منها (ملزومة) و (قسيم) للشاعر الشعبي (عبد الرحمان الكافي).

وتصاعد التصادم بين الإقامة العامة الفرنسية في تونس و (روبير لوزون) حتى رفعت ضده قضية عدلية انتهت بقرار طرده من تونس في شهر (أوت) 1922 واتجه إلى الشرق.

وكان الحزب الدستوري حريصاً على تنسيق جهوده مع الحزب الشيوعي ومع (لوزون) ما دامت الأهداف واحدة، وهي رفع الظلم عن الشعب التونسي. حتى نشرت جريدة (المنير) (للشاذلي المورالي) في جانفي 1922 مقالة يتهجم فيها على =

إلى التوفيق بين الأديان، بحجة أن الدين المسيحي دين الهي، وكذلك الدين الإسلامي، وإذن فلا داعي للخلاف بينهما، ومن واجب الشعوب الإسلامية أن تتصافى وتتعاون مع الشعوب المسيحيّة.

2 ـ ويقابل هذه الآراء، دعوة أخرى تعارضها كنت أعمل لها ومعي عدد كبير من شباب البلاد الذي لا يحرص على رضا الدولة الحاكمة. فقد وجدنا لحركة البير لوزون غايات خفية، ترمي إلى فل سلاحنا السياسي، فقاومنا دعوته، واقترنت حركتنا السياسية من ذلك الوقت بنزعة دينية إسلامية، وقد تغلبنا على جماعة المعتدلين، أو المجددين، واضطر البيرلوزون إلى الرحيل عن البلاد، والذهاب إلى مصر، ويظهر أنه لم يوفق هنا أيضاً.

ولقد زار الشيخ محمد عبده تونس للمرّة الثانية وحالة البلاد الفكريّة بهذا الوضع، ولما كان يشغل منصباً رسميّاً وهو إفتاء الديار المصرية فلم يشأ أن يثير غضب السلطة القائمة باتصاله بهيئتنا السياسية فاتصل بالفريق المعتدل والقى محاضرة عظيمة في المدرسة الخلدونيّة[15]، وكان مقره ملتقى

الشيوعيين، الأمر الذي استاء منه قادة الحزب الدستوري، وأساء إلى العلاقة بين الحزبين، وبداية سوء العلاقة بين (المورالي) والدستور.

المراجع: (أضواء على الصحافة التونسية) (الثورة البروليتارية) بالفرنسية، العدد (626) اكتوبر 1976 عدد خاص بـ (لوزون). وثائق مختلفة.

(15) كانت محاضرة الإمام (عبده) في الخلدونية بعنوان (العلم وطرق التعليم) ونشرتها جريدة (الحاضرة) تباعاً، ونقلتها عنها (المؤيد) و (المنار) و (ثمرات الفنون). وطبعت طبعتين مستقلتين في كل من تونس والقاهرة.

كانت زيارة الإمام (محمد عبده) لكل من الجزائر وتونس سنة (1903) محسوبة الخطوات، معدودة الأنفاس من طرف السلطات الفرنسية، ولم تعط له تأشيرة الدخول إلى القطرين من القنصلية الفرنسية في القاهرة إلا بعد أخذ ورد، وتعهد بخطة الرحلة، وبالشخصيات التي يلتقي بها الإمام في الجزائر وتونس، وكلها تدور في فلك الوظيفة الرسمية، سواء كانوا رجال دين، أو موظفين رسميين فرنسيين، =

الطبقات المفكرة في البلاد، وأقام شهراً، وترك بعد رحيله تأثيراً أدبياً واضحاً، وذهب من تونس إلى الجزائر. وكنت لسوء الحظ مسافراً في المغرب الأقصى في مهمة سياسية فلم ألتق به[16].

ـ وما هي هذه المهمة.

= وكان الإمام يلتزم بزيارة هؤلاء الموظفين السامين وتأدية التحيّة لهم وشكرهم. وكان الكاتب العام للحكومة في تونس (م. روا) من الذين يحضرون المآدب التي تقام لمفتي الديار المصرية.

وكان الإمام (عبده) في أخريات حياته ينأي بنفسه بعيداً عن (السياسة) حتى قال الشيخ (رشيد رضا) عن زيارته للجزائر:

«وصادفت زيارة الإمام للجزائر تولية (جونار) حاكماً عليها، وكان الجزائريون ينظرون إليه بنظرة التفاؤل، لذلك كان خطابه إليهم على ما ترى من اللين، تمشياً مع سياسته: ما دخلت السياسة عملاً، إلا أفسدته».

ومن ناحية أخرى، فإنه ما كان للثعالبي أن يلتقي بالإمام محمد عبده، ولو كان في تونس وقت زيارة الإمام، وهو محاظ بالشيوخ الرسميين الذين يناصبون العداء للثعالبي والذين طالبوا بإيقاف جريدته (سبيل الرشاد) قبل سنوات قليلة، والذين سيرفعون ضدّه قضية عدلية بعد سنوات أقل تؤدّي به إلى السجن.

والكاتب العام في الإقامة العامة الفرنسية بتونس (م. روا) الذي يرعى زيارة الإمام هو الذي يطارد الثعالبي، ويوصد الأبواب في وجه أي نشاط له، ويرمي برسائله (في زوايا النسيان) كما يقول (الثعالبي) نفسه.

وما من شك، في أن الثعالبي يضع الإمام في المكانة التي يستحقّها، عالماً ومصلحاً، وقد لازم مجالسه عندما كان في القاهرة، ولكنه لا يتفق معه في نهج العمل لإصلاح الوضع السياسي للعالم الإسلامي الواقع تحت السيطرة الأجنبية، وإنما يلتقي في منهجه مع (جمال الدين الأفغاني) و (عبد الرحمن الكواكبي) ولذلك عدّ (محمد لطفي جمعة) المحامي، (الثعالبي) ثالث ثلاثة بعد (الأفغاني) و (الكواكبي).

انظر (الحركة الفكرية والأدبية) صفحة (60).

(16) الصحيح أن الإمام زار الجزائر قبل تونس، ووصل العاصمة التونسية بطريق سكة الحديد، مساء الأربعاء 9 سبتمبر / أيلول 1903.

ـ هذا يجرنا إلى البحث في تاريخ المغرب الأقصى.

ـ يسـرّ قراء الرابطة العربية معرفة هذا التاريخ.

ـ كان يحكم المغرب الأقصى في أواخر القرن الماضي مولاي (حسن الرشيد) وكان من أعظم سلاطين المغرب، وكان كبير وزرائه أحمد بن موسى من أشهر وزراء أفريقية، فلما مات هذا السلطان خلف عدداً من الأبناء، رأى الوزير من صالحه أن يختار أصغرهم سناً لولاية السلطة حتّى يبقى له نفوذه، فتولّى مولاي عبد العزيز[17] الأمر وهو من أمّ تركية. وبعد مدة مات الوزير وتسلم السلطان إدارة البلاد، ففطن أحد المراقبين التونسيين لهذه الحالة، وأرسل تقريراً إلى السلطان عبد الحميد يقترح عليه إرسال عدد من الضباط الأتراك المنفيين، إلى تونس للذهاب إلى المغرب، وتقوية الجيش هناك. وقد نفذ السلطان هذا الإقتراح فذهب عدد كبير من الضباط، وسعوا حتى انضموا إلى الحكومة المغربية فرحب بهم مولاي عبد العزيز ترحيباً كبيراً، واستعان بهم على تنظيم البلاد والنهوض بها في شتى فروع حياتها وقد تنبه بعض رجال الاستعمار الفرنسوي إلى خطر هذه الحركة فاستعانوا على مقاومتها بأبي حمارة.

كان يعيش في مدينة زرهون شيطان من شياطين المغرب (اسمه أبو حماره)، وكان يشبه إلى حد (الأمير محمد) أخو مولاي عبد العزيز الكبير، وهو ممن حرمهم الوزير أحمد بن موسى من العرش كما ذكرنا، وقد مات هذا الأمير، فانتحل (أبو حمارة) شخصيّة الأمير المتوفي، وادعى أنه وارث السلطنة الشرعي وجمع حوله نفراً من القبائل وشن غارة عنيفة على الحكومة، دامت سنتين وتغلبت عليها الحكومة في النهاية إلاّ أنها خرجت منها ضعيفة

---

(17) (مولاي عبد العزيز 1881 ـ 1944) تولى سلطنة مراكش سنة (1311) هـ وهو أول من أدخل الكهرباء إلى فاس، وأنشأ بها داراً للآثار، ولكن الفرنسيين تألبوا عليه، ونفوه إلى (بو) سنة (1333 هـ) وأعيدت إليه حريته فسكن طنجة وتوفي بها.
انظر: (الأعلام) الجزء (4) صفحة (139).

منهوكة القوى، فظهر عقب الثورة (مولاي الحفيظ) والي مراكش وهو أخو مولاي عبد العزيز، فخلع أخاه وحل محله ثم عقد اتفاقه المعروف مع فرنسا[18].

وقد زرت هذه البلاد في سنة 1903 لمكافحة هذه الحالة وقضيت هناك أربعة أشهر ثم عدت إلى تونس.

وكان الشيخ محمد عبده يتوق في هذا الوقت إلى زيارة المغرب إلاّ أن الفوضى التي كانت تسوده حالت دون ذهابه إليها[19].

---

(18) (المولي عبد الحفيظ 1280 ـ 1356/ 1863 ـ 1937) إنتدبه أخوه عبد العزيز عاملاً على مراكش سنة 1904 وبمساعدة الفرنسيين وبعض القبائل خلع أخاه ونادى بنفسه سلطاناً وانتقل من مراكش إلى فاس، واستنجد بالفرنسيين لحمايته ونصرته على ثورة أخيه (المولى زين) في مكناس. وكان ذلك سبباً لفرض الحماية على مراكش (المغرب الأقصى) بالمعاهدة التي وقعها (عبد الحفيظ) في 30 مارس 1912.

قال عبد المجيد بن جلول في كتابه هذه (مراكش): «ومن سخرية الأقدار، أن يتم إستدعاء الجيوش الفرنسية بواسطة ملك كان قبل ثلاث سنوات رمزاً للتحرر الوطني».

تخلى عن العرش أو أجبر على ذلك بعد أقل من سنة من توقيع المعاهدة، وحمل على طراد فرنسي إلى مرسيليا، وعند نشوب الحرب العالمية الأولى استقر في أسبانية حتى سنة 1925: ثم إستقر في فرنسا ثانية بشرط أن يبتعد عن العمل السياسي، وتوفي في المنفى وحمل جثمانه إلى المغرب ودفن بفاس.

انظر (الإعلام) الجزء (4) صفحة (50).

(19) نشرت المقالة في مجلة (الرابطة العربية العدد (15) سبتمبر 1936.



الأمام (محمد عبده) في زيارته الأخيرة لتونس سنة (1903)

الجالسون من اليمين السادة: خليل بوحاجب، البشير صفر، الشيخ محمد عبده، عمر قلاتي، محمد بن الخوجة،
الواقفون من اليمين السادة: عمر البكوش، عبد الجليل الزاوش، عمر بوحاجب، علي بوشوشة، ممدوح بك (مصري)
الطاهر العتكي.

بين جامع الزيتونة وجامع الأزهر
صلة الماضي بالحاضر

كان من مظاهر الإستقرار التي عمد إليها قواد الإسلام في عهد الفتوحات الأولى أنهم كانوا يؤسسون مساجد في كل مصر يضمونه إلى الدولة العربية لكي يعبد فيها الله، وتنتشر منها شريعته عن طريق التدريس والتعليم وأول هذه المساجد وأقدمها وأبقاها إلى اليوم جامع عمرو في الفسطاط ثم جامع القيروان ثم المسجد الأموي في دمشق والمري في القدس (بناهما الوليد بن عبد الملك) ثم جامع الزيتونة في تونس ثم مسجد القرويين في فاس (بنته سيدة تونسية حوالي سنة 200 هـ) ثم مسجد ابن طولون ثم الجامع الأزهر[20].

(20) جامع عقبة في القيروان. (50 هـ 670 م)
(المسجد الأموي في دمشق): أنشأه الوليد بن عبد الملك سنة (705) م.
(المسجد المري في القدس): خطأ في الطبع، الصحيح (العمري) والمقصود (المسجد الأقصى) وفي رواية بناه عبد الملك بن مروان عام (72) هـ (691) م.
(جامع الزيتونة في تونس): أسسه في الأرجح حسان بن النعمان الغساني فاتح تونس، في حدود سنة (79) هـ (698 ـ 699) م.
(مسجد القرويين في فاس): بنته فاطمة بنت محمد الفهري وصامت طيلة أيام بنائه وأفطرت يوم إتمامه سنة 245 هـ.
(مسجد ابن طولون في القاهرة): بناء أحمد بن طولون في عهد ولايته على مصر والشام سنة (254).

وقد أسست هذه المساجد وتم بناؤها في عهد بني أمية، وأوائل عهد بني العباس والعبيديين، وهذا هو العصر الذي ازدهرت فيه الحضارات الإسلاميّة ونمت.. ويعد جامع الزيتونة الذي وضع أساسه عبيد الله ابن الحبحاب سنة 104 هـ (في عهد هشام ابن عبد الملك) وتم بناؤه في سنة 141 أكبر هذه المساجد كلها، وأحفلها بألوان الزخارف والنقوش التي ظلت باقية من ذلك العهد حتى الآن ولم يتغير من بنائه شيء إلّا سقوفه ويتجلّى في عمارة مسجد الزيتونة الذوق العربي في المعمار، لا ذوق البيزنطيين أو الرومانيين، مما يدل دلالة واضحة على أن طراز البناء العربي كان موروثاً في الإسلام عن عرب الجاهلية، فليس معقولاً ولا مستساغاً أن تتمكن الطبيعة العربيّة في الإسلام من استنباط فن معماري واضح المعالم والأصول كامل المميزات والصفات في يوم وليلة..

ويجرنا هذا الاستطراد إلى البحث في قيمة معلوماتنا عن الحياة العربية قبل الإسلام والذي يتضح لنا من النظرة الأولى أن حضارة ذلك العهد في مظهرها الفكري ومظهرها المادي لم تبحث ولم تعرف على وجهها الصحيح فقد انصبت الدراسات الأولى للعصر الجاهلي على الحياة البدوية في صحاري نجد لقربها من الكوفة موطن العلم والتدوين يومئذ فنقل شعر البادية باعتبار أنه صورة لحياة عرب الصحراء... ولكن الحياة الحضرية بما فيها من شعر ونثر ولغة حديث، أهملت تماماً، فلم يصل الرواة إلى مواطن الإستقرار في الحجاز، فقد تضمن القرآن مسميات لكثير من أدوات الحضارة، ومعدات الترف ووصف الجمال والخدور، والمقاصير بما فيها من كواعب أتراب فبينما نجد هذا وأمثاله في القرآن نجد الشعر والأدب الباقي لا يحوي شيئاً عنه، مع أن الشعر أداة نقل هذه المظاهر للحياة والعمران.

ولا شك أن العرب كانوا الأداة الي نقلت حضارة الصين والهند وفارس من مواطنها إلى بلدان البحر المتوسط فكانت «دارين»[21] أكبر مركز في ذلك

(21) (دارين) موقعها بالبحرين، وإليها ينسب المسك المعروف بها (الداري).

العهد للنقل التجاري (الترانسيت)، وكانت أسواق الجاهلية الأربعة تبتدىء من هذا الثغر العظيم وتصل إلى حدود الشام، وتمر بها تجارة الشرقين الأوسط والأدنى، فتأخذ منها هذه الأسواق ما تحتاج إليه للاستهلاك الداخلي في حواضر الجزيرة ويمر الباقي إلى ثغور الشام، وبقية بلدان البحر المتوسط.

يقول الشاعر القديم في وصف حركة النقل التجاري:

«يمرون بالدهنا خفافاً حقابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب»

وكما كانت أسواق العرب تشهد تجارة الشرق في ذهابها إلى الشام ومصر وبلاد الأغريق والرومان كانت تستقبل تجارات بلدان البحر المتوسط، وتنقلها إلى الشرق ولم تكن النوق التي أكثر العرب من اقتنائها تقتني لدر اللبن والوبر بل كان هذا أقل ما تستعمله له، وإنما كانت الحاجة العظمى إليها في حمل هذا السيل الدافق من البضائع عبر الصحراء إلى حيث تباع. . . وهذا هو السر في تضخم لغة العرب واتساع محيطها لأسماء وأوصاف أدوات الحضارة ومعداتها، وما حوت من بدائع وطرائف، وكانت مكة أو بكة السوق الأكبر الذي تحل به التجارات وتوزع إلى الشمال وإلى الجنوب في الرحتلين العظيمتين: رحلة الشتاء ورحلة الصيف، كما كانت أيضاً بوتقة هائلة تصهر فيها لهجات القبائل الوافدة للاتجار أو الحج فأخذت هذه القبائل من الألفاظ والمسميات ما تستسيغه السنتها ويخف وقعه على إذانها.

لم تكن الحياة الجاهلية ـ الحضرية إذن حياة سذاجة وفطرة كما يظن، فهذا مظهر حياتها الماديّة، وقد شاعت معالمه اليوم إلا قليلاً لا يؤيد ذلك. نعم إن الأوائل لم يعنوا بتقصي تفاصيلها ولم ينقل الأدب صورة صادقة لهذه الحياة. . . ولعلنا ـ الآن ـ ببذل العناية والجهد نستطيع أن نكشف عن طرف مما أبقاه الزمن من معالم ذلك العصر. وإني لأذكر أن المرحوم أمين بك

واصف[22] طلب مني أثناء زيارتي لساحل الخليج الفارسي أن أزور (دارين)، وأن أحدد موقعها ليثبته في مصوره الجغرافي، فذهبت إلى هناك فوجدت قرية صغيرة يعيش أهلها من صيد اللؤلؤ والأسماك، ولكني وجدت أيضاً تلالاً بظاهر المدينة، اكتشفت بعد التنقيب في جانب منها أنها مباني قديمة طمرها التراب، حتى أصبحت تشبه التلال، ومن هذه المباني مساكن من ثلاث وأربع طبقات، ولعل التوفر على التنقيب في هذه البقعة يزيل ستاراً كثيفاً عن ألوان الحياة التي شهدتها قبل أربعة عشر قرناً.

لقد إعتمدنا إلى الآن في تفهم الحياة الأولى للأمة العربية على ما نقل علماء الكوفة عن بادية نجد ولم يصل إلينا شيء، عن الحياة في مكة والمدينة وعمان وقطر وخط[23]، وغيرها من الحواضر المختلفة التي كانت تزخر بالصناعات والحضارات.. وقد وردت في الشعر القديم الباقي إلى الآن إشارات عن الرماح الخطية مثلاً، نسبة لمدينة خط التي تقع بين البصرة ودارين، وهذا كل ما نعرف الآن عن هذه المدينة، ولكننا لم نعرف كيف كانت تصنع الأسلحة هناك، وكم كان عدد المصانع التي اشتغلت بهذه الصناعة، ومن أين كانت تستورد خاماتها ومعادنها.

وحياة العرب لم تكن مظهراً لحياة مادية هذه دلائلها فحسب، بل كانت ايضاً مسرحاً لكثير من الاضطراب الفكري، فقد تناولت آيات الذكر الحكيم نزعات العرب الدينية والفلسفية والخلقية، وناقشتها في أناة وتمهل، ولا

(22) (محمد أمين واصف 1876 ـ 1928) باحث مصري، له تصانيف في الفلسفة واهتمام خاص بالجغرافية صدر له «خريطة العالم الإسلامي» و«معجم الخريطة» وشارك في تأليف «إتحاف أبناء العصر بتاريخ ملوك مصر» كان مفتشاً عاماً لوزارة الأوقاف، وتولى أعمالاً في الإدارة المصرية (الإعلام) الجزء (5) صفحة (269).

(23) (الخط) بفتح الخاء وكسرها. يقول صاحب (القاموس المحيط) بأنها مرفأ للسفن بالبحرين، وإليه تنسب الرماح لأنها تباع به، لا أنه منبتها.

يمكن أن نفهم من مقارعة العرب الأولى للإسلام إلا أنهم كانوا يحسون بأنفسهم وبكيانهم إحساساً قوياً. . . فإذا جاء الإسلام بعد هذا، ووجه حياة العرب الوجهة التي اختارها، وكانت طريق مجدهم وسؤددهم، فإنما وجه قوماً جديرين بهذه الحياة الجديدة، وكان لهم من استعدادهم المادي والذهني ما مكنهم من الاضطلاع برسالة الإسلام، وحملها إلى الآفاق وحمل صور من حياتهم إلى البلدان التي فتحوها، لتستمر حياتهم في أمصارهم الجديدة متصلة بالحياة التي خلفوها في حواضر جزيرتهم. فنماذج البناء في الإسلام، صورة متطورة، بقدر ما يسمح الزمن القليل، لنماذجه في الجاهلية، وهذه المساجد التي بناها العرب في فتحهم الأول تدل على ذوق متأصل، وطابع خاص، نما وتكون في أجيال متعاقبة ومثله كمثل كثير من صور الحياة المادية التي تتضمنها اللغة العربيّة في قواميسها القديمة والتي تعد بعد القرآن والحديث وكتب السيرة، المصدر المباشر لتفهم طبيعة ذلك العصر على وجه يرضى العلم ويرضى المنطق السليم.

* * *

بنى العرب في العهد الأموي مسجد الزيتونة، كما بنوا مساجد أخرى، في الأمصار المفتتحة لا تزال قائمة إلى اليوم باقية، تؤدي الغرض الذي أنشئت من أجله بعد مضي القرون المتعاقبة، وكانت وما تزال عرضة لليسر والعسر الذي يلم بالكائنات جميعاً، إلا أن من الممكن الجزم بأن جامع الزيتونة ثم الجامع الأزهر صانا الإسلام وعلومه من التبدد والضياع، ولولا وجودهما وصمودهما للأحداث لما علم إلا الله مصير الشريعة السمحاء.

بنى العبيديون الأزهر في مصر منذ عشرة قرون، إلا أن تنازع المذاهب في مصر، وحرص بناته على أن يدرس فيه مذهب الشيعة عطل عمله إلى عهد صلاح الدين، الذي أمر بأن تدرس فيه مذاهب السنة، وبذا أقبل عليه الطلاب، وظل معموراً بهم إلى اليوم. . . أما جامع الزيتونة فقد أخذ في أداء مهمته التعليمية منذ إنشائه إلى اليوم.

وأهم تحول ألم بنظام الجامع في تاريخه الحديث صدور قانون تنظيم التعليم في سنة 1251 هـ (أي منذ نحو قرن) رد إليه جميع الدروس الموزعة في المدارس والمساجد، ونقل إليه خزائن الكتب التي كانت مبعثرة في أماكن شتى ونظمت فيه الدراسة من ذلك العهد، وتحتم على طلابه حضور الإمتحانات في جميع المواد، قديمة وحديثة، وتشمل الحديثة علوم الفلك والهيئة والهندسة والطبيعيات والتاريخ والجغرافيا وأمكن للزيتونة أن يخرج علماء حقيقيين، وفي عهد خير الدين باشا[24] أدخلت إصلاحات جديدة، وأكملت نواحي النقص فيه.. ووقف التطور العلمي في بدء عهد الإحتلال، وأصيب الجامع بما يشبه الشلل، ولكنه مع هذا ظل المدرسة العليا التي يفد إليها الطلاب لإتمام دراستهم. وقد إشترط في إمتحانه النجاح في اللغة الفرنسوية[25] ومدة الدراسة فيه سبع سنوات يؤدي في نهاية كل منها إمتحان انتقال على نحو ما هو معروف في المدارس النظامية.

---

(24) (خير الدين التونسي): 1225 ـ 1308 هـ / 1810 ـ 1890) وزير، ومؤرخ من رجال الإصلاح الإسلامي، وسبقت الإشارة إلى جهوده في سبيل إعلان الدستور. وبعد إبعاده عن الوزارة. انتقل إلى الأستانة في عهد السلطان عبد الحميد الذي قرّبه وولاه الصدارة العظمى: (رئاسة الوزراء) حاول الإصلاح ولكنه فشل بسبب العراقيل التي وضعت أمامه، وتوفي بالأستانة.

(الإعلام) الجزء (2) صفحة (375).

(25) الذي أعلمه أن اللغة الفرنسية لم تكن مشترطة للنجاح في جامع الزيتونة، ولم تدرج بين المواد المقررة للدراسة فيه وقد بلغت (23) مادة سنة 1946. وشملت، المساحة والهندسة والمساحة والمنطق والحساب والهيئة.

إنما اللغة الفرنسية أدرجت في المدرسة الخلدونية التي قصد بها جبر النقص الذي تعاني منه برامج الزيتونة في العلوم العصرية، فكانت الفرنسية تدرّس في الخلدونية بجانب التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والرياضية ورسم الأراضي، والإقتصاد. وبصفة تطوعية.

أنظر: (الحركة الفكرية والأدبية) و (جامع الزيتونة المعلم ورجاله، محمد العزيز بن عاشور، دار سراس للنشر 1991.

والدراسة الدينية في الزيتونية تنصب على المذهبين: الحنفي والمالكي، وكتب الحديث جميعها ودراسته الأدبية واللغوية على الطريقة القديمة أي يكتفي فيها بقراءة بعض كتب اودب القديم وتفهمها، وقد كان من نتيجة انتشار اللغة العربية كثيراً وقل الاهتمام بدراستها، فالحكومة لا تحتاج من متخرجي الزيتونة إلا إلى الذين يعرفون الترجمة، وبذا تحولت العربية من لغة تدوين ووضع إلى لغة ترجمة ونثل ولجامع الزيتونة فروع في أغلب مدن تونس كما هو شأن الجامع الأزهر بمصر. وينتقل طلاب هذه الفروع إليه، لإتمام دراستهم، وعدد طلابه يقرب من ثلاثة آلاف وتمتاز الدراسة فيه بنوع من حرية الفكر لا توجد في غيره، وعلي الأخص في جامع القرويين بفاس[26].

(26) نشرت المقالة بـ (الرابطة العربية) العدد (18) سبتمبر 1936.

من أبطال الشرق
محمد بن عبد الكريم الخطابي

نشأته وتعليمه.

هو من الأسرة الخطابية، وهي أسرة عربية عريقة في الريف تتقلد زعامة قبيلة بني (ورغائل) التي تنتسب إليها، وأغلب رؤساء هذا البيت الرفيع اشتهروا بالبطولة والبلاء الحسن في قتال الأسبان.

وقد ولد هذا البطل في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وقد أتم الآن العقد الخامس من عمره، شب وترعرع في حجر والده، ودرس عليه مبادىء العلوم الدينية والعربية، ثم رحل إلى جامع القرويين في فاس، ودرس العلوم الإسلامية على أعلامه إلى أن نال الإجازة العالية من علمائه. ثم عاد إلى مليلة والتحق هناك بالمدارس الأسبانية، وقد ظهر نبوغه فيها بإحراز الشهادة الثانوية في مدة قصيرة، ثم تاقت نفسه إلى زيادة التحصيل فسافر إلى أسبانيا والتحق بجامعة «شلامنكة» وأحرز منها شهادة الحقوق والدكتوراه في الآداب، وكان في أيام العطلة المدرسية ينقطع لدرس تاريخ العرب والبحث عن آثار حضارتهم في الأندلس، فتنبهت فيه العواطف القومية، وتأصلت في نفسه فكرة تحرير الوطن والمجاهدة في سبيل إستقلاله.

شروعه في الإستقلال.

كان يعتقد أن روح النشاط والأمل كمينة في الشباب، فكان يجالسهم ويتصل بهم، ويبث فيهم روح الإقدام والشجاعة الأدبية، ويدفعهم إلى الحماسة والمجازفة في طلب الإستقلال، وينفخ فيهم روح الثورة والتمرد،



الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي

وكان يدفعهم إلى الدخول في الجندية حتى التحق الكثيرون من أبناء طبقته الرفيعة بالمدارس الحربية الأسبانية وصاروا ضباطاً، وهم الذين استعان بهم في الحرب الإستقلالية التي أعلنها على المستعمرين.

وفي سنة 1916 أرسلت ألمانيا والدولة العثمانية بعثة عسكرية سرية إلى المغرب لإثارة البلاد ضد الطغيان الإستعماري، فنزلت البعثة في مدينة «مليلة» فاتصل السيد عبد الكريم برجالها، واستفاد من خبرتهم السياسية والعسكرية فوائد جمة، ولما وقف ولاة الأمور الأسبانيين في الريف على هذه الصلة حسبوا لها حساباً دقيقاً، فاعتقلوه أشهراً، ثم أطلقوا سراحه، وادخلوه في سلك الجندية، وعينوه ضابطاً في الحربية.

ولما عقدت الهدنة بعد الحرب العالمية في سنة 1918 حدثت قلاقل في الريف، فرأت الوزارة الحربية الإسبانية أن ترسل الأمير محمد بن عبد الكريم إلى هناك لتهدئة الحالة، اعتماداً على خبرته ونفوذه، فالتحق بجيش الريف الأسباني، وقد أظهر مهارة عجيبة في التوفيق بين مصلحة وطنه والمقاصد الأسبانية، ولكن خوف الأسبان من أعماله وتدابيره عرض مجهوده إلى الإخفاق، فاستقال من وظيفته في الجيش، وكان فيه برتبة كابتن، ونال منه أوسمة عديدة، وفضل العودة إلى منصبه الأول في «مليلة» فأعيد إليه.

سبب الثورة.

وقد اتفق له أنه كان يسير يوماً في أحد شوارع مليلة، إذ شاهد ضابطاً أسبانياً بيده سوط يضرب به ريفياً مسكيناً ضرباً مبرحاً، والريفي يستغيث ولا يغاث. فاحتد الأمير وتقدم من الضابط الأسباني وسأله عن سبب هذا الاعتداء المنكر. فرد عليه الضابط بصلف وعنف بأن دابة الريفي احتكت بيده!! فحاول الأمير أن يخفض من حدة العسكري ويخفف من وطأته على الريفي فلم يفلح، فذهب إلى مقر القيادة العليا، وقابل الجنرال «سلفستر» وقص عليه ما شاهده وطلب إدانة الضابط وأبان له سوء مغبة الحادثة إذا توانى القائد في عقاب المعتدي. وهنا قال القائد للأمير: «ألا تدري أن الأسباني ـ مهما كانت

منزلته ـ فهو سيد البلاد؟» فرد عليه الأمير: «إن إهمال العقاب على الضرب بالسوط في الريف سيكلف أسبانياً ثمناً غالياً، ويحملها عبئاً ثقيلاً..».

اعلان الثورة.

ترك القائد وخرج مغيظاً محنقاً، وذهب إلى قبيلته (بني ورغائل) فاجتمع هناك بأفراد يثق بهم لا يزيدون عن العشرة، وقص عليهم الحادث وصارحهم بما كان يكنه في فؤاده من تبييت الانتقام والثورة على أسبانيا وسألهم: هل يشاركونه في الدفاع عن الكرامة والحق المهان؟ فأجابوه بالموافقة وأقسموا يمين الموت في سبيل الدفاع عن الإستقلال ثم تقلدوا بنادقهم واعتصموا بأكمة من آكام بني ورغائل لمناوأة العدو.

وفي مساء يوم 20 يونيو سنة 1920 أطلقت الرصاصة الأولى للإنذار بالثورة، ثم أعقبها هجوم هؤلاء الأبطال الأشاوس العشرة بقيادة الأمير عبد الكريم على مخفر أمامي للأسبان، وأخذوا سلاح جنوده وعتادهم بعد أن صرعوهم، واعطوها إلى آخرين من إخوانهم الذين التحقوا بهم، وهكذا إستمرت الحال، كلما غنم الأمير ورفاقه سلاحاً نارياً أعطوه إلى من ينضم إليهم من الوطنيين، وكان الريفيون يقبلون على مؤازرة هذه العصابة زمراً زمراً من كل صوب، واسبانيا غير مكترثة لهم في أول الأمر. وكانت تعدهم عصابة قطاع طريق، وإنما كانت تطاردهم بإرسال الكتائب كتيبة إثر كتيبة، ولكن قبل أن تصل الكتائب إلى مواقع الثوار تلاقي حتفها سريعاً وتترك أسلحتها غنيمة لهم، وهكذا إلى أن بلغ عدد رجال الأمير خمسمائة مقاتل. عند ذلك هاجت الخواطر في الريف وشعرت القيادة الأسبانية بالخطر النازل.

موقعة انوال.

كانت أسبانيا تجرد الحملات القوية، والجيوش إثر الجيوش، ولكن لا إلى ساحة الظفر، بل إلى المجزرة والموت، إلى أن حصلت معركة «أنوال» الشهيرة وكانت تحت قيادة الجنرال «سلفستر» فقتل الجنرال فيها، وذهب صريع بغيه وظلمه، وإنهزم الجيش الأسباني شر هزيمة وذلك سنة 1921.

الجمعية الوطنية والميثاق القومي.

لما تكللت ثورة عبد الكريم بالفوز المبين على أعدائه الأسبانيين، وأقبل الشعب عليه، رأى بعين بصيرته وحذقه أن خيز وسيلة لنجاح الثورة الإنقلابية التي أوجدها في بلاده هو إيجاد أساس قوي لبنيانها باستمساك الشعب في إدارتي الحكم والحرب، فدعا القبائل والأهلين إلى عقد اجتماع عام في معسكره، فلباه السواد الأعظم منهم عن طواعية ونفس مشرئبة إلى الاستقلال والحرية، ولما اجتمعوا ألقى عليهم خطاباً حماسياً ضمنه مقاصد أسبانيا في الأندلس والمغرب، وأنها لا تسعى إلا لإبادتهم، ثم كشف لهم عن أسرار الأعمال الهمجية التي يقوم بها المستعمرون في الشرق الإسلامي وغايتهم من ذلك، ثم تدرج إلى ذكر الأسباب التي حملته على القيام في وجه الظالمين، والمثل العليا التي يصبو إليها من تحرير البلاد، وطلب إليهم الإتحاد والتضامن، وشد أزره في الحرب إلى النهاية، حتى تنال البلاد استقلالها التام، ثم اقترح أن يعلنوا آراءهم بحرية وجلاء، وبعد المداولة اجتمعوا أمرهم على الحرب إلى آخر نقطة من دمائهم، وقرروا تشكيل مجلس وطني عام يكون المرجع الأعلى للتشريع والمراقبة، وهو يضع القانون الأساسي لدولة الريف الجديدة، ويؤلف لهم من بين أفراد المجلس حكومة وطنية تدير شؤون البلاد وتحافظ على الأنظمة والقوانين وفعلاً إنعقدت الجمعية الوطنية، وكانت مؤلفة من جماعات القبائل والأهلين وهم الأعيان والمشايخ والولاة، وهذا المجلس هو الذي تولى تنظيم الدفاع الوطني وإدارة أمور البلاد طيلة سنوات الحرب الريفية، وهو يسمى (الجمعية الوطنية)، وأول اجتماع عقدته كان في 19 سبتمبر سنة 1921 فأعلنت فيه إستقلال الريف وتأليف حكومة عربية جمهورية انتخبت لرئاستها بالإجماع الأمير محمد بن عبد الكريم قائد جيوش الثورة، ثم انثنت لوضع دستور للبلاد يقوم على سيادة الشعب وحصر السلطتين التشريعية والتنفيذية في يد الجمعية الوطنية، وجعلت رئيسها رئيس الجمهورية وهو مسؤول أمامها وجعلت الوزراء والموظفين مسؤولين أمام الرئيس واتخذت

«أجادير» عاصمة للجمهورية.

الميثاق الوطني.

ثم أثبت ذلك بوضع الميثاق القومي، وكان المثل الأعلى للشعب في جهاده ونضاله وهو موضوع في مواد:

1 ـ أن لا يقر الشعب كل معاهدة لها مساس بحقوق البلاد المغربية وخاصة معاهدة سنة 1912.

2 ـ إجلاء الأسبانيين عن المنطقة الريفية التي لم تكن في حوزتهم قبل إبرام المعاهدة الفرنسية الأسبانية سنة 1912.

3 ـ الإعتراف بالاستقلال التام للدولة الريفية الجمهورية.

4 ـ أن تدفع أسبانيا تعويضاً للريفيين عن الخسائر التي لحقت بهم من جراء الاحتلال في السنوات الاثنتي عشرة الماضية وفدية للأسرى الذين وقعوا في أيديهم.

5 ـ إنشاء علاقات ودية مع الدول كافة بدون تمييز وعقد محالفات تجارية معها.

الاصلاح الإجتماعي

ولم تكن الحرب الريفية لتفت في عضد محمد بن عبد الكريم وتشغله عن الإصلاح في داخلية البلاد، فقد أجرى إصلاحات كثيرة في كل فروع الحياة من تنظيم الإدارة وضبط المالية، والاقتصاد في النفقات، وتنظيم الزراعة والتجارة، وتأسيس المدارس، ونشر التعليم وايفاد البعثات العلمية إلى الجامعات في أوروبا، والعناية بالصحة، فأنشأ المستشفيات والمستوصفات. وكانت له عناية بالمواصلات والتمدين. فقد مهد الطرق وأجرى المياه إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة التي قدرها له الشعب وساعده فيها.

وأصدر قانوناً للإصلاح الإجتماعي منع به العزوبة على الشبان القادرين ونشط على الزواج من أرامل الحرب صيانة لأعراض النساء اللائي استشهد أزواجهن، وهذا من الدلائل القاطعة على أن الأمير عبد الكريم كان رجل سلم كما هو رجل كفاح.

(*) نشرت بمجلة (كل شيء والدنيا) القاهرية العدد (400) 12 ربيع الأول (1352) 5 يوليو تموز (1933).

عن الأمير عبدالكريم. انظر: (سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم. بطل الريف ورئيس جمهوريتها). تأليف رشدي الصالح ملحس. المطبعة السلفية ومكتبتها. القاهرة. 1343 هـ.

(بطل الريف الأمير عبدالكريم) محمد أبو النصر. المكتبة الأهلية. بيروت 1934م 1353هـ.

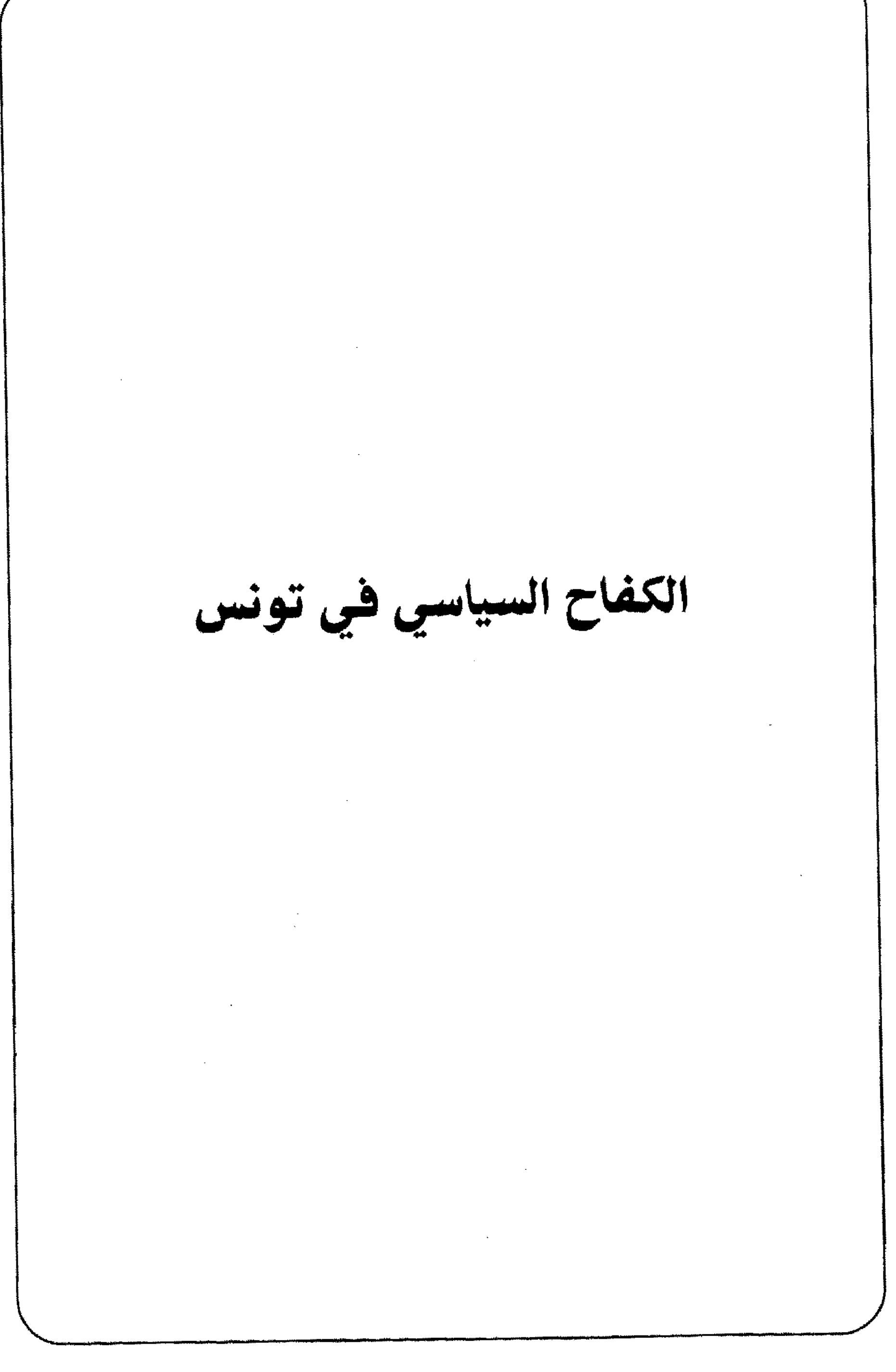


زعماء كتلة العمل الوطني في المغرب الأقصى

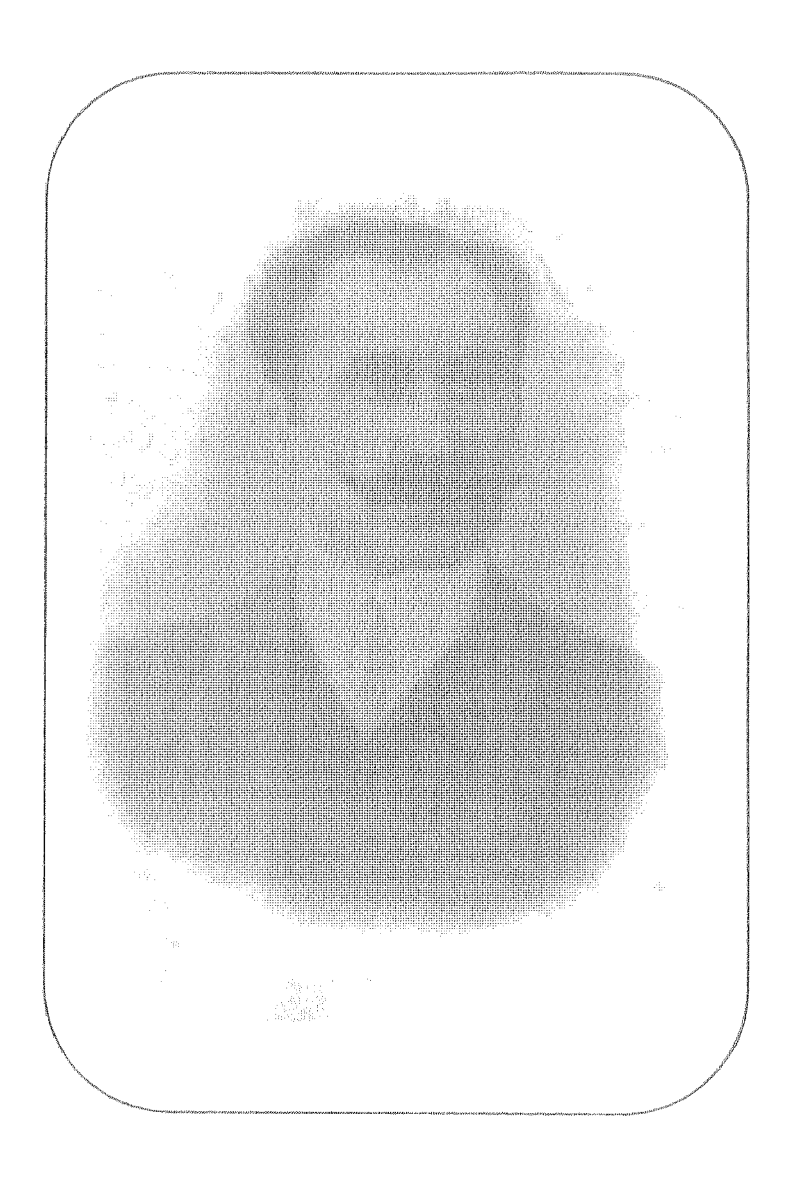
في الوسط الأستاذ محمد علال الفاسي زعيم الكتلة الوطنية وإلى يمينه
الأستاذ عبد العزيز بن إدريس العمراوي وإلى اليسار الأستاذ الشيخ إبراهيم الكتاني
مجلة (الرابطة العربية) 10 رجب 1356 هـ 15 سبتمبر 1937.



الوزير المصلح خير الدين بلباس الصدر الأعظم في الأستانة (1822 ـ 1890)



الكفاح السياسي في تونس



(علي باش حانبه 1876 ـ 1918)

من مكتبة الحكيم أحمد بن ميلاد

تونس في ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٠٩

الارشيف الوطني التونسي

الصدر الهمام امير الامراء مولانا الوزير الاكبر دامت معاليه

السلام عليكم الاتم الاكمل وبعد بناءً على الفصل السابع من الامر العلي المؤرخ في ٢٢ حجة [illegible] ويوافق ١٤ اكتوبر سنة ١٨٨٤ الصادر بشأن نظام وترتيب خدمة المطبوعات التونسية اعلم حضرتكم بأني سأنشر تحت مسؤليتي وادارتي جريدة عربية اسبوعية باسم التونسي سيكون طبعها بالمطبعة التونسية الكائنة بنهج سوق البلاط بتونس

واعتمادا على ما ذكر اوجه لجنابكم السامي هذا الاعلام

والسلام من كاتبه

علي باش حانبه

الدموكات الساكن بنهج الكومسيون

عدد - تونس

علي باش حانبه

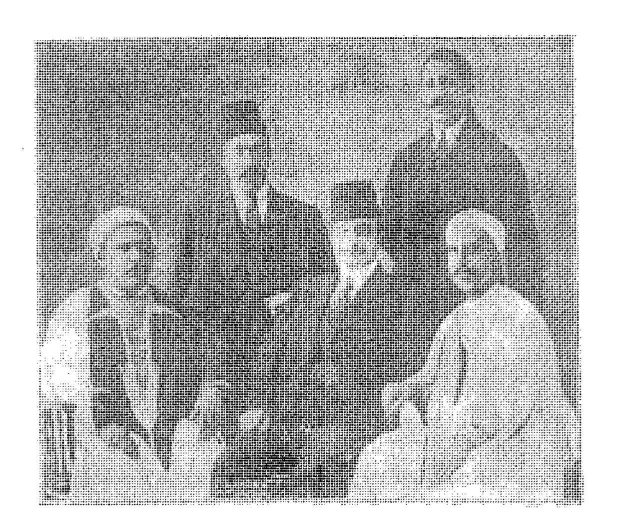
رسالة بخط (علي باش حانبه) وإمضائه

لإصدار النسخة العربية من جريدة (التونسي)

التي سيتولى (الثعالبي) المهمة الأولى

في تحريرها

فاتحة الجهاد الوطنى



يمثل هذا الرسم رئيس واعضاء الوفد الاول للحزب الحر الدستوري الذي شخص الى الديار الفرنسية في عام (١٩٢٠) لبسط المطالب الدستورية لدى المراجع العليا بباريس .ويرى رئيس الوفد الزعيم المبرور الاستاذ احمد الصافي يتوسط الشيخين السيد مصطفى الباهي والسيد البشير البكري بينما وقف الاستاذان المرحوم السيد البشير عكاشة والسيد صالح بن العجوزة اسبل الله عليه جلباب العافية .

الوفد الدستوري الأول إلى باريس سنة 1920

الكفاح السياسي في تونس
صفحة مطوية من تاريخ الحركة الوطنية التونسية

«من الواضح أن هذه الفصول الأربعة كانت تلخيصاً لأحاديث الثعالبي، من أحد المقربين إليه وليس من المستبعد أن يكون (محمد صبيح) ومن المفترض عرض هذه الملخصات على المحاضر وموافقته عليها قبل اعتماد نشرها في المجلة».

في تونس كما في بلاد العرب الأخرى حركة وطنية مباركة للتحرر والاستقلال واسترداد الحقوق. ولكن كان هناكِ اختلاف على الطرق التي يسير العمل عليها، فالطبقة الموسرة، وأصحاب المصالح المادية في البلاد وكبار الموظفين يرون عن عقيدة، أن إحراج الحكومة ومقاومتها لا يؤديان إلى النتيجة المرجوة، بل قد يناقض مصلحة البلاد ويؤذي قضيتها. وهم يؤثرون على المقاومة التفاهم والالتجاء إلى الأساليب الهينة، والإعتماد على الحقائق والأرقام في الدفاع عن حق الوطن.. وفي رأي هذا الفريق أن نمو البلاد سياسياً وإجتماعياً لا يأتي دفعة واحدة، بل مرحلة بعد مرحلة، تمشياً مع سنن التدرج الطبيعي.

أما السواد الأعظم،، أما الأمة التونسية من عمال ومزارعين وأصحاب حرف وصغار ملاك من الذين يشعرون بفداحة الضرائب، والذين يستولي عليهم الرعب والجزع كلما رأوا أرزاقهم تتضاءل، وشاهدوا بأعينهم معين الحياة ينضب عاماً بعد عام... هؤلاء يشعرون بالأخطار أكثر من الطبقة الأولى ويستمدون آراءهم السياسيّة والاجتماعية من شعورهم بالحقائق المادية

التي يلمسونها صباح مساء، ويرون، عن عقيدة أيضاً أن الطريق لحل قضية البلاد هو مواصلة الكفاح بالطرق السلمية المشروعة، وهكذا تولد في البلاد مذهبان سياسيان، اشتدّ الأخذ والرد بينهما.

أخذت الأحزاب السياسية تحت تأثير هذه الفرقة في الرأي تتنازع، ولا تصارح الشعب بحقيقة الخلاف بينها، إنما يسرع بعضها إلى تخطئة البعض الآخر، وتنتهي هذه المقاومة باتهام أحد الفريقين لصاحبه، فنشأ في البلاد نوع من الهرج السياسي كاد يضلها عن الطريق، وينسيها غاياتها الكبرى، ولايقاف هذه الحالة رأيت في سنة 1921[1] - أن أضع قواعد تحصر فيها مطالب الأمة التونسية، وهي المطالب التسع وأهمها الاحتكام إلى الكفاءة في الترشيح لوظائف الدولة وفرض التعليم الإجباري وإيجاد مجلس نيابي ينتخب بطريق الاقتراع المباشر، وله الحق في اقتراح القوانين والتصديق عليها، ولا تبقى في الحكم وزارة لا يمنحها ثقته، عدا وزراء الخارجية والحربية والبحرية، فهم بحكم صك الاحتلال وزراء دائمون (المقيم العام، وقائد جيش الاحتلال، وأميرال الأسطول)[2].

---

(1) الصحيح أن المطالب (الثمانية) حدّدت بتاريخ (14) مارس 1920 في الجلسة التي عقدت بمنزل الشيخ (علي كاهية) بنهج الباشا، ثم أضيف المطلب التاسع فيما بعد.

(2) (معاهدة الحماية) الموقعة في (باردو) في ماي 1981 لم تنصّ في بنودها العشرة على هذه الوزارات أو الإختصاصات الدائمة، وإنما نصّ الفصل الخامس من المعاهدة على ما يلي:

«ينوب الدولة الجمهورية الفرنساوية لدى سمو الباي وزير مقيم، وظيفته السهر على أحكام هذه المعاهدة، ويكون هو الواسطة في علائق الدولة الفرنساوية مع الإدارات التونسية في كل النوازل التي تهم الجانبين معاً».

وإنما التسلط الفرنسي هو الذي جعل المعاهدة (حماية) في نصها، و (احتلالا) في مضمونها، وأفرغ السلطة التونسية من كل مفهوم للسيادة، وجعل المقيم العام (الوسيط) هو الحاكم بأمره في البلاد، ما دام كل تشريع يصدره (الباي) خاضعاً لتوقيعه حتى يصبح نافذاً، متذرعاً بالفصل الأول من اتفاقية (المرسي) جوان 1983 الذي نص على: =

ومن المطالب أيضاً المساواة في توزيع الأراضي الحكومية المعدة للاستغلال بنسبة متعادلة بين التونسيين والفرنسويين وحماية اليد العاملة وتنشيطها.

وحرصت في وضع هذه المطالب على أن أضمنها جميع رغبات التونسيين المعتدلين منهم والمتطرفين. . . فصادفت هوى في نفس مختلف الطبقات، فانضم إلى الحزب الحر التونسي جميع أصناف الناس ولم يبق في خارجه إلا أفراد في نفوسهم حزازات صبغوها صبغة سياسية وشكلوا هيئة أسموها (حزب الإصلاح)، لم يتجاوز أنصاره آحاداً قليلة من بينهم بعض الشخصيات الممتازة وعلى الأخص المحاميان الأستاذ حسن جلاتي[3] وهو

= «لما كان مراد حضرة سمو الباي المعظم أن يسهل للحكومة الفرنساوية إتمام حمايتها، تكفّل بإجراء الإصلاحات الإدارية العدلية والمالية التي ترى الحكومة المشار إليها فائدة في إجرائها».

(3) (حسن قلاتي) 1880 ـ 1966 جزائري الأصل، وليد (أبو غار) بـ(قصر البخاري) هاجر مع أبيه إلى تونس بعد دخول الفرنسيين إليها.

درس في معهد (كارنو) وحصل على (الباكالوريا) سنة 1898 والتحق بكلية الحقوق بمدينة (تولوز) حيث تخرج سنة 1902.

من رموز الحركة الوطنية في عهدها الأول، ومن المتلفين حول جريدة (التونسي) مع علي باش حانبه وعبد الجليل الزاوش، وساهم بمقالاته فيها في تعصير العدلية التونسية، وعند قيام الحرب الطرابلسية ساهم مع (باش جانبه) ورفاقه في الإستكتاب لدعم المجاهدين. وكان في جملة من ألقى عليهم القبض بعد حوادث (الزلاج) ومقاطعة (الترمواي) سنة 1912 مع الثعالبي وباش حانبه، ونفي إلى الجزائر. وعاد إلى النشاط السياسي بعد الحرب العالمية الأولى، وحضر تأسيس الحزب الحر الدستوري ولكنه (امتنع عن أداء يمين الإخلاص) وكان يميل إلى سياسة المراحل، وينتقد تصلّب الحزب الدستوري. وسرعان ما استمالته الإصلاحات التي أعلنها المقيم العام (لوسيان سان) لضرب الحركة الدستورية وشق صفوفها. واتجه (قلاتي) سنة 1921 إلى تأسيس (حزب إصلاحي) ويؤكد الحكيم أحمد بن ميلاد بأن هذا الحزب لم يتأسس بالمفهوم التنظيمي للحزب، فلم يكن له نظام أساسي، ولا مقرّ، =

جزائري، ومحمد نعمان وهو تونسي[4].

واتخذت هذه المعارضة جريدة اسمها (البرهان) لسان حال لها فدأبت على نقد أعمال الحزب بالحق وبالباطل واتهمته بالعمل على بث روح

ولا قسائم إشتراك. وإنما هو عبارة عن جماعة تؤيد المنهج الإصلاحي المرحلي.

وأصدر (فلاتي) جريدة (البرهان) في سبتمبر 1921 لمهاجمة الثعالبي والصحافة الدستورية، وقامت معركة صحافية إتسمت بالعنف وتبادل التهم. والنقد الجارح والصور الكاريكاتورية اللاذعة. ولم يصدر من الجريدة غير (45) عدداً. ثم توقفت بسبب مقاطعة الباعة والقراء لها.

ثم أصدر (فلاتي) وجماعته جريدة (النهضة) في أكتوبر 1923 وترأس مجلس إدارتها. واستمرت هذه الجريدة اليومية منتظمة نظراً لموقفها المهادن لسلطة الحماية. واعتمادها على المطبعة التي تحمل إسمها، والتي تأسست في أغلبها من أموال أعضاء الحزب الدستوري.

وبعد فشل (حسن فلاتي) في انتخابات المجلس الكبير سنة 1928، إعتزل السياسة وتوقف نشاط تجمعه الإصلاحي.

انظر المراجع الآتية: (حياة كفاح) (أعلام تونسيون) (أعلام الإعلام) (أضواء على الصحافة التونسية)، ومجموعة الصحافة المعاصرة لهذه الأحداث.

(4) (محمد نعمان): (1875 ـ 1962).

درس في العلوية، وتحصل على الإجازة في الحقوق، واشتهر في المحاماة. من وجوه (الشبيبة التونسية) ومن المساهمين في بعث الحزب الحر الدستوري. وكان ملازماً للشيخ صالح بن يحيى في أول العهد بالدستور ولكنه إنحاز فيما بعد إلى (حسن فلاتي) وصار من المحررين الرئيسيين في جريدة (البرهان) وفي التحامل على (الثعالبي) و (الدستور).

كان ضليعاً في الكتابة باللغتين. حتى قال عنه (البشير الفورتي) في (النديم) سنة 1929:

«يكتب بقلمين، ويهذي بلسانين، ويستحوذ عليك سحر صناعته، المحاماة، فيدخل في كل خصومة، ويخرج منها مثل ما دخل بكل تسامح ولولا زهد أحبابه فيه، ونسيانهم لمعروفه، لما رأيته يشنّ الغارة على الأبعدين والأقربين وهو مع ذلك يراعي الإحساس، وإن كان في طبعه صعب المراس».

البغضاء بين الوطنيين والأجانب وإثارة النفوس من غير مبرر وتوريط البلاد في مشاكل سياسية لا مثيل لها، ونادت أنهم يطالبون بالاستقلال، ولكن مرحلة بعد مرحلة ولم يقبل الشعب على هذا الحزب، بل قابل دعايته بالسخط والإنكار، ومع أن جريدته كانت توزع مجاناً فإن أحداً لم يكن يقرؤها على الإطلاق، وامتنع باعة الصحف من حملها، فتولى باعة الدخان توزيعها مضطرين، وكان بعضهم يخفيها ولا يعرضها.

ولما ظهر إخفاق هذا الحزب في خطته سلك خصومنا سبيلاً آخر في مقاومتنا، فاستكتبوا في الصحف أقلاماً أغلوا لها الأجر، وضمنوا لها السلامة حتى لا تخاف من تعرضها لنا، فتجاوزت دائرة النقد المباح إلى الطعن والقذف واستمرت هذه الحالة سنة كاملة، ولكنها لم تجد نفعاً. وفي هذه الفترة كانت الحركة الوطنية تشتد وتنتشر على أساس المطالب التسع، حتى بلغ عدد فروع الحزب الحر التونسي 85[5] فرعاً، تنعقد اجتماعات لجانها بانتظام، وتدرس المسائل المطروحة عليها، وتبعث بتقاريرها إلى اللجنة المركزية حتى تسير قضية البلاد على هدى، وتكون صدى صادقاً لرغبات الشعب.

وظهر عامل جديد في الميدان فقد أرسل (المسيو لوسيان سان)[7]

---

(5) ورد في كتاب (الثعالبي والحركة الوطنية) أن عدد الشعب خلال عام 1922 - 1923، بلغ (120) شعبة بينما تصل بها بعض الوثائق إلى (150).

(7) (لوسيان سان)

أخطر مقيم عام فرنسي عرفته تونس. كان صاحب مكر ودهاء، وبطش وانتقام، وكان السبب الرئيسي في ضرب الحزب الحر الدستوري التونسي. وتشريد زعمائه، وبث الشقاق بين صفوفه، واستمالة (دعاة الهزيمة) كما سمّاهم محي الدين القليبي، وتسليطهم على الأوفياء لمبادىء الحزب، وتأمين مباركتهم لإصلاحاته، وكم الأفواه بالوظائف، وقطع الألسنة بالنعم، فإذا الحزب الأم قبل مجيئة، أحزاب ثلاثة في عهده: دستوري، وإصلاحي، ومستقل. =

معتمد فرنسا والمقيم العام يقول أنه مكلف من قبل حكومة الجمهورية بالتفاوض مع البلاد في مطالبها. فأجبته بأني لست منتدباً للإتفاق مع أية هيئة بعد انتهاء مهمتي في باريس ويجب عرض الاقتراح على الأمة لتنتخب الوفد المفاوض... وعرضت المسألة فعلاً على فروع الحزب ولجانه ووقع الاختيار على ثلاثة مفاوضين هم الأساتذة أحمد [8]الصافي والطيب ....

في عهده نفي إبراهيم أطفيش وعبد العزيز الثعالبي إلى الشرق، وأحمد توفيق المدني وعبد الرحمان اليعلاوي إلى الجزائر. وسجن الأحرار. وأحكم الحصار على الباقين خارج السجون، تطاردهم المراقبة اليومية، والتقارير السرية من أعوان الأمن.

وما كادت الصحافة تتنفس في عهد المقيم العام السابق (فلاندان) سنة 1920 بعد تعطيلها منذ سنة 1911، حتى جاء (لوسيان) ليخنقها من جديد ويصادر الجريدة تلو الأخرى، ويختلق الأسباب للفتك بها، كما فعل بـ(الصواب) و (لمشير) و (الأمة). والمحاكمة الشهيرة لجريدة (العصر الجديد) في مارس 1924. وفي الوقت نفسه يغدق المال على الصحافة المناوئة للإتجاه الوطني، والداعمة للحكم الإستعماري.

(8) (أحمد الصافي): (1882 ـ 1935) تلقى تعليمه في (المدرسة الصادقية) وفي (جامع الزيتونة) وحصل علىإجازة الحقوق في باريس، وعمل محامياً منذ سنة 1909. أول أمين عام للحزب الحر الدستوري التونسي بعد تأسيسه، ورئيس أول وفد دستوري إلى باريس، يحمل المطالب الدستورية التسعة. في 27 رمضان 1338/13 جوان 1920 ورئيس الوفد الدستوري الثالث إلى باريس في سنة 1924. وقد أبلى البلاء الحسن في سبيل القضية التونسية في الأوساط الفرنسية، قال عنه أحمد توفيق المدني:

(ثبت (الصافي) ثبوت الرواسي الشامخة في كل مواقفه السياسية، سواء بتونس أو بفرنسا، فكان القلعة الحصينة التي تحمي حمى الحزب. وتتكسر دونها صدمات أضداده، وكائن من حركة شقاق نشأت في الحزب فقاومها الصافي حتى أصبحت هباء منثورا، وكائن من صدمة صدمتها الحكومة أيام المقيمين العامين (لوسيان سان) و (مانصرون) و (بيرنطيون) فثبت الصافي أمامها متين الإيمان، قويّ الجنان كالملاح الماهر يسير بسفينته وسط الأنواء حتى يقودها إلى ساحل النجاة.

ما آلمت نفس الصافي إلا حركة الشقاق الأخيرة، وناله من شظاياها ما ناله، فلما حق الحق، وتميز الخبيث من الطيب، ورجعت الأمة إلى نفسها تقول: لا سياسة إلا سياسة الصافي، ولا زعيم إلا أحمد الصافي، كان الزعيم الجليل، السليم القلب، =

= الطاهر النفس. قد فارق هذه الدنيا، كما يفارقها القائد وهو ثابت مكانه في ساحة الجهاد، تاركاً وراءه غمراً من اللوعة والأسى.

أما بعد، فإننا يا أحمد لا نبكيك، إنما نبكي الأمة التي نكبها الله فيك. أخلصت لها في السر والعلن، وضحيت في سبيلها بكل ما تملك من قوى. نادتك في ساعة الشدة واستصرخت فيك إبنها البار في أحرج الأوقات، فكنت لها في أحرج الأوقات السند المتين والقائد الذي لا يلين.

أخلصت للجميع، ولم يخلص لك الجميع، ورفعت سائر الناس، فحاول أن يضعك بعض الناس».

من مقال رائع في نعي (الصافي) بإمضاء (المنصور) وتحت عنوان (المصاب التونسي الجلل) في ثماني صفحات مع صورة للمرحوم تتصدر الجزء (6) من المجلد (11) من مجلة (الشهاب) الجزائرية، غرة جمادى الثانية 1354 هـ سبتمبر 1935.

(9) (الطيّب الجميّل: (؟ ـ 1949).

درس في الصادقية وباشر التعليم في المدارس، وكان نعم المربّي والمعلم المرشد.

واصل دراسته الحقوقية في الجزائر أثناء مزاولته لمهنة التعليم في تونس. وبعد حصوله على شهادة الحقوق، تخلّى عن التعليم واتجه إلى المحاماة. وكسب لنفسه سمعة طيّبة في هذه المهنة.

أعجب بالثعالبي قبل الحرب العالمية الأولى، ولازمه وأحرز على ثقته، فكان في طليعة المؤسسين للحزب الحر الدستوري التونسي سنة 1920، ومن أبرز أعضاء لجنته التنفيذية، تلك العضوية التي جددت له على مدار مؤتمرات الحزب حتى أقعده المرض عنها.

عرض عليه (لوسيان سان) المقيم العام الوزارة فرفضها. وكان من أبرز أعضاء الوفود المتجهة إلى القصر الملكي أو الإقامة العامة في القضية التونسية. وكان ضمن أعضاء الوفد الدستوري الثالث إلى باريس سنة 1924.

آخر اجتماع سياسي حضره (الطيّب الجميّل) مؤتمر ليلة القدر سنة 1946، وكانت وطأة المرض قد اشتدت عليه، ولما ألقي القبض على الذين حضروا المؤتمر، كان بين الذين سيقوا إلى الثكنة العسكرية في القصبة. لولا تدخّل الحكيم أحمد بن =

وصالح فرحات[10]. وتحدد يوم يقابل فيه المقيم العام الوفد، فذهبوا إليه فرادى، وبدأ بمقابلة كل منهم على حدة استدعى الأستاذ أحمد الصافي، واحتفى بمقدمه ثم قال له:

- يسرني كمندوب عال لفرنسا في تونس أن أجتمع بواحد من أقطاب البلاد وشبيبتها المفكرة، وأرى خطأً ما درجت عليه السياسة الماضية، من قصر الوظائف العالية (وهو يعني بذلك الوزارة) على الموظفين الإداريين والحكوميين وأغلب هؤلاء من الشيوخ الصامتين الذين لا يتصلون بالشعب، ولا يعرفون رغباته وأتمنى أن تتاح لي فرصة أبدل بها هذه الطريقة، فينتخب الوزراء من الشبان، ويسرني أعظم سرور أن أتعاون معك فأجابه الأستاذ الصافي:

ميلاد، وتحذيره للسلطات الأمنية من أي خطر قد يتعرّض له بسبب مرضه.

دمث الأخلاق، خفيف الروح، سريع البديهة، حاضر النكتة. له اهتمامات بالمسرح، وألّف مسرحية قدمت على خشبة المسرح البلدي في أعقاب الحرب العالمية الأولى. بعنوان (هو عام). وله اهتمام بالموسيقى ويعزف لخاصته على البيانو.

مخلص في مهنته ووطنيته، وآدابه وفنّه، براً بعائلته وأقربائه، وفيّاً للأصدقائه. متفانياً في حبّ وطنه.

ملخّص من مقالة في تأبينه لعمر بن قفصية، نشرت في الأسبوع في العددين (147) (148) مارس 1949.

(10) (صالح فرحات): 1890 ـ 1977.

درس الحقوق، وامتهن المحاماة، من الوجوه الدستورية البارزة، كان على رأس اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، في الأربعينات، وبذل جهوداً صادقة لتغيير الأوضاع في تونس، وكان ذا نشاط واسع في التعريف بالقضية التونسية، والمظالم الإستعمارية في تونس. وعاش محافظاً على وفائه لمؤسس الحزب عبد العزيز الثعالبي، واللجنة التنفيذية للحزب.

انظر: جريدة (الإرادة) عدد (707) السنة الخامسة عشرة، الثلاثاء 25 ربيع الثاني 1367 هـ 9 مارس 1948 م. مقال افتتاحي بعنوان: (زعيم وطني تونسي جليل).

ـ إني سعيد لسماعي كلمات الإطراء والتقدير من عميد فرنسا في تونس، ولكن يؤسفني أني لا أستطيع أن أحقق هذه الرغبة فقد خلقت لكي أكون محامياً أدافع عن المظلومين وأخفف عنهم، ولا أجد سلوى لامتاع نفسي في غير المحاماة، ويمكن للمسيو سان أن يجد كثيرين غيري من الشبان، أقدر مني على الاضطلاع بهذه الوظيفة.

فشكره المقيم وطلب منه البقاء في قاعة الانتظار برهة وجيزة حتى ينجز عملاً هاماً:

وخرج الأستاذ الصافي من باب، ودخل الأستاذ الطيب الجميل من باب آخر وعرض عليه المقيم الوزارة فأجابه بقوله:

ـ منذ كنت تلميذاً صغيراً في المدارس الابتدائية، وأنا أرى المثل الأعلى في الحياة أن أكون محامياً، وقد ظفرت بالمهنة التي أرتاح إليها وقد كنت قبل اليوم أستاذاً في بعض المدارس ولكن ما كانت تروق لي مهنة التعليم، كما تروق لي مهنة المحاماة، ولذا لا أضمن، عند التحاقي بعمل كهذا الذي يقترحه المقيم أن أستطيع أن أحتمل مسؤوليته.

فشكره المقيم، وخرج بدوره، ودخل الأستاذ صالح فرحات ليسمع نفس العرض فأجاب:

ـ تعلم يا سيدي أني شاعر، وخيال الشاعر، يستطيع أن يتمشى مع المحاماة أكثر من غيرها. وأنـا في شعري وفي مرافعاتي أدافع عن الحق والعدل... هذه هي فطرتي، ولن أبدلها بفطرة أخرى...

فلما رأى المقيم ألا فائدة من مساومتهم أجتمع بهم معاً، كمندوبين للحزب الحر التونسي، ليبحث معهم في مطالب البلاد فلما عرضت عليه قسمها إلى ثلاثة أقسام:

---

(11) نشرت المقالة في مجلة (الرابطة) العربية العدد (20) اكتوبر 1936.

قسم لا يستطيع أن يتداول فيه مع التونسيين لأنه خارج عن حدود وظيفته، لما فيه من المساس بصك الحماية وحقوق العرش.

وقسم يمكن للمندوبين التونسيين التفاهم فيه مع وزارة الخارجية.

وقسم وهو ذو صلة بمنصبه يتناول مسألة التعليم الإجباري والمساواة في الوظائف، وتوزيع الأراضي بالتساوي بين التونسيين والفرنسويين، وهو ما يستطيع بحثه مع المندوبين. وبعد عدة إجتماعات قال لهم أن هذه امسائل مرتبطة بأبواب الميزانية، وليس من السهل البت فيها.

فأجيب بأن اعتبار الميزانية وجيه، ولكن يجب على الحكومة، في حالة موافقتها على المطالب أن تشرع في الإستعداد للتنفيذ، فنشر التعليم الإجباري مثلاً يقتضي اجراءات ابتدائية لا بد منها، وبعد أخذ ورد قطع الوفد المفاوضات، وأعلن نتيجة مباحثه للأمة التونسية فحدث قلق واضطراب أجاب عليهما المسيو لوسيان سان بمناورة خطيرة أدت إلى إستقالة الباي في ظروف وملابسات غريبة، سنشرحها في العدد القادم.



صور تاريخية من آثار الثعالبي في مكتبة الحكيم أحمد بن ميلاد
الثعالبي مع بعض رفاقه في الحركة الوطنية في يونيو / حزيران 1921

من اليمين إلى اليسار ومن أسفل إلى أعلى:

1) عبد العزيز الثعالبي، مؤسس الحزب الحر الدستوري التونسي. 2) محمد الصالح ختاش، عضو اللجنة التنفيذية للحزب. 3) الطّيب الجميّل، الأمين العام المساعد للقلم الفرنسي. 4) أحمد السقا، مترجم كتاب (تونس الشهيدة) إلى الفرنسية. 5) أحمد توفيق المدني، الأمين العام المساعد للقلم العربي. 6) صالح فرحات، عضو اللجنة التنفيذية. والأمين العام للحزب بعد وفاة أحمد الصافي. 7) ديرون أنجلفيال، المحامي الفرنسي، المتعاطف مع القضية التونسية. 8) بيرتون، النائب الاشتراكي بمجلس النواب الفرنسي، والذي نادى باستقلال تونس، وعلى يساره قرينته. 9) حمّودة المنستيري، أمين مال الحزب. 10) أحمد الصافي، الأمين العام للحزب.



محمد الناصر باشا باي

(1855 ـ 1922)

الكفاح السياسي في تونس
كيف انضم الباي إلى صفوف الوطنيين

وقفنا في حديث الأربعاء الماضي عند إخفاق المفاوضات التي دارت بين ممثلي الحزب التونسي وبين ممثل فرنسا في تونس المسيو لوسيان سان. وقلنا أن هذا قام بمناورة أدت إلى إستقالة الباي ووعدنا بإماطة اللثام عن سر هذا الحادث: [12]

وخلاصة ما وقع أنه اقترح على جلالة الباي الناصر رحمه الله أن يستقبل مندوب جريدة (الجورنال) الباريسية ليتحدث معه باسم جريدته، ولم يكن من

---

(12) تؤكد الوقائع أن الباي (محمد الناصر) لم يستقل، وإن كانت نية (لوسيان سان) أن يدفعه إلى الإستقالة أو يهدده بها نظراً لتعاطف الباي مع المطالب الدستورية التي قدمها له وفد (الأربعين) في قصره بالمرسي، ثاني يوم عيد الفطر (2) شوال 1338 18 جوان 1920.

وإنما هدد (محمد الناصر باي) بالإستقالة، أو عبر عن رغبته في التنازل عن العرش. بالصيغة التي نشرتها جريدة (الصواب) بالخط العريض في الصفحة الأولى:

«تضامن الأمير مع الشعب. رغبة سمو الباي في التنازل عن العرش».

العدد (391) الثلاثاء (7) شعبان الأكرم (1340) هـ (4) أفريل 1922 م وكانت هذه الإفتتاحية الذائعة سبباً لإيقاف جريدة (الصواب) ابتداء من هذا العدد، الذي دفجّر المشاعر الشعبية في التضامن مع الباي. وأجج الرغبات الوطنية وألف القلوب حول الحزب الحر الدستوري، واستنفر السلطات الإستعمارية وجيش الإحتلال.

عادة الباي أن يستقبل الصحفيين ولكن الظروف التي أحاطت بهذا الطلب حملته على العناية به فحدد موعداً لمقابلة المندوب، وقبيل هذا الموعد وفد إلى القصر كبير الوزراء. ووزير العدلية ووزير القلم والاستشارة وحاكم القصر، ودخل المندوب على الملك وهم في حضرته، وبذا أخذ الاجتماع صفة رسمية خاصة.

قدم الوزير الأكبر الزائر بصفته الصحفية، فوجه إلى جلالة الباي سؤالاً عن الدعوة الشيوعية في تونس، فأجاب:

«لا مكان في بلادي للشيوعية، وليست الاعتبارات التي اقتضت وجودها في روسيا موجودة في بلادنا، ولا الأحوال متشابهة، وفوق ذلك فإن الشعب التونسي شعب متدين، وعريق في الإسلام، وهو بعيد عن الإباحية، وهدم التقاليد».

وهنا قام جلالته وصافح المكاتب إيذاناً بانتهاء الحديث.

وفي صبيحة اليوم التالي صدرت جريدة «لاديبش تونزيان» وفي صدرها رسالة طويلة منقولة عن جريدة الجورنال الباريسية (مع أن الجريدتين تصدران في ساعة واحدة ويوم واحد) وفي صدرها حديث المكاتب مع جلالة الباي وإذا بالحديث منصب على قضية الدستور في تونس بدلاً من الشيوعية وإذا بالباي ينكر وجود أمة تطالب بالدستور إنكاراً باتاً، ثم يقول:

«هناك أفراد قلائل من الناقمين المقلقين للراحة يريدون الاصطياد في الماء العكر، وإقلاق راحة الجمهور، أريد أن ألفت إليهم نظر الحكومة والجمهورية وأرى من مصلحة البلاد كبح جماحهم بصرامة وشدة».

ومن أغرب ما علمناه أن جلالة الباي كان يطالع صحيفة لادييش تونزيان بنفسه في كل صباح، وقد طلب الجريدة في هذا اليوم أربع مرات، فكان الخدم يغالطونه، ويأتونه بصحف أخرى، وأحياناً يظهرون أنها لم تأت، وأنهم أرسلوا في طلبها. . . ولكن في المساء بلغه الأمر الواقع وعلم أن

الحديث الذي أخذ منه عن الشيوعية إنقلب إلى حديث ضد الدستور والأمة التونسية، فغضب غضباً شديداً، دعا كبير وزرائه وأمر بإصدار تكذيب لما نشر في الجريدة، فأجابه الوزير بأن الموضوع لا يعدو أن يكون سخف صحف اعتادت أن تنشر الأكاذيب ولا داعي للرد عليها، فقال جلالته:

«إن الجريدة نسبت إلى أقوالاً لم تصدر مني، وفيها تحريض ضد البلاد التونسية، وهذا اعتداء على مقام الباي وعرشه، واحداث للفتنة، بينه وبين شعبة، ولا بدّ من تكذيبها فوراً».

ووعد الوزير الباي بأن يكذب الحديث في اليوم التالي، ولكن لم يصدر التكذيب بالرغم من تكرار الحاح الباي في ذلك، وفي هذه الفترة كانت البلاد تغلي غلياناً شديداً، وكانت الخطط ترتب لكي تؤدي إلى النتائج التي حدثت فيما بعد.

بعد ثلاثة أيّام من هذا الحادث انتقل الباي من قصر الشتاء إلى قصر الصيف وكان ذلك في أول إبريل سنة 1922 وبعدما أن استقرّ به المقام دعا المقيم العام المسيو لوسيان سان، وكان جلالته حين وصول المقيم، في مسجد القصر يؤدي فريضة العشاء منفرداً، فوقف عند باب المصلي وبعد الانتهاء من الصلاة التفت إلى المقيم وقال له:

«أبلغ حكومة الجمهورية بأن باي تونس تخلى عن العرش» فارتبك المقيم، ونزلت عليه هذه الجملة نزول الصاعقة فوقع بين يدي الباي، وأخذ يحاول استرضاءه، فقال له في حزم وعزم:

«انتهى الأمر، ولم تعد بيني وبينك علاقة بعد الآن، وإذا أرادت حكومة الجمهورية أن تتفاهم معي فيمكنها أن ترسل غيرك.

فخرج المقيم وهو مضطرب إضطراباً شديداً حتى أنه ضل طريق العودة فاصطدم بسياج من الحديد بسبب شدّة الإرتباك فوقف هناك، ودعا المسيو رينيه المدير المالي للقصر، وقال له معك ورقة بيضاء Cart Blanche لارضاء

الباي، وإقناعه بالعدول عن تنازله، وكان المسيو رينيه من رجال الخاصة الذين يتصلون بجلالته، فصعد إلى القصر ودخل إلى قاعة الصلاة، واكب على قدميه مسترضياً فقال له:

«لا تحاول عبثاً يا رينيه فإن صلاتي بالمقيم انتهت، ولا يمكن استئنافها بأي حال من الأحوال» فرجع رينيه إلى المقيم خائباً وبات المسيو لوسيان سان على أسوإ حال.

وكان الحزب الحر التونسي قد إستعد لهذا الموقف، لأنه كان على علم بتفاصيله وخباياه، ففي اليوم التالي لهذا الحادث، وقبل أن تعلم الصحف بشيء منه - ويجب أن نقرر بأن المقيم حرص على إخفاء الحادث ظناً منه بأن الأمر بينه وبين الباي فقط - فوجيء الجميع بنبإ خطير، وهو أن العاصمة مغلقة. مغلقة تماماً، دواوين حكومتها، ودور تجارتها، وبنوكها، وإذا بالأنباء تأتي من جميع أنحاء البلاد من حدود طرابلس إلى حدود الجزائر بأن القطر التونسي كله مضرب، وأن الأعمال كلها: أعمال الرعاة في مراعيهم، وكبار رجال الدولة في دواوينهم معطلة.

وأجابت السلطة على هذه الحركة، بأن أنزلت من الثكنات كل الوحدات العسكـريّة من مدفعية وفرسان ومشاة وغيرها إلى الشارع. وكانت المظاهرات تنظم في الميادين المختلفة، كل طائفة من مكان، وكانوا يحملون الأعلام التونسية، وكان مقرراً أن تسير هذه المظاهرات صامتة وتهتف كل حين وآخر، باستقلال البلاد وحياة الباي.

ولما وصلت مظاهرة أصحاب المهن العامة إلى ساحة باب قرطاجنة تصدى لها جيش الفرسان الأفريقي. ووقف في عرض الطريق لمنع الناس من المرور، فاشتبك مع المتظاهرين اشتباكاً خفيفاً جرح فيه أربعة من هؤلاء في ظهورهم بحراب الجند. فحملوا إلى المركز العام للحزب، فأحضرنا لهم الأطباء. وكانوا جميعاً من الأجانب (من غير الفرنسويين والتونسيين) وعملوا الشهادات اللازمة.

وأراد المقيم أن يتدارك الأمر فأرسل لنا وفداً من الفرنسويين على رأسه الأستاذ[13] دوران انجلوفيال) أحد كبار محاميهم وكتابهم يرجو التدخل لتهدئة الخواطر فقلت له: إن البلاد في حزن واجم من الحدث الذي حدث وإني أنصح للمقيم أن يأمر بسحب الجيش وأنا أكفل له الأمن العام.

وأمر المقيم على الأثر بسحب الجيش كما أمر البوليس بعدم التعرض للجماهير ولا الأشخاص فلم تحدث حادثة واحدة مخلة بالأمن، حتى الجرائم العادية التافهة من سرقة أو مشاجرة أو نحوهما. وانطفأت العداوات بين الناس، ولم يجد البوليس والمحاكم ما تعمله مدّة الإضراب العام الذي دام شهراً كاملاً.

ونتكلم في الحديث القادم عن الخاتمة التي ختمت بها هذه الأزمة[14].

---

(13) (دوران أنجلفيال)

محامي فرنسي، كان من المتعاطفين مع المطالب الوطنية للحزب الدستوري، ومن المرافعين في قضية الثعالبي وإلقاء القبض عليه في باريس، وهو الذي اصطحبه في سيارته بعد إطلاق سراحه إلى منزل (علي كاهية) في نهج الباشا، وكان (انجلفيال) ضمن الوفد الثاني للحزب إلى باريس في 22 ديسمبر 1920 وسافر على نفقة الحزب وكان الوفد يضم: الطاهر بن عمار، وحمودة المستيري، وعبد الرحمان اللزام، وحسونة العياشي وحسن قلاتي وايلي زيرج (يهودي).

(14) نشرت المقالة في مجلة (الرابطة العربية) العدد (21) اكتوبر 1936.

الصواب

ES-SAWAB

تضامن الأمير مع الشعب

رغبة سمو الباي في التنازل عن العرش

جريدة (الصواب) تعلن رغبة الباي في التنازل عن العرش

أعظم وثيقة سياسية في تاريخ تونس الحديث
ملك يستقيل في سبيل حرية بلاده

وصلنا في العدد الماضي من أحاديث الزعيم العربي الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي إلى ذكر الإضراب العظيم الذي نظمه الحزب الحر التونسي تضامناً مع جلالة الباي المستقيل وكان هم السلطة في هذه الفترة حمل الباي على الرجوع عن تنازله بجميع الوسائل.. باللين والشدّة... وبالترغيب والتهديد. ولكنه أصرّ على ترديد عبارة واحدة وهي أنه لا يقبل حكم البلاد بطريقة لا تتلاءم مع روح العصر، وقابلية الشعب التونسي، وأصر على أن يحكم شعبه بالصورة التي تنطبق على الرغبات العامة، قال «ولا أرجع عن تنازلي إلا إذا وافقت فرنسا على إعلان الحكم الدستوري الذي هو من أجل رغائبي وأماني».

وجد في الموقف عامل جديد زاد الموقف حرجاً على حرج، فقد كان رئيس الجمهورية الفرنسوية المسيو (ميلران) يزور الجزائر ووصل إلى حدود تونس في أثناء هذه الحوادث فوقف عندها وما كان يمكنه أن يدخلها وهي مضربة مغلقة الأبواب.

وعلمنا في تلك الأثناء أن السلطة تنوي توجيه إنذار نهائي إلى الباي، وتهدده بتولية أحد أمراء بيته إذا لم يعدل عن خطته فاتصلت بجميع أفراد البيت المالك من ولي العهد حتى أصغر أمير، فأقسموا جميعاً على القرآن الكريم بالا يقبل واحد منهم العرش وجلالة الملك الناصر على قيد الحياة

ووقعوا جميعاً على عهد يتضمّن هذا المعنى وحمل العهد إلى الباي. فزاده شجاعة على شجاعته وانتفى من حسابه التهديد بإيجاد من يتولى العرش مكانه بلا قيد ولا شرط. وعقب هذا مباشرة تحقق ما سمعنا ونفذت فرنسا إنذارها فحشد المقيم العام عشرين ألف جندي على رأسهم قائد جيش الإحتلال وسار بهم إلى قصر الباي وبعدما أحاط الجند به وضربوا نطاقاً حوله صعد مع القائد ليبلغ جلالته إنذار فرنسا الأخير، فابتسم وقال له بهدوء ووقار:

لا كلام لك معي. ولك أن تصنع ما شئت. وإني أفضل حياة الكوخ على الحياة في هذا القصر».

فخرج المقيم من حضرته، وبقي قائد جيش الاحتلال وكانت له صداقة خاصة مع الباي، فنصح لجلالته بالعودة إلى العرش ليستطيع التفاهم مع حكومة الجمهورية في مطالبه، فرد عليه بقوله:

«لا سبيل إلى هذا اليوم. فقد جربنا سياسة الوعود فيما مضى، فلم تجد فتيلاً، وإذا كان في نية حكومتكم عمل شيء فعليها أن تعمله الآن، حتى أجد مبرراً لرجوعي إلى العرش، وتنازلي عن موقفي».

وأسقط في يد المسيو سان، فعاد مع الجيش وأبرق إلى وزارة الخارجية بما تمّ في هذه المقابلة فرد عليه المسيو (بوانكاريه) وطلب منه أن يبلغ باسمه جلالة الباي بأن يعود إلى العرش ويستقبل رئيس الجمهورية وكان لا يزال على الحدود التونسية، علي أن يجري التفاهم مع جلالته بعد إنتهاء زيارة الرئيس ورجوعه إلى باريس.

ولم يكن حظ هذا البلاغ من رئيس الوزارة الفرنسوية بأحسن من حظ الوعود والتهديدات السابقة فقد أصرّ الباي على موقفه. فما كان من المسيو (بوانكاريه) إلا أن أبرق يطلب مطالب الباي، فحرر جلالته مرسوماً بها، من نسختين، ختما بخاتم الدولة الرسمي، وأرسلت واحدة منهما إلى باريس، وأرسلت الثانية إلى الحزب الحر التونسي وهذا هو نص المرسوم الملكي المتضمّن لمطالب جلالة الباي:

«اللائحة الملوكية التي عرضها جلالة باي تونس محمد الناصر».

بيان مطالبي ومطالب عائلتي الملوكية حسب إمضاءاتهم أسفل هذا الكتاب.

المادة الأولى ـ تأليف مجلس تشريعي بالانتخاب العام نوافق عليه.

المادة الثانية ـ إنشاء حكومة مسؤولة تتألف من وزراء تونسيين ومستشارين تونسيين.

المادة الثالثة ـ يختار الباي رئيس الوزراء وهذا الأخير يشكل الوزارة حسب التقاليد المعمول بها لدى الدول الدستورية.

المادة الرابعة ـ الوزراء كلهم ومستشاروهم يكونون من التونسيين، ولكن ألقاب الإدارة في نظام الحكومة تبدل بلقب الوزارة.

المادة الخامسة ـ يفتح المجلس التشريعي في كل دورة بحضورنا وعند مغيبنا لعذر، لنا أن ننتخب لحضوره بدلنا من نشاء.

المادة السادسة ـ الوزير الأكبر يرأس مجلس الوزراء ولحضرتنا العلية جمع هذا المجلس متى رأينا لزوماً لذلك.

المادة السابعة ـ توزع القروض بصور عادلة، وتكون منافعها في مصلحة البلاد.

المادة الثامنة ـ تبطل الأوامر الصادرة بشأن شراء الأراضي من أموال الحكومة التونسية لغرض الاستعمار.

المادة التاسعة ـ إبطال الأمر الصادر بتجنيس التونسيين سواء الذين خدموا الجند أم غيرهم.

المادة العاشرة ـ العساكر التونسية لا ترفع إلا رايتنا.

المادة الحادية عشرة ـ إحترام جميع الأحباس (الأوقاف) الخاصة والعامة.

المادة الثانية عشرة ـ التعليم في البلاد التونسية يكون إجبارياً وبالمجان.

المادة الثالثة عشرة ـ تأسيس كليات علمية بالمملكة التونسية وإرسال بعثات من المتخرجين فيها للتخصص في الخارج خاصة في العلوم العسكرية.

المادة الرابعة عشرة ـ إحترام الهيئة الشرعيّة والقضاء التونسي بسائر فروعه مع التزام إدخال الإصلاحات اللازمة لهما.

المادة الخامسة عشرة ـ تنشيط الأهالي في جميع الأعمال الاقتصاديّة الكافلة لحياة البلاد ومنها طبعاً الفلاحة والتجارة والصناعة.

المادة السادسة عشرة ـ تطبيق القانون الفرنساوي بشأن كفالة حرية الرأي والصحافة والاجتماع في البلاد التونسية.

المادة السابعة عشرة ـ الإعتناء بأمراء العائلة الملوكية وتحسين حالهم مادياً وأدبياً.

المادة الثامنة عشرة ـ إسناد الشؤون العائليّة لحضرتنا العلية خاصة.

كتب بقصرنا الملوكي العامر بالمرسي في شعبان سنة 1340 وفي إبريل سنة 1922.

وفي اليوم التالي لوصول هذه المطالب إلى فرنسا جاء الرد بقبولها، وأعلن جلالة الباي رسميّاً بهذا[15].

---

(15) نشرت المقالة في مجلة (الرابطة العربية) العدد (22) اكتوبر 1936.


TUNIS

كيف إنتهت أزمة سنة 1922 في تونس
نفي رئيس الوزراء وموت الباي في ظروف غريبة

رد المسيو (بوانكاره) وزير الخارجية الفرنسوية برقياً على جلالة الباي يعده بالنظر في مطالبه بعد رجوع رئيس الجمهورية إلى باريس. فأجاب الباي بأنه لا يستطيع مقابلة رئيس الجمهورية ولا إعلان رجوعه عن تنازله عن العرش ما لم يصله رد قاطع بقبول مطالبه. وكان المسيو ميلران على الحدود كما ذكرنا ينتظر إنفراج الأزمة فبعث المسيو بوانكاريه برقية ثانية يعلن فيها قبوله للمطالب برمتها وإنما يرجىء تنفيذها إلى حين عودة رئيس الجمهورية ليصدق عليها.

وفي صبيحة اليوم الثاني لارسال هذه البرقية بعثها جلالته، مع أنين من أكابر الياوران في القصر، (أحدهما ابن أخيه والثاني زوج ابنته) إلى دار الحزب الحر التونسي لاعلان رجوعه عن تنازله عن العرش للأمة بواسطة الأمة دون أن يستعين بالحكومة في هذا الإعلان. فقرئت البرقية في حفلٍ حافل حضره جميع أعضاء اللجنة التنفيذية، وبقية أعضاء اللجان الأخرى للحزب، وجمهرة من أعيان البلاد ثمّ أصدر الحزب بلاغاً إلى الأمة التونسيّة بانتهاء الأزمة، ويدعو البلاد إلى فتح الأسواق وإعادة الأعمال إلى ما كانت عليه، وإقامة الزينات في كل مكان ابتهاجاً برجوع عاهل البلاد إلى عرشه، وأيضاً للحفاوة برئيس الجمهورية «ضيف تونس» ثم أقال جلالته في هذا اليوم الوزارة، وكلف السيد (مصطفى دنكزلي) بتأليف وزارة جديدة، وأمر بنفي رئيس الوزارة المقالة إلى الخارج وفعلاً حمل في هذا اليوم (الطيب الجلولي)

إلى حدود الجزائر وترك هناك، فسافر منها إلى مرسيليا، وبعد يومين دخل رئيس الجمهورية، فنزل الباي لاستقباله إلى قصر باردو وهو خارج تونس بثلاث كيلومترات ولما التقى بالمسيو ميلران صارحه بعد تبادل التحية بأن مهمة الحكم أصبحت صعبة لأن الشعوب لم تعد قابلة لحكم الفرد وعلى أصحاب التيجان أن يراعوا رضى الشعوب. فابتسم رئيس الجمهورية ولم يجبه ثم افترقا، فذهب المسيو مليران إلى العاصمة من طريق وذهب الباي من طريق آخر وقوبل جلالته بحفاوة عظيمة لم تسبق لأحد في بلاد تونس. واشترك في الحفاوة به الأجانب والوطنيون معاً، فكانت الهتافات بجميع الألسن تتعالى في جميع الساحات والطرقات وبعد هذا ذهب إلى سراي المملكة، فزاره فيها رئيس الجمهورية، وعاد إلى السفارة حيث رد له الباي الزيارة ومرت على تونس خمسة أيام هي مدّة زيارة رئيس الجمهورية كانت كلها أعياد، ابتهاجاً بعودة الملك المحبوب إلى عرشه؟ وقد ذهب رئيس الجمهورية في أثنائها لزيارة بعض العواصم ومشاهدة المعالم التاريخيّة وفي اليوم السادس، سافر إلى مرسى بنزرت لكي يبحر منها بمدرعة حربية إلى فرنسا وسافر معه جلالة الباي لكي يودعه حتى هذه الميناء (وهي قاعدة الأسطول الفرنسوي في البحر الأبيض المتوسط) وعاد إلى قصر المصيف بالمرسي، ولما وصل شعر بالتهاب في إبهامه، فدعا الأطباء للكشف عليه، ومن المصادفات المريبة أنه لم يكن بالقصر أحد من الأطباء إلى جانب الذين كانوا يلازمونه على الدوام، ولا يفارقونه إلا ساعات معينة من الليل ولم يوجد سوى الدكتور (لوفي) الفرنسوي وكبير الأطباء وهي المرّة الأولى التي يتولّى فيها الكشف على جلالة الباي، وبعد فحصه قال إن الأمر لا يعدو التهاباً بسيطاً ووضع ضمادات فيها بعض الأدهان ولم تمض ساعات حتى ظهرت على الباي أعراض التسمم، ويقولون في تعليل ذلك أن جلالته مصاب بداء السكر ورغم كل عناية استدعت جلب أكابر الأطباء من فرنسا لم يرد القضاء المحتوم، فكان يغيب عن وعيه أيّاماً ويفيق أحياناً، ومن أفضل ما يروى عنه أنه لمّا أفاق من غيبوبته وكان ذلك في مطلع شهر مايو، أخرج من ثيابه

قائمة بأسماء أسر كريمة أخنى عليها الدهر كان يجري عليها رزقاً شهرياً مقداره أربعين ألف فرنك، وأمر ناظر خاصته بصرفها فوراً، ثم أغمي عليه، وعاش بعدها أربعة وعشرين ساعة ثم أسلم الروح إلى خالقه. وقد أقامت له تونس مناحة في كل مكان، وبكته كل عين وكان موته أكبر خسارة أصابت البلاد التونسية في الصميم[16].

(16) نشرت المقالة في مجلة (الرابطة العربية) العدد (23) اكتوبر 1936.

كلمة عبد العزيز الثعالبي
إلى الشعب التونسي
إزاء حملة الصحف الإستعمارية الأثيمة

(هذا أول مقال خطته أنامل الزعيم الأكبر بعد قدومه لتونس العزيزة.
نقلناه عن جريدة (العمل) الدستورية لأن آلام الشمال الإفريقي وآماله واحدة.
فكلمة الزعيم هي للأفارقة كلهم وبلسانهم أجمعين). مجلة (الشهاب) الجزائرية

يلوح لي مما تطالعنا به الصحف الإستعمارية أن بعض كتابها المغالين في الدعوة إلى سياسة التفوق الإفرنسي في تونس لم يرزقوا حظاً من التهذيب الراقي العالمي، وكأنهم من بقايا عهد الصيادين الذي يعتمد فيه المرء على قوسه ونشابه وقبضته الحديدية التي يضعها في مخانق طرائده. لا همّ لهم إلا إذكاء الشر وإيقاد الفتنة والبغضاء في صدور مواطنيهم الوديعين من الإفرنسيين أحفاد الثورة الكبرى ثورة الحق على الطغيان ليمثلوا لنا فرنسا الكريمة في صورة كاسر يريد أن ينقض على أفراخ وديعة زغب الحواصل. ونحن نعرف فرنسا في صورتها الحقيقية الماثلة لنا في عبقريتها ونظامها وجامعاتها ومبادئها، ولا نريد أن نتعرف إليها من هوج النازحين الذين لا يمتّون لها بصلة إلا من طريق الإسترزاق واستخدام سمعتها ونفوذها لمناهضة الأمة التونسية العيوفة التي تريد أن تعيش في بلادها آمنة مطمئنة على ذاتيتها بجهودها ومواهبها بل يعيشون كلاً على الغير بوسائل الظلم والإرهاق. تلك

المعيشة المقيتة التي يتحاشاها الرجل الأثيل، ورهط هذا شأنه لا يشغل بال التونسيّين، ولا يقض مضاجعهم بل يقلق راحة فرنسا ويقض مضاجع رجالها العالمين الذين انتدبتهم لإفريقيا الشمالية وغيرها وأناطت بكفاءتهم تحقيق مبادىء السلام والرفاه في هذه البلاد فهم لا ينفكّون عن إلقاء العثرات في سبيلهم لكي يصدوهم عن تحقيق الرغبات الشريفة التي تنشر صيت فرنسا في العالم وتثبت بالدلائل القطعية بأنها معلمة الشعوب حقاً ومذكية روح الإستقلال في جميع الممالك التي مرت بها واتصلت بشعوبها على قواعد الحق العام الدولي والمعاهدات الصريحة التي توثق العلائق بين الدول والأمم لا تلك الإتفاقات الخادعة التي مبناها استرهاب الفرد الضعيف بقوة السيف والنار والجند الراصد للكفاح - فهذه الإتفاقيات وإن كانت غير مبررة في ذاتها لكنها قد تغم على الإنسان وتربكه في وقت من الأوقات وقد يبدو منه الإنقياد لها فيستسلم أمامها مقهوراً ولكنه يبقى له حق الشكوى والتذمر والمطالبة بتغييرها وهو حق طبيعي لكل إنسان وفي المثل «ما ضاع حق وراءه طالب».

ومهما كانت نوايا رهط المرتزقة من الكتاب الإستعماريين الذين ينفثون روح العدا بين عناصر السكان لهذه البلاد ويحاولون تشويه مقاصد التونسيين في المطالبة بحقوقهم كاملة ذات كيان دولي وحدود مصانة وجنسية، فإني لا أشك بأنه يوجد في فرنسا جمهور عظيم من العقال المنصفين يعملون لإنصاف الأمم من أنفسهم ويهمهم كثيراً أن يبيضوا صحائف تاريخهم السياسي لا بأقلام كتابهم لا بل بأقلام الكتاب التونسيين يدوّنونه بأسطار من النور على صدر الشعب التونسي لا على الأوراق.

ومن الهين على أية حكومة توجد في فرنسا أن تنظر في هذا الجوهر السامي من العظمة الخالدة فتضرب على أيدي الدساسين من دعاة التفوق وما هم إلا دعاة الهزيمة والتعويق الذين يخدمون مصالح أفراد من الأنانيين لا مصلحة فرنسا الكبرى التي يجب أن تسير مع الإسلام جنباً إلى جنب على

مبادىء التحرير والسلام في شمال أفريقيا.

هذه كلمتي الأولى التي ألقيها على النار المسطعة التي يؤجهها خصوم الحق والنظام والعدالة في تونس، حتى لا ينخدع الشعب التونسي بمثل هذه الترهات وهو الشاعر بحقه السليب. فليمض قدماً في سبيله، متوكّلاً على وثوقه بنفسه، وإيمانه بالله[17].

(17) نشرت في مجلة (الشهاب) الجزء (6) م (13) جمادى الثانية 1356 هـ أوت 1937. ونشرت في (العمل) عدد (37) غرة أوت 1937.

من هنا وهناك

دول تتأهب وقوات تتجمع وأموال تستنزف ومواهب تنهك، ففي أي سبيل ذلك يا ترى؟

في سبيل التآمر على انتهاك حرية الأمم الضعيفة والضغط عليها وسلب ما وهبه الله لها من أموال ونعم لا لإشباع بطون الغرثى وكساء العراة ولكن الكبرياء القومي وإبداء الصلف والجاه.

ذلك هو مثار القلق الذي أفضى بالناس إلى الإضطراب والإرتياع.

سبحانك اللهم أمن أجل أطماع رديئة تغمر نفوس نفر من المحرورين وآخرين غيرهم من ذوي العاهات. . . والأعصاب المريضة التي أنهكها الحرص تعد كل هذه المعدات المهلكة لنسف المعمور بما فيه من خيرات ووفر وهبهما الله لإمتاع الناس جميعاً كل على قدره ومستطاعه بحيث لو ترك كل شيء لأهله دون اغتصاب، يتعاملون فيه مع غيرهم على قاعدتي العرض والطلب وتضافرت قوات الدول على تأمين الروعات لنالت كل أمة مبتغاها على قدر كفايتها ونشاطها من غير أضغان ولا تحاسد، يقضان المضاجع ويهددان سلم الأمم.

ولكن تقسيم الممالك وجعلها مناطق نفوذ لبعض الدول دون البعض الآخر وانطلاق يدها في تصريف شؤونها حدث عنه رد فعل في الدول المحرومة من امتيازات لا سند لها إلا القوة ولما استعدت انثنت تطالب بأخذ نصيب من تلك الممالك لذلك حدث هلع في نفوس الممتازين خشية وقوع ارتباك عالمي وانتقاض ما بأيديهم.

ومن هنا تولدت الأنانية القاتلة بين الطرفين واستشرى حب الإستئثار واستيقظت الغرائز المردية العارية عن المثل العليا والسجايا الكريمة فبرزت لنا في تلك النفسية القاسية وهي أشبه ما تكون بوحش ضار مختبىء في جلد إنسان لا هم له إلا في الافتراس والانقضاض على الطرائد.

تلك هي الظاهرة البارزة لمدنية القرن العشرين التي أطلت علينا من أفق أروبا ومن أعاجيب أمرها أنها تحاول إقناعنا بتفوقها وأفضليتها على مدنيتنا النزيهة التي تقدمتها وهي أنقى وأطهر رغم غمزهم إياها بالحروب التي أثارتها في سبيل تأمين الدعوة ولكن شتان ما بين حروب وحروب. فالحروب التي عالجتها مدنيتنا كانت حروب شفقة وحنان عالجت بها إنقاذ الإنسانية من تهلكة الروح وإلهامها سعادتها في المحيا والممات، غايتها تركيز الإيمان والعقيدة في وحدانية الله والحق للناس جميعاً بدون استثناء ولا تفضيل عرق على عرق أو لون على لون (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[18].

أما حروب هذه المدنية النكراء التي بطشت بقدسية الأمم فهي حروب استفزاز واستعباد غايتها الإستحواذ المطلق بكل سبيل على أموال الأمم المكتسبة بجهودها وتجويعها وإخراس صوت الحق في الأفواه وترويع النفوس المطمئنة في قرارها وتمكين أغلال الإستعباد من الرقاب.

ذلك ما يجب أن تفيض فيه أقلام الكتاب المسلمين في تعبيرهم عن مآسي هذه المدنية الأوروبية الآلية ومهما تهيبوا في بعض الأقطار من الصراحة في تدوين ما يجري منها تحت أنظارهم فإن الأمور الواقعية لا تستطيع محوها الأصابع ولو كانت من المفرقعات لأن الأمور الواقعية خالدة بجوهرها السامي تتصل بالحياة في كل ما نلمسه ونسمعه ونراه لا تسترها المخاوف ولا تحجبها المواربات ومن النقص المشين في الأدب العالمي أن لا يكون لنا صدى يتردد في الأفكار.

---

(18) الآية (13) من سورة الحجرات.

لقد طغى بنا القلم في استعراض هذه اللمحة العالمية ونحن نريد أن نقصر الكلام على المسائل التونسية ففيها من العبر ما يغني عن الإستطراد.

طرق الإحتلال الإفرنسي قبل 58 سنة تونس عاصمة الإسلام الأولى في الشمال الإفريقي على حين غفلة من أهلها والتاريخ معاد فكان احتلالاً سلمياً لا أثر فيه لمنازع البطولة أو البلهنية[19] فتلقاه الشعب بالرضوخ والتسليم بعد أن تأكد من العهود المقطوعة بالمحافظة على استقلاله على لسان أكابر الساسة الإفرنسيين وإقناعه بأن الغاية منه شريفة وهي إبعاد الخطر الإيطالي من حمى البلاد وتحقيق الإصلاحات التي تلكأت في تنفيذها حكومة عهد الأمان ولو أتمتها لعادت على البلاد باليسر والرخاء فوق ما كانت تتمتع به من إستقلال رغم ما ترجف به الدعايات الأجنبية من الجحود والإنكار وفي البلاد متّسع للتوفير والإزدهار.

وكان يومئذ يدور في خلد الرأي العام أن الأمم الأوروبية المتمدنـة هي أقدر على تمثيل رغبات الإصلاح واستنباط المكاسب من مرافق هذه البلاد البكر بما توفر لديها من العلم ورؤوس الأموال والآلات الميكيانية وأدوات النقل وانتظام البروقراطية التي ليست للشعب سابقة بها. وفي البلاد ثروات عظيمة مكتنزة قابلة للإنتاج وإثراء السكان بالأموال مثل المناجم والملاحات والغابات ومصائد الأسماك وفيها أيضاً النباتات الزيتية والصمغية والصباغية وكذلك الحلفة والكتان والأصواف والأوبار والجلد واللحوم وريش الطيور وما إلى ذلك من الخامات اللازمة للصناعات الكبرى وفي البلاد قابلية أوسع لإنتاج حرير دود القز وكان من أهم حاصلاتها في عصور الدول الإسلامية وآخرها الدولة الحفصية.

وكان الأمل قوياً في إيجاد سياسة حازمة للمياه وذلك بوضع تصميمات لتوسيع الأودية وإجراء فروع منها إلى الجهات وإقامة السدود والمصارف وبناء الخزانات والإهتمام بإحياء الأراضي الموات وربط البلاد بمختلف

---

(19) (البلهنية) بضمّ الباء، تطلق في الأصل للرخاء وسعة العيش.

الطرقات. وبناء القرى النموذجية للمزارعين على أحدث قواعد الصحة وردم المستنقعات والتجنيد لمقاومة الأمراض والحميات وحماية الطفولة البريئة من عواقب الغفلة والإهمال بتكثير المدارس ودور التربية والحفاظ.

وكان حتماً قبل إيجاد المفقود الإعتناء بالموجود فإن تونس كانت من أهم البلاد الصناعية التي على شواطىء البحر المتوسط وكانت تجارتها نافقة في البلاد الإسلامية الواقعة على ضفافه الشرقية وإنما تحتاج إلى شيء من التسهيل والتنشيط والسهر على حمايتها من المزاحمة الأجنبية في الداخل والخارج.

وإذا بهذا المشروع التمديني يهوى بالشعب فينقلب إلى مزاحمة ساذجة غير مزودة بنصيب من الذكاء. فقد رأينا أفواجاً من الفرنسيين يهرعون إلى هذه البلاد وهم يزدحمون بالمناكب على أبواب الوظائف فيزيحون عنها الوطنيين ويحلون محلهم فيها مع أن البلاد ليست في حاجة إليهم لكنها تتمدد لهم وتتسع كالجسم المطاط حتى تستوعب هذه الكثرة بل إن الوظائف تخلق لهم خلقاً رغم ضيق مالية البلاد وتضاؤل قدرتها على الإحتمال ولم يزل عددهم في اطراد والشعب المسكين يحني ظهره لقبول الأتاوات الإستثنائية لسد هذا الباب من الميزان من الإستهلاك الشعبي حتى برم الميسورون من ارتفاع أسعار المعاش وقد بلغت مخصصات الموظفين 6 في الماية من مجموع الدخل، وطبيعي أن الكمية الباقية من الأصل لا تكفي لسد النفقات الإعتيادية فمن أين للحكومة إذن إيجاد المخصصات للإنفاق على سياسة الإنشاء والتجديد التي كان يتغنى بها الشعب طوال هذه السنين؟ لكننا على كل حال قد ربحنا بإيواء هذا الجيش العتيد من الموظفين! وليس مع الربح خسارة!

أما الجانب الإيجابي من المشاريع الإقتصادية فقد تمخض بعد الجهد العنيف والإنتظار الممل عن الإتيان بمزارعين من فرنسا وإحلالهم مكان المزارعين التونسيين وما زالوا يدفعونهم والأهالي يخلون لهم أماكنهم حتى أصبح مئات من المزارعين الإفرنسيين يملكون نصف ما بقي بيد الأهالي من

الأراضي وبفضل هذه السياسة الخارقة صارت أجود الأراضي التونسية وأخصبها للسادة الإقطاعيين ورأينا الشعب الزراعي التونسي ينحسر عنها وهي أراضي آبائه وأجداده ويهرع إلى المدن يلتمس فيها الرزق ليزيد بذلك أصفاراً بين أرقام المتعطلين من الصناع الذين أودت بمصنوعاتهم السياسة الجمركية الخرقاء! بحيث أصبحت المدن خليطاً من السكان غير متجانس التربية والأخلاق يشوه الحياة الإجتماعية بمظاهر البؤس والفاقة بعد أن كانت من أمثلة الأناقة والتجمل.

ومن الحقائق المرة التي لا سبيل لإنكارها أن الشعب التونسي تردى إجتماعياً وصار كله عالة على تلك البقية الباقية من الثروة الأرضية وليس له مورد غيرها يرتزق منه. ويتحصل مما تقدم أن التونسي فقد في عهد الإحتلال ثلاثة موارد: الأول الوظائف، الثاني الصناعة الثالث نصف الأراضي التي كانت له في المناطق الزراعية الخصبة ولم يبق له إلا النصف الناشف الواقع في مناطق الجفاف وإذا أضفنا ذلك إلى ما يتقاضاه منه الميزان بإسم الضرائب وما يدفعه من الديون نجده في حالة من العسر هي أدنى إلى الإفلاس ولن ينقذه منها إلا تدبير حكيم صارم يقوم على تعديل فكرة الرخاء المصطنع التي ارتكزت عليها سياسة الحكومة.

وأول إصلاح تنبغي المبادرة إليه تبسيط الإجراءات وصرف هذا الجيش المرابط من الموظفين الإفرنسيين فإن البلاد لم تك قط في حاجة إليهم خصوصاً الذين يغمرون الأقلام الكتابية في الصحة البوسطة والتلغراف والاقتصاد والأشغال العامة والقمارق والمالية والبوليس والبلديات. وإذا كانت في حاجة فإنما تكون للأخصائيين الفنيين وهؤلاء لا يتجاوز عددهم العشرات فضلاً عن المئات فكيف بهذه الألوف؟ ونقل تخصصاتهم للجهاز الإقتصادي لتعويض جانب مما ضاع من الثروة التونسية على الوطنيين بسوء تقدير الآلة الحكومية وتفريطها في جانبهم.

وكذلك لم تكن بلادنا في حاجة إلى إيجاد مزارعين أجانب تسندهم

الحكومة ولهم من علمهم وخبرتهم ما يغنيهم عن المساعدات الرسمية وأبناء البلاد أولى بها، وأحوج ما يكونون إليها. وكفاية ما نزل بهم من فاقة وما أصاب كبرياءهم من إملاق والفرنساويون في غناء عن هذه المزاحمة الغير المشروعة فلديهم من الأموال المدخرة وسهولة المعاملة مع المصارف ما يكفل لهم فتح المعامل وإنشاء المصانع لتدوير الثروة لاستنزافها وهذا أقرب لتمثيل النشاط الفرنساوي من وجود الموظفين والمزارعين وغيرهم من أصحاب المهن العادية التي يمارسها التونسيون.

لا أرمي بما أكتبه الدخول في المناقشات الصحافية مع أولئك الذين يتكلمون بلغة الإستعمار، وإنما أريد أن أطالع الحكومة بأوجاع البلاد من غير مواربة ولا دجل، للنظر في تغيير هذا الوضع بصورة لا تتجافاها الأوضاع الديموقراطية التي يشيدون بذكرها. وكفى هذا الشعب ما تكبّده من سياسة الأثرة والمحاباة فإن من حقوقه على فرنسا أن تكف عنه أطماع النفعيين قبل أن يتّسع الخرق، وهو يريد أن يكون له حق يدافع عنه[20].

---

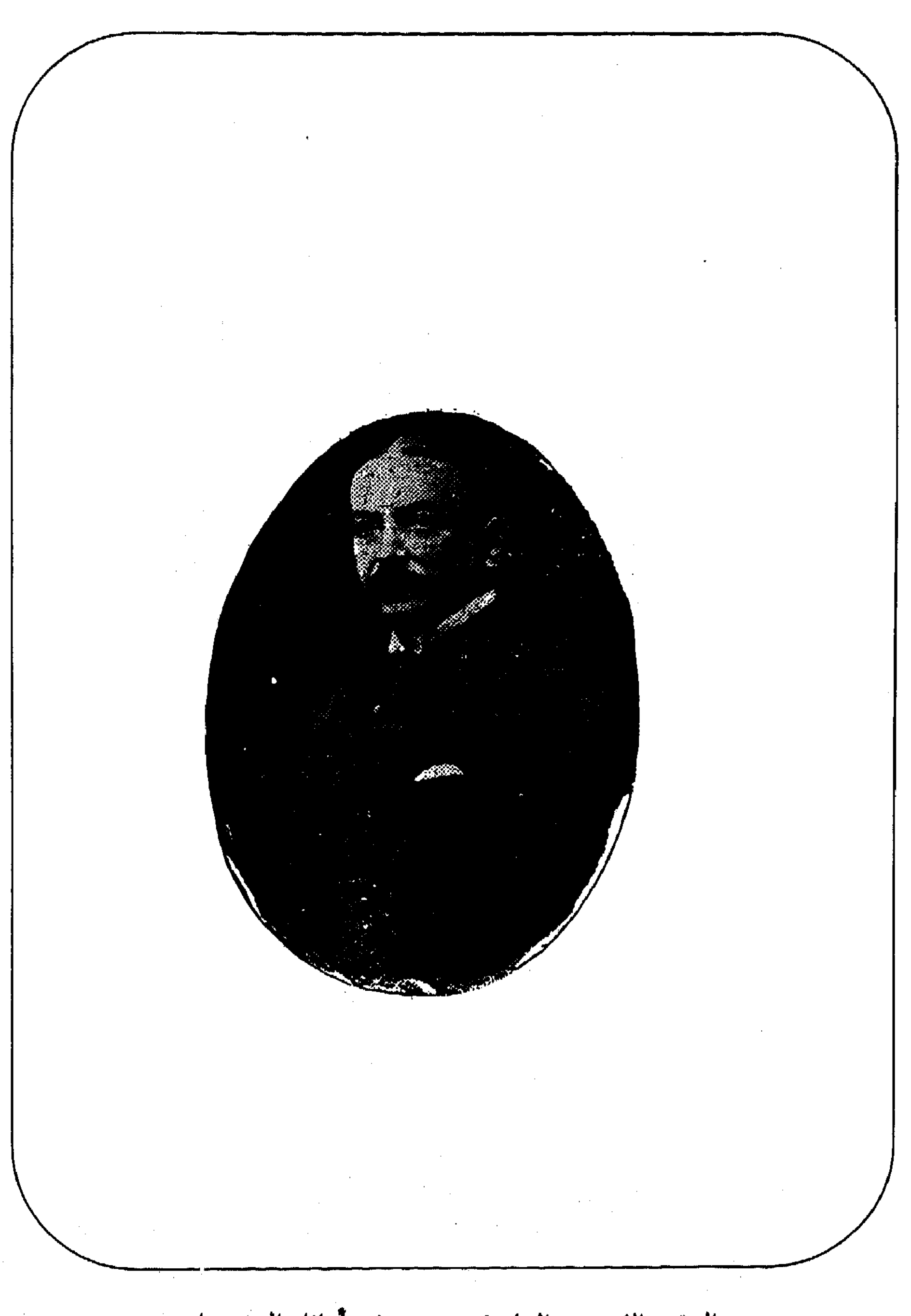
(20) نشرت المقالة في جريدة (الإرادة) عدد (396) السنة السادسة الثلاثاء 12 ربيع الأول 1358 ماي 1939 وأعيد نشرها في العدد الأول من (الإرادة) بعد عودتها للصدور (عدد 707) السنة الخامسة عشرة. الثلاثاء 28 ربيع الثاني 1367 هـ 9 مارس 1948 تحت هذا العنوان: (المؤمن ينظر بنور الله) وقدمتها بهذه السطور: «حينما اعتزمنا إصدار (الإرادة) أردنا أن تحلّي جيدها بشيء من آثار زعيم الوطنية التونسية الأكبر الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز الثعالبي رحمه الله، وأسكنه فسيح جنانه رغبة منا في تحية روحه الطاهرة، وإحياء ذكراه في القلوب، وإعلان الإعتراف له بالجميل بلسان الأحرار الدستوريين في هذا العدد الأول الذي يصدر من الجريدة، بعد ظهورها من جديد فتتزين بأثر من آثاره بعد وفاته، كما كانت تفخر من قبل أن كانت مجالاً لقلمه، يرسل العبر تلو العبر، وينفث الحكمة والآراء الصائبة التي تصدر عن تجربة واسعة وقلب كبير.

لقد اخترنا له هذه القطعة من مقال افتتاحي نشرته له (الإرادة) منذ عشر سنين، وهي تدل على تقدير صحيح، ونظر بعيد الذي أيدته حوادث الحرب الماضية وحوادث اليوم والأمس حتى لكأنه رحمه الله، كان يقرأ في كتاب مفتوح كما يقولون».

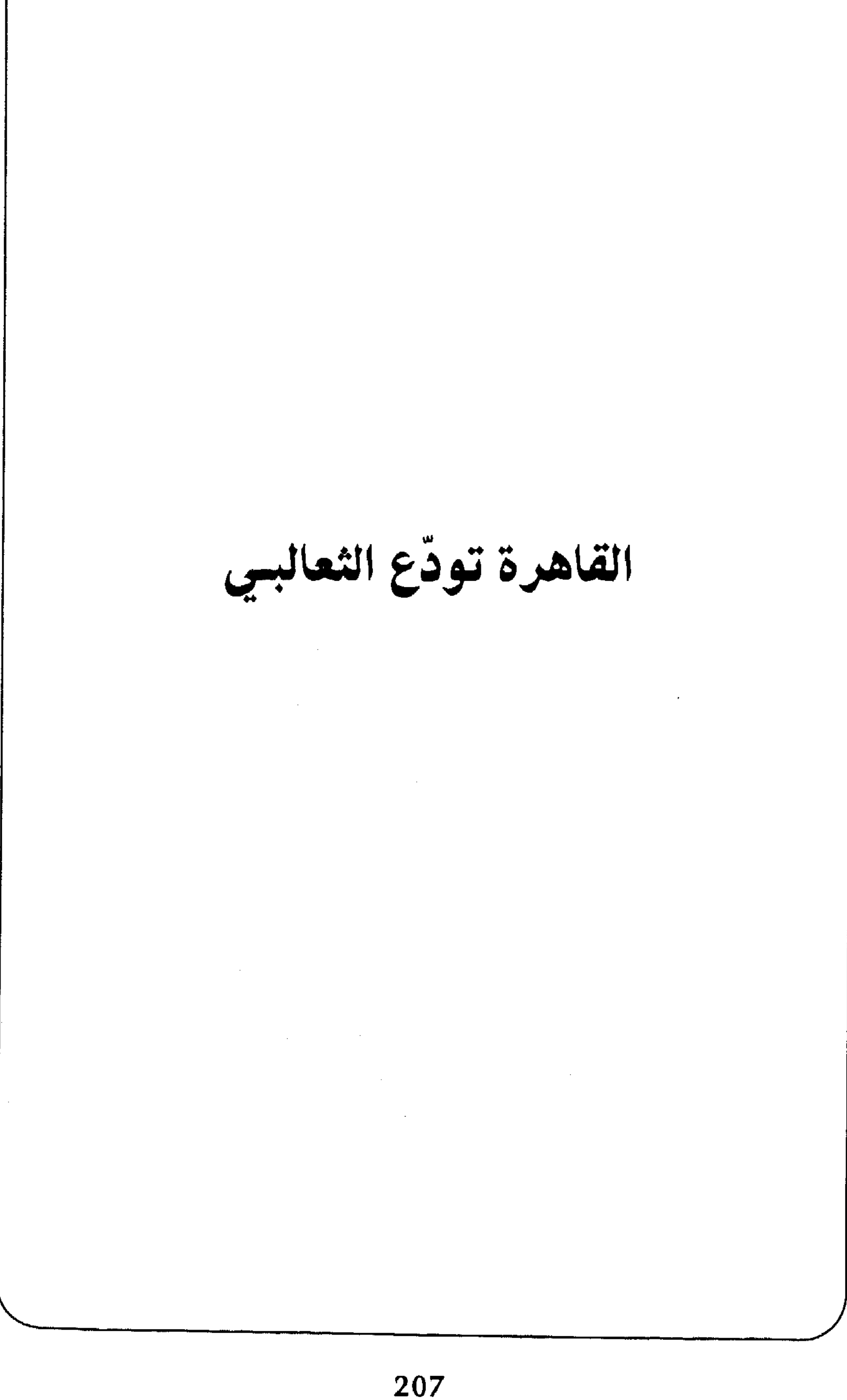


صورة تاريخية

تجمع بين (محمد نعمان) و (محمد فريد) الزعيم الوطني المصري ومن المرجّح أن تكون الصورة أخذت لهما في الآستانة في تركيا سنة 1912 بعد نفي (نعمان) من تونس مع أعضاء (الشبيبة التونسية) في مارس 1912 وخروج (فريد) من القاهرة في نفس الشهر هرباً من السجن والأشغال الشاقة ووجودهما في (استنبول) في نفس الفترة والصورة مهداة من (الحبيب بورقيبة) إلى (محمد نعمان) بتاريخ 1946/6/11 أثناء وجود الأوّل في القاهرة والصورة من مكتبة الحكيم (أحمد بن ميلاد).



المقيم الفرنسي العام في تونس في أوائل العشرينات
(لوسيان سان)



القاهرة تودّع الثعالبي

أسبوع الثعالبي بمصر

حفلات ومآدب

صحت عزيمة الزعيم الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي على مغادرة هذا القطر إلى تونس فيبرح القاهرة بسلامة الله يوم السبت القادم 26 يونيو إلى الإسكندريّة ويقيم فيها أربعة أيام وفي يوم 30 منه يركب الباخرة (محمد علي الكبير) إلى مالطة ومن هذه يسافر بأول باخرة إلى تونس التي تترقب بفارغ صبر رجوعه فتضم إلى صدرها الابن البار، والزعيم المخلص والمجاهد الكبير الذي ركب الأخطار وتجشم المشاق في سبيل تحريرها واستقلالها ومجدها ولم يضن بغال ورخيص في الدفاع عن قضيتها وفي إعلاء اسمها.

وأغتنم فريق من أصدقاء الزعيم الكبير ومريديه وعارفي فضله ومقدري جهاده وتضحيته العظيمة في سبيل العروبة والإسلام هذه الفرصة، فرصة رجوعه إلى وطنه فأقاموا له سلسلة من الحفلات والمآدب ساهم فيها عدد من كبار القوم ومن أدبائهم وفضلائهم فالقيت الخطب الكثيرة الدالة على سمو مقامه وعظيم مكانته في النفوس.

1 ـ حفل مجلّة (الرابطة العربيّة):

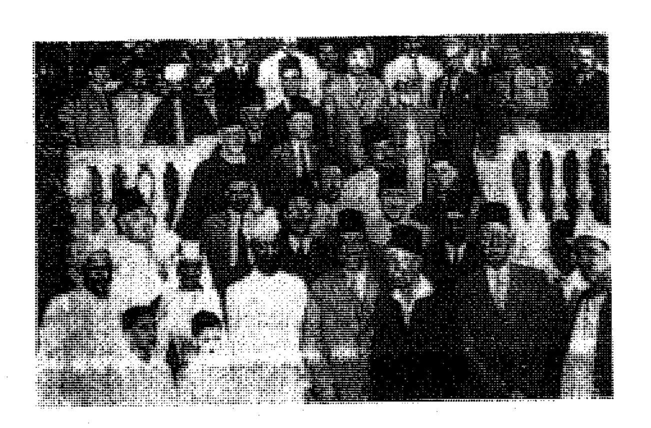
وكانت أولى هذه الحفلات، الحفلة التي أقامتها مجلة الرابطة العربية



عند آل مشكى الكرام

فى الصف الأول من اليمين الى اليسار : مهدى بك رفيع مشكى فأحمد شفيق باشا فالأستاذ الثعالبي فالأستاذ محمود بسيونى فالسيد عبدالقادر بك الكيلانى . ووقف فى الصف الثانى الدكتور منصور بك فهمى فالأستاذ توفيق دياب فعبد الخالق باشا مدكور فالأستاذ امين سعيد فمحمد بك الفرنوانى فالسيد عبد المقصود خضر فالسيد عبد الملك

القاهرة تودع الثعالبي



فى روضة شفيق باشا

من اليمين الى اليسار: الشيخ حلمى طماره فابراهيم بك الهلباوى فاحمد شفيق باشا فالأستاذ الثعالبى فالسيد محمد صادق المجددى فالشيخ فوزان السابق فالشيخ ابراهيم طفيش

فى الطريق الى الوطن

الاستاذ الثعالبي يعود الى تونس بعد غربة أربعة عشر عاما

منذ أربع عشرة سنة ، كانت سفينة من السفن الكبيرة تغادر ميناء تونس فى رحلة لها صوب الشرق العربى . وكانت — كنظيراتها من سفن البحار — تمثل عالما صغيرا ، يغدو فيه الناس محدوم الآمال ، وتبق على البشر يشيع فى وجوههم هذه الاحلام اليقظة التى يصورها الخيال ، وينمقها الذهن بما فيه من قدرة على الخلق والتصوير . فواحد من المسافرين يقدر أن صاحبته وبنيه سيلقونه بعد أيام وساعات ،فيعانقهم جميعا ، ويذيب نفسه فى نفوسهم غبطة بهذا اللقاء .. وآخر ينتظر فى أول ميناء رفقة طيبة ، وصحبا يربطه بهم ود قديم ، وحب متصل سيتطلعون إلى مقدم الجارية فى لهفة وشوق ، ويغرقون صاحبهم بالقبل والصيحات الفرحات . . وثالث يحمل فى حقائبه عروض التجارة ، وألوان السلع ، ويمضى الوقت حاسبا ، ويمضى الليل كاسبا فى خيال الأموال الوفيرة التى ستدرها عليه تجارته . . ورابع ينظر الى هذه الرفيقة الصبيحة الوجه ، المشوقة القد ، التى استصحبها فى رحلته إلى الشرق وسحره ، يمنيها بالليالى المذاب ، والأيام المشرقات بالفرح والمرح ..

كل أولئك وأمثالهم كانوا فى شغل بما حددت لهم سفرهم من مهام ، فهم يحصون الساعات ، ويستعجلون الليل والنهار ، ويودون لو تحملهم الطير إلى حيث يريدون بدلا من هذه الماخرة التى تشق الطريق فى اتئاد .. ولكن

واحدا من ركاب هذه السفينة لم [illegible] رحلته زوجة وبنين ، ولا أصحابا وخلانا ، ولا مالا ولا أوقاتا يقضيها فى السرور الشرق لأن الاقدار الا أن تقذف به الى السفين قذفا ، وتدفع به الى ا من أمر الحياة والأحياء دفعا ، وتبعد ما بينه وبين وتشرده فى أقطار الأرض هائما على وجهه ، بعيد الزوج والابن والعشيرة والوطن العزيز .. هذا ا كان يحمل فى صدره قلبا مثقلا بالهم ، ويحمل فى مخيلة لا تكل عن رسم الصور المبهمات ، التى لا تبعـ النفس راحة ، ولا تحمل الى الفؤاد رضا . . هذا ا الذى انتزع من الوطن الع بأرضه وما أقلت ، وأهله وما عليه من ود ووفاء ، وقومه حلوا له من حب وولاء ، الى مجهول ، فيه الخير والشر يلـ وفيه السرور والحزن يمتزج ولكن أى سرور يخالط هذا ا ويدانيه على ماض حافل غو وكأنما انتزع من ثنايا الفؤاد انتز وعلى مستقبل مجهول أقبل و تسعى فيه شياطين الشقة واله

ترى أكان صاحبنا نادمـ هذه الأيام الطوال التى قضاها يد على أعداء وطنه شواظا من نار ، وينادى بحرية ا فيجمع الصفوف ، ويجند القوم ، ويدفع بهم الى الـ بالسخط ، والعمل على انتزاع براثن الاعداء من ا الوطن الجريح الكسير الجناح ؟!

ترى أكان صاحبنا آسفا على هذه النار التى أ جذوتها ، وأجج شعلتها ، فأضاءت قلوب مواطنيـ وقد دفع هو الثمن غربة وحرمانا ، ومرارة تفل ا مرارة الحنظل ؟

لا وأبيكم..

لا ندم ولا أسف ..

الزعيم الكبير الاستاذ الثعالبي

الثعالبـي في مجلة (الرابطة العربية)

في دارها مساء يوم الخميس 17 الجاري فقد ضمت نخبة ممتازة من أهل العلم والفضل ورجال السياسة هذه أسماء بعضهم: محمود بسيوني رئيس مجلس الشيوخ. حمد باشا الباسل. أحمد شفيق باشا. الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين، الشيخ مأمون الشناوي شيخ كلية الشريعة، الشيخ فوزان السابق القائم بأعمال المفوضية السعودية، السيد عبد القادر بك الكيلاني القائم بأعمال المفوضية العراقية، الأستاذ خير الدين الزركلي مستشار المفوضية السعودية، الأستاذ محمد رضا سكرتيرها، أحمد فهمي العمروسي بك السيد هاشم مهنا بك قاضي محكمة الموسكي، السيد مرغني الإدريسي، إبراهيم بك عرابي باشا، مهدي بك رفيع مشكلي محمد بك الفرنواني، والشيخ عبد الله عفيفي، ومحمد رفعت بك، الدكتور منصور فهمي بك، ومحمد مسعود بك، والحاج محمد الهراوي والأساتذة أحمد أمين وعبد الحميد العبادي وعبد الوهاب عزام وزكي مبارك وجميل الرافعي وأحمد غلوش والسيد عبد المقصود خضر والأستاذ حامد المليجي ومحمد لطفي جمعة المحامي وعبد المجيد نافع المحامي، والدكاترة حسنى أحمد وأسعد سلهب وعبد اللطيف مختار وأحمد الشراباتي والأساتذة بولس غانم وتوفيق اليازجي وحنا خباز وحبيب جمالي وكامل زيتون وحافظ محمود ومحمد صبيح ومحي الدين رضا وعبد القادر العبد والسيد علي باعبود والشيخ محمود مكاوي وغيرهم كثيرون من آل العلم والفضل كما أعتذر كل من أحمد فطين باشا ومحمد طه بك أبو زيد والشيخ مصطفى عبد الرازق ومحسن بك رفيع مشكي والدكتور الدردبري والأمير المليجي[1].

---

(1) إن الفكرة العامة التي ترسخ في ذهن القارىء، وهو يتصفح هذا الحشد الهائل من رجالات العروبة والإسلام في مصر، المحتفين بالثعالبي، والمجتمعين لوداعه عائداً إلى تونس بعد أربعة عشر عاماً وهبها من عمره لقضايا العالمين العربي والإسلامي. هذه الفكرة تجسم إلى أي مدى كان الثعالبي محل التقدير والإحترام. ومحط الإعجاب والإجلال لا في طبقة معينة من رجال الفكر والقلم، أو دائرة محدودة من =

الخطباء

وبعد شرب الشاي وأكل الفطائر والحلوى والمرطبات بدأت الخطابة.

كلمة صاحب (الرّابطة)

سادتي الأفاضل،

باسم مجلة الرابطة العربية أشكركم على تلبيتكم دعوتها وتشريفكم دارها ومشاركتها في تكريم زعيم عربي كريم انعقدت القلوب على محبّته، واتفقت الكلمة على الإعجاب بأعماله وجليل خدماته.

أيّها السادة:

هبط الزعيم الثعالبي الكبير الذي نجتمع اليوم لتكريمه مصر للمرة الأولى في سنة 1897 أي منذ أربعين سنة للاتصال برجالها وأقطابها،

= رجال السياسة والحكم. ولا هو كذلك في قطر واحد من هذا العالم الذي يجوبه سائحاً وباحثاً ومصلحاً. ولا في دين إسلامي ينتمي إليه، ويبشر به دينا للإنسانية، ورحمة للعالمين.

ولكن الثعالبي هو وجهة التقدير والإكبار من رجال الفكر والأدب، وأساتذة الجامعات، ورموز الحركات الوطنية التحررية، ورجال السياسة والحكم، وشيوخ العلم والإصلاح الديني، ورجال القضاء. وأساطين المحاماة من مسلمين ومسيحيين كلهم مجمعون على زعامته، مشيدون بها، قائلون فيه للتاريخ قولة حق، واقفون إلى جنبه وقفة صدق.

وسنأتي، في حدود المعرفة القاصرة، على التعريف بمن توفرت ترجمته من هذه الشخصيات، مع الأمل عند التقصير أن يكون القارىء أوفر حظاً في استكمال ما نقص.

وعلمائها وأدبائها ولتجديد الروابط الأخوية الصادقة التي تربط تونس بمصر، ولبث الدعاية للقضية التونسية في الوسط المصري فكان أوّل رسول لتونس إلى هذا البلد الأمين، بل كان أول سفير انتدبته بلاده، يحمل رسالتها إلى الشرق والغرب وحسبه فخاراً أنه ما برح يؤدي هذه الرسالة ويقوم بأعباء هذه السفارة من أربعين سنة بأمانة وصدق عزيمة ووفاء وعلى أكمل وجه[2].

ومن هذا ترون أيها السادة أن أستاذنا الكبير ما برح منذ أربعين سنة يكافح في سبيل بلاده وأمته وقومه ودينه ما وهنت عزيمته، ولا ضعفت إرادته وكلما امتد النضال والكفاح ازداد قوة ونشاطاً فهو كالسيف يجلوه القراع.

لقد قاتل في كل ميدان، ونازل في كل ناحية: قاتل في ميدان العلم وفي ميدان الأدب، وفي ميدان السياسة وفي ميدان الدعاية، فبرز في كل ميدان، وفاز في كل معترك، وكيف لا يفوز وهو السياسي البارع والكاتب الأكتب والخطيب المفوه والمدره اللسن والعالم الممتاز.

جمع الثعالبي إلى هذه المزايا كلها، أخلاقاً عالية، وآداباً سامية، ورقة

---

(2) في سنة (1895) أصدر الثعالبي جريدة (سبيل الرشاد) لبث الدعوة الوطنية وخدمة المبادىء السامية. ولم تدم غير سنتين بسبب القانون الجائر الذي فرضته السلطات الفرنسية شرطاً لصدور أية صحيفة وهو ضمان بمبلغ (8000) فرنك فرنسي. الأمر الذي اضطر الثعالبي إلى مغادرة تونس والقيام برحلته الأولى التي زار فيها طرابلس، ومصر وسوريا والعراق واليونان وتركيا.

وامتدت إقامته بين الأستانة والقاهرة، وفي الأولى التقى بالسلطان عبد الحميد، وفي القاهرة نشر في أشهر الدوريات مثل (المؤيد) و (مجلة الموسوعات) بإمضاء (السائح المغربي) وأزاح الستار لأول مرة في الشرق عن القضية التونسية.

(مراجع مختلفة) ويجدر التنويه بالترجمة التي تحمل عنوان: (خلاصة الأبرار أو ترجمة زعيم الأحرار) للمرحوم الشيخ (عمر بن قفصية) مرقونة على الآلة الكاتبة.

انظر: ملف (الثعالبي) رقم أ ـ 5 ـ 14 المركز القومي للتوثيق،

ملف (ابن قفصية) رقم ب ـ 1 ـ 14 (المركز القومي للتوثيق).

وأنساً وظرفاً، زيّنه تواضع وحياء وعفاف ومروءة ووفاء، وصدق ومودة. فلا عجب إذا ما أكبره الناس وقدروه قدره وبايعوه إماماً زعيماً. . .

أمّا الإخلاص، فهو رأس مال الثعالبي وثروته الكبرى وأي دليل تريدون على إخلاصه وصدق عقيدته، وتفانيه في سبيل قومه أكثر من بقائه كل هذه السنين الطوال، بعيداً عن وطنه وبلاده، مشرداً عن أهله وصاحبته وبنيه، لا في سبيل غرض مادي، ولا لأجل منفعة دنيوية بل في سبيل العقيدة وصدق المبدأ وإياكم ثم إياكم أن تظنوا أن مجاهدنا الكبير سيلقي السلاح بعد رجوعه إلى تونس ويخلد إلى الراحة وقد فقدها من 40 سنة أي منذ وهب نفسه لله وللوطن، كلا ثم كلا. فالرجل الذي جعل الدعوة إلى العروبة والإسلام شعاراً له ووقف نفسه وماله وأفنى زهرة شبابة وكهولته في سبيلها ـ لا يمكن أن تبدله الأيّام ولا أن تغيره، بل سيظل كما بدأ جندياً باسلاً من جنود الحق وزعيماً عاملاً في طليعة الصفوف.

فسافر يا سيدي على بركة الله وتوفيقه، وإني لأرجو أن يمد الله في عمرك المبارك السعيد فنحتفل بك في مصر ـ وفي دار مجلة الرابطة العربية التي هي نفحة من نفحاتك فقد شجعتني على إصدارها وكفلتها، وكنت لها نعم العون ونعم النصير ـ بيوبيلك الماسي أي بانقضاء خمسين سنة على نزولك إلى حلبة الجهاد المقدس وتكون مصر والبلاد العربيّة قد فرغت من عملها السياسي وأتمّت إنشاء الامبراطوريّة العربيّة التي لا تزال تسعى من 40 سنة لإنشائها، وتجاهد لأجل تكوينها فتقر عينك برؤية صرحها قائماً على ضفاف النيل المبارك، تحي عهداً ابن الخطاب ومعاوية وابن مروان والمنصور وهارون الرشيد والمأمون. وتسر بمشاهدة ثمار غرسك وتخلد إلى الراحة والسكينة بعد طول العناء والنضال، ويكون ذلك خير مكافأة لك على جهادك ونضالك. ولخير الأجر أجر المجاهدين الصابرين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[3].

---

(3) (أمين سعيد) سبقت ترجمته في (المدخل العام).

خطبة حمد باشا

تكلم سعادة حمد باشا الباسل وهو جالس فقال إنه من أمره على عجل وإنه مضطر لحضور جلسة مجلس النواب التي تعقد في نفس الوقت الذي تقام فيه هذه الحفلة وإنه جاء ليشاطر المحتفلين في هذه الدار احتفالهم بتكريم زعيم عربـي كريم كان أول من رفع الصوت عالياً من 40 سنة بمقاومة الاستعمار الأوروبـي يوم كانت بلاد العرب تغط في سبات عميق كما انه أوّل زعيم عربـي يرخص له بالرجوع إلى بلاده.

ثم قال إنه عرف الأستاذ الثعالبـي من 40 سنة يوم جاء مصر للمرة الألى فعرف فيه الإخلاص والصدق والمروءة والمودة، وإن إعجابه به كان يتزايد بنسبة امتداد زمن الصداقة التي كانت تقوي وتشتد كلما طال الزمن وامتد الأمر، وإن مجال القول فيه ذو سعة فلا يدري الإنسان من أي جهة يبدأ[4].

خطبة الأستاذ عفيفي

وكان فضيلة الأستاذ الجليل والخطيب المفوه الأستاذ الشيخ عبد الله عفيفي مزمعاً السفر إلى الإسكندرية مع أسرته في الوقت التي تقام فيه الحفلة فأرسلها وحدها وجاء للاشتراك مع إخوانه في تكريم صديق يحمل في صدره

(4) (حمـد الباسل): (1288 ـ 1359هـ / 1871 ـ 1940).

من زعماء الحركة الوطنية في مصر. وهو مغربـي الأصل. مصري المولد والوفاة. كان عمدة قبيلة (الرماح قرب الفيوم. ومن أعضاء الجمعية التشريعية. كان مناصراً لسعد زغلول في حركته الوطنية. ونفي معه إلى (مالطة) وظل طول حياته محافظاً على الزيّ المغربي، توفي بالقاهرة ودفن بالفيوم. له كتاب بعنوان (نهج البداوة).

الإعلام. الجزء (2) صفحة (304).

له أصدق عواطف المودة وبعـد ما ألقى كلمته سافر بالقطار التالي قال[5]:

سيدي الزعيم العربـي الكبير،

إخوانـي:

لا أعلم كيف أصف لكم صديقنا الأستاذ الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي، وكيف أبدأ بهذا الوصف لأني مفتون به وبصفاته التي قل أن تجتمع لإنسان وإني لمعتقد أن كل كلام أقوله مهما أوتيت من البلاغة والبيان لا يبلغ وصف الأستاذ الثعالبـي فهو الرجل الذي أنظر إليه ببصري وعقلي وقلبـي فأبصر كل شيء عظيم وإني لأنظر إلى الثعالبـي فأجده أشجع من رأيت من الحكماء وأحكم من رأيت من الشجعان، وتلك هي العظمة التي لا يدانيه فيها إنسان عصره.

أيها الأستاذ

سمعت كلمة صاحب السعادة حمد الباسل باشا وسمعته يقول إن كل ناحية من نواحيك يجد فيها الخطيب مجالاً واسعاً للقول.

أمّا أنا فأقسم فيما بيني وبين نفسي وفيما بيني وبين الناس أني لا يمكنني أن أصف أي ناحية من تلك النواحي مهما رزقت من البيان. فإنك الرجل الواحد الذي لا يتغير والذي لا يجد أعدى أعدائه فيه تهمة مهما حاول.

كنا نود أن نستمتع بذلك الرجل الكبير والعقل الخطير، الخصب التفكير، وأن نراك دائماً بيننا ولكن حبنا لك يجعلنا نرضى بما أنت به راض

---

(5) (عبد الله عفيفي) توفي سنة 1944. أديب مصري. تعلم بالأزهر ودار العلوم علم اللغة العربية في مدارس الحكومة، وعين محرراً عربياً في (الديوان الملكي) وإماماً للملك. من مؤلفاته (المولد النبوي المختار) و(المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها). و(تفسير سورة الفتح) وما اتصل بها من الفتوحات الإسلامية والسيرة النبوية.

جهود الاستاذ الثعالبي

في وطنه

سافر الاستاذ عبد العزيز الثعالبي (الشيخ كما يلقبه وطنه) من القطر المصرى الى تونس منذ ثلاثة أشهر نظفر من أخباره الا بما جادت به علينا مجلة الرابطة يفة البلاغ ، وخطاب بعث به أديب مطلع الى صديق أهل الفضل ، فكان من تلك المصادر المحدودة أن علمنا الشيخ الزعيم ، أبى أن يستقل طائرة من مرسيليا الى س ، لاخوفا من اعتلاء كاهل الريح التربع على بساط سليمان وهو الذى ض اهوالا لا يعد الطيران بجانبها لرا مذكوراً ، ولكن لانه أبى يهبط أرض وطنه فى مطار ينأى يمة موضعه عن أبواب الوطن . ل فى خفة روحه المعهودة « أحب ادخل البيوت من أبوابها » فكان ا القول الوجيز البليغ عنوان منهاجه ياسى . فالثعالبي لايلس مداخل مور خلسة ، ولا يتعجل الافعال يسارع الى العمل قبل الفحص محيص . ثم قرأنا خطابه الذى على الشعب أو على الاقل ملخصاً يزاً منه فاستبنا لب خطته وهو أنه عاد الى وطنه . ون حكما ومرجعاً ومصدراً للنور . لم يعد ليسترد نفوذه نفوذه زاد وعلا وأربى ، ولم يعد ليحل المحل اللائق به ، هذا المحل محفوظ له فى قلوب الامة وصدور بنيها . نظراً الى كهولته أو جزاء على سابق جهاده ومماناته صبره على الشدائد فى سبيل الوطن ، ولكن ليواصل دمته لوطنه بذكائه الوافر ونظره الثاقب وخبرته الصادقة لويلة فقد انتقل من الجهاد الاصغر فى الاغتراب الى الجهاد الاكبر فى الميدان . فنال اعجاب سامعيه بجدارة ، والتفت حوله الاحزاب والشعب ، ولبت نداءه العقول والقلوب فسر الاحباب واكد الخصوم (ان كان لهم وجود) دون أن يجدوا عليه مأخذاً أو يعثروا فى خطبته بموضع نقد . فانه مازال ولن يزال كالسيف المثقوف المستعد ابداً للخروج من غمده ليكسب المعركة دون أن يحدث جرحا أو يهرق دماً

ولم يكد يفرغ من حفلات الاستقبال والترحيب برجال الحاضر والمستقبل وربات الحجال من بنات الجيل اللواتي نشأن على محبته وتمجيده حتى هرع الى « حلق الوادي » حيث مصيفه ، وحيث يجب أن يتنفس الصعداء فى كنف الراحة المؤقتة محاطا بعناية « أم التونسيين » ورعاية نجله حميد الدين ، وحيده المحروس جعله الله قرة لعينه . ولكن هذه لم تكن راحة ولكنه تحفز للوثبة واستجمام لاعداد خطة الجهاد ، والخطوة الاولى من ذلك الجهاد جمع الكلمة ولم الشمل وتوحيد الصفوف . ولم يلبث أن نجح فى عمله وقد امتدت الاعناق ، وانتصت الاذان وهدأت الانفاس وتطلعت النفوس لرأيه ، فأهل السياسة فى تونس يحبون أن يتلقوا عنه كما تلقى قدماء الاغريق الوحى المقدس من « دلف » ولم يكن الثعالبي ليخيب رجاء أحد ممن وثقوا فيه وأولوه يقينهم بامانته ووطنيته وهو الذى قضى فتوته وشبابه وطوى رجولته و كهولته فى خدمتهم ، ساعيا ومستقراً ، ساريا ، ومبحراً ، مقبلا ومدبراً يعمل لشمال

الاستاذ عبد العزيز الثعالبي

مقالة الكاتب المحامي (محمد لطفي جمعة) عن (الثعالبي) في مجلة (الرابطة العربية)

ونسأل الله أن يحقق أمل التونسيين بك ويبلغهم من القوة والسعادة ما هم أهل له. آمين.

خطبة الأستاذ لطفي جمعة

وخطب الأستاذ الكبير والخطيب المفوه محمد لطفي جمعة فقال[6]:

سمعتم الكلمات البليغة التي ألقاها الخطباء البلغاء قبلي وهم خطباء يجمعون إلى العلم موهبة الصداقة وهي أغلى من العلم في هذا الزمان فإننا نبحث في الزمان الحاضر عن رجل صديق مخلص وكما قال الأستاذ عبد الله عفيفي إنه قلب الصفحات فلم يجد رجلاً جمع من الصفات ما جمع الثعالبي وأنا أقول إني أنا الآخر قلبت الصفحات فلم أجد رجلاً أوتي إخلاصه: فهو مخلص لدينه فأني ذهب يرفع علم الدين عالياً ويوضح تاريخ الإسلام ويظهر ثقته وإيمانه في مستقبل الإسلام وهذا هو شعار الثعالبي دائماً، مخلص لوطنه محب له وقد أرغم بسببه على البعد عن الوطن. ومن الغريب أن يكون الحبيب بعيداً عن حبيبه بسبب هذا الحبيب نفسه ومن الغريب أن يكون الرجل الذي يجب أن يكرم في وطنه هو أول من يطرد منه، وسبب هذا أن المسيطر على هذا الوطن يرى في الثعالبي ما يجعله شوكة في جنبه وهذا سبب نفيه.

لكن الله أحاط الثعالبي بهالة من النور والأدب والعلم والمحبة فحيث نزل يكون الرجل المقرب المحبب.

لقد ترك الثعالبي ابنه طفلاً وسيعود إليه الآن فيجده رجلاً وقد كتب إليه ابنه يقول[7]:

---

(6) (محمد لطفي جمعة) سبقت ترجمته في (المدخل العام).

(7) (حميد الدين) الإبن الوحيد للشيخ الثعالبي. علق آمالاً كبيرة عليه. ولكنه لم يكن موفقاً في دراسته. وقد استعان في رعايته وهو بالقاهرة بكل من الشيخ محمد الثميني والشيخ صالح بن يحي. اللذين حرصاً على (حميد الدين) في استكمال شهادة =

«لقد تركتني طفلاً وحرمت من تربيتك وأنت تربي الشعوب».

فأنظر كيف يفرق حب الوطن بين الوالد وولده والحبيب وحبيبه.

بقي على إخلاصه لأصدقائه، فبطبيعة الحال لا نقول إن المصريين يكرمون الضيوف فمن الخطل أن نقول إنه غريب في أي بلد إسلامي ولا سيما في مصر فمنذ 40 سنة تقريباً حضر الثعالبي إلى مصر كأن أسمر اللون مشرباً بحمرة، عالي الجبين جميل تقسيم التقاطيع شاعراً بالكبرياء والعظمة رافع الرأس مشتغلاً بالفلسفة مملوءاً بالأماني وما زال يعيش بها يريد تحقيقها وقد حقق ما استطاع رجل مسلم في بلاد مسلمة أن يحققه.

أما إخلاصة الرائع فهو للإنسانيّة، فما رأيت من هذا الرجل يوماً تعصباً لدينه ولا لوطنه ولا لجنسه ولا لبلده فهو بعدما استكمل رجولته اتسع أفق نظره حتى أن الإنسان ليخاف من ذهابه إلى تونس لأنه يرى جميع الأديان متساوية وما كان يرى فيه الكمال بالأمس أصبح الكمال فيه أقل مما يريد الآن.

فهو يسدد الخطى للمسلمين الوطنيين المخلصين لبلادهم الذين ينظرون إلى الرابطة العربية بعين ملؤها الأمل والرجاء.

ولعل الثعالبي يوفق لتهيئة الجو لهذه الفكرة حتى تأخذ طريقها إلى الوجود فنؤسس دولة عربية تبتدىء من المغرب وتنتهي إلى بغداد شرقاً.

= الباكالوريا، ولكنه لم يحصل عليها. وقد اشتغل بالتجارة في أواخر الثلاثينات. وكانت جريدة (الإرادة) تنشر إعلاناً عن دكانه بهذا العنوان: التجارة الحرة. مغازة عبد الحميد الثعالبي. نهج سيدي بن عروس. عدد (34).

خطبة الأستاذ عبد المجيد نافع

من سنوات خلت أقيم احتفال في فندق الكنتننتال وكنت من شهوده فما راعني إلا أن أرى رجلاً ملء السمع ملء البصر ينهض للخطابة وما أن نهض حتى أخذ يتدفق تدفق السيل ويصطخب اصطخاب البحر وينفجر انفجار البراكين. قلت حاشا لله ما هذا من خطيب إن هذا إلاّ قوة من قوى الطبيعة وما هذا فرد يكافح إن هو إلا جيش محارب. وقوة الطبيعة قد تسخر للتخريب والتدمير ولكن هذه قوة صالحة للبناء والتعمير.

ملت على صاحبي وقلت من هذا الذي يفيض في بيان العوامل التي أدت إلى انحطاط العالم الإسلامي ويصف الدواء الناجع لهذا الداء الخطير قال: وليس قولك من هذا بضائره؟ فالعالم الإسلامي كله يعرفه، قلت ولكني أود أن أتعرف هذا الشخصية العظيمة قال هو الزعيم العظيم السيد عبد العزيز الثعالبي. فقلت يا سبحان الله إن كل عظيم على التقريب ينطبق عليه القول العربي «سماعك بالمعيدي خير من أن تراه» ولكن الثعالبي يجب أن تسمع به ويجب أن تراه[8].

أيها السادة،

إن الروح الاستعماري هو الشيء الوحيد الذي لا يعرف التجدد وله أساليب واحدة ووسائل معروفة.

يبدأ الاستعمار أولاً بوسائل الإغراء بالجاه والمال والمنصب فإذا عفت عنه تلك النفوس الكبيرة لجأ إلى وسائل العنف والشدة، وكذلك كانت حياة الزعيم الثعالبي. جهاد متتابع الصفحات. مد الاستعمار إليه يده فزج به في غيابات السجون وهو أوفر ما يكون يقيناً وثباتاً على المبدإ القويم الذي يدافع عنه ثم أخرجه عن بلاده وهو ما يزال شاباً وما درى الاستعمار أنه بنفيه هذا

---

(8) المثل هنا في غير محله، فهو يضرب للذم، وللإكتفاء بالسماع عن قبح المنظر. على أن تعميم المثل على كل عظيم ولو تقريباً فيه نوع من المبالغة.

وسع دائرة جهاده فبعد ما كان يجاهد في سبيل تونس أصبح يجاهد في سبيل العالم الإسلامي بأسره.

نزل الإسكندرية وهو لا يملك شيئاً، واستغفر الله بل يملك شيئين كبيرين روحاً كبيرة وقلباً عامراً بالإيمان ومن كان يملك هذين فقد سلك القوة جميعاً.

أذكر، والشخص بالشخص يذكر أنه لما نفى جمال الدين الأفغاني من مصر جمع بعض أنصاره مالاً وبعثوا به رسولاً يقدمه إليه فأبى، وقال: إن الأسد أينما وجد لا يعدم فريسته[9].

أيها السادة،

كانت مصر ولا تزال وطناً لجميع الأحرار المجاهدين تربطها بجميع الشعوب العربية وحدة اللغة والعادات بل تربطها بها وحدة أسمى من هذه وأوثق وهي وحدة الألم، ولذلك رأيناها في كل عصر وكل زمان تفتح ذراعيها لتضم إليها المجاهدين فما أن رأت السيد عبد العزيز الثعالبي حتّى رحبت به وأحلته المكان اللائق بالمواهب العالية والغاية السامية التي جعلها هدفه.

(9) نفي السيد جمال الدين الأفغاني في عهد الخديوي توفيق بعد أن انقلب عليه بفعل الدسائس والمكائد من وكلاء الدول الأجنبية. والمعادين للتوجه الإصلاحي عند الأفغاني من رجال الحكم. واتجه السيد من ميناء (السويس) إلى (بمباي) يوم الثلاثاء 8 رمضان سنة 1296هـ 26 اغسطس سنة 1879م.

والقولة المشهورة قالها الأفغاني لقنصل إيران في مدينة السويس (أحمد بك التقاوي) عندما قدم له مبلغاً من المال. بعد أن جردته الشرطة من ثلاثة جنيهات ذهبية عثمانية، وبضعة قروش من الفضة كانت معه، ومنعته من اصطحاب ملابسه، إلا القميص الذي كان على جسده، فقال لـ (التقاوي):

«وفر عليك نقودك. فإن الأسد أينما ذهب. لا يعدم فريسته».

انظر (جمال الدين الأفغاني) موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام. د. محمد عمارة. دار الشروق. القاهرة 1988.

تلك أرواح كبيرة لا تعرف الاستسلام إلاّ للّه والقدر، وتلك نفوس تبدأ جهادها بأن تحارب نفسها قبل أن تحارب الاستعمار وتشرع في أن تنتصر على نفسها قبل أن تنتصر على المستعمرين فإذا استطاع الرجل أن يوجد عنده قوة الاحتمال بجميع صنوفه استطاع أن يكون قوة تقهر كل قوة في الوجود وقد ألفت هذه النفوس الكفاح والنضال حتى لتستهين بكل شيء في سبيل تحقيق الغاية العظمى وهي مقاومة الاستعمار.

ولقد سلط الله على المستعمرين أعمالهم، فقد أنكروا مثل هذا الرجل (الثعالبي) مع أنه من أكبر رسل السلام. وثقوا أن الحرب المقبلة سيكون من بواعثها النزاع على المستعمرات فإذا أراد الثعالبي وأمثاله من المجاهدين الأبرار القضاء على فكرة الاستعمار، فهو إذن من أكبر رسل السلام.

جاهد الرجل في مصر وفلسطين وشرق الأردن والعراق والهند والصين وسنغافورة، واليوم يعود إلى وطنه بعد أربعة عشر عاماً قضاها في الجهاد والكفاح يعود وما فترت حرارته ولا انطفأت شعلة يقينه. يعود ليصافح المستعمرين إن شاءوا على الوفاء بحق بلاده حتى تعيش حرة تأخذ مكانها بين أمم العالم المتحضر. ولو كانت الأنانية وحدها هي التي تدفعنا لأبينا عليك أن ترجع إلى بلدك لأننا بحاجة إلى نفسك الكبيرة ولكن هذه النفس هي كالصباح يشع في كل مكان فيمتد نوره إلى جميع أرجاء العالم الإسلامي بأسره. ولئن غبت عنا بجسمك فأنت بروحك بيننا تعلمنا كيف يكون الجهاد لعزة الوطن.

خطبة الأستاذ الهِرّاوي

ودعى الشاعر الكبير الحاج محمد الهِرّاوي(10) إلى الكلام فقال إن

(10) (محمد بن حسين الهراوي 1302 ـ 1358هـ 1885 ـ 1939م).
شاعر مصري، انفرد بنوع من الشعر السهل، ابتكره للأطفال، وظف بوزارة =

الشعر خانه ولم يواته فقد حاول أن ينظم أبياتاً في تحية الزعيم العربي الكبير السيد الثعالبي فأرتج عليه وأغلقت الأبواب في وجهه. قال ولئن فاتني الشعر فلا يفوتنني النثر. ثم ألقى كلمات بليغة أشبه بالدر المنثور في وصف عظمة الثعالبي وسرد ما يعرفه من مواقفه في خدمة العروبة والإسلام.

خطبة الأستاذ أحمد غلوش
رئيس جمعية منع المسكرات

أيها السادة،

أتيح لي أن أجتمع بنفسي إلى الزعيم الثعالبي فخبرت صفاته عن كثب وتبينت مواهبه التي حببته إلى القلوب وأحلته المكانة العليا أينما وجد فشكرا للشدائد التي كانت سبباً في تعرفنا بهذه الشخصيّة الفذة فهو خطبب مصقع

المعارف سنة 1902 وفي سنة 1911 عين رئيساً للحسابات بدار الكتب بالقاهرة وله مؤلفات عديدة للأطفال، وأناشيد في الحركة الوطنية بمصر.

وقد أورد له (محمد الشعبوني) مقطوعة في الثعالبي في كتابه (عبد العزيز الثعالبي) في الشعر العربي. وهي في غاية الرقة، أنشدها في إحدى حفلات توديع الثعالبي بدار الشبان المسلمين بالقاهرة. قال فيها:

خذوا معنى الوداع من الوفيّ ... إذا عزم الحبيب على المضيّ
وضعت يدي على قلبي، لأني ... أودعه من القلب الشجي
وقد بلغ التشوق، مشتهاه ... ولما ينتقل قدم المطيّ
دعوت الشعر، فاستعصى وشعري ... إذا أنشدت لم يك بالعصيّ
ولكن موقف التوديع، يعيي ... بيان اللوذعي، الألمعيّ
فيا (عبد العزيز) وليس قلبي ... بحبك، مذ عرفتك بالخليّ
لئن قصرت في شعري، فعذراً ... فما أنا في وداعك بالقويّ
إذا استعصى قصيدي في وداع ... فما يعصي، على العود الهنيّ

انظر (الأعلام). الجزء (5) صفحة (339) و (عبد العزيز الثعالبي) رائد الحرية. أنور الجندي. دار الغرب الإسلامي. 1984 و (عبدالعزيز الثعالبي في الشعر العربي) لمحمد الشعبوني. بيت الحكمة 1991.

يمتاز بصدق الدعوة فتنفذ كلماته إلى القلوب ويستهوي النفوس بمنطقه ولقد سمعته يخطب مرة في وصف حال إخواننا الهنود فكنت كأني أراهم رأي العين وشعرت برغبة شديدة في زيارتهم وهو فوق هذا يشعل نار الوطنية الحقة في سامعيه. ثم قال الأستاذ غلوش أما جهاده في سبيل الدين وسبيل رفعة شأن الأمم الإسلاميّة فحدث عنه ولا حرج وحسبك قوله: «إننا نريد أن نملك العالم أو على الأقل نملك أفريقية» فإن هذه الأمنية الجليلة والغاية الخطيرة والغرض السامي يكون الوصول إليها بوسائل معروفة هي أن نظفر بعدد من أمثال الثعالبي يعملون للوحدة الإسلاميّة ويصدون تيار المدنية الغربية وتيار ذلك التقليد الأعمى الذي أوقعنا فيما نحن فيه وعندما نبلغ هذا الحد نستطيع أن نترسم الطريق المستقيم الذي وضعه الله لنا بكتابه العزيز وفي هذا غاية ما نبغي من سؤدد وسعادة للعالم الإسلامي أجمع.

خطبة الأستاذ الثعالبي

أيها السادة،

أقف الآن لأتكلم بينكم وكلي سرور لما أراه من مظاهر الود والأخاء فمصر بلاد المجد والكرم تحسن الاستقبال كما تحسن الوداع وما حسن الاستقبال والوداع إلّا مظهر من مظاهر الإغراء.

لقد نشأت في تونس ولكني ما عشت فيها بكل أسف وزرت مصر من نحو 40 عاماً وكنت لا أتجاوز العشرين من سني ومن الغريب أني كلما دخلت إليها شعرت بأني في وطني ولا غرابة في ذلك فأي فارق عندي وعند كل عربي بين هذه البلاد العزيزة وبلاده التي نشأ فيها.

إن مصر موطن العروبة ومربع الآداب والفضل ومهد القوة والمجد فالعالم العربي كله يتغذى منها ويستمد كل عربي وحيه وعهده من قلب أخيه المصري فهنا قوة فياضة توحي للعربي كيف يفكر وكيف يعمل وكيف يكون نبيلاً جليل القدر، يصارع القوات الظالمة ويسطو بقوته على ظالميه.

هذه الصورة الجميلة لم تزل تتكامل في نفسي وأنا اليوم أودعكم وفي الحقيقة أني مودعكم قلبي وروحي وآمالي. أودع البلاد التي تكاملت فيها تجاربي وثقافتي بفضل علمائها وأدبائها ومفكريها فأنا اليوم أحمل لمصر كل جميل وأذهب إلى بلادي حاملاً شعوركم وقلوبكم وإخلاصكم وكل ما تصبون إلى أن تقدموه لأختكم الصغيرة تونس من تمنيات.

هبت تونس للجهاد وأرادت التخلص من الاستعمار وهي بلد (بني تغلب)[11] وغيرهم من العرب الفاتحين ولا أغضى عن ذكر الفاطميين وإن أساؤوا إلينا، لقد كانت تونس تطمح إلى التقدم إلى أن حدثت الفتن بين العرب والبربر وكادت هذه الفتن تودي بالفريقين فدارت بينهما 330 معركة إلى أن اندفع الأغالبة للقضاء على هذه الفتن فتغلبوا عليها ولم تترك أساطيلهم جزيرة من جزر البحر المتوسط إلاّ استولت عليها وامتد سلطانهم على الشاطىء الإفريقي والأوروبي حتى وصلوا إلى (ليون) ونزلوا من (التيرول إلى سويسرا) فكونوا دولة عربية واسعة. ثم جاء العبيديون فحولوا تيار الحرب من أوروبا إلى إفريقية إلى البلاد العربية فانتهز الأوروبيون هذه الفرصة وهاجمونا وما اكتفوا بطرد حكوماتنا من جنوب أوروبا بل استولوا على أغلب شطوط بلادنا. ولولا أن قيض الله دولة بني عبد المؤمن فأوقفتهم، عند حدهم لكانت خسارتنا أعظم وبذلك ضاعت ممتلكاتنا في (إيطاليا) وفقدنا (مرسيليا) التي كانت من مؤسسات العرب ولما تكامل ملك العرب أعادوا مرسيليا وجعلوها داراً للعروبة[12].

من هذا ترون أن القوم كانوا يعملون من نحو ثمانية قرون لرفعة شأن

---

(11) (بلد بني تغلب) يرمز (الثعالبي) بهذا التعبير إلى تأكيد عروبة تونس. و (تغلب) هو ابن وائل بن قاسط والذي اشتهرت به القبيلة العربية المشهورة.

(12) توسع (الثعالبي في هذه الفتوحات في مؤلفه النفيس (تاريخ شمال إفريقيا) من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية. جمع وتحقيق الدكتور أحمد بن ميلاد. محمد إدريس تقديم ومراجعة (حمادي الساحلي). دار الغرب الإسلامي 1987.

العرب وبناء مجد العرب إلى أن خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات واستمروا طول هذه السنين وكأنما يتواصون باحتمال الذل والاستسلام للظلم.

واليوم ظهر في الأمة العربية جنود أبرار ورجال كفاح بواسل يحاولون أن يحطموا نير الذل الذي تنوء تحته هذه الأمم من زمن طويل. لقد وجدت أوروبا حين غزت الشرق العربي ممالك مبعثرة اقتطعتها عسفاً وظلماً واذلتنا واستعبدتنا. على أن جورها كان عملية جراحية لا بد منها فلولا الاحتلال لما تنبهنا والدليل الساطع أمامكم الآن. فالبلاد التي لم تصل إليها أوروبا لا تزال تغط في سباتها بعكس البلاد المحتـلة فحالتها غير ذلك[13].

بدأنا نعمل لتحرير بلادنا بعد احتلال فرنسا لها في مايو سنة 1881 وكنت في طريق قريب من بيتنا وأنا صغير حينما دخل الجيش الفرنسوي تونس فرأيت الكآبة تخيم على وجوه التونسيين فاستغربت ذلك وكنت أجهل السبب وذهبت إلى جدي فوجدته يبكي لأول مرة فقلت مندهشاً. لم هذا

---

(13) الثعالبي لا يذكر الإستعمار الغربي بخير، ولكنه وهو واقع لا محالة، فليكن عملية جراحية، وهزّة لصحوة جديدة (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم).

وقد دأب الثعالبي في كل كتاباته على وخز الوعي العربي الإسلامي، ودفعه إلى اليقظة، وإذكاء رعشة الحيوية فيه. وطالما استعمل نقاط الإستفهام والأنكار والتعجب في عناوين مقالاته، وذيل أبحاثه. ومهما كان البحث تاريخياً، أو فلسفياً، فكرياً أو أدبياً أو اجتماعياً، فإن العبرة فيه أبداً هي بعث الوعي الغائب، وإيقاظ الصحوة الغافية. كتب مرة يقول:

«وكيفما كان الحال. فينبغي لنا أن نتساءل: هل آن الأوان لليقظة الإسلامية أن تنتبه في هذه البلاد! وهل آن للمسلمين أن يعولوا على أنفسهم في تلافي نقائصهم الإجتماعية والإقتصادية والسياسية، فقد كفاهم مضي ستين سنة في التجربة. فمتى ينتهون منها؟! والساعة تدق!.

من مقال للثعالبي بعنوان: (إهمال التدابير الصحية في المعهد الزيتوني) جريدة (الإرادة) عدد (296) 10 ذو الحجة 1357هـ 1 جانفي 1939م.

البكاء يا جدي؟ هل ضربك أحد؟ قال: نعم إن البلاء انصب علينا فيجب أن نرحل من هذه البلاد التي نعيش فيها. ولكني وقد بلغت من الكبر عتيا لا أستطيع أن أرحل وإني خائف وجِل أن تصيروا في المستقبل فرنسويين. وكشف فأراني محل رصاص في صدره فقلت سأضرب من ضربك(14).

هذا الإلهام الذي أُودع في نفسي، وما انقطع بل استمر حتى نشأت وكبرت فوجدت أصدقائي وأقراني يشعرون شعوري فاتفقنا على المقاومة وسبيل المقاومة الذي رأيناه هو تأسيس ثقافة إسلامية عربية لأن المدارس كانت فرنسوية تعلم فرنسويين مع أن الحكومة التونسية أنشأتها لتعليم أبناء التونسيين.

وتعلمون أن التربية الحقة المنتجة ليست في الدروس بل في التوجيه وسبك العقلية والفكر وتربية الضمير ولهذا حاولوا أن يجعلوا من العرب فرنسويين وكان أساتذة المدارس يؤلفون كتب الدراسة ومنها كتب التاريخ العربي ويقولون فيها إن هذه البلاد هي موطن البربر ثم جاء الرومان وجعلوا منها جنة فيحاء فلمّا جاء العرب خربوا ودمروا وهم لصوص سلبة، فأبادوا هذه الجنة وأقاموا مقامها الخراب والدمار. وهكذا كانوا يعلموننا التاريخ بحيث أن أبناءنا لا يعرفون من تاريخ الإسلام والعرب غيره وإذا تمكن أحد من تعلم شيء خارج المدرسة عن دينه وقومه ثم أراد أن يناقشهم فالويل له كل الويل.

فجو تحيط به هذه العوامل ويسير بمثل هذه المدرسة كيف يمكن إنقاذه؟!

---

(14) معاهدة الحماية، كان كما سبقت الإشارة بتاريخ 12 ماي 1881 بالقصر السعيد بضاحية (باردو) أما اتفاقية (المرسي) الضابطة لسلطة الحكومة الفرنسية بالإيالة التونسية فكانت بتاريخ 8 جوان 1883.

وهذه القصة التي يرويها الثعالبي مع جده ترجح ولادته بتونس. فيكون عمره عند انتصاب الحماية ست أو سبع سنوات. كافية لاستيعاب هذه الحادثة واختزانها في ذاكرة الطفل. وولادة (الثعالبي) بتونس تجمع عليه المصادرة إلا أن الشيخ عبد الحميد بن باديس يذكر أن (مسقط رأسه كان بالجزائر). وسيأتي ذكر ذلك.

ولكن على الرغم من هذا ظهر أن الروح العربي كامن في النفوس العربية وهذا ما تمتاز به هذه النفوس في جميع العهود فكثيراً ما تمر بالعرب أحداث حبلى يظن الإنسان معها أن الروح العربي مات ولكنه لا يلبث أن يظهر والواقع أن الأمم العربيّة من أعظم الأمم وأقدرهم على مواجهة الأحداث.

وفي اعتقادي أن الأمّة العربية اليوم هي الأمّة العربية بالأمس لم تتغير قيد أنملة وهي لا تحتاج إلى البناء وإنما تحتاج أشدّ الاحتياج إلى التوجيه في الطريق الصالح ليس هذا التوجيه من عمل الأفراد العاديين بل من عمل الأساتذة فإذا تضافر أساتذة المدارس الإبتدائية والثانوية وأساتذة الجامعات على توجيه الروح العربي توجيهاً علمياً صحيحاً لخير شعوب العرب. فسيجدون حياتهم ويفوزون باسترجاع عزهم الماضي. وإن أملي لا في الاقتصاديين ولا في السياسيين وإنما هو في الأساتذة لأنهم هم الذين يعول عليهم، وهم الذين نبني آمالنا على جهودهم.

فإذا أخلصوا وسعوا في تكوين ثقافة عربية إسلاميّة حديثة تناسب الأمم الإسلاميّة ولا مشاحة في الاصطلاح فالإسلام لم يكن عقيدة فقط بل هو نظام اجتماعي كامل للحضارة والثقافة والفكر ولا يمكن لغير العرب أن يتضافروا على حفظ هذه المدنية.

وإذا أردنا أن نبحث عن العرب لا نذهب إلى جزيرة العرب فتاريخ العرب في قلوبنا وبين جوانحنا ولو تمكنا من درس علم المقايسة لأدركنا أن الأمة العربية هي عائلات يتصل بعضها ببعض بحلقات متينة ذات عرى لا تنفصم.

فأمة هذا ماضيها ونظامها وهذا تفكيرها وروحها ومقدرتها، يستحيل أن تموت ولذا يجب علينا جميعاً سواء كنا مصريين أو تونسيين أو عراقيين أو سوريين أو حجازيين أن نسعى ونفكر دائماً لا في المناطق المحليّة الضيقة بل يجب أن يمتد أفق نظرنا من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلنطيقي، ومن الخطأ أن نقتنع بأن تكون حياتنا في دائر ضيقة نسميها المحيط السياسي

فالأمّة الإنكليزية والهند مثلاً أمتان متباعدتان وإذا فرضنا أن الطمع يسوق انكلترا للهند فأي علاقة لها بمصر وغيرها من المستعمرات.

إن علاقتها بهذه الأقطار هي فكرة التغلب وحب السيادة فإذا كان الإنكليزي يعمل اليوم لنشر لغته في الأقطار ويسعى جهده في ذلك فنحن العرب بدون سعي ولا نصب أينما توجهنا في العالم الإسلامي العربي نجد هناك المدارس تعلم لغتنا وتاريخنا وتفكر تفكيرنا وتشعر بشعورنا وهذه قوة لا يستهان بها ولم نبذل للحصول عليها ما يبذله المستعمرون.

ولقد أُوحي إلينا أن نزهد في العظمة ولهذا أساءت أوروبا فهمنا ورمتنا بأننا منحطون وغريب أن يعتقدوا ذلك وهم يرون ذلك الرأس الجبار الذي أوحى للنّاس نظام الآداب والشرائع والأخلاق وقد تلقت أوروبا عنا هذا الوحي قديماً حتى الديانة المسيحيّة نفسها ما هي إلاّ نفحة من نفحات الشرق ومع ذلك صرنا نعتقد أن أوروبا أرقى؟؟؟ يمكن أن يكون ذلك الآن ولكن لو وجهنا وجهنا نحو ترقية شؤوننا فإننا لا محالة نكون أرقى منهم ولكن:

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إيّاك إياك أن تبتلّ بالماء

ومع هذا فمسؤوليتنا على أنفسنا، فعلى الشرق أن يتنبه لنفسه ويكافح لأجل أن يتخلص من نير الاستعمار فتفهم أوروبا أن لنا إرادة، وثقوا أن الأوروبيين لا يتغاضون عن حركة كهذه إلاّ إذا رأونا صاغرين نتزلف إليهم أماإذا رأوا إرادة قوية وعزيمة وثابة لا تضل، فثقوا أنهم يصغرون أمام قوة الإرادة.

أصافحكم الآن مودعاً وأعادهكم على السعي على هذا المبدأ وعلى الدعوة إلى إنهاض الأمّة العربيّة.

وعار أن تبقى أمة في العالم تستنصف القساة، ولا تجد من ينصفها مع أنها قادرة على إنصاف نفسها بنفسها.

2 ـ حفلة شفيق باشا:

وأقام سعادة الحاج أحمد شفيق باشا[15] رئيس جمعية الرابطة الشرقية حفلة شاي في داره «روضة شفيق» بـ (شبرا) أصيل يوم السبت تكريماً للأستاذ الثعالبي وتوديعاً. حضرها عدد من أهل الفضل: السيد محمد صادق المجددي والشيخ فوزان السابق وإبراهيم بك الهلباوي والشيخ علي الزنكلوني والشيخ حلمي طماره والشيخ إبراهيم أطفيش والدكتور منصور بك فهمي ومرزا مهدي بك، ورفيع مشكي ومحمد بك الفرنواني ومحمد بك مسعود والشاعر الكبير الحاج محمد الهراوي والأساتذة محمد لطفي جمعة وزكي مبارك وحنا خباز ونسيم صبيعة[16] ونقولا حداد [17]والدكتور مختار

---

(15) (أحمد شفيق باشا) (1276 ـ 1359هـ ـ 1940م).

مؤرخ مصري، تخرج بمدرسة العلوم السياسية وكلية الحقوق بباريس، وعين وكيلاً للجامعة المصرية، وولي رئاسة الديوان الخديوي في عهد عباس حلمي، واشترك بعد الحرب العالمية الأولى في معالجة القضايا الشرقية والعربية السياسية.

من كتبه: (حوليات مصر السياسة) (9) أجزاء. (مذكراتي في نصف قرن). و (أعمالي بعد مذكراتي). وكتاب بالفرنسية: (الرق في الإسلام). مترجم إلى العربية.

انظر (الإعلام) الجزء (1) صفحة (133).

(16) (نسيم صبيعة: 1289 ـ 1362هـ 1872 ـ 1944م).

أرثوذكسي، من أهل طرابلس الشام. تعلم في الجامعة الأمريكية في بيروت واستوطن مصر، وشارك في حركات سورية وفلسطين الوطنية بقلمه وخطابته وماله. وكتب كثيراً في الصحف المصرية.

(الإعلام) الجزء (8).

(17) (نقولا حداد: 1287 ـ 1373هـ 1870 ـ 1954م).

قصصي، اجتماعي. صيدلاني، اشتغل بالصحافة. من لبنان. تخرج في الجامعة الأمريكية، واستقر بمصر سنة 1907 صيدلانياً، وكاتباً في أشهر جرائدها (الأهرام) و (المحروسة) و (الرائد المصري) وأشرف على تحرير (المقتطف) قبيل وفاته. مؤلفاته تربو على (60) كتاباً. وأكثرها مترجم عن الإنجليزية. علمية وقصصية. متنوعة من الطاقة الذرية إلى الحب والزواج.

(الإعلام) الجزء (9) صفحة (19).

عبد اللطيف وأمين سعيد وبعد شرب الشاي وقف سعادة صاحب الدّعوة فرحب بالحاضرين ثم قال إنه عهد إلى صديقه الأستاذ نسيم صيْبعه بإلقاء الكلمة التي أعدها لهذه الحفلة فوقف وألقاها وهي تدور على مهمة جمعية الرابطة الشرقيّة وعملها وعلى وصف اجتماع صاحب الدعوة بالأستاذ الثعالبي لأوّل مرة في شهر نوفمبر سنة 1923 في دار آل مشكي الرفيعة العماد عقب وصول الأستاذ من تونس. ويلي ذلك كلام عن سياسة الدّول الاستعمارية في بلاد العرب.

وبعدما انتهي الأستاذ صيبعه من إلقاء الخطبة ألقى كلمة باسمه حياً فيها الأستاذ الثعالبي وودعه وداعاً مؤثراً.

خطبة الدكتور زكي مبارك

ثم خطب الدكتور زكي مبارك[18] فقال: يتهم بعض أبناء الأقطار العربيّة المصريين بقلة معلوماتهم عن الأقطار العربية وندرة ما يعرفونه عنها ولئن صح هذا القول بالنسبة لبعض الأقطار فإنه لا يصح بالنسبة لتونس وذلك لأن تغريبة[19] (بني هلال) وحروب الزناتي خليفة ودياب بن غانم والجازية

---

(18) (زكي مبارك: 1308 ـ 1371هـ 1891 ـ 1952م).

الأديب المعروف، من كبار الكتاب المعاصرين، تعلم في الأزهر، وحصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية. واطلع على الأدب الفرنسي وهو في فرنسا. اشتغل بالتدريس في مصر وبغداد، وعين مفتشاً لوزارة المعارف.

وتبلغ مؤلفاته نحو (30) كتاباً. منها (النثر الفني في القرن الرابع). و (التصوف الإسلامي) و (حب ابن أبي ربيعة وشعره. وليلى المريضة في العراق). و (الأخلاق عند الغزالي) و (عبقرية الشريفة الرضي) وديوان شعر بعنوان (ألحان الخلود).

(الإعلام) الجزء (3) صفحة (82).

(19) (التغريبة الهلالية) المقصود بها (سيرة بني هلال).

أم محمد تشغل فراغاً كبيراً في الأدب الشعبي فندر بين المصريين من لم يقرأ هذه «التغريبة» أو يسمع القصاص يقصها أو يروي جانباً من أشعارهم الشعبيّة

هكذ كان شأن تونس في القديم معروفة عندنا أتم معرفة أمّا في الحديث فقد مثلت تمثيلاً صادقاً بالأستاذ الثعالبي فكان خير سفير لها وأفضل داعية لقضيتها ولقد حضرت حفلات كثيرة ومآدب عديدة حضرها فوالله ما رأيت أي حركة من حركاته تنقد فهو الرجل الكامل الممتاز الصفات ذو الأدب الرفيع والتفكير العالي الخ. . .

خطبة الدكتور منصور بك فهمي

ووقف حضرة صاحب العزة الدكتور منصور بك فهمي[20] عميد بيت الحكمة فارتجل خطبة بليغة بدأها بقوله إنه لا يعرف بأي جملة بفتتح خطبته وبأي عبارة يختتمها فمجال القول في الأستاذ الثعالبي واسع .ثم استطرف في ذلك فدعا إلى إنشاء ثقافة شرقية عربية أو إسلامية تكون خاصة بنا دون غيرنا فلا نكون عالة على الغرب ولا نقلده تقليداً أعمى فاسداً ولا نحاكيه محاكاة فجة مملولة.

خطبة الأستاذ محمد لطفي جمعة

وخطب الأستاذ محمد لطفي جمعة المحامي خطبة طويلة فأيد الدكتور منصور فهمي في دعوته إلى إنشاء ثقافة شرقيّة عربية إسلاميّة خاصة بنا فلا نكون

---

(20) (منصور فهمي) من رموز الفكر العربي الحديث. ومن دعاة العروبة والوحدة العربية كان ملازماً للثعالبي أيام إقامته في القاهرة، ومن النشطين معه في حقل العروبة والثقافة العربية. تخرّج من باريس سنة (1912) وأشار إليه الزعيم الوطني (محمد فريد) في مذكراته. تقلب في عدة مناصب سامية، من بينها تمثيلاً لا حصراً: الجامعة المصرية. وبيت الحكمة ومجمع اللغة العربية.

عالة على الغرب ولا نقلده تقليداً أعمى ثم انتقد أولئك الشبان الذين يسافرون إلى أوروبا لطلب العلم فيقصد بعضهم ألمانيا أو إنكلترا أو فرنسا فإذا عادوا إلى بلادهم بعد اتمام الدراسة عادوا وقد أضاعوا شخصياتهم فمن تعلم منهم في إنكلترا حلق شاربيه ووضع «البيبة» في فمه محاكاة للإنكليز وتقليداً، ومن تعلم في ألمانيا صار ألمانياً، ويلوح لي أن السبب في ذلك، التعلق بالقشور دون اللباب وعدم أخذهم من العلم بنصيب وافر فيلجأون إلى هذه الطريقة في التقليد ليوهموا الناس أنهم على شيء وفي الحقيقة أنهم ليسوا كذلك على أنني لا أنكر أن بينهم من تعلم تعلماً صحيحاً.

وأمّا أمر الغربيين فعلى العكس فإذا قدم بلاد الشرق واحد منهم وقضت عليه الظروف بأن يقيم مدة طويلة في ربوعه ويندمج في أهله فلا يتردد، وبينهم من يدخل الإسلام ويتعلم لغة القرآن ويتزوج ويطلق لحية طويلة أو يتعمم بعمامة ويلبس جبة أو قفطاناً فلا تكاد تفرقه عن الذين ينزل بينهم، على أنه متى عاد إلى بلاده الأصلية نزع ذلك الثوب الذي يلبسه في ديار الغربة وعاد إلى ما كان عليه من قبل واندمج في البيئة فلا تفرقه عنها.

ويتفرع عن هذه القاعدة إهمال لتاريخنا ورجالنا وأبطالنا فإنك تجد الاحتلال الأجنبي بمصر أقام لكل جندي أو ضابط قتل من رجاله قبراً فخماً من المرمر وأنشأ التماثيل والأنصبة. أما العشرون ألفاً الذين سقطوا في (التل الكبير) فليس هنالك ما يذكر بهم أو يدل عليهم حتى ولا خشبة ولا فانوس وإن في ذلك لعاراً كبيراً علينا واستطرد من ذلك إلى المطالبة بإحياء التاريخ القومي وتنظيم برامج التعليم على أسس جديدة والسعي لتحقيق فكرة الدكتور منصور فهمي، ثم أشاد بوصف العلاقات بين مصر وتونس وأطنب في وصف ما للأستاذ الثعالبي من أثر كبير في النهضة الجديدة وقال إنه كيف لا يعشقه ويتغزل فيه؟ وقد جمع في نفسه الكمالات كلها فإذا عشقته فأنا أعشق الكمال النفساني والأدب الإنساني العالمي.

خطبة الأستاذ الثعالبي

وارتجل الأستاذ الثعالبي خطبة بليغة طويلة بدأها بشكر صاحب الدار على حفاوته ثم قال: استرعى نظري في أثناء زيارتي لمصر سنة 1897 ـ 1902 فقرة في مقالة قرأتها للمسيو (هانوتو)[21] وزير خارجيّة فرنسا السابق وقد جاء فيها قوله «وكيف كان الحال فقد فصلنا بين شمالي إفريقية والتاريخ العربي» فأثرت في نفسي هذه الجملة تأثيراً بليغاً وصممت على العمل لمقاومة هذه الفكرة والمحافظة على هذه الرابطة.

وعدت إلى تونس وشرعت في العمل فلم ينازلني الفرنسيون وجهاً إلى وجه بل قاموا بحركة التفاف فدعوا بعض التونسيين لمقاومتي ثم قبض عليّ في سنة 1906 ووضعت في السجن لا بصفة كوني متّهماً بل باسم حمايتي من

---

(21) (جابرييل هانوتو: 1853 ـ 1944) مؤرخ وسياسي فرنسي. كانت مقالته أعنف هجوم على الإسلام من منطلق استعلائي استعماري بغيض. وجهل مطيق بحقيقة الإسلام، وافتراء مفضوح عليه، بالإباطيل والترهات، وتطاول على الشعوب الإسلامية في شمال إفريقيا التي نكبت بالإستعماري الفرنسي. ومما جاء في مقاله نقلاً عن (كيون) في كتابه (باتولوجيا الإسلام):

«إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي، يبعث الإنسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء، ويدمن على معاقرة الخمور وفعل القبائح، وما قبر محمد في مكة إلا عمود كهربائي يبث الجنون في رؤوس المسلمين، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع والهستيريا العامة، والذهول العقلي. وتكرار لفظة الله إلى ما لا نهاية.

نشرت مقالة (هانوتو) في جريدة (الجورنال) الباريسية وترجمتها جريدة (المؤيد) ونشرتها في عددين (3029و 3036) في شهر أفريل (1900) وقد تصدى الإمام محمد عبده لهانوتو برده الشهير، فاضحاً نواياه، ومفنداً افتراءاته. وقد نشر الرد في جريدة) المؤيد وصدر في طبعة خاصة مع مقالة (هانوتو). انظر (تاريخ الأستاذ الإمام). محمد رشيد رضا. ج (1) صفحة 799.

الجمهور الغاضب الذي يريد أن يفتك بـي[22].

وكان الغد موعد محاكمتي ومع أن العادة جرت أن يؤخذ المسجونون من السجن إلى دار المحكمة في عربة خاصة أعدت لهذه الغاية فإنهم أخذوني سيراً على الأقدام فمشى إلى جانبـي مأمور الضبط (كومسير سنترال) يحيط بنا 25 شرطياً شاهرين السلاح، وكان هناك عدد كبير من أهل البلاد تجمعوا على طول الطريق يرفعون علماً أبيض ويقولون «اقتلوا الثعالبـي الكافر» وكان آخرون يأتون بحركات تدل على الاستنكار والاستهجان لا من العمل الذي يعمل معي بل استنكاراً لعملي. فقال لي مأمور الضبط ألا ترى ماذا يفعل الشعب فقلت إن هذا لا يهمني فسواء عندي تظاهر الشعب لي أو معي. على أني واثق بأن هذا الشعب يتظاهر لي متى عرف الحقيقة. وقد كان الأمر كذلك أيها السادة فإنه لما قبضت علي السلطة في سنة 1912[23]. أي بعد ست

---

(22) هذه القضية العدلية سجلت ضد الثعالبـي بدعوى (التطاول على الدين) تحالف فيها رجال الإدارة الفرنسية مع الفئة الرجعية من رجال الدين، التي تقف بالمرصاد لكل نزعة إصلاحية. ولكن كانت القضية كما قال الشيخ محمد الفاضل بن عاشور:

«ثم حكم عليه بالسجن فكان أول مظهر لتميّز الحركة الفكرية الجديدة. وإقامة الفوارق بينها وبين مناهج التفكير السابقة، وكان ذلك عاملاً على تكوين عطف الكثيرين عليه، وتقوي الحركة الإصلاحية به وبنكبته».

انظر (الحركة الفكرية) صفحة (58) و (ترجمة زعيم الأحرار).

(23) وقعت هذه الأحداث في جو مشحون بالعواطف الوطنية، والتعاطف الإسلامي، بعد الهجمة الإيطالية الغادرة على طرابلس، وافتتاح اكتتاب عام في جريدة (التونسي) لعلي باش حانبه، والثعالبـي لدعم المجاهدين، ثم إصدار جريدة (الإتحاد الإسلامي) التي تولى عبد العزيز الثعالبـي رئاسة تحريرها مع باش حانبه.

وفي سنة 1912 وبزعامة الثعالبـي حدثت مقاطعة شعبية لإستعمال (الترام) الذي تملكه شركة إيطالية، وفشلت مناورات السلطات الفرنسية في فك هذه المقاطعة. وانقضت على رموز (الشبيبة التونسية) التي حملتها تبعة هذه الإضطرابات.

تم إلقاء القبض على الثعالبـي ورفاقه في ليلة (4) مارس 1912. وهم: =

سنوات من الحادث الأول وقد طرقوا منزلي في الساعة الرابعة بعد نصف الليل أي في الفجر ودخول المنازل في هذه الساعة ممنوع، وأخرجتني إلى خارج البلاد سنة 1912 ومن دون أن يعرف بذلك أحد أقول إنهم لما قبضوا علي ونفوني وشاع ذلك في الغداة أضربت البلاد كلها ثلاثة أيام ووقفت جميع الأعمال وأصر الشعب على المطالبة بإعادتي فجاء الفرنسويون يلحون علي بالرجوع فأبيت العودة ما لم يصلح وضع البلاد السياسي فقالوا لي (الفرنسويون) إنه لا سبيل إلى ذلك الآن لأن الحرب العامة على الأبواب فانظرنا ريثما تنتهي.

وعدت إلى تونس في سنة 1914 أي قبل الحرب فرأيت معظم الأوضاع السياسية قد تغيرت. ورأيت أن الفرنسويين قد استردوا ما أعطوه لنا في أثناء حركتنا الأولى بين سنة 1906 و 1912 ثم جاءت الحرب وانتهت فاستأنفنا الكرة وواصلنا النضال فقبضوا عليّ في سنة 1920[24] وسجنوني مدة طويلة في فرنسا وتونس ثم أطلقوا سراحي ثم أخرجت من البلاد في شهر أغسطس سنة 1923 أي منذ سنة إلا بضعة أسابيع.

ثم تكلم عن مقام مصر في الحركة العربية وقال إنها محط أنظار العرب والمسلمين بسبب مقامها ووفرة معاهدها ثم تكلم عن أعمال جمعية الرابطة الشرقية وسعيها لعقد (مؤتمر عربي للثقافة)[25] وقال إن هذه الفكرة كادت

= المختار كاهية، علي باش حانبه، الصادق الزمرلي، حسن قلاتي، الشاذلي درغوت.
انظر: (ترجمة زعيم الأحرار). (في رحاب المغرب العربي). صالح الخرفي. دار الغرب الإسلامي. 1985. (أعلام الإعلام). محمد حمدان. مركز التوثيق القومي 1991.

(24) ألقي القبض على الثعالبي في باريس في 1920/07/28 ووصل تونس تحت الحراسة في 1920/08/22 وأطلق سراحه بتاريخ 10 رمضان 1339هـ 17 ماي 1921 وبذلك يكون قضي في السجن قريباً من عشرة شهور.

(25) (مؤتمر عمربي للثقافة) هو تجسيم لفكرة (الثعالبي) في أن يكون أول مؤتمر يجمع =

تنجح لولا مقاومة بعض الجهات لها ثم حض المصريين على بذل الجهد لتحقيق هذه الفكرة فتكون نواة للنهضة العربية الجديدة وختم خطبته كما بدأها بالشكر لصاحب الدعوة وللمحتفلين الكرام.

3 ـ حفل ـ آل مشكي:

وأقيمت أصيل الأحد حفلة كبرى في دار آل مشكي الكرام في العباسيّة افتتحها حضرة الوجيه الكبير مهدي بك رفيع مشكي بخطبة بليغة وخطب فيها الأساتذة محمد توفيق دياب والدكتور محجوب ثابت ورمزي نظيم وبولس غانم ولطفي جمعة والثعالبـي ونصفها في الأسبوع المقبل[26].

= أبناء العروبة في القاهرة، مؤتمراً ثقافياً. وقد ورد هذا في مقاله (الإمبراطورية العربية التي تبشر بها) حيث قال:

«لكن أرى أن يعقد مؤتمر للمندوبين في مصر، من كبار رجال العروبة النازلين هنا، وتكون مهمته أول الأمر ثقافية».

(26) نشرت في مجلة (الرابطة العربية) عدد (55) يونيو 1937.

صفحة من تاريخ الثعالبي

هذا نص الخطبة البليغة التي ارتجلها الوجيه الكبير صاحب العزة مهدي بك رفيع مشكي في حفلة التكريم التي أقامها مساء أمس يوم الأحد الماضي للأستاذ الثعالبي.

حضرات أصحاب الفضيلة والمعالي والسعادة والعزّة:

أحمد لكم تلك العواطف النبيلة. فأحي فيكم هذه المظاهر الجميلة، لا على قبولكم دعوتكم. وتشريفكم منزلكم. وإنما أشكر عاطفة التقدير التي ملأت قلوبكم. وهيأت نفوسكم للإشتراك في تكريم وتوديع الزعيم العربي الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي ابن تونس الأرشد، رسول وطنيتها الأمين.

وإذا كانت بلدان الغرب تملأ ميادينها تماثيل القادة الفاتحين والملوك الغالبين والرؤساء المستعمرين. فمن أولى من زعماء الشرق الذين استبسلوا في دفع الغاصب ودفع الظلامة، والذين جاهدوا وقاتلوا في سبيل الدفاع عن الوطن، والذود عن الكراة بأمثال هذا التكريم والتخليد.

وأمّا وفي الشرق، بلاد حرام على أهليها حلال لمستعمريها.

أمّا وأبواب الديار في وجوه أصحابها مقفلة، وثغور الوطن دون آساده موصدة، فلا أقل من أن يجد الأحرار المبعدون، أينما حلوا وطناً وأهلاً وعشيرة، وأن نعمر بذكرهم، قلوباً مخلصة، وصدوراً رحيبة.

فما زالت فينا السنة تذكر وتشكر، وما زالت لنا قلوب تحفظ الود وتقدر الجميل.

يا حضرات السادة،

بالأمس اجتمعنا نكرّم ونودّع نخبة من خيـرة أبناء سورية الميامين، واليوم نجتمع لنودّع زعيم تونس الكبير.

حقاً لقد ضمت مصر فيما ضمت من أبنائها وفوداً من الشرق فيها من كل قطر صاحب العزيمة الصادقة والرأي الرشيد، فلها حق الأمومة عليهم أجمعين. وكأنّي بهم إذ يودعونا ونودعهم، إنما نودع وفود مصر إلى الأقطار الشقيقة يحملون من مصر وسكان مصر إلى أوطانهم وإخوانهم رسالة العروبة وفيها أطيب الرغبات، فمصر قلب العربية النابض، ورسالة الشرق، وفيها أصدق التحيات، فمصر عنوان مجد الشرق منذ القدم. في سنة 1881 على ما أظنّ، وقف الثعالبي الطفل يشهد دخول جنود المستعمرين إلى بلاده.

وقد رأى لأول مرة جدّه يسكب العبرات، والناس يرمقون هؤلاء الجنود بعيون باكية وامتعاض شديد، وقد خلعت تونس حلّتها الخضراء وظهرت في حلة قاتمة سوداء. فانتفض وفي النفس حسرات. وفي العين عبرات وأقسم الثعالبي الطفل أن ينتقم لبلاده. وقد صدق الوعد وبر باليمين الثعالبي الزعيم.

بدأ الثعالبي جهاده طفلاً وظل يجاهد شاباً وكهلاً. وهو يعود اليوم إلى تونس ليستمد القوة من وطنه وأهله الذين فارقهم طوال السنين، نشأة وشباباً، فقد كان له وطن واحد، وأمة واحدة، أما اليوم وقد أشرف على الستين فإن في ذمّته أوطاناً وشعوباً، وأمماً تمتدّ من أدنى المغرب إلى أقصى الشرق وتضرب من المحيط إلى المحيط.

طلب الزعيم التونسي إلى فرنسا أن ترفع عن بلاده حمايتها فكانت الحرب العظمى. وكانت الوعود إثر الوعود. وما أن خمدت الحرب واستقرت الأمور حتى سافر صديقنا الثعالبي إلى باريس، يناشد أولياء الأمور براً بالوعود ووفاء بالعهود، وكان على رأس مفاوضيه الفرنسيين المسيو

(تارديو)[27]، وكأنما كان المقصود استطلاع رأي الزعيم حتى يعملوا على عكس ما يريد. وقد أرسل السيد الثعالبـي يستحث وفداً من تونس للحضور، وسرعان ما حضر هذا الوفد برئاسة الأستاذ أحمد الصافي سكرتير الحزب الحر الدستوري. ولكن قررت الحكومة الفرنسية عدم الإعتراف به. وبمجرد أن طلب مقابلة وزيرة الخارجية أحالت الوفود على المقيم العام المسيو فلاندان (والد رئيس الوزراء السابق) وكان قد استحضر إلى باريس، فما كان منه إلا أن قال إنّ كل تفاهم بيننا لا يمكن أن يكون إلا في تونس نفسها، مع أن الوفد التونسي كان يحمل رسالة من الأمة التونسية إلى حكومة فرنسا التي تمثلها وزراة الخارجية بالنسبة لتونس.

وقد تنبهت فطنة الزعيم الثعالبـي لكل ذلك فكان في دهائه كما كان في جهاده خبيراً حكيماً وبادر توّاً إلى الموسيو (راؤول برييه) رئيس مجلس النواب في ذلك الوقت فأفهمه أن الوفد التونسي يحمل رسالة من الأمة التونسية إلى الأمة الإفرنسية فحدد راؤول برييه اليوم التالي موعداً لاستقبال وفد تونس. وفي الموعد المذكور استقبل هذا الرئيس ومعه هيئة مختارة من أعضاء مجلس النواب الوفد التونسي وتسلم منه بإسم الأمة الفرنسية رسالة الأمة التونسية، وفي صبيحة الغد صدرت الجريدة الرسمية للبرلمان وفيها عن كل ذلك الشرح المستفيض.

وكان على إثر ذلك أن صدرت جلّ الجرائد اليومية وقد نشرت تحت عنوان (علائق سرية مع أعداء فرنسا) كل ما أوعز لها أن تختلقه من الإتهامات الكاذبة وسيلة للإستيلاء على الأوراق التي كانت مع الزعيم الثعالبـي. ولم

---

(27) من رجال السياسة والنيابة والأحزاب الذين استعان بهم الثعالبـي في باريس (هريو) رئيس الحزب الراديكالي و (بيرتون) النائب الإشتراكي في البرلمان، و (شامبون) رئيس تحرير (اللجنة البرلمانية).
انظر (الشيخ عبد العزيز الثعالبـي والحركة الوطنية). ابن ميلاد وإدريس.

يدفع عنه كيدهم إلا وجود دفتر كان يثبت فيه كل ما يرد إليه وما يخرج من رسائل ومستندات[28].

ولما أعيتهم الحيل أصدروا أمراً بإرجاع السيد الثعالبي تحت الحفظ إلى تونس لأنه مطلوب أمام محاكمها العسكرية فألقى عليه القبض. وصادف وجود كاتب سره الدكتور (القرطبي) خلافاً للعادة في ذلك الوقت فشيّعه إلى مركز باريس العسكري ثم ذهب بنفسه إلى المسيو (هريو) وهو من أصدقاء الزعيم فأطلعه على ما حصل فما كان منه إلا أن جمع لفيفاً من الأصداقاء وجلهم من أعضاء مجلس النواب فشكلوا لجنة من بينهم للدفاع عن الثعالبي ومنع سفره إلى تونس واتخذوا الإجراءات القانونية اللازمة لذلك. وقد أمكنهم أن يؤجلوا سفره أسبوعين تقريباً.

ومن الصدف الغريبة أن جاء للسيد قبل إلقاء القبض عليه بأيام كتاب من باي تونس الملك الناصر رحمه الله يقول فيه: إن المقيم العام قدم له مشروع مرسوم يتضمن إلقاء القبض على الثعالبي فرفض ذلك. ويطلب إليه أن يحتاط لنفسه وكان هذا من الكتب التي ضبطت.

ومن المصادفات أيضاً أن صادف وصول هذا الكتاب زيارة المرحوم مولانا (محمد علي)[29] الهندي والمسيو (جورج ليج) للزعيم فأطلعهما

(28) يذكر الكولونيل (بارون في تقريره عن قضية (الثعالبي) أن أعوان الأمن في باريس عثروا على النسخة العربية لكتابه (تونس الشهيدة) عند مداهمة بيته. وقد يكون ذلك سبباً في ضياع هذه النسخة، والإعتماد على النسخة الفرنسية منها، وتعريبها مؤخراً بفضل الأستاذ (حمادي الساحلي) ومراجعة الأستاذ (محمد العروسي المطوي) ونشر (دار الغرب الإسلامي) الطبعة الأولى 1984 والثانية 1988.

(29) (محمد علي جنا) كما ذكره الثعالبي أو (جيناه) كما ذكره الإبراهيمي أو (جناح) كما تذكره المراجع العربية. زعيم المسلمين في الهند، من رجال المحاماة، انتخب رئيساً لـ (الكونغريس) في مؤتمره المنعقد سنة 1925. وفي سنة 1929 انعقد مؤتمر عام لمسلمي الهند قدم فيه (محمد علي جنا) المذكرة المتضمنة لحقوق المسلمين =

عليه. كما صادف أن انتخب المسيو (ميليران) رئيساً للجمهورية بعد اعتقال الثعالبي بأيام فاختار المسيو جورج ليج رئيساً للوزارة. وما كان من هذا إلا أن أمر في الحال بإجراء التحقيقات وإعادة فحص الأوراق الخاصة بالسيد من جديد. ثم أمر بمنع رجوع فلاندان إلى تونس، ومع ذلك فقد بقي صديقنا الثعالبي من أغسطس سنة 1920 إلى مايو سنة 1921 رهين السجون. ولقد أثر الكفاح الطويل في صحة الزعيم الكريم فسافر إلى إيطاليا مستشفياً في سنة 1923[30].

وكأنما كانت فرنسا تترقب هذه الفرصة بفروغ صبر. فما أن علمت بذلك حتى أوعزت إلى معتمديها في مختلف الأقطار أن لا يؤشّروا إذناً للزعيم بالسفر إلى أي منطقة لها عليها حماية أو انتداب أو استعمار. فسافر

= في الهند في أربع عشرة مادة. واعتبرت هذه المذكرة القاعدة الأساسية لهذه الحقوق. ومحمد علي جنا هو محرّر ومؤسس الدولة الباكستانية بعد انفصالها عن الهند. توفي سنة (1931).

انظر: (مسألة المنبوذين في الهندي) عبد العزيز الثعالبي. دار الغرب الإسلامي 1984 و (آثار البشير الإبراهيمي) الجزء (4) المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1985.

(30) لم يسافر مستشفياً، وهو في أشد الحاجة إلى ذلك، ولكن سافر مضطراً، بعد أن أحدقت به الدسائس من كل جانب من الإقامة العامة، وانهزام بعض رجال الحزب واستخدامهم للترهيب والترغيب من طرف المقيم العام (لوسيان سان)، ومن المؤسف حقاً أن يتجنى المرحوم (أحمد توفيق المدني) على الثعالبي، وهو أستاذه في السياسة فيتهم خروجه من تونس بـ (التخاذل) مع أن خروجه كان بموافقة اللجنة التنفيذية و (المدني) أحد أعضائها، ونوقش أمر السفر بحضوره أيضاً.

وبمجرد وصول (الثعالبي) إلى إيطاليا، واصل جهوده للقضية التونسية على صعيد الصحافة الإيطالية والأحزاب السياسية.

انظر: (حياة كفاح أحمد توفيق المدني. الجزء (1) المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر ط (2) 1988 و (الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية).

إلى تركيا. ومنها غلبه الحنين إلى وطنه فجاء مصر التي يجد فيها كل عربـي. بل وكل شرقي. وطنه وأهله وعشيرته الأقربين.

ولثالث يوم من وروده كان لهذا المنزل شرف استقباله. وقد تفضل فأشار إلى ذلك أول أمس حضرة صاحب السعادة الزميل الوقور (أحمد شفيق باشا) عميد الرابطة الشرقية ورائدها الكبير.

كان ذلك في يوم الإثنين 26 نوفمبر سنة 1923 وفي ربيع الثاني سنة 1342 وها هي أربع عشرة سنة تمر سراعاً. جاب فيها السيد الثعالبـي أقطار الشرق. طولاً وعرضاً. دارساً باحثاً مجاهداً. يعمل لإنهاض شعوبه. وتوحيد جهوده. فمن مصر إلى فلسطين إلى العراق. إلى إيران. إلى الحجاز. إلى اليمن. إلى الهند. إلى الصين. إلى جاوة وغيرها من الأقطار.

لقد كان للربطة الشرقية قوة وحجة. وكان ولا يزال ساعدها الأيمن ورسولها الأمين. فلا عجب إذا اجتمعنا اليوم وفي ربيع الثاني. وفي دار الرابطة الأولى. لنجدد العهد ونؤكد الود ونكرم في ابن تونس أمّة وزعيماً. ونودع زميلاً كريماً.

سيدي الصديق النبيل، ذلك حديث القلوب وقد ملأتها بالإعجاب والإجلال فعفوا إذا أطلت فأمللت وإن آخر نجواها دعاء التوفيق لك. ورسالة الإخلاص لأمتك. فاحمل يا رسول الشعور أطيب أماني القلوب إلى القلوب[30].

---

(30) فاتني أن أسجل عدد (مجلة الرابطة العربية وتاريخه الذي نشرت فيه هذه الخطبة.



الثعالبي مع أحد المعجبين به والملازمين له
من المصريين في الثلاثينات
الدكتور محمد سلمان

معنى حفلات الثعالبي
وبيان عنها

انتهت حفلات تكريم الثعالبي وتوديعه يوم الأحد الماضي 27 يونيو الجاري بعدما استمرت عشرة أيام كانت في خلالها الشغل الشاغل لأبناء القاهرة وصفوة رجالها ومفكريها الذين تنافسوا في الحفاوة بالزعيم العربي الكريم المسافر وفي إبداء ما يكنّونه له من عواطف الود.

وهذا بيان عن الحفلات والمآدب التي أقيمت وأدبت له في خلال هذه الأيام العشرة:

حفلات الشاي:

1 ـ حفلة مجلة الرابطة العربية؛
2 ـ حفلة الحاج أحمد شفيق باشا؛
3 ـ حفلة آل مشكي الكرام؛
4 ـ حفلة جمعية الرابطة العربية؛
5 ـ حفلة جمعية الشبان المسلمين.

المآدب:

1 ـ مأدبة الدكتور مختار عبد اللطيف؛
2 ـ مأدبة الشيخ علي سرور الزنكلوني؛
3 ـ مأدبة محمود عاشور التونسي؛
4 ـ مأدبة الدكتور منصور فهمي؛

5 ـ مأدبة الشيخ مصطفى عبد الرازق؛
6 ـ مأدبة محمد بك الفرنواني؛
7 ـ مأدبة إبراهيم بك الهلباوي؛
8 ـ مأدبة الأستاذ حامد المليجي؛
9 ـ مأدبة عصام الدين حفني ناصف؛
10 ـ مأدبة سيد باشا خشبه.

هذا ما عرفناه عن حفلات الشاي ومآدب التكريم التي أقيمت وكانت كل واحدة منها تضم عدداً كبيراً من أهل العلم والفضل الذين يعرفون مكانة علمه وجهاده ويقدرونه قدرها.

الخطباء:

ويضيق بنا المقام لو أردنا وصف هذه الحفلات والمآدب وإيراد أسماء الذين حضروها ويعدون بالمئات، ونشر الخطب والقصائد التي ألقيت أو تلخيصها وتعد بالعشرات فإن ذلك يحتاج إلى مجلد ضخم يفرد لها. ولذلك نكتفي بنشر أسماء الذين خطبوا فيها وكلهم من أقطاب البلاغة وأئمّة الفصاحة والبيان فيكوّن القارىء فكرة صحيحة عن هذه الخطب والغرض الذي دارت حوله:

حمد الباسل باشا، الشيخ عبد الله عفيفي، الأستاذ الحاج محمد الهواري، الأستاذ عبد المجيد نافع، الأستاذ أحمد غلوش، الأستاذ لطفي جمعة (وقد كان بلبل هذه الحفلات الغريد فخطب في معظمها تلبية لدعوة الجمهور الذي كان يلح عليه في كل مرة). أحمد شفيق باشا، الدكتور منصور بك فهمي، الدكتور زكي مبارك، مهدي بك رفيع مشكي توفيق دياب، الدكتور محجوب ثابت، الأستاذ بولس غانم، الأستاذ رمزي نظيم، الأستاذ محمد الهلباوي، الشيخ عبد الوهاب النجار، حسان أبو رحاب، الشيخ علي الزنكلوني، الشيخ طنطاوي جوهري. وتكلم بعضهم أكثر من مرة واحدة.

وكان الأستاذ الثعالبي زينة هذه الحفلات وواسطة عقدها وكان يخطب في ختام كل حفلة أو مأدبة رداً على أقوال الخطباء شاكراً ومعلقاً. وقد لاحظ الدكتور زكي مبارك في خطبة له بأن الأستاذ لم يكرّر في خطبه المتوالية معنى قاله في خطبة سابقة، بل كان يدير الكلام في كل مرة في موضوع جديد يستوحيه من الإجتماع.

الإجتمـاعـات:

ومع تعدد الموضوعات التي عالجها الخطباء وتنوعها ومع أنهم ذهبوا في الكلام كل مذهب فإن في الإمكان إعادتها إلى الموضوعات الرئيسية الآتية:

1 ـ ضرورة تعزيز الحركة العربية وتنظيمها ويجب أن يبدأ ذلك بالتعليم فتوحد برامجه في جميع البلدان العربية وتعقد له مؤتمرات دورية منظمة؛

2 ـ اعتبار بلاد العرب وحدة كاملة تمتد حدودها من الخليج العربي حتى الأنطلانطيكي واعتبار العربي مواطناً في أي بقعة أقامها من البقاع العربية؛

3 ـ إنشاء روابط علمية واقتصادية وسياسية وثيقة بين هذه الأقطار علاوة على الصلات العنصرية والدينية وتبادل الزيارات لتأييد هذه الروابط وتعزيزها؛

4 ـ مقاومة الإستعمار الأوروبي بجميع الوسائل والسعي لتحرير بلاد العرب وإنشاء دولة عربية كبرى تنتظم هذه الأقطار وتحيي مجد العرب. وتذكير العرب بأنهم من أشرف الأمم ومن أكثرها عدداً وأنهم يسيطرون على طرق المواصلات الكبرى في العالم ويملكون أعظم البقاع وأعظم البحار: البحر الأبيض المتوسط: وقد اقترح بعض الخطباء أن يسمى بعد الآن (بحر العرب) لا بحر الروم لأن العرب يؤلفون أكثرية الشعوب النازلة على ضفافه. والبحر الأحمر. وخليج العرب (خليج فارس سابقاً) وبلادهم غنية

بالمعادن والبترول والحديد والنحاس والمعدن وما عليهم إلا أن ينهضوا ويتفقوا ويسيروا إلى الأمام فيعودوا كما كانوا سادة العالم وقادته فالشعوب تتكتّل في هذه الأيام وتجمع شملها وشتاتها والشعب العربي من أكثر شعوب العالم عدداً ونفوساً؛

6 ـ الإستهانة بقوى الغرب المادية، والإعتقاد بأن المدنية الأوروبية المادية تسير إلى الزوال والإنقراض وأن واجب العرب أن يتعاونوا على إنشاء مدنية جديدة وثقافة جديدة تحل محل المدنية الغربية والثقافة الغربية وتضمن للناس السعادة والهناء والإستقرار وتدرأ عن البشر شرور الإنقسامات والمفاسد؛

7 ـ العمل على تعزيز الروابط والصلات مع الشعوب الإسلامية الأخرى[31].

ثالث ثلاثة

هذا مجمل الموضوعات التي تناولها الخطباء في خطبهم وأعادوا وأبدوا فيها، يضاف إلى ذلك إجماعهم على امتداح صفات الثعالبي ومزاياه وتقدير خدماته وقد عدّه الأستاذ محمد لطفي جمعه ثالث ثلاثة أيقظوا العالم الإسلامي ووضعوا أسس النهضة الحاضرة وهم على التوالي:

1 ـ السيد جمال الدين الأفغاني؛

2 ـ السيد عبد الرحمان الكواكبي؛

(31) هذه المطامح في الوحدة العربية، وهذا التصور المتكامل للنهوض بها. وهذه الآمال المشرقة في بعثها. لم تزل ـ مع الأسف ـ بعد مرور ما يقرب من ستين عاماً، وبعد الجهود الدائبة للأجيال المتعاقبة، وبعد التطلع المضني من الأجداد حتى الأحفاد. لم تزل الوحدة العربية في أواخر القرن العشرين، تراود أحلامها الأولى التي داعبت الثعالبي وأمثاله في بدايات هذا القرن.

3 ـ السيد عبد العزيز الثعالبي. وقال إن الأولين لحقا بربّهما ولا يزال الثعالبي بيننا يدعو بدعوتهما[32].

سفر الثعالبي

وفي الساعة السابعة والنصف من مساء الأحد غادر الأستاذ محطة القاهرة إلى الإسكندرية فودّع وداعاً فخماً.

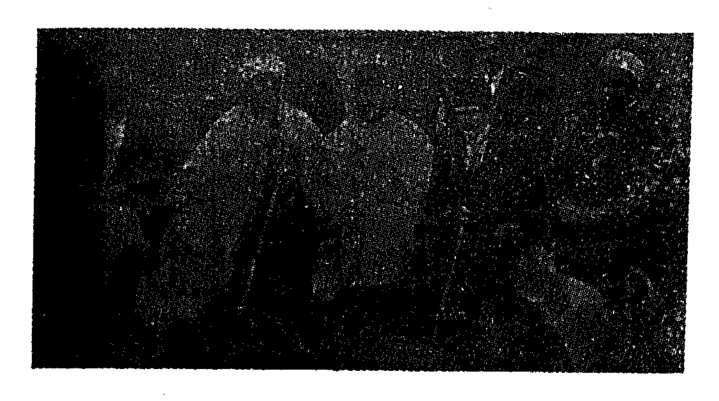
حفاوة أنصار الرابطة العربية في بنها

واستقبله في محطة (بنها) أنصار الرابطة العربية بالهتاف والتصفيق حين وصول القطار وخطب الأستاذ شافعي عبد الفتاح الإمام وكيل مجلة الرابطة العربية في بنها بإسم الرابطة منوّهاً بخدمات الأستاذ الجليل ومتمنّياً له سفراً سعيداً وتوفيقاً في خدمة أمّته وبلاده ودينه[32].

(32) الأستاذ محمد لطفي جمعة غير مبالغ في هذا التصور من منطلق الإصلاح المتكامل للمجتمع العربي الإسلامي دينياً وسياسياً واجتماعياً، ومن منطلق امتداد هذا الإصلاح وإشعاعه في مختلف الأقطار العربية والإسلامية التي استقطبت جهود هؤلاء الرواد ومن منطلق ثالث، هو مقارعة الإستعمار الغربي بمختلف أشكاله وجنسياته، وفضح أطماعه وتكالبه على مقدرات الشرق.

وتبقى للإمام محمد عبده، ريادته في تجديد الدنيا والدين، ويبقى رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث، كما يعنون الدكتور محمد عمارة كتبه القيمة عن هؤلاء الرواد.

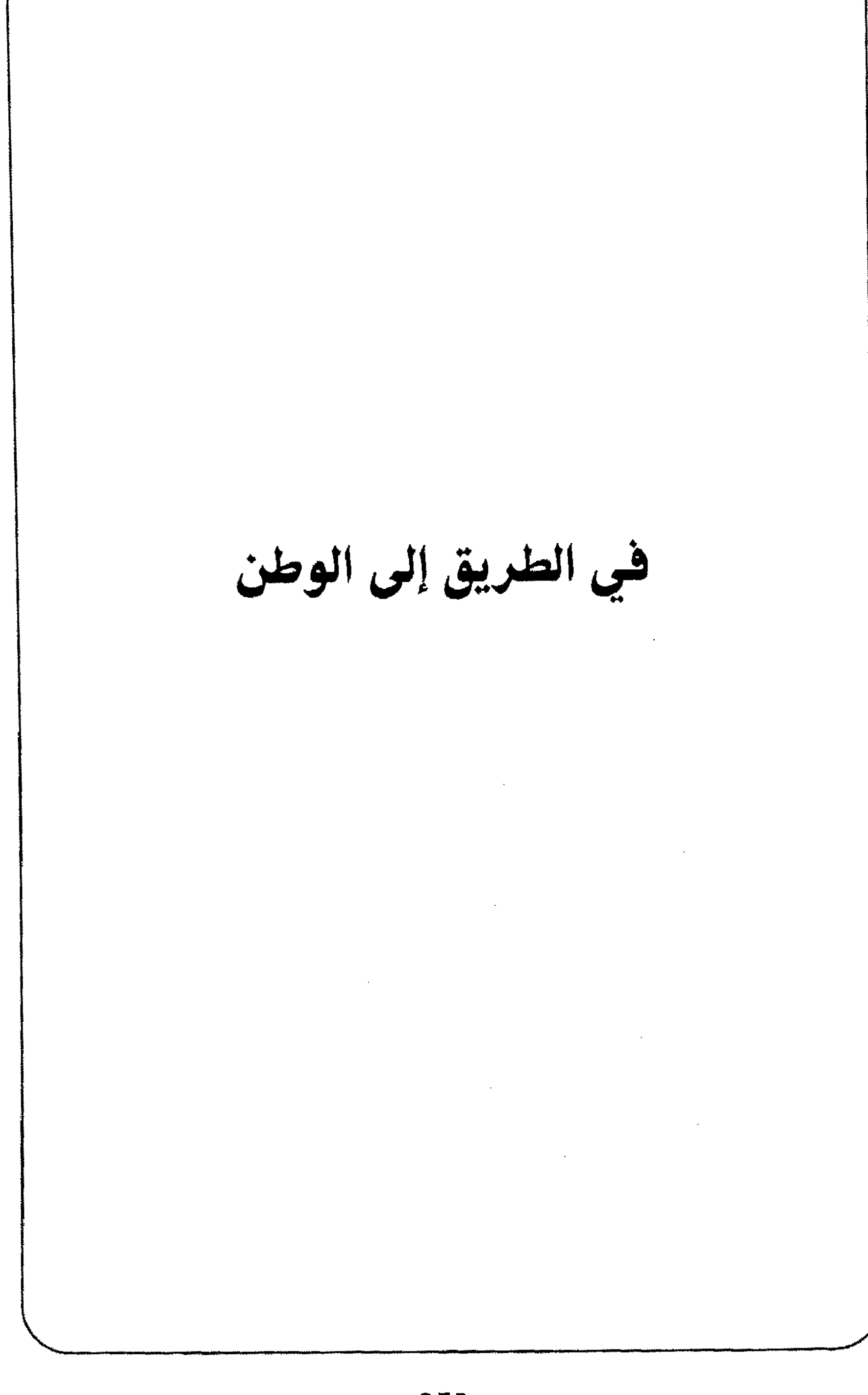
(33) نشرت هذه المقالة في مجلة (الرابطة العربية) عدد (56) يوليو 1937.



صورة تاريخية بالرغم من عدم وضوحها. رموز الدعوة إلى الوحدة العربية في الثلاثينات في القاهرة من اليمين إلى اليسار: الشيخ إبراهيم اطفيش، الدكتور منصور فهمي، الشيخ عبد العزيز الثعالبي. الشيخ علي سرور الزنكلوني. الشيخ محمد الخضر حسين.



صورة تجمع بين المؤلف والدكتور منصور فهمي في المؤتمر الرابع للأدباء العرب في الكويت (ديسمبر 1958) من اليمين إلى اليسار: الدكتور منصور فهمي بطربوشة يحاور الأستاذ عادل الغضبان مدير دار المعارف بالقاهرة. الشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس المعارف بدولة الكويت السيدة حرم عادل الغضبان. صالح الخرفي رئيس وفد الجزائر إلى المؤتمر.



في الطريق إلى الوطن

SIGNALEMENT

Taille :
Cheveux :
Sourcils :
Front :
Yeux :
Nez :
Bouche :
Barbe :
Menton :
Visage :
Teint :
Signes particuliers :

Accompagné de ... enfants :

Nom	Prénoms	Date de naissance

Photographie du titulaire et, le cas échéant, photographies des enfants qui l'accompagnent.

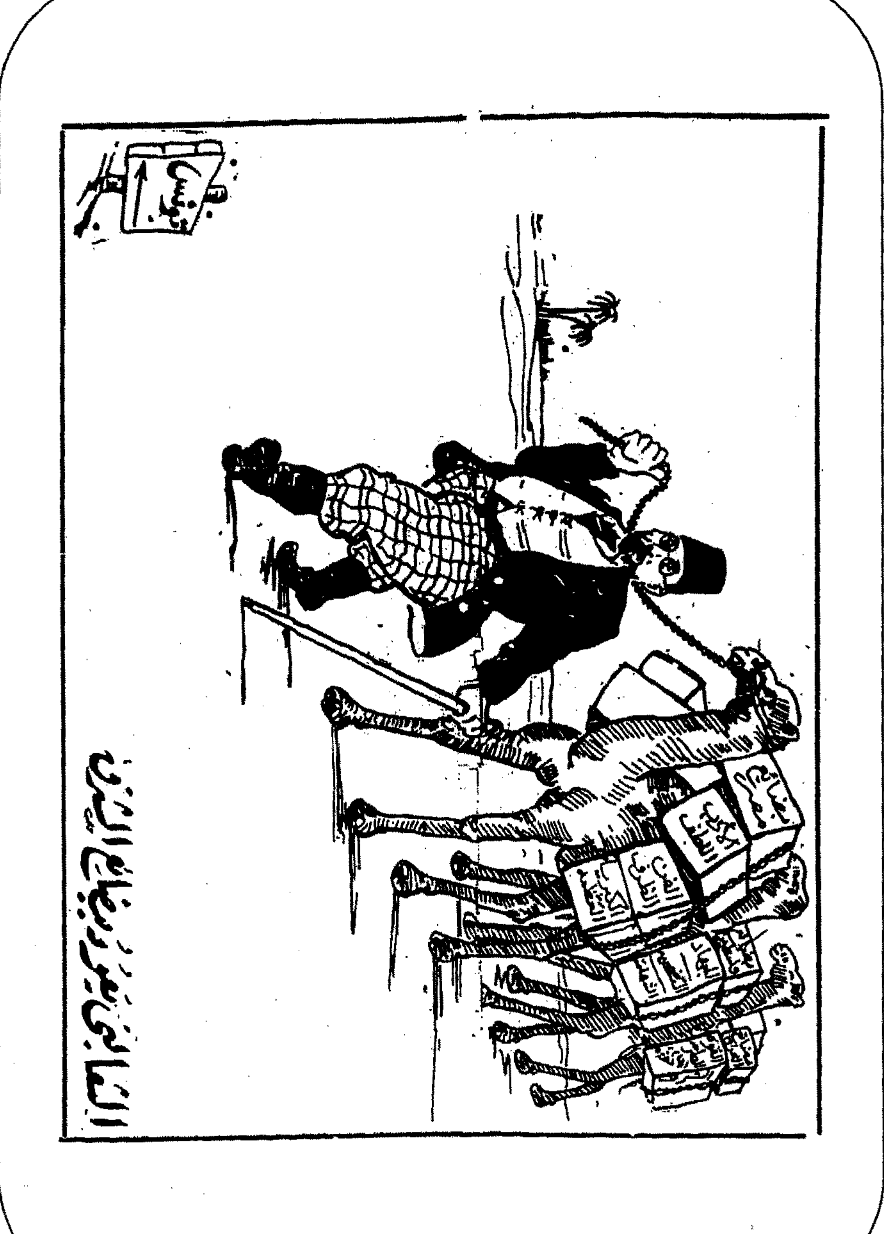
Signature du titulaire

صورة (الثعالبي) على جواز السفر الذي عاد به إلى تونس سنة 1937

في الطريق إلى الوطن
الأستاذ الثعالبي يعود إلى تونس
بعد غربة أربعة عشر عاماً

منذ أربع عشرة سنة، كانت سفينة من السفن الكبيرة تغادر ميناء تونس في رحلة لها صوب الشرق العربي. وكانت ـ كنظيراتها من سفن البحار ـ تمثل عالماً صغيراً، يغدو فيه الناس، تحدوهم الآمال، وتبقى على البشر يشيع في وجوههم، هذه الأحلام اليقظة التي يصورها الخيال، وينمقها الذهن بما فيه من قدرة على الخلق والتصوير. فواحد من المسافرين يقدر أن صاحبته وبنيه سيلقونه بعد أيام وساعات، فيعانقهم جميعاً، ويذهب نفسه في نفوسهم غبطة بهذا اللقاء.. وآخر ينتظر في أول ميناء رفقة طيبة، وصحباً يربطه بهم ود قديم، وحب متصل سيتطلعون إلى مقدم الجارية[1] في لهفة وشوق، ويغرقون صاحبهم بالقبل والصيحات الفرحات. ولثالث يحمل في حقائبه عروض التجارة، وألوان السلع، ويمضي الوقت حاسباً، ويمضي الليل كاسباً في خيال الأموال الوفيرة التي ستدرها عليه تجارته.. ورابع ينظر إلى هذه الرفيقة الصبيحة الوجه، الممشوقة القد، التي استصحبها في رحلته

(1) (الجارية) السفينة. ومنها قوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ [سورة الرحمن، الآية 24].



الثعالبي يعودُ ببضائع الشرق

من جريدة (الشباب) لمحمود بيرم السنة الأولى العدد الثاني (6 نوفمبر 1936).

إلى الشرق وسحره، يمنيها بالليالي العذاب، والأيام المشرقات بالفرح والمرح . .

كلّ أولئك وأمثالهم كانوا في شغل بما حددت لهم سفرتهم من مهام، فهم يحصون الساعات، ويستعجلون الليل والنهار ويودون لو تحملهم الطير إلى حيث يريدون بدلاً من هذه الماخرة[2] التي تشق الطريق في اتئاد . . ولكن واحداً من ركاب هذه السفينة لم يكن ينتظر في نهاية رحلته زوجة وبنين، ولا أصحاباً وندماناً، ولا مالاً وتجارة ولا أوقاتاً يقضيها في السرور المشرق وأن الأقدار أبت إلاّ أن تقذف به إلى السفين[3] قذفاً، وتدفع به إلى المجهول من أمر الحياة والأحياء دفعاً، وتبعد ما بينه وبين الوطن وتشرده في أقطار الأرض هائماً على وجهه، بعيداً عن الزوج والابن والعشيرة والوطن العزيز . . هذا المسافر كان يحمل في صدره قلباً مثقلاً بالهم، ويحمل في رأسه مخيلة لا تكل عن رسْم الصور المبهمات، التي لا تبعث في النفس راحة، ولا تحمل إلى الفؤاد رضا . . هذا المسافر الذي انتزع من الوطن المحبوب بأرضه وما أقلت، وأهله وما طبعوا عليه مـن ود ووفاء، وقومه وما حملوا له من حب وولاء، إلى عالم مجهول، فيه الخير والشر يلتقيان، وفيه السرور والحزن بمتزجان ولكن أي سرور يخالط هذا الحزن وبدانيه على ماض حافل غودر وكأنما انتزع من ثنايا الفؤاد انتزاعاً، وعلى مستقبل مجهول أقبل وكأنما تسعى فيه شياطين المشقة والعناء .

نرى أكان صاحبنا نادماً على هذه الأيام الطوال التي قضاها يصب على أعداء وطنه شواظاً من نار، وينادي بحرية قومه فيجمع الصفوف، ويجند القوم، ويدفع بهم إلى الجهر بالسخط، والعمل على انتزاع براثن الأعداء من قلب الوطن الجريح الكسير الجناح؟

---

(2) (الماخرة): مخرت السفينة، جرت، أو استقبلت الريح في جريها .

(3) (السفين): جمع سفينة .

ترى أكان صاحبنا آسفاً على هذه النار التي أوقد جذوتها، وأجج شعلتها، فأضاءت قلوب مواطنيه وقد دفع هو الثمن غربة وحرماناً، ومرارة تقل عنها مرارة الحنظل؟

لا وأبيكم..

لا ندم ولا أسف..

ولكن كان صاحبنا، وقد أحاطته زرقة السماء والماء يفكر تفكيراً هادئاً وادعاً.. يفكر في المصير الذي ينتظر وفي هذا الشاطىء المحبوب الذي غادر، وهو لا يعلم إن كان سيراه أم سيطوي الحياة وهو بعيد عنه.. لم يستبد به الغضب، ولم يحترق بنار الأسى، ولا سيما حين تذكر أنه جاوز الأربعين بسنين. وأن الشيخوخة التي تدب نحوه قد لا تبقى في العمر بقية لكفاح جديد ينازل فيه الأعداء وجهاً لوجه، ولا ساعات طيبات مع الأهل والأصدقاء يتعاطون فيها كؤوس السرور والألم والأمل جميعاً.

تلا صاحبنا:

«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون. وعدا عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن... ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم»[4].

ثم هتف من أعماق ضميره:

«صدق الله العظيم»

وأخذ يعود في جلسته المطمئنة إلى الوراء قليلاً، ويستعرض رحلة حياته، فإذا هي حياة المحارب الباسل الذي ما كاد يشتد ساعده حتى حمل السلاح، وكرس وقته وجهده وماله لدعوة قومه إلى الحق، وتبصرتهم سبيل

---

(4) سورة التوبة، الآية 111.

الخير وحملهم على السير وراءه لكفاح المستعمرين أعداء الوطن وأعداء الدين. . لقد عرض روحه على الله فاشتراها جل جلاله ونقده الثمن، وعدا صادقاً بأن له الجنة «ومن أوفى بعهده من الله؟». . لقد نفى في أيّام الشباب فسار إلى المنفى بقدم ثابتة، وسجن فسار إلى السجن بنفس راضية. ثم وصل الشباب بالرجولة، والرجولة بالكهولة واثقاً بأن الكفاح في سبيل الحق «هو الفوز العظيم». . . .

لا أسف إذن، ولا ندم.

وليكن بعد هذا ما يكون.

أشرقت أسارير المسافر، وقارن بين نفسه وهو يبتعد في سبيل العقيدة عن الوطن وطيباته وبين هجرة رسول الله، فارتاح إلى المثل الكريم العالي الذي ارتضاه لنفسه وكأنما الله أراد أن يسبغ على فؤاده السكينة والرضوان ولا سيما حين نذكر أن رحلة الحياة نفسها قد تنتهي وهو في غربته فانطقه بالآية الكريمة:

﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً، وسعة. ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾[5].

وهكذا تبدد القتام الذي شاع قليلاً في نفس المسافر وأضاءت روحه من جديد، وأشرقت أساريره ببسمة الأمل النديّ، فكان على الرغم من أنه الشريد الوحيد. أكثر الركب راحة، وأهدأهم بالاً، وأنعمهم نفساً.

وألقت السفينة مرساها باسم الله في الاسكندرية، فنزل المسافر ليجد فيها وفي أهل مصر عشيرة هي عشيرته وقوماً هم قومه، وناساً لقيهم قبل هذه المرة مرتين، فعرفوا فضله، وقدروا علمه، وأعلوا من جهاده، فكان عندهم الكريم المفضل. .

---

(5) سورة النساء، الآية 100.

لا غرابة إذن ولا وحدة.

وإلى الجهاد مرة أخرى..

ولكن أي جهاد استقبل به المسافر منفاه، والمقيم مقامه في داره الجديدة... جهاد أكبر من جهاده السابق جهاد في سبيل الإسلام وشعوبه.. جهاد في سبيل العروبة كلها والناطقين بلسانها... كفاح أشمل وأعم، تحتل فيه قضية الوطن مكاناً كريماً، ولكن لا تحتل كل مكان.. ألم يقذف به الاستعمار بعيداً عن الأهل والوطن. إذن فليكن الاستعمار عدوه الذي يكافح في كل مكان، وليتسع الميدان، فيحارب هذا الفارس أينما استقر، وكلما وجد فسحة من الوقت..

لقد حارب في تونس فرنسا

فليحاربها اليوم من أجل تونس وسورية

وليحارب معها انجلترا من أجل مصر وفلسطين والعراق والهند.

وليحارب معها إيطاليا من أجل طرابلس

وليحارب معها جميعاً هولندا من أجل اندنوسيا

وليحشد هذه الأمم صفاً صفاً ليعلي فيها كلمة الجهاد ويدعو إلى وحدة الإسلام وشعوبه أينما ألقى عصى التسيار.

أخذ يطوف في أقطار العروبة والإسلام، فسار من مصر إلى فلسطين وشرق الأردن والحجاز واليمن، ثم رحل إلى الهند وعاد منها إلى بلدان الخليج الفارسي وصعد إلى بلوخستان والعراق. ثم عاد إلى مصر..

ولم يستقر طويلاً حتى عاوده الحنين إلى الرحيل فركب البحر من جديد إلى الهند وعاد منها إلى العراق وإيران، ورجع رجعته الثانية إلى مصر..

وقبل أربعة أعوام، وجد أن طول الإقامة في مصر قد يفوت عليه أغراضا، فرحل من جديد رحلة طويلة مخر بها بحار آسيا جميعاً فسافر إلى الهند وبرما وسنغافورة وبلاد الفيلبين والصين..

وكانت هذه الرحلة شديدة الوطأة على الاستعمار، فخاف من نتائجها، وأبلغه أن باب بلاده مفتوح، ووصلته أنباء بأن الحزب الذي ألفه ليحمل علم الجهاد في حاجة ماسة إلى عونه، فقطع رحلته وعاد وما أن وصل إلى مصر وحجز مكانه في أول باخرة مسافرة إلى تونس حتى علم أن الأمر خدعة دبرت له فوقع في حبائلها[6]. فلم يصرح له بالعودة إلى بلاده. . .

لم يزده هذا الحادث إلّا إمعاناً في خطته، واستمساكاً بها. فأخذ في مصر يدعو دعوة قوية منظمة إلى تحرير الشعوب الإسلامية عامة والعربية خاصة، ويكاتب ملوك المسلمين وأمراءهم وقادة الرأي فيهم، ومصر بطبيعتها

---

(6) في أواخر سنة 1933. راسل (الثعالبي) من القاهرة وعدن، بعض أصدقائه الأوفياء له، ومن يستأمنهم على سره، وحاضره ومستقبله. راسلهم يستمزج آراءهم في العودة إلى تونس، ومن هؤلاء (الشيخ محمد الثميني) من رفقاء الدستور، وصاحب مكتبة الاستقامة الشهيرة بابن عروس ثم بالعطارين. فأجابه بتاريخ 11 رمضان 1352هـ 29/12/1933 قائلاً:

«أما أنا، فرأيي، الخاص هو أن وجودكم في تونس، فيه فوائد جليلة من عدة جهات، والشرق أمامكم في كل وقت، على فرض عدم ملاءمة الحالة. على أن رأيي أن الحالة تبدلت نوعاً ما: فأصبح الوطنيون يدركون أن كل حركة لا بد لها من زعيم يسندها ويفيدها. وإلا سارت سيراً مضطرباً. إن لم تمت.

وقد أطلعت الأخ الأستاذ علي كاهية على الخطابين فوعد بمكاتبتكم. كما وعد الأخ محي الدين».

وأما الشيخ صالح بن يحيى. المقرب من الشيخ الثعالبي. سياسياً وعائلياً ومالياً. فقد كتب إليه بعكس رأي الثميني. وقال له:

«والبلاد سمعت أنك ستبارح مصر، كون أهلك في تونس. فغير متبصر، يرى أن كونك بتونس أفضل منه بغيرها، والعارف بحقائق الأمور، يرى كونكم بتونس. مضر لكم مادياً وأدبياً. وأنا من القسم الأخير». الرسالة بدون تاريخ.

«وشرح (ابن يحيى) وجهة نظره هذه للشيخ الثعالبي. وقد أثبتت الأيام سداد هذه النظرة، وأرجأ الثعالبي عودته إلى سنة 1937 والتي أكدت من جديد بأن الشيخ صالح كان عالماً بحقائق الأمور.

طريق لجميع زعماء الدنيا، فكان يخف إلى لقائه كل مار بها، ويجلس إليه يشاوره ويدرس معه الخطط وأساليب العمل.

واستمر في مصر ثلاث سنوات كاملة يعمل بالليل وبالنهار، يحمل البريد منه وإليه آلاف الرسائل، وهو مع هذا لم يهمل قضية وطنه، فكان دائم الاتصال برجاله الذين خلفهم هناك يسمع منهم ويقول لهم ويوجه نشاطهم وكانت تفد إليه من تونس وفود متتابعة تسمع رأيه، وتعرض عليه حالة البلاد.

هذه الحركة التي لا تكل ولا تمل أقنعت الفرنسيين أن الزعيم الكبير الثعالبي ـ فهذا اسم صاحبها الذي نحدثك عنه ـ قوة لا تغلب، وأن من الخير أن يعود إلى وطنه، ففتح له الباب من جديد.

ولكنه رأى هذه المرة أن يتريث، حتى يختبر مدى هذا السماح. وكانت قد جدت في ذلك الوقت مشكلة المنبوذين، والعمل على إدخالهم في الإسلام. فرأى أن يتوج جهاده الطويل الذي استمر أربعين سنة كاملة، قبل هذا النفي الأخير وبعده، برحلة إلى الهند يدرس فيها حال تلك الملايين الهائلة ويرسم الخطط لدخولها في الإسلام. ركب البحر مرة أخرى على الرغم من نداء الوطن، ودعاء الأهل وذهب يؤدي واجب الله قبل واجب نفسه، وفي الهند التقى بالأمراء والزعماء الذين يعرفهم، وطاف بالبلاد الواسعة طولاً وعرضاً، وأعد تقريراً عن رحلته هو الأول من نوعه منذ وجد المنبوذون في هذه الدنيا.

وعاد منذ شهرين، فأتمّ تقريره، وسافر إلى فلسطين ليودع صحبه هناك، وها هو ذا قد جاء إلى القاهرة ليحمل حقائبه ويعود إلى بلاده بعد غربة دامت أربعة عشر عاماً.

تبارك الله ما أعظم حكمته، وما أجل تصريفه. هو ذا الثعالبي سيعود إلى وطنه، بعد هذه الغيبة الطويلة وقد شاب رأسه، ولكن قلبه لا يزال فتى.

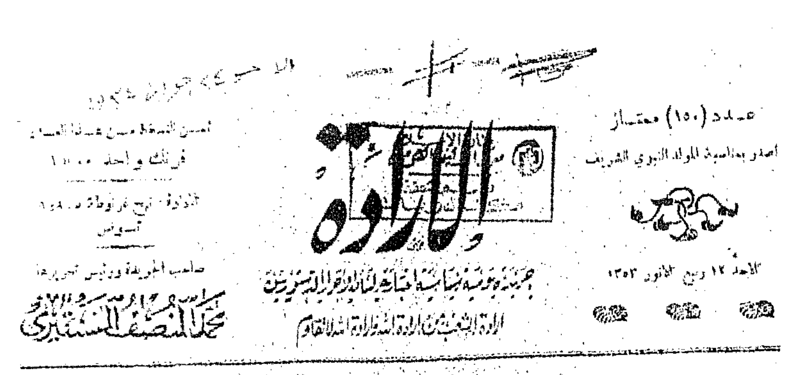
يعود لا ليستريح بعد هذا الجهاد الشاق الذي طبق أفاق الأرض من المحيط الهادي إلى البحرين الأحمر والأبيض، بل ليستأنف العمل من جديد، وليتم هذا الذي ترك في سنة 1923 وكل الأعوام الأربعة عشر لم تكن شيئاً مذكوراً.

لقد أميل إلى تمجيد التضحية التي يضحيها الثعالبـي ولكن أخشى وقد هانت بيننا المقاييس أن تفهم هذه التضحية على أنها من النوع الرخيص الذي اعتاده الناس فأتراجع. وقد أميل إلى وصف البطولة الخالدة التي تجلت في حياة هذا الرجل الجبار، ولكني أخشى أن أقصر فلا أصل من وصفها إلى ما أريد، فارتد حائراً.

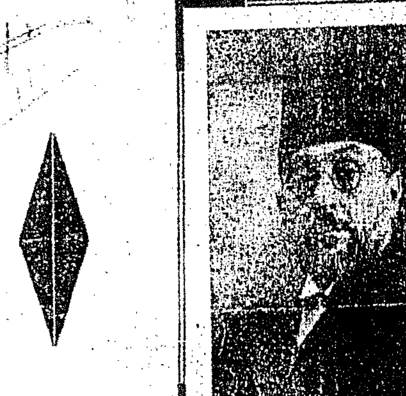
ألا فلتستقبل تونس البطل.
وألا فلنهتف من الأعماق للثعالبـي، فهو حقاً رجل[7].

(صبيح)

(7) نشرت بمجلة (الرابطة العربية) العدد (54) يونيو/ حزيران 1937.







تبرز بصدور هذا العدد الممتاز الذي اصدرناه خصيصا لذكرى مولد الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم بصورة الزعيم الجليل والمجاهد الخطير والاستاذ الكبير والرحالة البحاثة الشهير مؤسس الحركة الوطنية بهذا القطر الشيخ عبد العزيز الثعالبي عجل الله اوبته وذلك بمناسبة توالي الاخبار باعتزامه ابقاه الله على العودة الى الوطن بعد رحلة في احشاء الشرق دامت اثنتي عشرة سنة كان خلالها بين عظمائه وزعمائه وامرائه واعلامه علمائه موضع الاجلال والاحترام.

والارادة التي هي لسان الحزب الذي اسسه هذا الزعيم واقام على رعايته وحراسته المخلصين من اعوانه بعد قيامه بهذه السياحة الكبيرة ترى من واجبها وهي تحتفل بمولد نبي الاسلام ان تنشر صورة هذا البطل الذي خلد في صفحات تاريخ الكفاح الوطني وحركة النهوض الاسلامي انصع الصفحات وضرب المثل الاعلى لامته وقومه في الثبات والصبر ومواصلة العمل اكثر من نصف قرن للوصول الى اسمى واشرف غاية.

ذلك هو بطل العروبة والاسلام ابو الاحرار الشيخ عبد العزيز الثعالبي ادام الله حياته الخالدة وامتعنا بالاجتماع به والاستماع لما يلقيه من الحكم الغالية والفلسفة الروحية العالية انه سميع مجيب.

من مصر إلى تونس
بمناسبة عودة زعيم تونس الكبير
السيد الثعالبي إلى وطنه

سيدي العزيز،

ها أنذا أعود من الإسكندرية بعد أن ودعتك، وأجلس إلى مكتبي استجمع ذكريات هذه الأيّام القليلة السعيدة التي قضيّتها في الثغر المصري الباسم أحتفل معه بزعيم القطر الشقيق، وأترقّب الساعة التي تفصل فيها الجارية عن أمواه الشواطىء المصرية إلى حيث تريد. إلى حيث ينتظرك شعبك الوفي . . .

فهل تذكر معي السّاعات التي أقمناها في أقصى المدينة، وأمواج البحر تصطخب من حولنا، ونشاط زميلنا العزيز الأستاذ (مهني) يملأ المكان حياة فوق ما فيه من حياة، وهذا الجمع الكريم من «المغاربة» يحف بك . . . يسمع منك في شغف، وتسمع منه في سرور وإقبال . . .

لقد سألتني ساعة ذاك عما يسكتني، ويستغرق فكري، فلا أشارك القوم فيما هم فيه من جد وهزل . . .

حقّاً لقد صمتُ، ولكن ذهني كان حركة دائمة . . يفكر في هذه الأمواج التي تحيط بنا من ثلاث نواح، وبعضها يأخذ برقاب بعض فتعلو أصواتها، وتكاد تطغى على أصوات المتكلمين بجواري . . . ترى أكانت الأمواج فرحة مرحة، لأنها تحمل بعد حين زعيم تونس، وتسير به إلى حيث

الزوجة والولد، وبقية الآل وأبناء الوطن، فتلقي به بين أحضانهم. . . أم أنها كانت غضبي، ثائرة، لأن هذا الشاطىء وما صافحه من بلاد، وما نقل من ناس سيأسي من لوعة الفراق. . . فراقه لرجل أثيرٍ عليه، بادله الحب، وبايعه الود صفقة رابحة، رضي عنها البائع والمشتري.

صمت، أفكر في هذا وأمثاله، ثم قلت لنفسي، فلتفرح الأمواج، أو لتغضب فقديماً لم يجد شاعر المعرة أبو العلاء فرقاً بين شدو الحمائم ولا نوح الباكيات. . وزئير الأسد يعلو عند غضبه، كما يعلو عند لهوه. وليس يعنيني أن أصغي لمنطق الموج وأهمل هذا الحوار الطريف الذي كان يدور بين شيخين من أشياخنا الأجلاء: الأستاذ الفاضل الكريم عبد الله عفيفي وقاضي الشرع الذي نسيت اسمه. . .

ما أبدع ما كان يدور بينهما من جدال. أتذكره معي؟ أتذكر كيف كان يحمل أولهما على رجال الدين، وينكر عليهم تفريطهم فيما ندبتهم الحياة له من القوامة على عقائد المسلمين، وإقبالهم على شؤون الدنيا التي استغرقت جل وقتهم، وقيدت كل قواهم. فيرد عليه صاحبه قاضي الشرع محبذاً ما يأخذه به سادتنا العلماء أنفسهم من اهتمامهم بأمر معاشهم فهو فريضة لا يأباها الدين، مؤكداً أن العلماء ينتهزون الفرص للذّود عن الإسلام، ولكنهم يجدون الناس صماً لا يسمعون، وعمياناً لا يرون ولا يفقهون وليس يليق بهم أن يقدموا على شيء أكثر من التحذير، فأولو الأمر هم قوة التنفيذ دون العلماء.

وأذكر أنّك كنت تبتسم لهذا الحوار، وتلقي بالك إلى الشيخ عفيفي، وهو يضيق الخناق على صاحبه، ويضرب له مثلاً بما كان من محمد ﷺ، وكيف ظل يجاهد ويجالد ثلاثاً وعشرين سنة حتّى انتصرت دعوته وعلت كلمته، ثمّ تضحك حين يقول قاضي الشرع الحنيف أن محمداً كان رسولاً من عند ربه. . . تضحك وتهم بأن تقول شيئاً، ولكن يسترعى نظرك الشيخ عفيفي وهو يتحفز ويثب، ويلقى إلي صاحبه بأن العلماء هم ورثة الأنبياء، وأن

الصحابة، وتابعيهم كانوا يجاهدون، وينالون من الأذى مثلما كان ينال محمد من أعدائه، ويذكر للقاضي الفاضل بأن الله لفت نظر المسلمين إلى أنّ لهم في رسول الله أسوة.

وهنا لا يجد القاضي بدا من أن يظهر الغضب، فيرمي صاحبه بما يسيئه فيفسد ما بين المتناقشين، وتتدخل أنت فتعالج الأمر بحكمتك، وتتكلم في موضوع الحوار آخذاً من المعتدي للمعتدى عليه، حتّى تطيب نفسه، ويتبل الحضور على القاضي يلحون عليه في أن يعتذر لصاحبه، فيقبل عليه رضيا ويتصافح الرجلان وقد باعدت بينهما رغبة الوصول إلى الحق، ثم قاربت بينهما كلمة الحق في ذاتهما...

وإني في هذا كله لا أزال صامتاً، أبتسم بين حين وحين، فتعاود سؤالي عما يشغلني، فأقول لك: إني فرح بهذا الحوار، مغتبط إلى ما وصل إليه من خصام. فلست أكره أن يختلف النّاس، لأن الخلاف دليل على الحياة وباعث للنشاط، كما أن الإجماع يورث الناس الجمود والعته... فتضحك من هذا الرأي وتنادي الأستاذ عفيفي وتخبره بما رأيت في أمره مع صاحبه القاضي... وأمضي أنا، فأحيل على الأستاذ عفيفي من يطالبه بالكلام ويلح عليه حتّى يثور الخلاف من جديد، ويتكلّم الأستاذ ويؤكد ما أراد الذهاب عليه من تقصير العلماء وقصورهم في هذا الزمان، ولا يكاد ينتهي حتّى تقبل أنت على الجمع، وقد بلغ بك الإعجاب بمنطق الخطيب حداً حملك على إطالة الثناء عليه، ثم تمضي فتؤكد هذه المعاني التي تحفز إلى العمل، وتحمل على الجد والجلد، وتتمنى على الأيّام أن تتاح للشيخ عفيفي فرصة يحقق فيها أمانيه ويؤدي للإسلام من الحق ما يرضي الله ورسوله.

وإذا كان المساء، واجتمع الناس في دار (الشبان المسلمين) عدتم ثلاثتكم: مولانا القاضي، وشيخنا عفيفي، وأنت إلى ما كنتم فيه في أول يومكم.. فتخطبون في القوم.. أوّلكم يؤكد أن الدنيا بخير، وثانيكم يؤكد أن الدنيا تسير إلى وراء، وأنت تفيض على النّاس من علمك الغزير،

وتجربتك العميقة ما يفتح أمامهم سبيل العمل.

أتدري لماذا ذكّرتك بهذا كله...

لكي أذكر لك أن مجالسك التي تحفل بهذه الآراء وهذه الدعوات، وهذه الخلافات، إنما هي النقطة المضيئة في وسط هذا الظلام المحيط، فما جلس إليك ناس إلّا وغرفوا من علمك، وتحدثوا من علمهم وانصرفوا عنك وكلهم ألم على ما فات وأمل فيما سيجيء ورغبة في العمل الجاد الخصب.

لقد كان في الطاقة أن تكون حفلات وداعك ترديداً لعبارات المجاملة المألوفة، ومبادلة لألوان المدح والثناء... ولكن لا يجوز مع الثعالبي أن يضيع وقت أو تفلت فرصة... فأمم الإسلام وعلماء المسلمين ورجال هذه البلاد وشبابها أجمعين في حاجة إلى مراجعة الماضي، والنظر في أساليب الحياة الحاضرة، وليس مثلك من يغفل عن واجب هو أول من ندبته العناية له.

ثم..

ثمّ أتذكّر هذه الساعات التي كنا نجلسها في الفندق فتسرح بصرك في صفحة البحر إلى حيث يلتقي مع الأفق ثم تقول وكأنك تهمس:

ـ ترى... كيف سألقى (حميداً) ابني.. لقد غادرته طفلاً صغيراً، وصورته الآن في ذهني كما كانت منذ خمسة عشر عاماً، وتأبى أن تطوي هذه الفترة الطويلة لتمثله لي شاباً يانعاً امتدت قامته، ونمت أطرافه، ولم يعد ذاك الصغير الذي كان يجري هنا وهناك ويملأ البيت نوراً وبهجة...

ثم تلتفت إليّ وتقول:

ـ تالله ـ يا صبيح ـ لا أنسى يوماً تلقيت فيه خطاباً من (حميد) ما تلوته حتى ظللت طوال ذاك اليوم مهموماً محزوناً دامع النفس لقد كتب إلي بالفرنسية، لأنها اللغة التي تعلّمها، فأنكرت عليه إهماله للغة البلاد... لغة آبائه، وطلبت منه أن يكف عن مراسلتي إن لم يكتب لي بالعربيّة، فرد عليَّ يقول: وماذا أصنع، وأنا لا أعرف العربية، وقد أهملتني ـ أنا ابنك ـ فشببت

لا أجيد لغتك، وها أنت ذا تطوف الممالك تهديها وتعلمها وتبني الأمم والشعوب وتتركني أنا . . .

فأحاول أن أرفه عنك، ولكنّك لا تليث حتّى تخفى ـ بما جبلت عليه من قوة إرادة ـ ما يحزنك ويكدرك ثم تمضي معنا فيما نحن فيه.

أوَ تذكر أيضاً تلك الساعة التي كنت تحدثنا فيها عن زوجك؟ وتقول:

ـ لم أسيء إلى مخلوق قط، إلا زوجتي.. فقد اقترنت بها منذ ثلاثة وعشرين سنة، ولم أمكث معها غير سنوات خمس، أما ما تبقى فقد قضيته في النفي والسجن وحتّى هذه السنوات الخمس لم أكن خالصاً فإن الحركة الوطنية التي أشتغل بها في تونس كانت شغلي الشاغل. كنت أنزل من البيت في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ أحد، وأمضي إلى عملي في مقرّ الحزب الحر التونسي، وأظل منهمكاً فيه إلى ما بعد منتصف الليل، وكانت زوجتي تنتظرني أحياناً ساهرة مستيقظة، حتى إذا رأتني أخذت تعاتبني على ما أضيع من حقها، ونمضي في خلاف وخصام. لقد حملت إلى كل من لقيت ومن عرفت السعادة والغبطة، إلا زوجتي، فقد احتملت معي أقسى ما تحتمله امرأة في الوجود. لقد غادرتها رجلاً في مطلع قوته، وها أنذا أعود إليها وقد اشتعل رأسي شيباً. . . ومع هذا فلن أكون لها وحدها، ولكنني سأكون كعهدي القديم لبلادي وعقيدتي.

سيدي العزيز،

هذه صفحة من ذكريات تحفظها لك مصر، لم أر بأساً من إذاعتها لتكون أول ما يلقاك مني وأنت في أرض الوطن، ولكي أؤكد لك، بل لنفسي، أننا ـ أنتم ونحن جميعاً ـ نعيش وهذه الذكريات الكريمة تربطنا لأنّها أصبحت ملكنا جميعاً[8].

(صبيح)

---

(8) نشرت بمجلة (الرابطة العربية) العدد (57) يوليو 1937.

تونس بعد عودة زعيمها
أول تصريحات الأستاذ الثعالبي
عن الخطة التي ينوي السير عليها

«أنا أب التونسيين جميعاً، وسأستأنف مع الجميع العمل الذي تركته منذ خمسة عشر عاماً».

لا يكاد يصل هذا العدد إلى أيدي القراء. حتى تكون تونس ـ رجالاً ونساء وأطفالاً ـ قد خرجت لاستقبال زعيمها ومنشىء الحركة الوطنيّة فيها، السيد عبد العزيز الثعالبي، بعد أن غاب عنها خمس عشرة سنة تقريباً. . .

وقد حرص الأستاذ الكبير على ألّا يذكر شيئاً عن الخطّة التي سيسير عليها بعد عودته، وتوليه مرة أخرى قيادة الحركة الوطنيّة في بلاده، ولكن مجلة «الرابطة العربيّة» حرصت بدورها على أن تحصل على أقصى ما يستطيع الزعيم أن يبوح به، فأوفدت أحد محرريها ليكون في رفقته خلال الأيّام التي قضاها في الإسكندريّة، وبعد أن ناب عنها في وداعه، عاد وكتب ما يأتي[9]:

في سنة 1923 نفت السلطات الفرنسويّة الأستاذ الكبير الثعالبي، فترك

(9) من غير شك أن موفد (الرابطة العربية) لوداع (الثعالبي) في الإسكندرية كان محمود صبيح، والمقالة السابقة تؤيد ذلك.

في البلاد الحزب الذي أسسه وهو الحزب الحر التونسي، يحمل من بعده راية الجهاد، ويمضي في الطريق التي شقها هو. . . وكبار أعضاء الحزب الذين خلفهم من خيرة رجال تونس الذين صاولوا الاستعمار وتمرسوا في حلبة الجلاد. إلاّ أن القوة الباطشة عرقلت مشاريع الحزب. ومع هذا، فقد كانت دارته في مناسبات جمة ـ تتصل بالزعيم، وتوقفه على مراحل العمل.

وحدث في سنة 1933 أن اجتمع في تونس نفر من خيرة شبابها الذين أتموا دراستهم في الخارج، ورأوا أن الحركة الوطنية تحتاج إلى تجديد في أساليب العمل يلائم المركز الدّولي الذي يجتازه العالم، وحاولت هذه الجماعة الشابـة أن تتفق مع الحزب على خطة العمل، فبدأ بعض أفرادها بالاندماج في عضوية مجلس إدارته، ولكن خلافاً عنيفاً وقع بينهم وبين الأعضاء القدماء، أدى إلى إعلانهم فصل هؤلاء القدماء، والسير بالحزب في طريق جديدة تلائمهم، واتخذوا لأنفسهم نفس البرنامج الذي خلفه الزعيم الثعالبـي قبل نفيه، وكان دستوراً للحزب أيام وجوده ثم حالت الظروف دون متابعة العمل به حتى للجنة القديمة فعدلته بعض الشيء.

وقدأدّى هذا الانشقاق إلى حدوث تصدّع كبير في الجبهة الوطنية التي كانت تجتمع كلّها في صف واحد، وانحاز فريق كبير من الرأي العام إلى الفئة الشابة، وعقدت الاجتماعات وأخذت المواثيق للسير على البرنامج الذي خلفه الزعيم قبل نفيه وهو يرى إلى عدم الاعتراف بمعاهدة الحماية، والعمل على استقلال البلاد. وانتبهت تونس من جديد إلى قضيتها، وسرت فيها تيارات من الحماسة، مما أدّى إلى عودة الحكومة لسياسة البطش والشدّة فقبضت على عدد كبير من أعضاء اللجنة القديمة والجديدة وأذاقتهم ألواناً من العذاب والمشقة، ولما آذنت محنة الاضطهاد بالزوال، لتغير الحالة في فرنسا، وتولي وزارة الجبهة الشعبيّة الحكم فيها عاد رجال السياسة التونسية يختصمون وأخذ الجميع يتراشقون بالتهم ويتنابذون بشتى الأساليب. . .

ويقال إن اللجنة التنفيذية تقدّمت إلى الحكومة بمطالب لا تدخل في

البرنامج الذي عاهدت البلاد على السير بموجبه وتخالف رغبات الزعيم وخطته القديمة. ولكن لا يعرف حتّى الآن وجه الحق في هذه الإشاعات لأن حرب الدعايات بين النواحي الثلاثة: الحكوميون والشيوخ، والشبان قائمة على قدم وساق.

يظهر أن الحكومة الفرنسيّة تنوي عقد معاهدة مع تونس لتسوية مشكلتها، بعد أن سوت المشكلة السورية[10] لأن الحالة في البحر المتوسط والملابسات الدّولية الأخرى تحتاج إلى إقرار الأمور على نحو مريح في البلاد التي تقع على شواطىء هذا البحر...

ويظهر أيضاً أن وزارة الخارجيّة الفرنسية، رأت ألا تقدم على مراجعة موقفها من القضيّة التونسيّة وزعيم البلاد وحارس هذه القضية الأول بعيد عنها لذا أذنت برجوعه تمهيداً للبحث معه في طبيعة الموقف الجديد الذي تنوي أن تقفه...

فهذه الخلافات الداخلية بين الساسة القدماء والمحدثين ستحمل الأستاذ الثعالبي على التريث عند عودته، ودراسة موقف الفريقين المتنازعين دراسة مباشرة حتى يأخذ فكرة صحيحة بعيدة عن زيف الدعايات، والمرجح إلى العمل تحت لوائه. فالزعيم يرى نفسه أباً للتونسيين جميعاً، ويرى واجباً عليه، وللقضية التي لقى في سبيلها ما لقي أن ينصف الجميع، وألا ينحاز لفريق دون فريق بغير الحق.

فإذا ما انتهى من جمع الصفوف، إلا من أبـى وأراد خلافاً ـ توفر على

(10) يشير إلى معاهدة (1936) التي عقدت في شهر أيلول / سبتمبر من هذا العام، بعد مفاوضات في باريس دامت قرابة الستة شهور بين وفد سوريا برئاسة هاشم الأتاسي وبين الحكومة الفرنسية. وقد تلت هذه المعاهدة انتخابات عامة فازت فيها قائمة الكتلة الوطنية وتشكلت حكومة وطنية برئاسة جميل مردم بك. وانتخت المجلس النيابـي الجديد هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية.

دراسة حالة البلاد من جميع نواحيها: سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. وقد تستغرق هذه الدراسة عدة شهور ثم يضع خطة العمل.

وقد فهمنا أن نقطة البدء ستكون المطالبة بدستور للبلاد التونسية يقر سلطة الأمة، ويعترف بحق المجلس النيابي في إصدار القوانين دون حدود، وينظم المسؤولية الوزارية على النحو المعروف في دساتير العالم الراقية. فإذا انتهت مرحلة تثبيت وتنظيم أداة الحكم الداخلية على هذا النحو فستتدرج البلاد في مطالبها حتّى تفوز بكل ما تصبو إليه من استقلال ورفعة[11].

(11) مجلة (الرابطة العربية) العدد (57) يوليو / تموز 1937. العدد المشار إليه في الهامش رقم (8).

الزعيم الثعالبي
في طريقه من مرسيليا إلى تونس

لم تكد الباخرة «محمد علي» تلقي مرساها على رصيف مرسيليا يوم 5 يوليه 1937 حتى هرع للقاء الزعيم الثعالبي جمهرة من شباب القطرين تونس والجزائر الذين جاءوا لاستقباله مع نجله الكريم حميد الدين فاختار لنزوله فندق «بيتيلوف» لإراحته من وعثاء السفر، فأقام به يومين كاملين، كان فيهما هذا الفندق مباءة لنابتة الشمال الإفريقي يتوافدون عليه من أقاصي البلاد الافرنسية مسلمين. وقد انقطع للقائهم طوال اليومين المذكورين، من الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل، وهم لا يودون فراقه. ولا غرو فإن أحاديثه العذبة كانت متاعاً للنفس، وثروة للكتاب الذين كانوا يتقاطرون عليه لالتقاط رأيه في حال الجزائر وحاضر العرب، ومستقبل شمال إفريقية، وهو يفيض عليهم في الأجوبة بما يناسب المقام، وبعبارة أوضح بما يصلح أن يكون منهاجاً للإحياء والتجديد في تلكم الأقطار.

وفي صبيحة يوم الأربعاء 7 يولية 1937 عزم على الأوبة إلى الوطن. فأبلغته الحكومة التونسية بواسطة محافظ مرسيليا أنها وضعت تحت أمره طيارة خاصة تقله إلى تونس ومن معه من المرافقين. ولكنه أبى أن يدخل الوطن من غير بابه، وفضل ركوب الباخرة على الطيارة بحيث لم تدن الساعة 11 من صبيحة اليوم حتى كنا على ظهر الباخرة «جونار» يحف بنا أشبال الوطنيين وغادرنا الديار الفرنسوية مزودين بقلوب المشيّعين. وكانت البرقيات اللاسلكية تتوارد علينا، حاملة تحية أقطار شمال إفريقية.

وبعد ظهر يوم الخميس أشرفنا على ثغر حلق الوادي، ثم اجتزنا القنال الموصل إلى العاصمة، فألقينا المستقبلين حشوداً متراصة على الضفة الشمالية منه يصفقون ويهتفون بحياة القادم الجليل، أب الأمة التونسية وأصواتهم تقد أجواز الفضاء، وكأن الباخرة لا تسير فوق العباب بل على ذوب القلوب، وهي تتهادى في سيرها كبراً بمن تحمل على ظهرها إلى البلاد، وهي تحمل إليها رجاءها ورمز أمانيها وهكذا قطعنا المسافة بين حلق الوادي وتونس، وسط مظاهر الولاء والابتهاج، إلى أن ألقت الباخرة مرساها على رصيف الميناء أمام الكتل البشريّة. وهنا يضيع الكاتب توازنه، وتخونه القريحة في وصف هذا المشهد العظيم الذي ليس له مثيل في تاريخ البلاد التونسية، وأي بيان يتسع لإظهار ذلك الشعور الشعبي المتفجر غير عدسة المصوّر. فقد قدر المقدرون عدد المستقبلين الذين احتواهم الرصيف بنحو 90 ألف نسمة تتقدمهم عساكر البوليس مع ضباطهم، وعلى رأسهم مدير الأمن العام، وفرق الكشافة وأجواق الموسيقى، وجمعيات الشباب، وهيئات الأحزاب السياسية ومحررو الصحف، والمصورون يحملون أدواتهم ونشاطهم، عند ذلك دوى التصفيق كالرعد يتخلله هتاف بحياة الزعيم الكبير وحين وضع السلم على الباخرة صعدت الهيئة السياسية لديوان الحزب الحر الدستوري، ومكاتبو الصحف والمصورون، فاقتبلهم الزعيم بالقاعة الكبرى للباخرة، وبعد تبادل عبارات الولاء ألقى عليهم كلمة أعرب فيها عن تقديره وشكره للأمة التونسية، ثم ختمها بالثناء على الصحافة صاحبة الجلالة، وكان الجمهور آنئذ على أحرّ من الجمر يتلهف لشهود الطلعة البهيّة، التي يجللها الوقار والنبل، فخرج محاطاً بأعضاء الديوان السياسي ومن خلفهم الصحافيون، وما كاد يبدو للشعب على السلم حتى ارتجت الأرض بالهتاف والتصفيق. وما ذلك إلا الإخلاص والشعور يختلجان بين جوانح الأمة. وما كاد يضع قدميه على ثرى البلاد حتى دوى صوت النفير وصدحت أجواق الموسيقى بالسلام القومي ثم تلتها فرق الشاب والكشافة بالأناشيد الشعبية. وكان الشعب من وراء ذلك يتابع الهتاف عالياً للزعيم. وهنا تقدّم إليه نفر من الشباب يحملون

فوق أعناقهم رمزاً للوطنيّة ماثلاً في فتاة صغيرة عليها تاج وجلباب وهي صغرى حفيدات الزعيم فقبلها ثم قدمت له باقات الأزهار وهي لا تكاد تحصى كثرة ثم فتحت له السيارة الخاصة التي أقلته إلى البيت الكريم وسط بوليس الدراجات النارية يتبعها رتل من نطاقين من السيارات فسار الموكب على هذا الترتيب من شارع الرصيف مخترقاً أكبر شوارع المدينة بين الكتل البشريّة المتراصة وتحت أقواس النصر والاعلام التونسية، وكانت الهتافات العالية تتصاعد من أعماق القلوب فترددها الأصداء من كل مكان بحيث كان الاستقبال شعبياً محضاً، من كل الوجوه وكان باعة المشروبات والمرطبات يوزعونهما على الشاربين بالمجان في جميع المناطق والساحات التي مر بها الموكب على نفقة الشعب وقد أم العاصمة في هذا اليوم البهيج من الأقاليم عشرات الألوف من الأهالي للاشتراك مع العاصمة في إظهار شعائر الولاء لزعيم البلاد.

ومن الدلائل الساطعة على إخلاص الأمة لأبيها وصدق ولائها له أنه لم يحدث منها في هذا اليوم ما يكدر.

وصل الزعيم الجليل بيت الزعامة[12] وكان على حراسته جنود من الكشافة فتلقته أجواق الموسيقى بالسلام الوطني والهتافات الحارة وكانت القاعات تعج بالمستقبلين والمهنئين من الجنسين فقسم الحريم للسيدات والقاعة الخارجية للرجال فقصد للتو دائرة الحريم فتلقته أم الوطنيين ومن خلفها كرائم العقائل بمزيد الاجلال والتوقير كما تلقى الزوجة البارة بعلها الكريم ثم شرعت تقدّم له المهنئات والابتسامة لا تفارق محياها وعيناها تذرفان دموع الإخلاص وهو لعمري من أروع المشاهد الغنية بمختلف العواطف الرقيقة التي بدت في هذا الموقف المهيب الذي يدق وصفه عن أبرع الكتاب، فكيف بالقلم الكليل وبعد انتهاء الاستقبال في دائرة الحريم

---

(12) كان بيت الثعالبي بنهج (الزاوية البكرية). عدد (5)، وهو البيت الذي نزل به بعد العودة إلى تونس سنة 1937.

انتقل الزعيم إلى القاعة الخارجية فجلس ساعة للمهنئين فكانوا يتواردون عليه على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية حتى إذا دنت الساعة غادر بيت الأمّة إلى دار الدّيوان السياسي لاقتبال رؤساء الجمعيات وشعب الحزب ولجانه فخرج كما أقبل في مهرجان عظيم وتمثل له الشعب واقفاً في جميع الطرقات التي مرّ بها على الجانبين وكانت دار الحزب على اتساعها تغص بالوفود من جميع أنحاء المملكة فاستقبل فيها استقبالاً مهيباً وبعد تبادل الخطب عاد بمثل ما قوبل به في وسط الجماهير إلى بيت الأمة حول الساعة العاشرة. واستمرّ الزوّار يتقاطرون عليها إلى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل وكانت الشوارع حول البيت تغص بالمنتظرين. ولكن رؤساءالشباب أشفقوا على الزعيم أن يصيبه اعياء، فالتمسوا من الشعب المنتظر أن يرجىء الزيارة إلى الغد، وأقفلوا الأبواب.

ومضت العاصمة في تلك الليلة، وهي ترفل في عقود من الزينات، يجللها البهاء والسرور إلى الصباح، وفي اليوم التالي 8 يوليو ـ استؤنفت الاقتبالات من الساعة السابعة صباحاً إلى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. ظهر فيها الأدب التونسي بين نظيم ونثير في أروع مظاهره. وكذلك كان الحال في اليوم التاسع، فإن سيل الوفود لم ينقطع، والقاعة كالحوض المورود، بين صدور وورود، والزعيم يهش للقائهم ويجيب عن خطبهم كما يلاقي الأب المشفق أبناءه البارين المخلصين.

يوم غامبطا بارك

كان هذا اليوم من الأيام المعدودة في تونس لا يقل روعة عن يوم الوصول. وهو يوم الأحد 10 يوليو ـ فقد خرج الزعيم إلى مصيف حمام الأنف مع رجال الديوان السياسي للحزب الحر لتناول الطعام على مائدة الدكتور (الصادق بوصفارة). وما كاد ينتشر خبر قدومه حتى اكتظت الطرقات التي من حول المنزل بالمصطافين لمشاهدة الزعيم، والترحيب بمقدمه

الميمون. تتقدّمهم وفود الكشافة، والجمعيات الرياضية، ولجان الشباب، وهي تتغنّى بأناشيدها الحماسية.

وحول الساعة الخامسة عاد إلى العاصمة، ماراً بالقسم الشرقي منها، فكان الشعب يتلقاه في كل مكان مر منه بالهتاف والتصفيق إلى أن وصل إلى غامبطا بارك مكان الاجتماع، الذي دعا إليه الديوان السياسي لسماع خطاب أب الشعب، بعد أن حرم من استماعه خمس عشرة سنة كاملة. وكان عدد الحاضرين يقدر بنحو ثمانين ألف نسمة بينهم عدد غير قليل من ربات الجمال. وكانت الآلة المكبرة للصوت موزعة على الأماكن توزيعاً محكماً. وما وصل الزعيم إلى البارك حتى أوشكت الأرض أن تميل لقدومه من رجات الهتاف والتصفيق، وعند وصوله إلى السرادق، صدحت الموسيقى بالسلام القومي، ثم تلتها فرق الكشافة بأناشيدها المؤثرة فصعد إلى المنصة، ومن حوله رجال الحزب وما كاد يستقر بهم المقام، حتى أشرأبت الأعناق، وشخصت الأبصار، للخطباء، وقد اشتركوا جميعاً، في الإشادة بمناقب الزعيم، وعظمته واستعراض ما قام به، من الخدمات الجلى للعرب والإسلام، وخاصة لتونس. وبعد انتهاء الخطباء. وقف أمام اسطوانة الميكروفون وقفة هيبة وجلال ووقار، ثم شرع يخطب فكان خطابه السحر أو البلسم الشافعي لأوجاع الأمة وكلومها. وقد سمعت منه خطيباً مفوهاً، لا عهد لها بمثله من قبل بحيث كانت كلماته ونبرات صوته، كسيال كهربائي يمس شغاف القلوب فيهزها هزاً، يكون منه الهتاف والتصفيق وإذا به يملأ النفوس إيماناً ويقيناً. فكان خطابه القول الفصل بين إيحاء البديهة، ونضج الرأي، وانصباب الأفكار التي صقلتها الاختبارات والتجارب، في العقل المنظم، والعلم الواسع واللغة النقيّة. والأسلوب الأخاذ صورة كاملة لليقظة، ومعنى الاستقلال، ولأوّل مرّة صارح خطيب الأمة بكلمة «الاستقلال».

في دار السفارة الفرنسويّة

وبعد هذا الاجتماع التاريخي الذي لم تشهد تونس أروع منه، ولا أفخم، عاد الزعيم إلى مستقره مشيعاً بالمهج والأرواح، وقضى مساء ذلك اليوم على ما ذكرنا من حاله السالفة، في اقتبال وفود الزوار والمهنئين. وقبل ظهر اليوم التالي رأى من حسن المجاملة السياسية أن يقصد دار السفارة الافرنسية لزيارة العميد، وإبداء ارتياحه على ما أبدته السلطة، من التساهل نحو الشعب بالأمس. وكذلك يوم قدومه وانصرافها عن التحدي. وسياسة المضايقة. فتقبله المقيم بالإجلال والاحترام، ومكث لديه ساعة كاملة يتحدثان فيها عن السياسة المحلية، وفي أثناء الحديث عرض له المقيم بالحملة الشعواء التي تقوم بها اليوم الصحف الاستعمارية ضد خطابه الأمس، فأجاب الزعيم أني أعني ما أقول، وأتحمل تبعة تصريحاتي، ومع ذلك فلست أهتمّ بالطفيليين الذين يريدون أن يكونوا كلا على[13] مجهود بلادنا، كما يهمني التفاهم المباشر مع فرنسا، لإصلاح موقفها من ناحية سياستها الإسلامية في الشرق. فالواجب أن تكون على وفاق تام مع المسلمين وخاصة مسلمي شمال إفريقيا، الحريصين على الاحتفاظ بما لديهم من سيادة وكرامة، ثم خرج الزعيم مودعاً بمثل ما قوبل به، وعاد إلى بيت الأمة.

في القصر الملكي

وبعد أيّام دعي إلى زيارة القصر الملكي فلبى الدّعوة، ولقي من حضرة الجالس على العرش التونسي كل عطف وتبجيل، قابلتهماالأمة بالارتياح والتمجيد.

وصفوة القول أن الزعيم الأكبر ظل في بيته بالعاصمة إلى يوم 11 يوليه مستغرقاً أوقاته في لقاء الوفود، وتلقى دعوات كثيرة إلى مآدب التكريم وبعد

(13) (الكل) بفتح الكاف، ومن معانيه، الوكيل، والثقيل لا خير فيه، والثقل أو العبء.

محاولات لم يستطع أن يلبـي غير القليل منها فقد أجاب الدعوة إلى مأدبة المقيم العام، ومأدبة الأستاذ صالح فرحات رئيس اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري ومأدبة أمير الشعراء التونسيين السيد محمد الشاذلي خزنه دار، ومأدبة الأستاذ السيد محمد شنيق زعيم الأغلبيّة بالمجلس الكبير ومأدبة الأستاذ حسن قلاتي رئيس حزب الإصلاحيين السابق. ومأدبة الطبقة الممتازة من العلماء الزيتونيين، ومأدبة الدكتور محمود الماطري رئيس الديوان السياسي لحزب المستقلين. ومأدبة الجمعية الودادية، ومأدبة البيت البكري، ومأدبة بيت الرصاع. ومأدبة الشبيبة الجزائريّة المزابية، ومأدبة الجنرال السيد عبد السلام البكوش، صهر العائلة المالكة. ومأدبة الشبيبة الثعالبية وكانت هذه المآدب كلها آية في الأناقة والكرم، ناطقة بما لسيادة الزعيم الكبير في نفوس الطبقات الراقية من مواطنيه من المكانة السامية.

ولما اشتد الحرّ في العاصمة انتقل بعائلته إلى مصيفه بحلق الوادي كازينو يوم الإثنين 19 منه وبالرغم من ابتعاده عن العاصمة، فإن وفود البلاد لم تزل تتقاطر على المنزل العامر، من الصباح إلى منتصف الليل، وقد حاول منذ أسبوع أن يذهب لرد الزيارة لسمو ولي العهد في قصره المعمور بضاحية باردو فلم تواته الفرصة في ذلك إلا في أصيل الأمس[14].

بقلم شاهد عيان رافقه في سفره.

(14) نشرت بـ(الرابطة العربية) عدد (65) 25 جمادي الثاني 1356هـ 1 سبتمبر 1937م.

كيف استقبلت تونس
زعيمها الكبير
أول خطبة للثعالبي في تونس

تونس في 15 يوليو ـ لمكاتب[15]

عشية يوم الخميس 8 يوليو الجاري أقبلت إلى ثغر تونس الباخرة (جوفرنور جونار)[16] تقل الزعيم العربي الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي بعد غياب امتدّ نحو خمسة عشر سنة فاستقبل استقبالاً فخماً شائقاً اشتركت فيه جميع طبقات الأمّة ووفود البلاد وقدر الذين حضروه بثلاثين ألف إنسان جاءوا من جميع الأنحاء.

أول خطبة للأستاذ

وفي مساء الأحد 11 يوليو أقام الديوان السياسي للحزب الحر

---

(15) لم يشأ أن يصرح بإسمه، وقد بعث أكثر من مراسلة إلى مجلة (الرابطة العربية).

(16) (شارل جونار 1857 ـ 1927). شخصية سياسية فرنسية، تولى منصب الحاكم العام على الجزائر مرتين. الأولى من سنة 1900 ـ 1911 والثانية من 1918 ـ 1921من في فترته الأولى زار محمد عبده الجزائر سنة 1903، وهو واضع حجر الأساس لجامعة الجزائر سنة 1909. واعتمد النمط الأندلسي في بعض البنايات الشهيرة في عاصمة الجزائر، مثل البريد المركزي وقصر المصيف (قصر الشعب) والمدرسة الثعالبية. وفي فترته الثانية صدر قانون 1919 لتوسيع دائرة النواب المسلمين في المجالس المحلية.

الدستوري اجتماعاً عاماً في ميدان قامبيطا احتفاء بالزعيم الجليل حضره زهاء خمسين ألف من أعيان المملكة التونسيّة خطب فيه الخطباء مرحبين بالزعيم الكبير وأنشد الشعراء قصائدهم ووصفوا فيها مواقفه وخدماته للإسلام والعروبة ووقف في الختام وألقى الخطبة الآتية:

أيها الشعب الكريم،

أتقدّم إليك محيياً وشاكراً ومنوهاً بهذا العطف الكريم الذي تبديه نحو خادمك الأمين.

أحييك باسما وأحييك رافع الرأس لهذا التقدير والإجلال والاحترام الذي يبدو لي من هذه الأسارير الفياضة التي أتمثلها البحر زاخراً والنسيم ساحراً دافقاً متدفقاً ويريني من الشعب آياته ومن خلائقه ديباجته وبيناته.

إن شواعرك الفيّاضة أيها الشعب الكريم هي التي كونت ذاتيتي وجعلتني أستوحي فكرتي ومناهجي وآلامي وآمالي في جميع حركاتي. فأنا من الشعب وإلي الشعب. ومن الشعب استمد (تصفيق حاد).

أقف لأحييك وأنوه بعملك ومساعيك فقد شاء الله أن يبعث روحاً ترفرف بأجنحتها فوق رأس تونس الخضراء لتبعث من جديد. لتحيا حياة الشرف والكرامة والمجد حياة الأبطال الخالدين.

أبناء الأغالبة

أبناء الغر الميامين

أذكروا أنكم الذين رفعتم شأن الإسلام قروناً طوالاً ونشرتم الحضارة بأوروبا وإن أنكر ذلك مؤرّخوها وقساوستها وأنتم الذين حررتم الأمم والشعوب من الرق ومن الاضطهاد والاستعباد.

تذكّر أيها الشعب أن روح الأجداد تناديكم لإنقاذ كرامتهم تناديكم لأجل أن تعيدوا سيرتهم الأولى لأجـل أن ترفعوا رؤوسهم وترجعوا لهذه البلاد عظمتها ومجدها.

وما أنا إلا مذكر جئت لأنبهكم إلى اليقظة. أنبهكم إلى العمل. أنبهكم إلى السعي. أنبهكم إلى موطن الكرامة الذي حيل بينكم وبينه بايدي المغتصبين. بأيدي الذين أرادوا أن يقبروا هذه الملايين من ورثة مجد الأعراب والإسلام ليجعلوها خلقاً جديداً لا يمت إلى الأسلاف بسبب. وعلى هذا الأساس يعلمونكم تعليماً ناقصاً ليقضوا على كل أمل في حاضركم ومستقبلكم.

فأنتبهوا إلى ما يجب عليكم لأنفسكم ولبلادكم. قدماً إلى الحياة ترفعون شعار الإسلام والعروبة، يومئذ يتغيّر التّاريخ وتصيرون أحراراً جديرين بالانتساب لأولئك الأسلاف الذين دوّنوا أجلّ المفاخر في تاريخ هذا العالم!

أبناء الفاتحين!

أبناء العرب:

إنّ العرب ينادونكم. إن الإسلام يدعوكم إن الحق يستفزكم. هذه بلادكم. هذا وطنكم. أنتم الأمناء عليه وأنتم حُفّاظه.

فهلموا لا إلى مواقف التكريم، بل إلى التضحية في التحرير ورفع رأس القوميّة التونسيّة ووحدة إفريقيا الشماليّة (تصفيق حاد).

إفريقيا لنا ونحن لها. هي وطننا. فقدروا، يرحمكم الله، المسؤولية والتبعة التي علينا لأنفسنا ولوطننا ولأجدادنا ولتاريخنا.

نحن العرب لسنا بأقل مواهب من غيرنا فمن العار علينا أن نضيع هذا الميراث الجليل.

كنا وكانت الدنيا لنا. وكان القول قولنا والأمر أمرنا. وكانت الأمم التي تدعي الزعامة علينا ترجو قربنا وتخطب ودنا.. ولكننا استهنا بكرامتنا وهانت علينا أنفسنا.

فالله الله في أنفسنا وفي وطننا وفي قومنا وفي قارتنا التي تستغيث

ويجب أن يغيثها الأبناء. فإن من لم ينصف نفسه ولم يرحمها غير خليق بالرّحمة والانصاف من أي أحد في العالم!

فإذا أردنا أن نكون كما يجب فلنقف وقفة الجندي الباسل لإنقاذ الميراث العظيم في سبيل تحرير البلاد.

أنا لست ثائراً كما يقولون، وإنما أنا طالب حق وإنصاف. أريد أن أنصف نفسي وأثأر لكرامتي. وهذا ما أدعو إليه الشعب التونسي. ولو شاء التونسي أن يكون عظيماً لكان. إذ ما هي إلا إرادة. فالذي ينقصنا ليس هو العلم والمادة بل هي الإرادة. فبها نستطيع أن نكون أقوياء ونكون كما نريد.

وما علينا إلا أن نشحذ إرادتنا لنتبوأ المقعد اللائق بنا تحت الشمس! (تصفيق حاد) فهبوا إلى التسابق في العمل فإن الأمة المتوانية لا تستحق البقاء في العالم الذي يطير مع الأطيار ويسير فوق البحار.

ولا يليق في هذا العصر أن نقف المواقف المخزية المريبة التي وقف فيها آباؤنا خصوصاً بعد أن أدركنا الحالة التي وصلنا إليها. فلقد مضى عهد الغفلة والكسل والتفرق والشتات[17].

فاليوم الذي يبدأ فيه الشعب التونسي يشعر بتكتله ويحس فيه بمطالبه هو اليوم الذي نتخذه عيداً وبدءاً لتاريخنا الحديث.

فلقد سلبت ثروتنا وملكنا وعزنا وشرفنا. ولم يبق لنا إلا آخر معقل وهو الإيمان. فإذا لم نسع لصيانة هذه القلعة من الدساسين والأغيار كانت القاضية والعياذ بالله! فانتبه أيها الشعب. وإن الله معك. والزمان للعاملين!

---

(17) (المواقف المخزية التي وقف فيها آباؤنا). قد يكون خطأ في التلخيص من مكاتب الرابطة العربية، فإن (الثعالبي) أبعد ما يكون عن هذا التعميم، وإنما يقصد المتخاذلين ودعاة الهزيمة، الذين تعاونوا مع سلطات الإحتلال على حساب وطنهم ومواطنيهم.

هذه كلمتي. وتستطيع أن تجد فيها منهاجاً وأسأل الله أن يوفقك إلى السير في هذا المنهاج الذي أدعوك إليه.

وبهذه المناسبة أحيي أعضاء الديوان السياسي الذين هيئوا لنا هذا الاجتماع الحاشد. وأحييهم على الأعمال الجليلة التي قاموا بها لإحياء شعور هذه الأمّة ورفعهم له عالياً بجميع أطراف البلاد. والأعمال التي ترتكز بها النفوس يجب علينا تقدير القائمين بها.

وأما أنا الذي غاب عن البلاد 14 سنة فقد بعد تأثيري على هذا الشعب. والعمل الحقيقي هو الذي قام به هؤلاء الشبان فعرضوا أنفسهم للمخاطر والمهالك وقد كانوا في غنى عن ذلك وهم لا يبتغون جزاءً ولا شكور (تصفيق حاد)

فحياهم الله ووفقهم وأكثر من أنصارهم

وهذه يدي أمدها لكل عامل لخير هذه الأمّة من أي فريق كان متى كانت الغاية هي تحرير هذا الشعب.

عاشت الأمّة التونسيّة حرة!
عاش الاستقلال!
عاش الجهاد في سبيل الإنقاذ!
والسلام عليكم ورحمة الله.

أقوال الصحف التونسيّة والجزائريّة

والبلاد التونسيّة والجزائرية بل وشمالي إفريقية كله مبتهجة بعودة الأستاذ الكبير إلى بلاده يخدمها بعلمه وتجاربه، واختباراته وهي تعلق أعظم الآمال عليه. تؤيد ذلك المقالات العديدة الكثيرة التي نشرتها الصحف التونسية والجزائريّة بمناسبة رجوعه وإليك بعض ما قالته جريدة (لاشرت تونزيبان) وهي اللسان الفرنسوي للحزب الحر التونسي:

«إذا كان الاعتراف بالجميل نحو عظماء الرجال عنوان الشعوب القوية فالشعب التونسي أحدها.

إن مرارة الإبعاد الذي دام خمس عشرة سنة لا بدّ أنها انمحت تماماً من مهجة الشيخ عبد العزيز الثعالبي عندما حل يوم الخميس بميناء العاصمة وسط ثلاثين ألفاً من الوطنيين.

إنّ هؤلاء التونسيين الذي أحرقهم وهج الشمس وخنقهم الزحام ينتمون إلى أفكار سياسية متباينة عن بعضها ولهم شؤون وأحوال اجتماعية مختلفة وكانوا كلهم مسرورين بتحية رجل له أياد بيضاء على القطر التونسي.

وفي ظروف مضت جاء الشعب التونسي لدار الشيخ كاهية ليعرب للثعالبي عن فرحه بالافراج عنه بعد أن قضى بالسجن العسكري مدته. وكان رائد أحزاب التفوق وحقدهم أن يبقوه فيه ولكن إرادة الشعب أنقذته منه.

إن مشاهدة تلك العواطف مما يثلج الفؤاد في بلاد ينكر فيها المتفوّقون الانتفاعيون والبعض من علماء النفس المتطوعين على الشعوب الإسلاميّة إمكان التفكير والعمل بالإجماع. لقد أتى دورنا بعد المشاهدة أن نقول من غير إدعاء إن الجالية الفرنسيّة في مدينة مثل مدينة تونس رغم عددها الوافر لا يمكن لمتفوقيها أن يكون لهم مثل تلك السرعة في إبداء عواطفهم ومثل تلك القوة في تظاهرهم.

وقالت جرية (الأمة)[18] الغراء التي تصدر في الجزائر: بعنوان(زعيم

---

(18) جريدة (الأمة) صاحبها شيخ الصحافة العربية (أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى. (1888 ـ 1973). الشاعر، الكاتب، والصحافي الرائد، أحد الملتفين حول الثعالبي عند تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي، وأحد الأوفياء له ـ وما أقلهم ـ محضراً ومغيباً. حققت معه السلطات الفرنسية في غرداية بتهمة جمع الأموال في الجزائر لدعم الدستور في تونس.

سبقت الإشارة إليه في بعض الهوامش. وانظر قصيدته في الثعالبي يوم إطلاق سراحه سنة 1921.

شمالي إفريقية المنتظر) ـ وصول الأستاذ الثعالبي لتونس:

«في الوقت الذي يتمخّض فيه الشمال الإفريقي عن حركات سياسية واجتماعية كبرى وفي الوقت الذي التوت فيه أمامه الطرق والأساليب إزاء الأوضاع الساسية الحاضرة، وفي الوقت الذي كان ينتظر فيه وهو على أحر من الجمر رجلا يعرف كيف ينقذه من الأخطار المحدقة وينقذه من بين أسلاك السياسة الشائكة ويسوسه بحكمة وتبصره، ومهارة ويقوده إلى الأهداف التي ترمي إليها العروبة والإسلام والعزة القومية ـ في هذا الوقت نفسه وصل من الشرق لشمالي إفريقية الزعيم الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي فعاد إلى وطنه بعد غياب 15 سنة قضاها في عواصم الإسلام ينتقل كالبدر في بروجه».

وبعدما هنأت الأستاذ الثعالبي برجوعه قالت: «إنه ليس ببدع أن يهتزّ لعودته الشمال الإفريقي أجمع من أقصاه إلى أقصاه وإن تتيه تونس بعزيزها وتلبس حلل الزينة الفاخرة وتمشي في مواكبه الفخمة عشرات الألوف من الشبان والكهول والشيوخ وليس ببدع أن تهتف أسلاك التليفون وتنبض عروق البرق ويركض بريد البر والبحر والجو وتتجلي صدور الصحف والمجلات وتهتزّ أعواد المنابر احتفاء بمقدم الزعيم الجليل الأستاذ الثعالبي[19].

(19) نشرت المقالة في الرابطة العربية عدد (61) أغسطس 1937.

تونس تحتفي بزعيمها الأكبر
الآمال المعلقة عليه

أرسلت إليكم في رسالة سابقة وصفاً موجزاً للمقابلة التي قوبل بها زعيم تونس الأكبر حين رجوعه إلى وطنه ووصفت اجتماع قامبيطا بارك وأثبت نص الخطبة التي خطبها وقد كان لها أحسن وقع في النفوس، وأتكلم اليوم عن حفلة أخرى أقيمت في النّادي الدستوري فقُدِّم رؤساء الشعب «اللجان» الدستورية إلى الزعيم الكبير.

ابتدأت الحفلة بنشيد أنشده أفراد الشبيبة الدستوريّة بالمنستير قام على أثره الأستاذ الحبيب بورقيبة فأعلن للجمهور أن الأستاذ الطاهر صفر[20] هو الذي سيبدأ الحفلة بالخطابة.

وقام الأستاذ صفر وقال إنه سوف لا يقدم الشيخ الثعالبي لأنه لا يحتاج إلى تقديم لا من خطيب ولا من غيره وإنما هو يكتفي بأن يقول إن الشعب التونسي اليوم لا يحتفل بمؤسس الحزب الذي بذر بذرته الأولى التي

(20) (الطاهر صفر: 1903 ـ 1942) درس في الصادقية ومعهد كارنو وفي كلية الحقوق بباريس. عمل في المحاماة منذ سنة 1928 ومن مؤسسي الحزب الدستوري الجديد. عمل في الصحافة، وترأس تحرير جريدة العمل سنة 1934، وساهم في إدارة وتحرير العديد من الصحف الوطنية باللغة الفرنسية. انظر (أعلام الإعلام).

نحن الآن نجني ثمرتها وإنّما يحتفل بزعيم الرابطة الإسلاميّة في مشارق الأرض ومغاربها. ثمّ قال:

إنّ زعيمنا إذاً ليس شخصيّة واحدة بل هو عدة شخصيات تجمعت في رجل واحد، وذلك ما يعطي قيمة للرجال العظماء. فهو الرجل الاجتماعي الذي أظهر مكانة للدين الإسلامي واتفاقه مع الحضارة العصرية. وهو الرجل الذي قام بدعاية واسعة النطاق للإسلام والعروبة. ويحق لنا إذن أن نسميه الزعيم الاجتماعي القومي الإسلامي العربي.

وزيادة على ذلك فهو الخطيب المصقع المؤثر الأديب، العارف بالعربية وآدابها. وهو الذي يمكننا أن نقول عنه بأن فخره العظيم في حياته إنه كان يمثل التضحية في كل عمل من أعماله. فقد قاسى الشدائد في جميع الأوقات وذاق الأمرين في كل أعماله. ثم قال:

«وإنّي إذا نسيت فلا أنسى تلك الدقائق القليلة التي قابلته فيها وأنا صغير السنّ مع بعض زملائي تلامذة الصادقية بمناسبة خروجه من السجن السياسي الذي زج به فيه لأنّه كان يدافع عن وطنه المقدّس. فقد نطق بكلمات لا تزال ترن في أذني حتّى الساعة، وربما كان وجودي أمامكم خطيباً يرجع الفضل فيه لتلك الدّقائق وإلى تلك المقابلة وإلى تلك الكلمات. فلقد أودع فينا ما لا ننساه أبداً، وأوصانا بالتضحية وحب البلاد والإخلاص، ولذلك فكل شيء في الحقيقة يرجع الفضل فيه إلى الشيخ الثعالبي (تصفيق حاد).

وختم كلامه: بقوله إن الشعب كله اليوم يرحب بهذا الرجل العظيم زعيم تونس وزعيم الشرق.

ودعا رؤساء الشعب (اللجان) الدستوريّة ليصعدوا على المنصة ويصافحوا الشيخ واحداً بعد واحد وهي عملية بسيطة يمكن اتمامها في ربع ساعة أو نصفها على الأكثر ولكن نظراً لكثرة ممثلي تلك الشعب العديدة

تقريباً كان الشيخ واقفاً أثناءها إلا إذا تسلط عليه التعب فكان يغتنم فرصة ويجلس بعض دقائق ثمّ يقف بعدها لمصافحة أبنائه المخلصين.

وقد كان الشيخ يتفرس في وجوه أولئك الرؤساء ليعرف هل أن الحركة الجديدة مرتكزة على أساس أم هي أوهام لا تلبث أن تضمحل وتتلاشى وكانت أسارير وجهه تبرق عندما يعرف أن هذا دكتور يمثل الشعبة الفلانية وهذا محام وهذا صيدلاني وهذا وكيل وهذا رجل شيخ لحيته بيضاء يلوح عليه الوقار يقف أمامه ويخطب بفصاحة وهذا رجل آخر يقاربه في العمر يعتذر عن عدم مقدرته على الخطابة ودموعه تسيل فيهون عليه الشيخ بأن يربت على كتفه ويقول له:

«إن أسارير وجهك أفصح من كل خطاب!».

وقد رأينا الشيخ يغتنم الفرص الواحدة تلو الأخرى ليقول كلمات أو ليظهر بعض الحركات التي هي أفصح من كل خطاب.

ومن ذلك ما لاح على محياه أثناء خطاب الأستاذ (صالح شقير) الموفد من شعبة (المكبس) خصوصاً عندما أشعره هذا النائب بأنه يمثل بلدة قاست العذاب ألواناً. إذ دخل السجن من أبنائها المئات ولا يزال بعضهم إلى الآن حيث حكم عليهم بالأشغال الشّاقة وبعضهم لمدة معينة وبعضهم بقية الحياة.

فلقد ظهر التأثر على الشيخ وتنهد ولسان حاله يقول (لا حول ولا قوة إلاّ بالله).

ومن ذلك أيضاً ما صرح به عندما قدم إليه السيد (حسن بن نصر) رئيس شعبة (مجاز الباب). فقد عرف الشيخ أن الأراضي في تلك الجهات هي مطمح أنظار الاستعمار فقال:

«إني أوصيكم بأن لا تبيعوا أراضيكم فكل شبر من الأرض يخرج من أيديكم إلى الاستعمار هو انتحار. وإني أعتقد أن الديوان السياسي سيشتغل

بهذه النقطة وأوصاهم بأن لا يكونوا كـالإيرلانديين الذين باعوا أراضيهم إلى الانكليز في ذلة وهوان. وأوصاهم أخيراً ببذل مجهوداتهم في حفظ ما بقي لديهم من تلك الأراضي وحتى في استرجاع ما خرج منها ملاحظاً أن الخطر ليس في الاحتلال الذي هو حادث يزول ولكن الخطر في ضياع الأراضي».

ومن كلمات الشيخ الذهبية أيضاً ما أجاب به السيد (الرويسي)[21] نائب (دفاش) حيث قال بالحرف الواحد:

. . . الذين يعملون لخير البلاد أضمهم لصدري أما الذين انهزموا فأنا أقاومهم إلى الأبد.

وتعرض أحد رؤساء الشعب إلى رحلات الشيخ في الهند والعراق ومصر وغيرها فأجابه يقول:

«إني إذا كنت أعمل في الهند أو في غيره فإنما كنت أعمل لتونس».

وتقدّم إليه السيد (محمد علي العجمي) (توزر) ولاحظنا له أنه كان من جملة الجماعة القديمة ولكنه عندما رآهم يعبثون بالمشروع انسلخ عن الحركة وانزوى في بيته إلى أن من الله على البلاد برجال الديوان السياسي فرجع إلى العمل لما رآه من إخلاصهم وتفانيهم في خدمة البلاد.

---

(21) (يوسف الرويسي: 1907 ـ 1980) من رموز الحركة الوطنية التونسية، ومن ذوي الإتجاه العربي الإسلامي، ومن العاملين في سبيل قضايا المغرب العربي وقضايا العروبة بصفة عامة، ومن المحررين في صحافة المشرق العربي بعد إقامته في دمشق. وابتعاده عن النهج (البورقيبي) وسبق أن كان من المؤسسين للحزب الدستوري الجديد. كان بيته في دمشق ملتقى الطلاب والشباب العربي وخاصة من أبناءالمغرب العربي.

ومن نشاطه الصحفي. الإشراف على تحرير جريدة (العمل) سنة 1936، والتحرير في (صوت الطالب الزيتوني) وإصداره عددين من مجلة (المغرب العربي) في ألمانيا.

عاد إلى تونس قبيل وفاته بمدة قصيرة.

وقد أنكر عليه الشيخ انزواءه عندما أشار إلى أعمال الجماعة القديمة ملاحظاً له إنه كان في استطاعته العمل والمقاومة وقال:

«إذا رأيتم إخلالاً في أعمالنا فدوسوا على رقابنا وسيروا إلى الأمام!».

ونشرت جريدة (النهضة) مقالة افتتاحية بعنوان «على هامش أوبة الثعالبي» قالت فيها:

اليوم وقد حل حضرة الأستاذ الزعيم الشيخ عبد العزيز الثعالبي بوطنه. ورجع إلى أهله وعشيرته واستقبلته الأمّة التونسية ذلك الاستقبال الحافل البهيج نظراً لمكانته في نفوس الشرقيين عموماً والتونسيين على وجه الخصوص. اليوم وقد ردّ الله غربته وعجل أوبته يلذ لنا أن نأتي على المامة تاريخية فيها ذكرى وعبرة لمن اعتبر.

برح الأستاذ البلاد التونسية عقب إعلان إصلاحات (م. سان) تاركاً التونسيين مختلفي الآراء فيها بين مؤيد محبذ، وبين منكر منتقد. وقد ركدت الحركة الدستوريّة بعد النشاط والحماس. فتصدعت وحدة الحزب الدستوري وحدث به شقاق في الأفكار فأصبح الدستوريون متفرقين وفشت بين الناس فكرة أصبح الواحد منهم معها يعد من يخالفه الرأي أو من يبدي نظرية تعاكس نظريته أو نظرية الأكثريّة خائناً تجب محاربته بدون هوادة.

على هذه الحالة الداعية لليأس والتي هي نذير موت، ترك الشيخ الثعالبي البلاد حينما فارقها. ولقد غاب عنها منذ شهر يوليو عام 1923 إلى يوليو عام 1937 فكانت المدة التي قضاها بعيداً عن هاته الديار أربعة عشر عاماً كاملة عاد بعدها فوجد الحركة الدستوريّة على أشدّها. والحزب في أتم نشاطه. والاتفاق سائداً في الأفكار. وعموم السكان متوجهين بكليتهم للإصلاحات. ولم يبق من تلك الحالة السابقة سوى بعض حزازات شخصيّة بين الأفراد بحيث أن من يتأمّل في جوهر القضية وجو التفاهم القائم لا يجد أي سبب للخلاف حيث أن الشيخ عندما غادر المملكة كانت الحكومة التي تدير أمور فرنسا من أحزاب اليمين وهي اليوم من صميم أحزاب اليسار.

إلى أن قال:

فالواجب الذي ينتظر الأستاذ الثعالبي هو سعيه لإزالة الشحناء والتنافس والنفرة بين رجال الحركة السياسية وتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم للسير في منهج واحد وخطة واحدة.

وفي نظرنا أن هذا الواجب المتحتّم هو أعظم خدمة وأجل عمل وأغزر فائدة يؤديها الأستاذ الثعالبي لبلاده. إذا استطاع أن يوحد القلوب. وأن يوفق بين الجميع ويحكم بينهم برباط الاتحاد المتين للتعاون على خدمة القضية الوطنيّة بنشاط وإخلاص.

ولنا آمال كبرى نعلقها على الخبرة التي اكتسبها الشيخ من دراسته لأحوال الشعوب الشرقيّة والغربيّة مباشرة وغير مباشرة تجعلنا على ثقة بأنه سيضطلع بأعباء هذه المهمة وسيسعى لتحقيقها. حتى يمكن للطبقة المفكرة المتنورة المتبصرة. وللزعماء ولسائر رجالات تونس على اختلاف الهيئات التي ينتسبون إليها التضافر على خدمة المسألة التونسية بكل ما أوتوه من عزم وثبات ويستطيعون والبلاد قاطبة من ورائهم تؤيدهم وتساندهم، جني أطيب ثمار ما غرسوه ورفع مستوى هذا القطر وإيصاله إلى مقصده الأسمى المنشود».

وقالت من مقالة أخرى بعنوان «يقظة الشعب التونسي»

«لم يكن يتوقع الأستاذ الثعالبي أنه سيجد عند رجوعه لمسقط رأسه مثل تلك الحيوية المتدفقة في أعصاب الأمة وشرايينها ومثل ذلك الشعور الفياض بالواجب الوطني ومثل ذلك الالتفاف المتين حول رجال العمل المخلصين.

فلقد شاهد في فناء (قمبطا بارك) عشية يوم الأحد الفارط تلك الجموع المتراصة التي لم يشاهد مثلها في تونس من قبل والتي تذكره بما تركه في ربوع الشرق من حيوية وشعور ومن تقدير للمواقف العامة ينسى العاملين

ما يكابدونه من عناء في سبيل خدمة القضايا العامة وشاهد كيف قوبل مروره وسط تلك الجموع الحاشدة هو وصحبه الأمناء بتلك العواصف من الهتاف والتصفيق وكيف كان اسمه يقرن في أفواه الجماهير بنعوت الإجلال والإكبار وكيف كانت الأصوات متصاعدة لعنان السماء داعية له بالحياة وطول البقاء ولا بدّ أن يكون قد استنتج من كل ذلك أن الشعب قد وصل إلى درجة من النضوج السياسي جديرة بكل تقدير فإن الاعتراف بالجميل للعاملين هو من شيم الأمم الناهضة ولا يخمل قدر المجيد وتتضاءل قيم المحسنين إلاّ في الأمم المنحطة السافلة حتى كان النوابغ من أول الدنيا يضطرون لمغادرة أوطانهم التي هي دون مستواهم الفكري ويلتمسون معيشتهم وما يحقّق لهم كرامتهم في أكناف الاغتراب ومن أجل ذلك قال المثل الفرنسوي «لا نبي في وطنه» أي أنه قلما يتاح للنابغ أن يعترف له بالفضل في بلاده وفي الحديث الشريف «العالم كالحمة (عين الاستحمام) يأتيها البعداء وينزح عنها القرباء حتى إذا غار ماؤها فإذا بهم يتفكنون (أي يتندمون على ما فاتهم من الاستفادة مما كان في متناول أيديهم)[22].

ولا شك أنّ الشعب التونسي الذي أصبح يعترف لكل فاضل بفضله وينزل الناس منازلهم فيبوّء المخلصين الصادقين مقعد الزعامة ويربط بينه وبينهم أواصر الولاء والمحبة ـ فلا شك أن الشعب التونسي الذي بلغ هذه المثابة من النضوج الفكري وأصبح يميز هذا التمييز الدقيق بين الصالح والطالح وبين المخلص والمنافق هو جدير بأن يلتحق بالشعوب الراقية وبأن يعامل معاملة الشعوب الحرة الشاعرة بكرامتها والذائدة عن حياضها وعما

(22) (التفكن): التندم والتأسف والتلهف على ما يفوت. و (الحمة) بفتح الحاء وتشديد الميم. كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفي بها الأعلاء. ومنها عين (الحمّة) في سوريا والتي وقعت تحت الإحتلال الإسرائيلي في سنة 1967. لم أعثر على هذا الحديث في صحيح البخاري. تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا. نشر وتوزيع (دار ابن كثير واليمامة) بدمشق. ط. (4) 1990.

قريب يتفيأ هذا الشعب الكريم بحول الله ظلال الحرية الكاملة ويجني ثمار تكاتفه واتحاده وصدق عزيمته فما خاب من اعتمد على مجهوده الخاص ولا ضل من اهتدى بهدي المخلصين الصادقين. فماضينا المجيد الذي ذكرنا به الأستاذ الثعالبي في بيانه الساحر بقمبطا بارك لا يكون شيئاً مفيداً في نظرنا إلّا بقدر ما يوقظ من همم الشباب وبقدر ما يستحث خطى الاخلاف للسير على منهج الاسلاف لأن التاريخ هو عندنا وعند كل من يسبر الأشياء بمسبار العقل الصحيح مطية للمستقبل. ومن عبره المتجدّدة نستطيع بناء حياتنا المقبلة التي نريدها كلها حياة عز وسؤدد ومجد وفخار»[23].

(تونس. لمكاتب)

---

(23) نشرت المقالة في (الرابطة العربية) عدد (62) أغسطس 1937. ومن المؤسف أن جريدة (النهضة) كانت مناوئة للأستاذ الثعالبي، مناصرة لأعدائه.

رحلة موفقة للأستاذ الثعالبي
تونس تلتف حول زعيمها

في الساعة 6 ونصف من مساء يوم الخميس الماضي خرجت السيارات التي أحضرها وفد المكنين تقل زعيم تونس الأوحد الشيخ عبد العزيز الثعالبي وصحبه الأمجاد إلى بلدة المكنين التي كانت تعج بأحرارها والوافدين عليها من أحرار القرى المجاورة لها وما كادت تصل السيارة التي تقل الشيخ ويأخذ مجلسه من المكان الفخم الذي خصص لنزوله حتى أخذت وفود الأحرار تتقاطر للترحيب به وإبداء الابتهاج بقدومه الذي طالما تعطشت النفوس إليه ومدت شعبة المكنين الموائد الفاخرة لضيوفها الكرام وبعد تناول العشاء استأنف الزعيم اقتبال الوافدين وإلقاء نصائحه وعظاته عليهم ودام هذا السمر إلى ساعة متأخرة من الليل وفي صباح الجمعة افعم منزل الضيافة بالوافدين أيضاً من أحرار قصر هلال وجمال وصياده وغيرهم فاستأنف الشيخ إلقاء دروسه الثمينة بين سياسية واقتصاديّة واجتماعية بينما كان الحاضرون يهتفون له ويحمدون الفرصة التي مكنتهم من الاتصال به.

وقصد الزعيم يحف به جماعة من الأحرار إلى جامع البلدة لتأدية صلاة الجمعة. وما أن هلت طلعته على المصلين حتّى سرى بينهم مثل تيار الكهرباء واهتزوا لمقدمه وحدثت حركة غير عادية من أقصى الجامع إلى أقصاه وكان الجامع مكتظاً اكتظاظاً شديداً لا موضع فيه لقدم. وما أن انتهت صلاة الجمعة وخرج الشيخ من الجامع حتّى تسابق المصلون للالتحاق به والالتفاف حوله

وكانت آلاف من الجماهير تنتظر خارج الجامع فلما أقبل عليهم هتفوا له والتفوا حوله وسارت هذه المظاهرة الترحيبيّة الرّائعة من الجامع إلى النادي وقد سدت الطريق بالجموع الغفيرة حتى تعطلت حركة المرور وقصد الشيخ إلى مكان الاحتفال واكتظ المحل على سعته بهم وما أن استوى الزعيم على منصة الخطابة يحيط به رفاقه حتى نهض الكاتب العام لشعبة المكنين وعضو اللجنة التنفيذية المركزية السيد الهادي بن فرج والقى كلمة رحب فيها بالزعيم الجليل وصحبه نيابة عن أحرار المكنين فقوبلت بالهتاف والتصفيق الحاد.

خطبة الزعيم

وخطب الزعيم فاستهل خطابه القيّم بإظهار ابتهاجه بما شاهده ببلاد الساحل من الاستجابة لدعوته والأخذ بنصيحته التي ألقاها على الأمة في وجوب التماسك والاتحاد ونبذ الشقاق والداعين إليه لأن هذا المظهر الذي شاهده في رحلته هذه دل على أن الأمّة قد استيقظت من غفوتها وخرجت من الضلالة إلى الهدى وامتثلت لما أمرها الله به من الاعتصام بحبله واعرضت عن الناكبين عن دعوة القرآن، الداعين للشقاق والتناحر واسهب الشيخ بفصاحته النادرة وبلاغته الساحرة وبيانه القوي يصف مكامن الداء وطرق العلاج وحث الناس بالأخص على العناية بطرق الكسب ووسائل توفير المال وتكثير الإنتاج لأن الأمّة الفقيرة لا تستطيع أن تعمل شيئاً في أي ناحية من نواحي الحياة وقال إن الأمّة يلزم أن تعدّ نفسها إعداداً صالحاً من الوجهة الاقتصاديّة والثقافية والاجتماعية لتستطيع أن تعمل عملاً جدياً مثمراً من الوجهة السياسية وأفاض في مختلف النواحي وشتى المواضيع التي لها مساس مباشرة بحيوية الأمّة وكان يقاطع بالهتاف بحياة الزعيم الجليل وحزبه وكان الشبان الأحرار ينشدون الأناشيد الحماسية الرائعة.

خطبة الأستاذ حبيب.

وخطب الأستاذ (محمد الحبيب شلبـي)[24] خطبة مؤثرة فعرض صوراً تاريخيّة من عصور التدهور والإنحلال الذي أصيب به الإسلام والمسلمون واستخلص منها العبرة والموعظة البالغة في وجوب تجنب المسلمين الأخذ بأسباب الإنحلال التي أصيبت بها أمم من قبلهم وحثهم على المضيّ في

---

(24) (الحبيب شلبـي: 1906 -

درس في جامع الزيتونة، وعمل في وزارة العدل، وفي الإذاعة التونسية. ونشر في جريدة (الإرادة) في الثلاثينات والأربعينات.

كان ملازماً للثعالبـي بعد عوته من المشرق سنة 1937. ومرافقاً له في جولاته، وخطيباً في لقاءاته، وكان أحد الذين أبنوه يوم وفاته، وبقي على وفائه للثعالبـي طيلة حياته، أمدّها الله. وأسبغ عليه ثوب العافية.

تعرّض للمطاردة والمضايقة والسجن بسبب مواقفه الوطنيّة، ويوم أطلق سراحه في مارس (1955) كتبت جريدة (الإرادة) في عددها (931) 11 مارس 1955 ما يلي:

والأستاذ (شلبي) أحد الأعضاء البارزين في اللجنة التنفيذية للحزب الحرّ الدستوري التونسي، تعرفه الأوساط السياسية بصدقه وإخلاصه، وقوة إيمانه وثباته على ما يعتقد أنّه الحق. وغيرته على دينه ووطنه غيرة فائقة. وقوة عارضه ومتانة حجته، وفصاحة لسانه.

كما يعرفه قراء (الإرادة) بنفثات قلمه التي كان يحلّي بها جيد هذه الجريدة، فيجدون فيها، وفيما تحويه من أفكار قيّمة، صورة تنطبع فيها شخصيته، وتلك الخصال والصفات التي عرفها فيه مواطنوه وأصدقاؤه.

نشر الأستالذ (شلبي) في (الإرادة) سنة 1948 بصورة تكاد تكون دورية وعناوينه تتصدّر عادة الصفحة الأولى من الجريدة.

والحبيب شلبـي، يكنّ للملتفين حول (الثعالبـي) من أبناء الجزائر، أمثال (اطفيش) و (اليعلاوي) و (الثميني) و (صالح بن يحيـى) و (أبو اليقظان). يكن لهم كل التقدير والاحترام، ويحفظ لهم صدقهم ووفاءهم وإخلاصهم.

تشرّفت بزيارته يوم الجمعة (2) ربيع الثاني 1415هـ (9 سبتمبر 1994م ولقيت منه ما هو أهل له، من تواضع الخلق، وعزّة النفس، والبقاء على العهد.

الصراط السويّ الذي هداهم الباري إليه، صراط الوحدة والوئام. وأبان عن الأخطار العظيمة التي يستهدف لها الشعب التونسي اليوم وما ينتظره من ويلات وأهوال إن لم يقف موقف الدفاع والكفاح عن حقه في الحياة كباقي الشعوب، كما أبان عن الجريمة الكبرى التي تقترف اليوم ضد مصلحة الشعب التونسي وهي جريمة إحداث الشقاق والخلاف بين أبناء الوطن الواحد وقال إن ذلك مخالف لتعاليم القرآن الذي يأمرنا بالاتحاد والتعاون والاعتصام بحبل الله جميعاً. ثم حث الحاضرين على توطيد النفس على المقاومة والدفاع للتخلص من الاستعباد الاستعماري واستغلاله الفظيع قائلاً «لا ينبغي لنا أن نخاف من قوي الاستعمار الطاغي الظالم ونستضعف نفوسنا فإننا لا نقف وحدنا لمقاومة هذا الاستعمار بل تظاهرنا في ذلك قوى الوحدة العربيّة والجامعة الإسلاميّة التي تعد نحو الأربعمائة مليون من النفوس ويؤيدنا في نفس الوقت ويعطف علينا الضمير العالمي العام والفكرة الحرة الإنسانية، فبهذه القوى الشريفة الهائلة نواجه قوات الاستعمار المجرمة الاثيمة والعاقبة دائماً للحق» ثم حث الحاضرين على الالتفاف حول زعيمهم الأوحد الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي ظل ينافح ويناضل عن حقوقهم منذ خمسة وأربعين عاماً إلى اليوم ثابتاً لم يتزحزح ولم يبدل ولم يتغير حتى أجمع على تقديره وتعظيمه وإجلاله الشرق والغرب واعترفوا بمواهبه النادرة وعبقريته الفائقة.

إلى سوسة

ثم امتطى الزعيم سيارته مودعاً بمثل ما اقتبل به من الرعاية والاحترام وتلتها سيارات رفاقه قاصدين جميعاً النادي المركزي بسوسة فوصلوه نحو الساعة السادسة والنصف واقتبله رجال المركز العام بسوسة بشغف وشوق بعد ثلاثة أيّام وليلتين قضاهما أبوهم الروحي بين مساكن والمكنين. . .

ومن الغد أخذت الوفود تتقاطر على النادي لتوديع الشيخ والرجاء منه بإلحاح أن يستأنف زيارته لبلاد الساحل في وقت قريب ليزور البلدان التي

حرمت هذه المرة من التشرف بزيارته والمكوث في البلدان التي زارها مدة أطول من المهلة القصيرة التي قضاها بها.

احتفال

وقد تقرر أن يعقد اجتماع في تلك الليلة احتفالاً بذكر الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم لمناسبة رأس السنة الهجريّة.

وفي الساعة التاسعة من مساء السبت كان النادي يعج بأحرار الساحل ووجوهه وأعيانه وقد أقبلت عدة سيارات من عاصمة الجنوب صفاقس تحمل بعض أعيانها وشبابها لحضور هذا الحفل البهيج ولتوديع الشيخ وما أن دقّت الساعة التاسعة حتى هلت طلعة الزعيم الأوحد الجليل على المجتمعين فصفقوا له طويلاً وهتفوا بحياته.

وافتتحت الحفلة بتلاوة سورة الفتح وبعدها شرع الشيخ في إلقاء محاضرته القيمة البديعة بفصاحته الخلابة وبيانه الساحر فبين للحاضرين العمل العظيم المعجز الذي قام به محمد ابن عبد الله ﷺ والانقلاب الهائل الذي أحدثه في العالم والمبادىء السامية والمثل العليا التي جاء با لهداية البشريّة قاطبة وتهذيبها كل ذلك في مدة لا تتجاوز الثلاثة والعشرين عاماً.

ثمّ تخلص من ذلك إلى ذكر دستور عهد الأمان لمناسبة قرب يوم عشرين المحرم الذي أعلن فيه هذا الدستور التونسي لأول مرة وبذلك كانت تونس دولة دستوريّة في العالم مثل إنكلترا وأمريكا وفرنسا وقال يجب على جميع التونسيين أن يجعلوا من يوم 20 محرم عيداً قومياً عاماً تشترك فيه جميع طبقات الشعب.

وخطب السيد الحبيب شلبـي معلقاً على محاضرة الشيخ قائلاً إننا إذا أردنا أن نبني نهضتنا على أساس صحيح فعلينا أن نوثق الصلة التي تربطنا بماضينا وتاريخنا المجيد لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق شخصيتنا المستقلة وذاتيتنا الممتازة اللتين بهما وحدهما يكون لنا كياننا الخاص

وتفكيرنا الخاص وأسلوبنا الخاص في تفهم الأشياء وتذوقها ويكون لنا ذلك عصاماً من التقليد الأعمى الذي يفضي لانحطاط التفكير وجمود العقل وانحلال ذاتية الأمة واندماجها في غيرها.

وقام بأثره السيد (حسن بن سعيد) رئيس شعبة سوسة الدستوريّة وألقى كلمات في التنويه بفضل الشيخ وتوديعه وبعده قام السيد (الناصر الهدة) وخطب خطاباً يتقد غيرة وحماسة باسم الشبيبة الحرة السوسية.

وفي الساعة الخامسة صباحاً امتطى الأستاذ أبقاه الله متن السيارة فانطلقت به باسم الله مجراها ومرساها إلى العاصمة التي وصلها في الساعة السابعة.

شكر الزعيم

وعقب ختام هذه الرحلة الموفقة أذاع الزعيم الجليل البيان الآتي:

«لا يسعني تلقاء ما حباني به أهل الساحل الكرام في رحلتي الأخيرة إليهم من العطف الخالص والحب المكين والرعاية الشاملة وما أبدوه من آيات الوطنية الصادقة والإخلاص العميق والشعور الحي الفياض إلاّ أن أشكر لهم من أعماق قلبي هذه العواطف الصادقة وهذا الإحساس السامي النبيل.

وإن أنس فلا أنسى ما بذله أعضاء شعبة سوسة الأفاضل من الجهود العظيمة الجديرة بالإعجاب وما تحملوه من الأتعاب المضنية والمشاق التي أراني عاجزاً عن إيفائهم ما يستحقونه لأجلها من الشكر الفائق والتقدير البالغ.

كما لا أستطيع أن أنسى الحفاوة الفائقة والجهود العظيمة التي بذلها أهالي البلدان الذين حللت بين ظهرانهم مساكن والمكنين وأكودة وكذا أهالي قصر هلال الذي سعوا سعياً حثيثاً لأزور بلدتهم ولم تمكنني حالتي الصحية من إجابة دعوتهم التي أقدرها حق قدرها. كما لا يسعني أن أغفل عما تحمله أهالي بلدان وقرى الساحل وبالأخص مدينة صفاقس من الأتعاب بتجشمهم

مشاق السفر في الليل وفي النهار، قصد زيارتي وتحيتي وإبداء عواطفهم الطيبة الصادقة نحوي فإليهم جميعاً شكري وثنائي.

هذا وإنّي أعتبر رحلتي لبلاد الساحل واجتماعي بنخبتها ومفكريها وشبيبتها وأحرارها وما تبادلنا من عواطف الولاء والإخلاص بمثابة عهد مكين بيننا على الاتحاد والتكاتف لخدمة صالح هذه البلاد المنكوبة وقضيتها الوطنية المقدّسة.

حقّق الله آمالنا جميعاً وأعاننا على العمل لخير هذه البلاد[25]».

(25) لم أتمكن من تسجيل عدد المجلة وتاريخه.

اضطرابات تونس الأخيرة
كيف بدأت وكيف انتهت
كلمة عن القضية التونسية

يظهر أن هناك كثيراً من الشبه بين حركة تونس الأخيرة وبين اضطرابات المغرب في السنة الماضية فكلاهما ناشىء عن الشكوى من أعمال الإدارة الفرنسويّة وعن عدم اهتمام فرنسا بتنفيذ وعودها الكثيرة للمغاربة بالحرية والإنصاف.

ولقد تناقلت الشركات البرقيّة في الشهر الماضي كثيراً من التفصيلات عن حوادث تونس الأخيرة فوقفنا متريثين منها انتظاراً لورود تفصيلات أوفى وأدق وقد أخذت ترد تدريجياً.

ولهذه القضيّة تاريخ صار طويلاً ليس هنا موضع استيفائه فقد استيقظت تونس منذ أوائل هذا القرن وشرعت تتأهب لمكافحة الاستعمار الفرنسوي حتى إعلان الحرب العظمى في سنة 1914 فبسط المحتلون الأحكام العسكريّة على البلاد وصادروا الحركة الوطنيّة والمشتغلين بها وقطعوا على أنفسهم العهود والوعود بأن ينيلوها طلباتها وأمانيها بعد إنتهاء الحرب وخروج فرنسا من غمرتها.

طلبات التونسيين

وعكف التونسيون على التنظيم الداخلي حتى إذا وضعت الحرب أوزارها وأبرمت الهدنة عقدوا مؤتمراً اجتمع يوم 11 نوفمبر سنة 1918 [26] أي عشية عقد الهدنة في منزل السيد (علي كاهية) وفي هذا الاجتماع أنشىء حزب الأحرار الدستوريين التونسي للمطالبة بتحرير تونس على قاعدة التفاهم مع فرنسا وعهد المؤتمر بهذه المهمة إلى رئيسه الأستاذ (عبد العزيز الثعالبي) وهذا نص الطلبات التي وضعها المؤتمر:

1 ـ إنشاء مجلس تشريعي يتألف على قاعدة المساواة من نواب تونسيين وفرنسويين معينين بالانتخاب العام ويملك حق المفاوضة وله سلطة مالية غير محدودة.

2 ـ تكون الحكومة مسؤولة أمام هذا البرلمان.

3 ـ التفريق بين السلطات الثلاث في الدّولة.

4 ـ قبول التونسيين في جميع وظائف الدولة الإدارية متى توفرت فيهم الكفاءة..

5 ـ المساواة التامة في مرتبات الموظفين الذين يتقلدون منصباً واحداً بلا تمييز.

6 ـ إنشاء مجالس بلدية بالانتخاب العام في جميع مدن المملكة.

7 ـ حرية الصحافة والاجتماع والمؤسسات.

8 ـ التعليم الإجباري.

9 ـ مشاركة التونسيين في شراء أراضي الاستعمار وأملاك الدّولة.

تلك هي طلبات التونسيين من فرنسا وقد حملتها وفودهم إلى باريس وأبلغتها إلى الحكومة الفرنسويّة وألحت بتنفيذها ولكن بلا جدوى سوى

(26) سبقت الإشارة إلى أن الإجتماع الذي حدد المطالب الثمانية كان في سنة 1920 والمطلب التاسع أضيف فيما بعد.

الوعود وانتهى هذا الدّور في عام 1923 بإقصاء الأستاذ الثعالبي زعيم هذه الحركة عن تونس ومنعه من الرجوع إليها.

الانقسام الداخلي

واضطلع بعبء العمل الوطني في خلال هذه الفترة ـ فترة غياب الأستاذ الثعالبي، زملاؤه في الحزب بيد أن عوامل الانقسام والشقاق ما لبث أن تسربت إليهم فانشطروا شطرين «الديوان السياسي» و «اللجنة التنفيذية».

وشغل الفريقان بمنازلة بعضهما بعضاً، وظلا كذلك حتى عودة الأستاذ الثعالبي إلى تونس في شهر يونيو من السنة الماضية فاشتركا في استقباله وفي تكريمه والحفاوة به باعتباره أباً للحركة الدستوريّة ومؤسسها، وموجد النهضة الجديدة وقائدها. وما كاد يستقر به المقام حتى شرع يمهد للتوفيق ويعمل له وبعد أخذ ورد امتد أسابيع أذاع بياناً مطولاً على الأمة أقام فيه الحجة على الفريق الأول أي «الديوان السياسي» وقال إنه هو المسؤول عن فشل المفاوضات وعليه تقع تبعة هذا الانقسام. وانضم عقب هذا البيان إلى الفريق الآخر أي إلى اللجنة التنفيذية وتولى زعامتها بالذات. أما رجال الديوان السياسي فاختاروا لهم اسماً جديداً يعرفون به الآن وهو «الدستور الجديد» ليتميز عن الحزب الدستوري القديم الذي أنشأه الأستاذ اثعالبي سنة 1918[27] كما تقدّم ويقول بعض العارفين أن الدستور الجديد يضم معظم عناصر الشباب التونسي المتعلم في أوروبا وأن الفريق الآخر يضم رجال الدين والمتعلمين في جامع الزيتونة وأنصار الثقافة الإسلامية.

---

(27) نفس الخطأ في تاريخ إنشاء الحزب. إلا أن يكون المقصود الجهود التمهيدية التي سبقت التأسيس، والتي أعقبت نهاية الحرب العالمية الأولى مباشرة.

تحول جديد

ولقد كان من جراء هذا التحوّل الحزبي الجديد ومن وقوف الأستاذ الثعالبي هذا الموقف الصريح أن اشتدت الخلافات الداخليّة واتسع نطاقها فكثرت الحملات الصحافيّة وقام كل فريق يشهر بالآخر وبلغ الأمر بحزب الدستور الجديد أن دبر مكيدة ـ كما زعموا والعهدة عليهم ـ لاغتيال الأستاذ الثعالبي في إحدى رحلاته وتدخل العقلاء والمصلحون بين الفريقين فسكنت الضجة وهدأت العاصفة وعكف كل فريق على تنظيم صفوفه الداخليّة وعلى نشر دعايته. بيد أن استقالة الدكتور محمود الماطري من زعامة الحزب الجديد لأعذار صحية واعتزاله الحياة السياسية زلزل هذا الحزب كما قالوا فلم ير زعيمه الجديد وهو الأستاذ الحبيب أبو رقيبة بدا من القيام بحركة جديدة تلفت إليه الأنظار وتكسبه ثقة الجمهور ورضاءه فقام بحملة عنيفة على الحكومة الفرنسوية لأنها لم تف بوعودها المتكررة لتونس ووقع صدام بين أنصاره ورجالها وانتهى الأمر باعتقاله هو ومن معه. أما كيف حدث ذلك فهذا تفصيله.

كيف حدثت الاضطرابات

كان الحزب الدستوري الجديد في مقدمة الأحزاب العربية في الشمال الإفريقي ابتهاجاً بانتقال الحكم إلى أيدي رجال الجبهة الشعبيّة (وزارة المسيو بلوم الأولى وقد تألفت في شهر يونيو سنة 1937) ولم يتردد في إعلان ثقته بها وذلك اعتماداً على وعود زعمائها الكثيرة للتونسيين ولغيرهم من أبناء البلدان العربيّة الخاضعة للاستعمار الفرنسوي فقد كانوا يسرفون في بذل الوعود لهم ويمنونهم أطيب الأماني ويقولون لهم إن الفرج لن يأتيهم إلاّ حينما يتولى الاشتراكيون وأنصارهم الحكم. وتلقى إليهم فرنسا مقاليدها.

تسويف وخيبة أمل

وصبر التونسيون طويلاً على وزارة المسيو بلوم الأولى وأرسلوا وفودهم إلى باريس تستنجز الوعود فسوفت وماطلت ثم أرسلت وكيل وزارة خارجيتها (المسيو فيانو) فجال في تلك البلاد واجتمع إلى بعض أقطابها ورجالها ثم عاد إلى باريس. ولكن الحالة ظلت على ما كانت عليه وظل كل قديم على قدمه، فأدرك القوم أن الوزارة لن تعمل لهم عملاً ولن ترد إليهم حقاً.

إضراب تاريخي

ورأى التونسيون أنه لا بد لهم من عمل مادي يعملونه لتوجيه الأنظار إلى قضيتهم فاتصلوا بإخوانهم الجزائريين والمغاربة واتفقوا على إعلان إضراب عام في الأقطار الثلاثة وهي تونس والجزائر والمغرب الأقصى وضربوا يوم 17 رمضان الماضي (20 نوفمبر 1937) موعداً له وذلك تأييداً لفلسطين وتنبيهاً لفرنسا فاهتمّ الفرنسيون بهذا الإضراب لأنه أول حادث يحدث من نوعه في الشمال الإفريقي وتشترك فيه هذه الأقطار الثلاثة وقد اعتادت أن تعيش متباعدة منفصلة[28].

---

(28) قالت مجلة (الشهاب) عن هذا الإضراب تحت عنوان (التضامن التونسي):

«قررت تونس، موطن الغر الميامين، وحاملة راية التضحية والإخلاص باليمين، إعلان الإعتصاب العام يوم السبت 20 نوفمبر الحالي، كامل اليوم، وفي كامل بلاد المملكة، إعلانا على استيائها وتذمرها من سياسة الشدة والإرهاق التي تسلك بالمغرب والجزائر، وتؤكيداً لتضامنها المتين وأخوتها الصادقة لهذين القطرين.

إننا نقدم على لسان كل مغربي وكل جزائري على الإطلاق، أسمى ما تحمله نفس بشرية من عواطف الود والصداقة والإعتراف بالجميل للشعب التونسي النبيل، ونبشره بأن مسعاهم لن يذهب عبثاً. وبأن أمواج الأعمال الزاجرة ستتحطم على =

وألحّ الدستوريون الجدد بعد هذا الحادث على الحكومة الفرنسية لكي تعمل لهم عملاً مادياً وتنفذ وعودها الكثيرة المقطوعة لهم فكانوا يلقون مطلاً وتسويفاً فكل قديم باق على قدمه والمقيم الفرنسوي الجديد في تونس (المسيو أرمان كيون) يُعيد ويُبدي بأنّه عامل على إنصاف البلاد وتنفيذ سلسلة من المشروعات الإصلاحية والعمرانيّة.

ومما يستحق الذكر أنّ إرضاء التونسيين حتى بالوعود لم يرق في نظر طائفة من المستعمرين الفرنسويين هنالك، فنقموا على مندوب فرنسا سياسته وتصرفاته وقالوا له يجب أن تأخذ القوم بالشدة وتقمع حركتهم. وتناولته أقلام بعض الصحف الفرنسوية التي تصدر في تونس بالنقد الشديد اللاذع وأعرض فريق عن حضور الحفلات الرسمية التي يحضرها لأنه يأبى أن يأخذ التونسيين بالشدة المأثورة عن السياسة الفرنسوية وأن ينهج نهج أسلافه في الضغط والإرهاق.

بدء الحوادث

وأذيع في تونس في شهر مارس الماضي أن أحد أساتذة المدرسة الصادقية [29] سيلقي محاضرة موضوعها «نصيب الشبيبة في الكفاح القومي» فأسرعت السلطة الفرنسوية بمنعها، فألقاها الأستاذ في نادي الحزب الدستوري الجديد وهو من أكبر دعاته ثم ذهب في الغد إلى المدرسة التي يدرس فيها وودع طلابه وداعاً مؤثراً وقال لهم إنهم سيقصونه من أجل فكرته

= صخرة الثبات المتينة الأسس بهذه الأقطار. وأن هذه السياسة ستخفق عندنا وعند إخواننا المغاربة كما أخفقت من قبل عند أهل الخضراء».

من الباب الشهري في (الشهاب): «في الشمال الإفريقي» الذي يحرره بدون إمضاء أحمد توفيق المدني. انظر (الشهاب) الجزء (9)م (13) رمضان 1356هـ نوفمبر 1937.

(29) أستاذ الصادقية هو (علي البلهوان) زعيم الشباب.

فتظاهروا بتأييده فأغلقت مدرستهم لأجل غير مسمى ولا تزال مغلقة وأغلقت مدارس أخرى وطنية وقومية فكان ذلك بدء النضال الجديد فقد انتصر الدستوريون لصاحبهم وعقدوا سلسلة من الاجتماعات احتجاجاً على الحالة الراهنة وطلباً لتعديلها وإصلاحها. ومما زاد الحالة سوءاً أن الصحف الفرنسيّة في تونس نشرت أخباراً بأن لبعض المنتسبين للحزب الدستوري الجديد صلة بالدعاية الفاشستية، وقيل إنهم عثروا على وثائق رسمية تؤيد ذلك.

وبدأت الاضطرابات في مكان اسمه وادي (مليز) فقد أراد الدستوريون عقد اجتماع في فندق هنالك فمنعتهم السلطة فاجتمعوا رغم إرادتها وظلوا يخطبون من الساعة العاشرة حتى الثانية عشرة ثم حاصروا دار الحكومة وكسروا زجاج نوافذها وحطموا سيارة الحاكم، فجاءت قوة كبيرة قبضت على زعمائهم وبينهم الدكتور (سليمان بن سليمان) من أعضاء الهيئة الإدارية للحزب الدستوري و(يوسف الرويسي) من زعمائه وتجددت الاضطرابات في الغداة وانتشرت وعمت معظم المدن التونسية فأذاع المقيم الفرنسوي العام يوم 8 أفريل الماضي بلاغاً قال فيه، إن الذين اعتقلو إنما قبض عليهم بأمر المحاكم المختصة وإن الوثائق التي صودرت تثبت أنه في خلال الاجتماعات التي عقدت في جهات شتى، صدرت أراجيف داعية بالخصوص إلى الامتناع عن دفع الضرائب والعصيان المدني والخدمة العسكريّة الخ.

ثمّ قال إن المقيم العام يدعو إلى الهدوء وهو لا يتخلف عن تطبيق القانون وعن فرض الأمن العام.

وكذلك أذاع القسم التونسي للمجلس الكبير نداء ناشد فيه الشعب أن يلجأ إلى السكينة فلم يفد ذلك بل ظل نطاق الهياج يتسع حتّى شمل تونس (العاصمة) فاضربت وطاف الشباب في الأحياء العربية يحملون لوحات كبيرة كتب عليها «نريد حكومة وطنية» «لتسقط الامتيازات» نريد برلماناً تونسياً».

وذهب وفد من أعيان البلاد فقابل الباي وشكا له ما يقع ورجا منه التوسط لحل المشكلات الطارئة ولإطلاق سراح المعتقلين فوعده بالتوسط.

وقبض عقب هذه الأحداث على الأستاذ الحبيب بورقيبة زعيم الحزب الدستوري وعلى جميع أقطاب هذا الحزب وكبار رجاله وأحيلوا إلى المحكمة العسكريّة وأصدر قائد الجيش أمراً بمنع كل اجتماع أو تجمهر يضم أكثر من ستة أشخاص وأعلنت حالة الأحكام العسكرية في بعض المدن ويقدر مجموع الذين اعتقلوا ببضع مئات.

هذا وصف مجمل للاضطرابات التي حدثت في تونس في خلال شهر أبريل الماضي وكان قادتها ومنظموها من رجال الحزب الدستوري الجديد وقد زجوا جميعاً في السجون ونحن في غنى عن القول إن سبب كل ما جرى هو عدم وفاء فرنسا لتونس بما وعدتها به وإصرارها على التمسك بالسياسة القديمة التي ينفر منها التونسيون ويرونها سبب فقرهم وتأخرهم ويشاركهم في هذا الرأي بعض أقطاب فرنسا ويشاطرونهم إيّاه. وليست هذه هي المرّة الأولى التي تقع فيها اضطرابات وينهض التونسيون للمطالبة بحقوقهم فقد حدث مثل ذلك سنة 1934 ولا بد أن يتكرر في المستقبل ما لم تعدل فرنسا سياستها وخططها وتتفاهم مع القوم ولعلها تفعل ذلك قريباً إن شاء الله.

تونس وزعيمها

في الوقت الذي كان فيه الأستاذ أمين سعيد صاحب هذه المجلّة ينظم حفلة تكريم شائقة بداره للزعيم التونسي السيد الثعالبي. في الوقت الذي كان يجتمع بدار «أمين سعيد» أصحاب الرأي وقادة الفكر في مصر ليحيوا زعيم تونس بمناسبة سفره إلى وطنه الأوّل بعد إبعاده عنه زهاء ثمانية عشر عاماً[30]. في هذا الوقت كان اتحاد النقابات ينظم اجتماعاً كبيراً في تونس

(30) الصحيح أربعة عشر عاماً من سنة 1923 حتى 1937.

للاحتجاج على السلطات لأنها لم تطبق القوانين الاجتماعية في هذا الديار.

إلى هذه الدرجة الحيويّة الحساسة سمت روح الحرية بين طبقات الشعب التونسي، حتى أصبحت طبقة العمال ومن إليهم يطلبون مساواتهم بأرقى الطبقات العاملة في العالم من حيث الأنظمة والدساتير العملية التي تحفظ للطبقات الفقيرة وجه الكرامة الإنسانية.

يدل هذا على أن السيد الثعالبي سيعود إلى وطنه العزيز الأول فيرى غير الديار، والناس غير الناس.

لقد خرج الثعالبي من تونس وفكرة الاستقلال تعد في عرف الذين هناك فكرة منكرة مستنكرة، وربما كان الثعالبي يومئذ يتلفت حوله للبحث عن حزب يؤيده ويناصره في دعواه فلا يجد إلّا قليلاً.

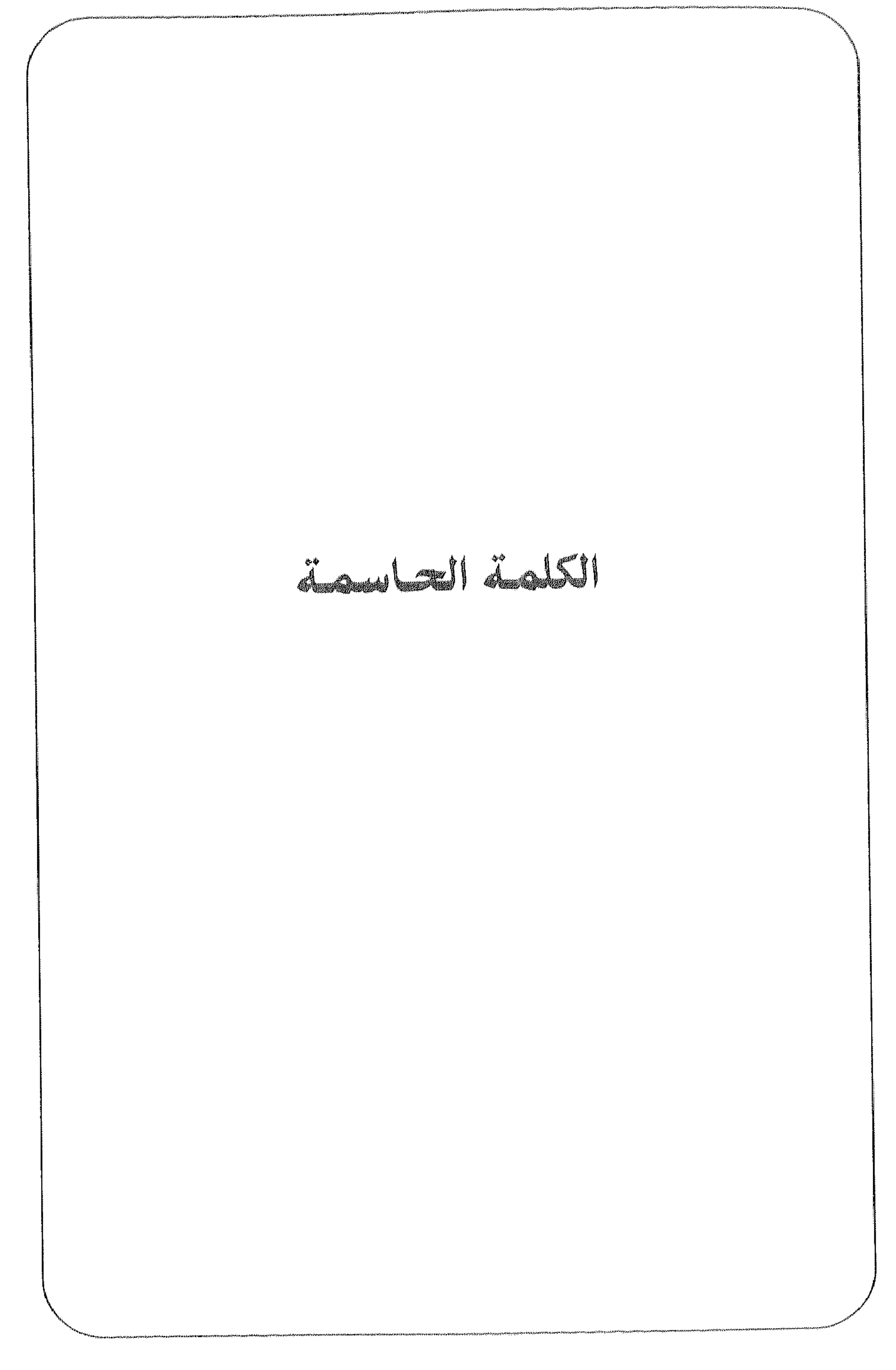
أمّا اليوم فسيدخل الثعالبي تونس فلا يجد له حزباً فحسب ، بل يجد أن الحياة المعنويّة في تونس قد ارتقت إلى درجة وجود نقابات، بل اتحاد نقابات يرفع صوته بالاحتجاج في وجه السلطات.

هذا التطوّر الزمني من شأنه أن يحفز الزعيم التونسي. إلى الجهاد من جديد فمن جاهد وخيوط الأمال متقطعة جدير به أن يجاهد وراية الآمال مرفوعة وما نبغي من هذه الكلمة إلّا أن تكون فكرة استرداد حقوق العرب في جميع أوطانهم فكرة ملتهبة، وقودها الإيمان والإرادة والعلم[31].

(31) لم أتمكن من تسجيل عدد المجلة وتاريخه.



(محمد الحبيب شلبي: 1906 ـ



الكلمة الحاسمة



أعضاء الديوان السياسي في طليعة المرحبين بالثعالبي.
الحبيب بورقيبة عن يمينه، ومحمود الماطري عن يساره، وفي أقصى يسار الصورة البحري قيقة وصالح بن يوسف

بيان الأستاذ الثعالبي
إلى الشعب التونسي

سعى الأستاذ الثعالبي عقب عودته إلى تونس للتوفيق بين الحزبين السياسيين الديوان السياسي واللجنة التنفيذية المتنافسين هنالك سعياً حثيثاً تلبية لنداء الأمة وجمعاً للكلمة فقاومه الأول ويرى القارىء في هذا البيان الخطير وصفاً وافياً للحوادث الأخيرة. قال:

كنت وعدت بعد ارفضاض اجتماع أعضاء الهيأتين: الحزب الحر الدستوري التونسي والديوان السياسي على غير طائل من الوفاق الذي دعوتهم إليه يوم 20 جمادى الأولى سنة 1357 وفق 1 أغسطس سنة 1937 ـ أن أذيع بياناً مفصلاً على الشعب التونسي الكريم أطلعه فيه على نتيجة سعيي في عقد الوفاق وكان في وسعي أن أفضي بها إلى الأمة قبل هذا الميعاد المضروب لكنني أفسحت في المدة لأمكن الناكبين عن الوفاق من الوقت الكافي للتدبير في عاقبته إصرارهم على الخلاف والخروج عن الجادة المثلى التي يسير عليها المسلمون، جادة الاتحاد التي فرضها الله عليهم في محكم التنزيل بآية ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا * واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم * فأصبحتم بنعمته إخوانا * وكنتم على شفا

حفرة من النار فأنقذكم منها﴾[1].

ولما دنا الأجل المضروب وظهر من أعمال المنشقين تماديهم على العناد وسعيهم في تمزيق وحدة الأمة وتشتيت كلمتها بما كانوا ينشرونه في الجرائد وبالأخص في «النهضة» و «الزهرة» و «العمل» من الأقوال البذيئة والمطاعن الذميمة التي كان من الواجب أن يتعالى عليها الكتاب المحدثون في الأدب السياسي الذين يريدون أن يجعلوا أنفسهم مرشدين للأمة ومثالاً لأدبها العالي ليقتدي بهم الناشئون ويسيروا على غرارهم حسب تعاليم الإسلام وتقاليد العرب والتهذيب القومي للتونسيين المشبع بالحياء والخلق النبيل.

ولما شذ الناكبون عن السراط السوي واتبعوا أهواءهم وحان الميعاد المضروب، لم أر بداً من إذاعة هذا البيان على الأمة لترى رأيها فيما حدث فهي صاحبة القول الفصل بعد أن أبدى لها هذه الكلمة الحاسمة في تعيين الناكبين عن الوفاق.

أسباب توسطي لإزالة الخلاف

لما شجر الخلاف في الحزب الحر الدستوري التونسي أواخر سنة 1933 لم أتصل بأخباره إلا في فبراير سنة 1934 وأنا في (برمة). وقد شق عليّ كثيراً أن ينقلب الحزب الذي لاقيت في تأسيسه أشد الآلام من سنة 1918 إلى سنة 1923 وكان قصدي من تأسيسه أن يكون أداة صالحة لخدمة البلاد وتوحيد جهودها على الخير ولم شعثها لاسترجاع حقها السليب. فعز عليّ أن ينقلب أداة شغب ومثاراً للفتن الداخليّة بين أهل الوطن الواحد وكانت رسائل المواطنين تلاحقني من قطر إلى قطر في طريقي إلى الصين يسائلونني فيها أي فريق يتبعون: الأعضاء القدماء، أم الذين انشقوا عنهم.

(1) سورة آل عمران، الآية 103.

وهم مجتمعون على أن ينضووا تحت لواء الشق الذي أكون فيه. وكل هذه الوسائل تطالبني بأن أسرع بالعودة إلى الوطن لانقاذ الموقف وإصلاح ذات البين وإعادة التيار القومي إلى مجراه الطبيعي وصد هجمات الطفيليين الذين استمرأوا حياة البطر في البلاد وامتصوا دماءها دون مقابل.

ولما كنت أجهل أسباب الخلاف وذرائعه رأيت من واجبي أن أعدل عن رحلتي في الصين وأجيب صرخات الباكين التي كانت تحز في صدري فلبيت الاستغاثة وكررت راجعاً إلى الهند ولما وصلت (بومباي) كتبت إلى الصديق الحميم الأستاذ الشيخ (علي كاهية) أندبه إلى دعوة الشقين المتنافرين إلى الوفاق وإن تعسر فإلى هدنة موقتة تَقَرّبها عين المشفقين على مصلحة الأمة التونسية ولكي لا أستقبل حين رجوعي شقاقاً بين الذين خلفوني على تسيير الفكرة الدستورية في البلاد.

ولما وصلت إلى مصر وكنت في طريقي إلى تونس صدتني السلطة الفرنسوية عن العودة إليها ومواصلة السير إلى وطني. وفي هذه الأثناء لم ينقطع عنّي سيل الرسائل التونسية ولكن من غير الهيأتين المتخاصمتين. وكانت رسائل المكاتبين من جانب المنشقين كادت تطغى على الصحف اليومية في مصر وهي تحمل التهم والشتائم المقذعة في حق اللجنة التنفيذية بصورة أوجبت كدر القراء المصريين واستياءهم، وألتمس مني أقطاب مصر أن أجعل حداً لهذه الشتائم وأن أسعى في الوفاق بين التونسيين فتفاهمت في ذلك مع الصحف المصرية والفلسطينيّة وصرفتها عن الاسترسال في نشر تلك القذاعة التي لا تشرف بلادنا في الخارج.

بعد العودة إلى تونس

لما رجعت إلى تونس واستقبلتني الأمة بتلك الحفاوة العظيمة التي لا عهد بمثلها إلا من الأم الرؤوم لابنها البار، وكانت أصداء الهاتفين تردد في

أذني أن عد بالبلاد إلى وفاقها القومي الذي لازمها في عهدك واستمر بعدك إلى موفى سنة 1933 كما كانت الوفود التي تتقاطر عليّ ولم تزل إلى اليوم تطالبني برغبة ملحة أن أعيد إلى الأمة اتحادها، وتناشدني أن أذكر المتخالفين الأيمان التي عقدوها على القرآن الكريم. وكذلك كانت الرسائل من أنحاء البلاد كافة تتهاطل عليَّ بالدعوة نفسها مع إزالة الشقاق الذي ضاعت فيه مصالح الأمة وتكالب عليها بسببه المغيرون وساءت مثلها العليا. وكثيراً ما سمع هذه النداءات الحارة المنشقون أنفسهم. فعلمت أن الخلاف خلاف أفراد، وأنه لم يتغلغل في أعماق الشعب فعمدت إلى درس مناشىء الخلاف وأسبابه وتتبع منابته لدى كل من الفريقين المتخالفين لأقف على دخائله فلم أجد لذلك سبباً جوهرياً في الأصل يبرر الخلاف سوى نزوع أفراد إلى التشبث بالشقاق ليتسلقوا منه إلى كراسي الزعامة ويغتصبوها من الأمة اغتصاباً على حساب المصلحة العامة.

دعوة اللجنتين للمفاهمة معي

رأيت من الأخلق بالبحث أن أخلو إلى كل لجنة بانفرادها وأسمع أقوالها في اللجنة الأخرى ثمّ أقارن بين أقوال اللجنتين لأتبيَّن الحد الذي وصل إليه الخلاف وكيف تطوّر؟

ما سمعته من أعضاء الديوان السياسي

يقولون فيما يتهمون به أعضاء اللجنة التنفيذية إنهم أهملوا القضية التونسية وتقاصروا عن الاتصال بالشعب حتى تعطلت القضية، ولم يبق لها أثر في البلاد وأغلقت نواديها. ولما ثرنا عليهم وأردنا أن ننقذ الحركة من أيديهم قاومونا أشد مقاومة ورشقونا بالتهم الباطلة وآزروا الحكومة علينا ومن ذلك التبرّي من جريدة (العمل) على لسان المرحوم الصافي بمحضر الوفد الذي صاحبه لمواجهة المقيم بيرطون سنة 1933 ولما كشف سرهم الأستاذ البحري

قيقة حاكموه أمام اللجنة التنفيذية نفسها ورفتوه من الحزب دون رجوع للمؤتمر فكانوا هم الخصم والحكم. وقالوا أيضاً إنهم كتبوا إلى المقيم العام م. بيروطون وقالوا إنهم وشوا بالديوان السياسي إلى الحكومة بأنه يصنع قنابل الديناميت في شارع غامبيتا. وقالوا أيضاً إنهم يجمعون أموال الأمة ويلتهمونها ولذلك يمتنعون من تقديم الحسابات.

ما سمعته من أعضاء الجلنة التنفيذية

ويقول أعضاء اللجنة التنفيذية في رد هذه التهم إن اتهام اللجنة بالتقصير اتهام باطل لأنّ المنشقّين حينما دخلوا اللجنة دخلوها على أثر حوادث التجنيس[2] التي كان النشاط الذي بذله الحزب فيها ملموساً ومشاهداً

---

(2) قانون التجنيس صدر في 20 ديسمبر 1923، وقد شن الحزب الدستوري حملة شعواء ضد هذا القانون، واكتست هذه الحملة عدة أوجه منها الكتابة في الصحافة والتشنيع على التجنيس والمتجنسين ومن هذه الجرائد (الأمة) و (مرشد الأمة) و (النديم) و (جحجوح) و (العصر الجديد).

وركزت الحملة على أن التجنيس يتناقض والهوية العربية الإسلامية، وأن الجنسية والدين الإسلامي عنصران لا ينفصلان وقد وجدت هذه الحملة سنداً لها في فتوى الشيخ علي سرور الزنكلوني أحد علماء الأزهر المقربين من الثعالبي وإبراهيم أطفيش اللذين عملا في القاهرة على استصدار هذه الفتوى وفحواها: «تكفير المتجنسين» بينما تقاعس شيوخ الزيتونة عن إصدار مثل هذه الفتوى، رغم إلحاح الصحافة الوطنية عليهم في ذلك.

وقد نشرت جريدة (المبشر) فتوى (الزنكلوني) تحت عنوان: (حكم الله في مسألة التجنيس) وقدمتها بما يلي:

بعث إلينا بهذه الفتوى الأستاذ الجليل العلامة الفاضل الشيخ علي سرور الزنكلوني، أحد فطاحل علماء الأزهر الشريف. جواباً عن سؤالنا الموجه على صفحات الصحف إلى كافة علماء الإسلام في كل قطر بشأن مسألة التجنيس التي رمتنا بها السياسة الإستعمارية هذه الأيام، التي يعلن فيها استقلال كثير من الأمم وقد آثرنا =

بالعيان حتى أن الحكومة تأثرت من هذا النشاط وأصدرت سلسلة من الأوامر الزجرية وأعلنت حل الحزب بعد أن عقد مؤتمره العظيم أيام 13 و 14 و 15 مايو 1933 وحينما أصيب الحزب بصدمة الحل وأغلقت نواديه اتجه الحزب بكليته للمقاومة ومحاولة التغلب على السلطات الغاشمة والقضاء على هذه السياسة الجدية وبالرغم من ذلك فإن الاتصال بالشُّعب التابعة للحزب بقي كما هو لم يؤثر فيه غلق مركز الحزب بدليل حركة المقاومة الباهرة التي قام بها الحزب وقتئذ في داخل البلاد مثل حركة مقاطعة الدخان وغيرها من الحركات التي كان لها الأثر العظيم في ذهاب المقيم العام م. منصرون.

أمّا تهمة التبري من جريدة العمل فهي تهمة باطلة وسخيفة إلى آخر حد وقد ردها جميع الذين كانوا أعضاء في ذلك الوفد الذي قابل المقيم وقتئذ ولا يعقل أن يصدر هذا التبري أمام اثنين ممن كانوا يصدرون جريدة العمل وعلى فرض صدوره فلماذا سكت عن استنكاره أمام المقيم نفسه مختلق هذه الفرية التي ما جاء بها صاحبها إلا ليغطي على الاستنكار الذي قام في وجهه عندما أذاع سر هذه المقابلة ونقل ما قاله المقيم عن الجالية الفرنسية وعن عزمه على التنقيص من المرتبات والغرامات والموظفين الاشتراكيين الذي أوصى المقيم الوفد بالكتمان عنهم خشية أن يقيموا العراقيل في سبيله على أنّه لا يعقل أن يطلب المقيم منا كتم هذه الوشاية واعتبارها سراً بحال. ولأجل هذا ولأجل عمل الأستاذ البحري في هدم الحزب وتأليب الأعداء عليه وحتى إيجاد الأعداء له والدعاية بهذه الدعوة الهدامة حتى لدى شعب الحزب واستمراره على ذلك نحو أربعة أشهر، حاكمته اللجنة التنفيذية وقررت بمقتضى طلب عضوين من اللجنة شاهداه يقوم بهذا العمل وعلى أثر تشكيات عديدة من شعب الحزب ـ رفته من الحزب كما رفت غيره.

نشرها لما فيها من الآراء الصائبة. والنظريات الصحيحة، والحجة الدامغة على الذين أضلهم الله على علم».

انظر: (المبشر) عدد (21) 1 شعبان 1343هـ 8 مارس 1924 وانظر: (الثعالبي والحركة الوطنية).

وأما مسألة الكتاب الذي وجه للمقيم العام وقيل فيه «الحزب المنحل» فقد كان الداعي إليه هو محاولة إنهاء أمد النفي وإنقاذ المبعدين من العذاب من طريق المفاهمة مع المقيم. وليس من المعقود أن ننتظر من مثل المقيم بيروتون في حالته النفسيّة المعروفة أن يجيب مطلب مقابلة، متوجاً بعصيان صريح لقرار الحكومة. على أن المراد من هذه العبارة ليس هو الاعتراف بالحل والرضوخ له بدليل أن هذه الحركة المتمثلة في طلب المقابلة إنما كانت باسم هذا الحزب وبدليل أن المقيم العام نفسه عند إجابته على هذا الطلب بالرفض إنما أجاب الكاتب الحاكم للحزب ولم يجب أحداً غيره من الممضين في مطلب المقابلة. وغاية ما في الأمر أنها عبارة ذكرت للإشارة إلى عمل الحكومة دون الاعتراف به وقد وقع استعمالها في السابق قبل الشقاق حينما وقعت مقابلة المقيم م. بيروتون نفسه في أول عهده بتونس وطلبت منه المقابلة باسم اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري المنحل التي كان فيها وقتئذ جميع المنشقين وقد ذكرت أيضاً في طالعة الخطاب الذي ألقاه على أسماعه الوفد الذي كان من جملة أعضائه الأستاذ البحري قيقة ولم يثر ذلك أي انتقاد بالمرة وكان ذلك باقتراح من السيد محمد بورقيبة.

وأما المشاركة في لجنة الإصلاحات فإن تأسيسها قد ضمن للمعارضة حقها الكامل في إبداء آرائها مهما كانت، كما ضمن لها أن تسجل آراءها في جميع التقارير التي ترفع للحكومة. وإزاء ذلك رأينا أن الحزب قد دعى لإبداء رأيه للحكومة في جميع أحوال البلاد السياسيّة والاقتصاديّة والإداريّة بصفة رسميّة وأعطيت له الحرية التّامة لإبداء جيمع ما يراه والمناضلة عن فكرته لذلك رأى أنه من التقصير في واجبات البلاد أن يحجم عن إسماع صوته وعن إبداء أفكار إيجابية وليست اللجنة مؤسسة مثل المجلس الكبير ضيقة النطاق لا يمكن أن يسمع فيه إلا الصوت الذي يرضي الحكومة حتى يتعين علينا أن نرفض الدخول إليها وقد فعلنا ذلك وجابهنا المقيم بيرتون برفض الدخول إلى المجلس الكبير حينما عرض علينا ذلك قبل انتخابات سنة 1934. وكما فعلنا ذلك أيضاً حينما قررنا الخروج من لجنة الإصلاحات بعدما تبين لنا من

مقررات الحكومة ضد الحرية الشخصيّة وحرية القول، وإقامة نظام استثنائي قائم على الضغط والإرهاب. أن الحكومة بإقدامها على هذا ليس لها الاحترام الواجب للجنة الاصطلاحات.

ومن الفوائد التي انجرت للبلاد من المشاركة في الاصلاحات هو حمل الحكومة على العدول عن تشريع قانونين للصحافة أحدهما للصحافة التونسية والآخر للفرنسية بدل قانون واحد.

وأمّا مسألة الوشاية بهم إلى الحكومة فهي من قبيل الخداع والتربيم[3] من الذين يرتكبونها لستر فضائحهم ومنكراتهم فقد كنا محل اعتداء مستمر صادر منهم، قادة واتباعاً ضدنا في أشخاصنا ونوادينا واجتماعاتنا وجريدتنا بتحريض مستمر صريح منهم على العنف وإراقة الدماء وكان هذا يقابل منا بالصبر واحتمال الأذى وعدم مقابلة الشر بمثله خوفاً على ما بقي للبلاد من حرية ضئيلة هزيلة، أن يسب وتنتهك حرماته. كما كان يقابل من الحكومة وأعوان الأمن بالوجوم والتشجيع السلبي حتى نخرج عن صبرنا، وتحدث بين الأخوان في الدين والوطن فتنة عمياء وتضطرم نار حرب أهليّة تكون ذريعة لهم لإنزال البلاء على البلاد وإزاء هذا كنا نوالي التحذير تلو التحذير للقوم عساهم يرتدعون ويذكرون واجب الحق وحرمة الوطن ولكنهم كانوا يزدادون إمعاناً في الإعتداء والتحريش والتحريض عليهما حتى فعل التحريض فعله في نفوس بعض المتهوسين وأقدموا على محاولة إحضار مواد مفرقعة بقصد اغتيال بعض رجال اللجنة التنفيذية وفي آخر لحظة تنبه الضمير الوطني في نفس بعض هؤلاء الذين وقعوا فريسة التحريض المستمر على العدوان وجاءوا إلينا يخبروننا بما وقع لنكون على حذر. فرأينا أن الكارثة التي نخشاها توشك أن تنقض على البلاد. وكتبنا في (الإرادة) نشهد الأمة على نتائج التحريض على وقوف الحكومة موقف التشجيع حتى تقع الكارثة وتكون

(3) (التربيم): ربم عليه، زاد، وافترى. وافتأت عليه بالباطل.

لها ذريعة لما تريد(4).

وأما مسألة المال وعدم المحاسبة عليه فهذا كذب صراح لأنا قدمنا حساباتنا تامة لمؤتمر مايو 1933 وصادق عليها ووافق نواب الشعب كافة كتابة على المبالغ التي ذكر التقرير المالي للمؤتمر أنهم أرسلوها لمركز الحزب ولم يمر على ذلك المؤتمر ثلاثة أشهر حتى أعلن الأستاذ الحبيب بورقيبة الشقاق. والكمية القليلة من المال التي جمعت أثناء ذلك والتي جمع أكثرها من رجال اللجنة التنفيذية عدا الأستاذين الحبيب ومحمد بورقيبة سلمت للأستاذ البحري قيقة قبل سفره لفرنسا وأرسلت له أثناء وجوده فيها، ولم يعط عنها حساباً إلى اليوم والظاهر أن المسألة المالية هي من جملة الأسلحة التي أخذوها عن أسلافهم في عداء الحزب.

وإذا كان المنشقون يوجهون إلينا هذه التهم الشكليّة التي لا تعلق لها بالمبادىء التي عاهدنا الله عليها جميعاً فإننا نوجه إليهم أنهم خرجوا عن مبادىء الحزب وقرار مؤتمر مايو سنة 1933 وذلك:

1 ـ بالتصريح أن غايتهم لم تكن ولن تكون استقلال البلاد.

2 ـ باعترافهم بأنهم إنما يرغبون في بقاء الحماية ويعملون في دائرتها ولا يريدون الخروج عن نطاقها.

3 ـ باعترافهم بالسيادة المزدوجة بالرغم من أن معاهدة الحماية نفسها لا تقرها ولا توافق عليها.

---

(4) (الإرادة). عالجت (الإرادة) قضية (الشقاق) بأكثر من افتتاحية عبر أعداد متلاحقة، منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

أشقاق أم تقويض	علي بوحاجب	عدد (48)
أكاذيب وتسفلات	؟	عدد (95)
ماذا تريدون؟!	علي بوحاجب	عدد (96)
إلى متى؟!	صالح بن العجوزة	عدد (164)
لماذا ندعو للاتحاد يا أعداء الاتحاد!	محيي الدين القليبي	عدد (207)

4 ـ باعترافهم بالحقوق المكتسبة التي يدعيها الاستعمار.

5 ـ بإعلانهم أنهم يتمسكون بسياسة المشاركة ويطالبون بها.

6 ـ بإعلانهم أنهم يجعلون غايتهم أن تكون تونس المعترف بذاتيتها واستقلالها من جميع دول العالم، جزءاً حراً من الإمبراطورية الفرنسية القائمة على نظام اتحادي وهي فكرة الدومنيون التي رفضها الحزب ورفضتها الأمة حينما نادى بها الحزب الإصلاحي[5].

7 ـ بعدولهم عن مطالب الحزب التي قررها مؤتمر سنة 1933 وأعلنها في تصريحه المشهور، وتمسكهم بمطالب أكثر ما يقال فيها إنها إصلاحية. وهي أقل حتى من مطالب الحزب الإصلاحي المعروفة.

وقالت اللجنة أيضاً في مذكرتها إليّ:

كان الحزب الحر الدستوري التونسي من عهد تأسيسه يتألف من ثلاثة عناصر ناشطة:

الأول ـ عنصر التفكير ووضع الخطط السياسية.

الثاني ـ عنصر الدعاية والنشاط القومي.

الثالث ـ عنصر الاتصال والمظاهر الاجتماعية.

وبين هذه العناصر أفراد كثيرون من حملة الشهادات ورجال الفن. وعلى هذه العناصر تسير الحركة التونسيّة، ومدارها على محورين ـ الأول ضم قوات الأمة. وتكتلها حول المطالب الدستورية والعمل على تحقيقها. الثاني مقاومة الضغط الاستعماري وصد الحكومة عن إقامة العثرات في طريق التقدم وتعويد القابضين على السلطة على تقدير رغبات الأمة إلى أن تحين ساعة الخلاص.

وطبيعي أن يجدّ حراس الاستعمار في استجماع قواهم لمراقبة الحزب

---

(5) إشارة إلى (حسن قلاتي) وجماعته.

من مختلف النواحي والدخول معه في كفاح مستمر. ومما يدخل في ذلك القيام بنشر الدعايات المختلفة ضد العاملين وخلق التهم الزارية بهم، وتنفير الناس منهم بواسطة تلك الصحف المأجورة ومواضيع المصطنعين. فقد رأينا طفيليين عديدين ينفثون تلك السموم القاتلة في المجتمع التونسي ضد الحزب بلا انقطاع. ولا يبعد أن يكون لما يلقونه يوماً ما أثر فعال في البيئات التونسية المختلفة البعيدة عن الحزب. وكذلك إقصاء العناصر الرشيدة عن الحركة إقصاءاً تاماً فقد كانت الحكومة تتعقب العاملين في الحزب داخلاً وخارجاً وتبعدهم عن مراكز النشاط والعمل، كما فعلت بالأستاذ أحمد توفيق المدني(6) والشيخ إبراهيم طفيش(7)..........................

(6) (أحمد توفيق المدني) سبقت ترجمته في (المدخل العام (والتعلة التي استندت إليها السلطات الفرنسية لإبعاده هي مقالة نشرها في جريدة (إفريقيا) عن حرب الريف. وكان الإبعاد بتاريخ (5) جوان 1925 وبقرار من المقيم العام (لوسيان سان) ولعل (المدني) أدرك يوم ذاك أن سياسة الإبعاد والطرد للوطنيين الأحرار وتشتيت شمل الحركات الوطنية في المغرب العربي. كانت سياسة مبيتة ومخططة، وموقوتة التنفيذ من طرف السلطات الإستعمارية، ابتدأت بإبعاد (الشيخ اطفيش) ثم (الشيخ الثعالبي) سنة 1923 ثم نفي (الأمير خالد) رمز الحركة الوطنية في الجزائر إلى الإسكندرية في مارس 1923.

ثم إبعاد (المدني) في جوان 1925. وكذلك (عبد الرحمان اليعلاوي) فقد كان (المدني) رحمه الله، يعتب على (الثعالبي) خروجه من تونس سنة 1923.

(7) (ابراهيم اطفيش) سبقت ترجمته في (المدخل العام). ويمكن إضافة ما يلي:

«كان (اطفيش) من أقرب المقربين من أبناء (وادي ميزاب) في الجزائر إلى الشيخ الثعالبي، إلى جانب المشايخ (محمد الثميني) و (أبو اليقظان) و (الشيخ صالح بن يحيى).

كان الثعالبي واطفيش، صديقي السراء والضراء، في نضالهما الدستوري في تونس، وغربتهما الطويلة في المشرق. في تونس كان أصغر عضو في اللجنة التنفيذية للحزب، وكان موفد الحزب في المهمات الصعبة إلى الجزائر، لجمع الأموال للحزب، أو محاولة توحيد الحركة الوطنية بين (الثعالبي) و (الأمير خالد).

كان أول المبعدين من الدستوريين سنة 1923، ودامت الصحافة الوطنية =

والشيخ عبد الرحمن اليعلاوي(8) والسيد محمد بن عمار والسيد المكي

= التونسية شهوراً عدة تخوض في قضية إبعاده، وبه دشّن (لوسيان سان) سلسلة الإبعاد التي توالت بعد ذلك، وشملت كل الأحرار الدستورين، ويوم صدر قرار (سان) بإبعاد (اطفيش) كتبت الصحيفة الإستعمارية (تونس الفرنسية) في (30) جانفي 1928:

«وكان (اطفيش) يحظى لدى (الثعالبي) بتقدير كبير، ووضع فيه آمالاً كبرى. وما لبث أن أصبح يسند إليه مهام، لا تسند إلا لمن يحظى بثقته. لكن السلطات استطاعت في المدة الأخيرة، أن تضع حداً لتصرفات هذا الشخص، الذي صدر في المدة الأخيرة قرار بإبعاده.

وقد وقع ترحيله يوم السبت. المهم أنه رحل ومرة أخرى نرى لزاماً أن نهنىء السلطات التي خلصتنا من شخص ماكر من هذا النوع، وسوف يكون عبرة لمن يعتبر».

(8) (عبد الرحمان اليعلاوي): (سوق الأربعاء 1897 ـ الجزائر 1976).

كان من الدعاة النشطين للحزب الحر الدستوري التونسي. وكان ممثله في (سوق الاربعاء) ومن المتحدين للسلطة الفرنسية في تونس، ومن المتصدرين للمظاهرات الوطنية، ومن الفاضحين للمظاهر الإستعمارية في تونس، وكانت له مواقف مشهودة ضد قضية (التجنيس). وضع تحت مراقبة سلطات الأمن في سنة 1921.

نفته السلطات الفرنسية في 6 ديسمبر 1925 إلى عنابة، وتنقل بين الجزائر وباريس، وواصل نشاطه السياسي والتربوي في نطاق جمعية العلماء، ثم تقلب في مسؤوليات هامة أثناء الثورة التحريرية، وعين بعد الإستقلال مديراً لبنك (القرض الشعبي الجزائري). جمعتني به ـ رحمه الله ـ مناسبات وطنية في الشرق أيام الثورة، وجوار كريم في الجزائر بعد الاستقلال.

كان شديد الاعتزاز بالثعالبي، ومقالته (تحية وذكرى) المثبتة في هذا الكتاب والتي أرسلها من باريس بعد عودة الثعالبي سنة 1937 ونشرت في جريدة (الإرادة). توضّح إلى حد بعيد مكانة مؤسس الدستور عند (اليعلاوي).

عاش محافظاً على وفائه لتونس، مسقط رأسه، وموطن دراسته، ومسرح مواقفه الوطنيّة الأولى، وكانت السلطات الفرنسية، والتقارير الأمنيةالسريّة. تقول:

«هذا الشخص غير مؤهل للحديث عن القضية التونسية، وهو من أصل جزائري».

البوشامي والسيد إبراهيم الزواوي وغيرهم من أنجاد القومية التونسية. وأجبرت آخرين كانوا من أنشط الدعاة على الإقامة الإجباريّة خارج المناطق التي كانوا يعملون فيها أمثال الشيخ أحمد الشطي والشيخ محمد النجار والأستاذ العربي القروي ومن إليهم. وألقت آخرين في ظلمات السجون بعد أن حاكمتهم، وصدرت عليهم أحكام قاسية ومن هؤلاء السيد عمر بن قفراش بطل الجنوب التونسي الأوحد الذي حكم عليه في قضية سياسية مفتعلة بالغرامة والسجن خمس سنوات قضاها في البأساء والضراء وكان في وسعه أن يتخلص منها لقاء تنازل طفيف عن مبادىء الرجولة الكاملة وذلك بأن يلتمس كما أوعز إليه العفو من الحكومة وكانت مستعدة لإعفائه من هذا العقاب مقابل هذا الالتماس ففضل أن يتحمل عذاب السجن عن التضحية ولو بقلامة ظفر من شرفه ومبادئه. وهو لم يضحّ بذاته فحسب بل ضحّى أيضاً بتجارته الطائلة وثروة أقاربه في سبيل واجبه دون أن يمن بذلك على الأمة كما يصنع الدجالون والنصابون ونحن إذا تحدثنا إليك عن تلك البطولة الخارقة التي أبداها مواطننا العزيز فلن يسعنا إلاّ أن نحني رؤوسنا تحية لتلك الضحايا العديدة في شخصه الكريم التي قدمها الحزب في سبيل مبادئه وهي من أنصع الدلائل على حيوية الأمة الرشيدة وشدة تعلقها بحقوقها المقدسة.

= في إحدى زيارات (اليعلاوي) المتكررة لتونس، وفي سبتمبر 1951. كتبت جريدة (الإرادة) عدد (880):

«حلّ بين ظهرانينا قبيل العيد، حضرة المواطن المفضال، المقدام الغيور مثال التضحية والإخلاص، والإيمان الصلب. والثبات على المبدأ. الأستاذ (عبد الرحمان اليعلاوي) أحد البارزين القدماء، من العاملين في حقل الوطنية. والكفاح القومي.

وقد قدم حضرته من باريس، ليقضي بضعة أيام في ربوع الوطن، بين الأهل والخلاّن، وأصدقاء العمل القومي، وذكريات الشباب».

درس في جامع الزيتونة، ونشر في الصحافة التونسية، مقيماً في تونس، أو مراسلاً لها من الخارج بعد الإبعاد.

نشر في (مرشد الأمة) و (لسان الشعب) و (الإرادة). في تونس وصحف (جمعية العلماء) في الجزائر.



رجال الصحافة في تونس سنة 1930 يحتفلون بإطلاق سراح المناضل الدستوري السيّد عمر بن قفراش بعد خمس سنوات سجناً ويرحّبون بمقدم (الشيخ أبي اليقظان) و (الأستاذ أحمد توفيق المدني) من الجزائر من جريدة (النديم) فيفري 1930 .

(المدني) يتوسط الجالسين بعصاه و(أبو اليقظان) عن يمينه و (ابن قفراش) عن يساره وخلف المدني وأبي اليقظان، شاعر الدستور (محمد الشاذلي خزنة دار)، بينما وقف في نهاية الصف يساراً الشيخ (محمد الثميني) شيخ الكتبيين في العاصمة التونسية، بعصاه وعمامته الجزائرية.

لا نريد أن نتقصى في هذه العجالة عدد الضحايا منّا التي برم بها الجلادون في سبيل المبادىء القومية وهم بحمد الله كثيرون وكثيرون جداً تزهو بذكرهم البلاد. . . وإنما نريد بذكرهم أن نثبت شيئاً آخر نسيه الناس وتناساه الحاقدون والمحنقون وهو إبعاد العناصر الفعالة في الأمة عن الحزب بمختلف الوسائل ومنها الإغراء لبعض المفتونين في ضمائرهم وذلك للفت في ساعده ومنع اتصاله بالشعب اتصالاً مباشراً حتى يضعف تأثيره وينقطع تأميل الشعب فيه. ولو اقتصرت الحكومة في مقاومتها للحزب على تقديم هذه الضحايا المختلفة لهيكل الظلم من المنفيين والمبعدين والمسجونين لهان علينا الخطب. ولكنها أضافت لذلك منع الدعاة بوسائل الاستبداد من الاتصــال بشعب الحزب حتى كانت كلمـا ظفرت بداعية من دعاتنا يؤم إحدى الشعب فإنها تسرع إلى إلقاء القبض عليه وإعادته إلى العاصمة مخفوراً. والأنكى من ذلك إذا علمت بانعقاد اجتماع عادي في أي شعبة من الشعب فإنها تسوقها قسراً إلى المحاكمة حتى بلغت القضايا المرفوعة ضد الحزب من هذا النوع مبلغاً لا يطاق ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنها زهاء أربعمائة قضية وهكذا أمكن للحكومة بهذه الإجراءات العسوفة أن تخرس صوت الشعب لكي يتسنى بذلك لأبناء الشوارع ومنكري الحقائق الدامغة نكران مضاء الحزب وجهاده في سبيل القضية المقدسة ويتجرأون بعد ذلك على رميهم بالخيانة افتخاراً وزوراً. تغريراً بالأمة وخداعاً للحمقى والنوكي من الفلتاء وذلك لكي يمهدوا للطفيليات أن تتغلغل في جسم الأمة وتمتص آخر قطرة من الدماء.

احتياط لا بد منه لإنقاذ الموقف

أبصرت وأنا أقرأ رد اللجنة التنفيذية على تلفيقات الديوان السياسي شبح الخطر المخيف يتهدد قضية الأمة بعد أن انتقلت من محيط النزاع الشخصي الذي يقع عادة بين طلاب الزعامات إلى التردي والخروج عن المبادىء المثلى وحسبت لحسن ظني في المنشقين في الوهلة الأولى أن

للمماحكات اللفظية التي تقع عادة بين المتناظرين أثراً فيما حدث. وكان حقاً على الشعب أن يراقب سير الأعمال ولا يلين عريكته للتهويش وزخارف القول ما دام في بلادنا استعمار، وله عليها سلطان يفزع إليه العاطلون ببضاعة الضمائر القذرة التي أفسدها سوء الإيمان وضعف العقيدة. ولكن الشعب أغفل ذلك كله ومال إلى تصديق الدعايات المغرضة بعد أن أعياه السُّرَى، وطال به الانتظار، وحسب أن كل مهوش ومضلّل يستطيع أن يقطع بالبلاد مفازة الخطر إلى حيث النجاة. فرأيت من الإنصاف أن لا أتسرع إلى الاتهام قبل أن أتثبت أو أتبين الحقائق من مظانها، فسألت السيد الحبيب بورقيبة ونحن في بيت الدكتور الصادق بوصفارة بمحضر جماعة من أعضاء الديوان السياسي عن المنهاج الذي وضعوه لطائفتهم للسير بالقضية التونسية فقال: (منهاجنا منهاج الحزب الحر الدستوري) فقلت ولكن مع بعض تغيير. فقد سمعت بعض الناس يرمونكم بالخروج عليه وهم يدينونكم من أقوالكم، إذ يزعمون أنكم أعلمتم الحكومة بأنكم تعترفون لها بوجود سيادتين في البلاد. وبمشروعية الحقوق المغتصبة. فقال: (ليست العبرة بما نكتبه على سبيل المناورات السياسية بل بما ننتويه). فقلت ماذا تفيد النية والعمل يجري بخلافها؟ وكان الواجب أن نصارح الحكومة بما نريد، لا أن نداورها ونضلّل الشعب. والعمل لقضايا الشعوب يتطلب الصراحة والجد في الطلب. فقال ربما حصلت منا هفوات ولكن عن حسن نية، وبوجودكم بين ظهرانينا سيتعدل السير. وإنما ينبغي لنا أن نلاحظ لكم أمراً لا نحب كتمانه وهو أن الوقت قد أزف لتأليف وزارة تونسية. ومن منهاجنا أن نقبض على مقاليد الأمور لكي نتوصل بها إلى (تحقيق المطالب التونسية). هنا عرتني هزة ألم لم أكن أتوقعه. فقلت إنها أطماع مردية في مثل بلادنا في حالتها الحاضرة يجب أن نتنزه عنها. ماذا نفيد من الزيادة في عدد الوزراء إذا لم يتغير الوضع من أساسه وتكون الوزارة مسؤولة أمام مجلس تشريعي يملك حق عرض الاقتراحات والاقتراح عليها. وأنا أنصح اللذين يريدون أن يسيّروا الانقلابات الاجتماعية أن يجانبوا الطمع في الحكم لأنهم ينقلبون بتأثير الوضع شراً من

مثال التآخي



هذا مثال التآخي ✿ يا حسنه من مثال
رسم الزعيمين فيه ✿ رمز اتحاد (الشمال)
كلاهما اليوم ركن ✿ وموئل للهلال
كلاهما بدر تمٍ ✿ كلاهما نجم فال
عاش الزعيمان دهرا ✿ في ألفة واتصال
ويسر الله سعيا ✿ قاما به للكمال

الجزائر — محمد العيد

الثعالبي وابن باديس
أثناء زيارة الأخير لتونس للتهنئة بمقدم الأوّل وحضور جلسة الوفاق
الصورة من مجلة (الشهاب) الجزائرية

د/52

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله

عنوان المكاتبة هكذا :

BEN BADIS ABDELHAMID
CONSTANTINE

قسنطينة في { 1 رجب سنة ١٣٥٦ / 7 سبتمبر سنة ١٩٣٧ }

الاخ الأب العزيز الأستاذ الشيخ سيدي عبد العزيز الثعالبي الأكرم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فقد جاءني كتاب من الجزائريين المقيمين بتونس فرأيتهم جديرين بكل اهتمام وقد وجهته إليكم مع هذا بواسطة ابننا السيد محمد دحان وأرجو أن تطالعوه لتثبتوا عليه ما ترونه واجبا وترجعوه [illegible] المذكور مع ما أشرت به من كتابتكم.

دمتم فخر الشرق والعروبة والإسلام

والسلام من ابنكم عبد الحميد بن باديس

رسالة بخطّ اليد إلى الأب عبد العزيز الثعالبي
من الابن عبد الحميد بن باديس

الأنانيين. وأزكى وأطهر لعملهم، أن يكونوا حراساً أمناء على سير الإنقلاب يراقبون الذين يتولون مقاليد الأحكام مراقبة دقيقة. أما إذا تقلدوها فقد يستهدفون إلى مساومات لا تليق بالانقلابيين، والتجربة الواقعة في الأقطار المماثلة لوضع بلادنا أقطع دليل على فساد هذا الرأي. فقال الحبيب: (هذا موضع نظر ونحن لا غناء لنا عن تجاريبك السديدة). عند ذلك داخلني الطمع الشريف في الدعوة إلى الوفاق بين الشقين المتخالفين، وكلاهما يريد أن يهتدي برأيـي ولـم يعد بينهما ما يفضي إلى الخلاف ما داما قد اتفقا في المبادىء وهي غير مختلف فيها. وما كنت أظنّ أن (الحبيب) يخاتلني بهذا الانقياد الظاهر، حتى بدأت فعلاً في إبرام وثيقة الوفاق وكان من أمره ما كان.

التمهيد للوفاق

دعوت أعضاء الهيأتين للحزب الحر الدستوري التونسي إلى اجتماع حبى (ودّي) بمنزلي يوم 21 يوليه 1937 فاجتمعوا بمحضر المصلح الجليل علامة الجزائر الشيخ عبد الحميد باديس رئيس جمعية العلماء[9]. والسري

(9) اهتمت الصحافة الإصلاحية في الجزائر اهتماماً واسعاً بعودة (الثعالبـي) إلى تونس ورأت في عودته هذه دعماً جديداً للحركات الوطنية والإصلاحية في كامل أقطار المغرب العربـي. فقد كتبت مجلة (الشهاب) في الجزء (5) المجلد (13) 10 جويلية 1937 تحت عنوان (أمة تستقبل أمة):

«نرفع من صميم الفؤاد إلى الشقيقة تونس. تهانينا المخلصة برجوع بطلها المغوار، وزعيمها الأجل الشيخ الأستاذ عبد العزيز الثعالبـي الذي أصبح من كبار زعماء الإسلام والعروبة في العصر الحديث. كما نرفع حار التهاني إلى الزعيم الصادق برجوعه إلى أرض الوطن، وتبوئه من جديد مقعد القيادة في ميدان العمل لتحرير الوطن».

وأبرق رئيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) الإمام عبد الحميد بن =

السيد البشير البكري والنابغة الدكتور أحمد بن ميلاد[10] وكان الاجتماع مشبعاً بالولاء لا يعكر صفوه معكر حتى اعتقد الحاضرون أن وشيجة الخلاف

= باديس من (نادي الترقي) بعاصمة الجزائر بهذه البرقية إلى الزعيم عبد العزيز الثعالبي:

«عاصمة الجزائر. إن جمعية العلماء الجزائريين، تحيي بكل فرح وسرور عودتكم من منفاكم، وتساهم بقسط وافر في فرح وسرور إخوانها التونسيين المحتفلين بالزعيم المحبوب المحترم الذي ضرب المثل الأعلى في الإخلاص والتضحية».

ولم تكتف الجزائر للتعبير عن فرحتها بعودة الثعالبي، بالبرقيات، وبصفحات الجرائد والمجلات، وإنما أوفدت ابنها البار عبد الحميد بن باديس رسول التهنئة الجزائرية للشقيقة تونس:

«عاد الثعالبي، فاهتزت فرحاً إفريقيا الشمالية كلها. وتونس وطنه، والجزائر مسقط رأسه، ووطن أسلافه، ورأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في قدومه اعتزاز الإصلاح الإجتماعي الإسلامي من ناحية الفكر والعلم والأخلاق والسلوك في الحياة ـ وهذا ما تعمل له الجمعية. فأبرقت تهنئه، وتهنىء الأمة التونسية الشقيقة به، ثم رأت أن تعرب عن سرورها بقدومه وإعجابها بمواهبه. وتعظيماً لجانبه، بذهاب رئيسها لتحيته، وتهنئته بقدومه، وإبلاغه كل ما تحمله الجميعة. والجزائر العربية المسلمة من الحب والإحترام والتعظيم لشخصه».

وأثناء هذه الزيارة كان حضوره الإجتماع التمهيدي للوفاق إلى جانب (البشير البكري) و (أحمد بن ميلاد).

كانت «زيارة (ابن باديس) لتونس في 14 جمادي الأولى 1356/ يوليو / تموز 1937 انظر (الشهاب) الجزء (7) المجلد (13).

(10) (أحمد بن ميلاد: 1902 ـ).

إذا ذكره (الثعالبي) أردف اسمه بصفة (النابغة) وقال، (النابغة أحمد بن ميلاد).

كتب عنه (المنصب المستيري) في (الإرادة) فقال:

«وطنينا الغيور، صديقنا الحكيم أحمد بن ميلاد، عامل نشيط، من قدماء الذين عملوا في خدمة القضية التونسية، وله فيها مواقف تدل على الإخلاص المجسم للوطن، منها سعيه لتوحيد الجهود، وتوجيهها في الطريق الصالح لخدمة الأمة، وقد دعاه سعي الشيخ الثعالبي اليوم لتكوين واجهة متحدة، أن يضرب بسهم في مساعدة الشيخ المبجل على عمله الجليل».

وخاطبه (محمود بيرم) في جريدة (الشباب) متسائلاً عن (التكروري) فقال:

«سيدي الدكتور، نعرف غيرتكم على تونس، واهتمامكم بمشاكلها الإجتماعية فرجاؤنا أن تتفضلوا بالإجابة عن الأسئلة الآتية لنشرها على صفحات الشباب في العدد القادم.

من رموز الحركة الوطنية في تونس، انغمس في العمل في مرحلة مبكرة، وهو في سن التعليم الثانوي، درس في معهد (كارنو) ثم انتقل إلى باريس سنة (1927) والتحق بكلية الطب، وتخرج منها سنة (1933).

من المؤسسين الأوائل لـ (جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا) مع (الحبيب ثامر) و (علي بلهوان) و (الصادق الملولي) من تونس، و (فرحات عباس) و (قدور ساطور) من الجزائر و (أحمد بلافريج) من المغرب.

بعد التخرج تطوع بدروس صباحية مبكرة في (الصحة العامة) يقدمها لطلبة الزيتونة في (المدرسة الخلدونية).

التمس لجهوده الوطنية والسياسية كل مجال يمكن أن يكون من ورائه خير لتونس وللمغرب العربي بصفة عامة، ولكن تركز نشاطه في (الحزب الإشتراكي) منتمياً ومناضلاً، وربطته علاقة حميمة بمؤسس هذا الحزب في تونس (روبير لوزون).

برهن عن وفاء صادق ـ طيلة حياته متعه الله بالصحة والعافية ـ للحزب الحر الدستوري التونسي ولمؤسسه (عبد العزيز الثعالبي) وكان الوطنيون الصادقون، بمختلف انتماءاتهم يعتبرونه (الحزب الأم) لما يمثله من رموز للسيادة الوطنية يتفق حولها الجميع.

وإليه يعود الفضل في الحفاظ على الإرث الفكري والقلمي للشيخ الثعالبي. طيلة نصف قرن من يوم وفاة مؤسس الدستور إلى اليوم. فقد تمكن، ببعد نظره، وصدق وفائه من السهر الدائب، والحراسة الأمينة لهذا التراث التاريخي، حتى وصل به شاطىء السلامة، وأصبح اليوم يشق طريقه إلى القراء.

إلى جانب العمل الوطني والسياسي، كان (ابن ميلاد) نموذجاً فريداً للعطاء الإنساني في مجال الطب، فقد كان طبيباً للعامة قبل الخاصة، وكانت عيادته بـ (الحلفاوين) وجهة المرضى وطالبي الشفاء من أبناء الطبقة الكادحة. كتب عن الطبيب القيراوني (ابن الجزار) وأعجب به، وبتراثه الطبي والفلسفي وأثره على الطب في أوروبا. وخاصة كتاب (زاد المسافر). وكتب عن (قسطنطين الإفريقي) ودوره في نقل الطب العربي إلى أوروبا.

= أنشأ مستوصفاً يحمل اسم (دار ابن الجزار) في ربض الحلفاوين سنة 1935 وكان أول مستوصف خاص، تونسي حديث بأطبائه وأمواله. عمل معه فيه كل من الحكيم (الراضي فرحات) والحكيم (الطاهر الزاوش) و (الحكيم محمد حجوج). كتب عن المستوصف يقول:

«يرى البعض أننا نقوم بعمل خيري، ونتبرع بمداواة الفقراء، فهذا الظن مطابق لفكرة المؤسسين الذين لبوا نداء الواجب وأخذوا على عاتقهم القيام بهذه المهمة الشريفة، أجل وأقدس الواجبات الإجتماعية، ألا وهي معالجة الأمراض المتفشية في الطبقة الفقيرة البائسة، ومقاومة الأخطار المهولة المحدقة بالأمة، خصوصاً الشباب منها».

في سنة (1945) كانت لابن ميلاد لفتة خيرية تربوية، فقد لاحظ تفشّي الأمية في أطفال الريف، وحرمانهم من المؤسسات التربوية التي تمركزت في القرى والمدن الرئيسية، فأسّس من حرّ ماله مدرسة في ضيعته بـ (برج الطويل) وطاف بسكان المنطقة من الفلاحين يطلب أطفالهم لـ (مدرسة ابن ميلاد) حتى بلغ عددهم (120) تلميذاً، يتلقون التعليم بصفة مجانية، وتؤمن لهم المدرسة طلباتهم التربوية. وسبق للمحسن السيّد (صوّة) في نفس الفترة أن أسّس مدرسة خيرية مماثلة من حرّ ماله في (قصر هلال).

من مؤلفاته:

(خمسون سنة على هيمنة فرنسا في تونس) 1931 ـ بالفرنسية.

(أحمد بن الجزار) الطبيب القيرواني حياته وشهرته 1935؛

(الطب العربـي في القيروان) 1933 ـ بالفرنسية؛

(الطب العربـي التونسي في عشرة قرون) بالعربية ـ 1981؛

(محمد علي الحامي وظهور الحركة النقابية التونسية) 1984 بالفرنسية؛

(تاريخ شمال إفريقيا) لعبد العزيز الثعالبـي. جمع وتحقيق. بالإشتراك مع محمد إدريس؛

(الشيخ عبد العزيز الثعالبـي والحركة الوطنية) 1982 ـ 1940 بالإشتراك مع محمد إدريس؛

(أحمد بن الجزار) و (قسنطنطين الإفريقي) 1987.

حرر بالفرنسية في الجرائد الآتية: المستقبل الإشتراكي) (تونس الجديدة) (اللواء التونسي) (صوت التونسي) (الشبيبة التونسية) (الحكمة) وساهم في تأسيس =

قطعت وعادت الصداقة القديمة إلى مجاريها. وقبيل الانصراف اتفقا على عقد اجتماع تمهيدي أعينه لهم فيما بعد. وفي يوم 26 يوليه 1937 دعاني الدكتور (الماطري) إلى وليمة عشاء حضرها أعضاء الديوان السياسي لم يتخلف منهم أحد كان الحديث فيها دائراً حول الوفاق وفوائده، وما جره الخلاف والشقاق من مضار على البلاد واتفقنا ليلتئذ على أن يكون البدء في الاجتماع التمهيدي بتأليف لجنة اتصال بين الهيأتين تختار كل واحدة عضوين يمثلانها وضربنا موعداً لهذا الاجتماع بمنزلي يوم الثلاثاء 25 جمادى الأولى 1356 وفق 3 أغسطس 1937.

وفي الموعد المضروب حضر المندوبون عن الهيأتين فمن أعضاء اللجنة التنفيذية الأساتذة صالح فرحات والطيب الجميل ومحمد ابن ميلاد وعلي بوحاجب والسيد الشاذلي خزندار ومحمد المهيري والمنصف المنستيري ومن أعضاء الديوان السياسي الأستاذ الطاهر صفر والدكتور سليمان بن سليمان وصالح بن يوسف والحبيب بورقيبة ففتحت الاجتماع بخطاب أعربت به عن شعوري بالحال الأسيفة التي تعصف بالبلاد، انفتحت له مغالق أذهان المجتمعين. ثم ذكرت الأسباب التي دعتني إلى التعجيل بعقد هذا الاجتماع وهي تلبية للرغبة الملحة التي اسمعتنيها الأمة في جميع المواقف التي وصلتني بها منذ رجعت إلى البلاد، وبالتّالي شعوري بالفوائد الناجمة عن الوفاق فأمّن الجميع على أقوالي. عند ذلك اقترحت على الهيأتين

= مجلة (الجامعة) سنة 1937. وفي تحرير مجلة (السهم) الكشفية سنة 1948 وأصدر بإدارته جريدة (الإستقلال) بالفرنسية وحرر بالعربية في جريدة (الإرادة) في الثلاثينات وأصدر النشرة السرية المغفلة (كوموندوس) للدفاع عن حرية التعبير.

في جميع مراحل حياته، ونضاله السياسي، ومهنته الطبية، وعمله الإنساني، وإنتاجه العلمي، ورحلاته بحثاً عن المخطوطات، أو حضوراً في المؤتمرات. كانت زوجته السيدة (نبيهة بن ميلاد) الساعد الأيمن. ورفيقة العمر. طيلة ستين عاماً. وتعتبر هي الأخرى إحدى رائدات الحركة الوطنية في تونس، وتربط الإثنين معاً صداقة عائلية حميمة بالثعالبي وأسرته.

نسيان ما حدث بينهما من الماضي الكريه لأن في استذكاره ما يثير حزازات لا خير فيها. فأظهر الطرفان حسن التقدير للتفاهم والوفاق. واختير لكتابة محضر الاجتماع السيد (صالح بن يوسف) ووقعه الحاضرون بإمضائهم.

محضر الاجتماع التمهيدي للوفاق

مساء 25 جمادى الأولى 1357 وفق 3 أغسطس 1937 انعقد اجتماع من الهيأتين السياسيتين للحزب الحر الدستوري التونسي تحت رئاسة مؤسسة الأستاذ عبد العزيز الثعالبي وفي منزله حضره السادة الطاهر صفر والمنصف المنستيري والحكيم سليمان بن سليمان والطيب الجميل ومحمد المهيري وصالح بن يوسف ومحمد بن ميلاد والشاذلي خزندار وعلي بوحاجب وصالح فرحات والحبيب بورقيبة للمداولة في المسألة التونسية وإزالة ما حدث بسببها من المناقشات الحادة التي أدت إلى فتور في علائق الولاء بين بعض أفراد من الهيأتين وقد ظهر أثناء المداولة أن سوء التفاهم هو الذي أدّى إلى الخلاف. وقد تناول الحديث أهم النقاط التي كانت مداراً للمنازعات في جو هادىء مشبع بالثقة والاطمئنان والتأميل واستمر الاجتماع من الساعة الخامسة إلى الساعة العاشرة وعند انتهائه قرر المجتمعون بارتياح تأليف لجنة منتخبة من الهيأتين متركبة من السادة: الطاهر صفر والحكيم سليمان بن سليمان وعلي أبو حاجب وصالح فرحات تحت رئاسة الأستاذ الشيخ عبد العزيز الثعالبي لتحقيق وسائل توحيد العمل. وفقنا الله جميعاً لما فيه آمال البلاد. يليه الإمضاءات: الطاهر صفر، الحبيب بورقيبة، صالح بن يوسف، الشاذلي خزندار. محمد المهيري، صالح فرحات، الطيب الجميل، محمد المنصف المستيري، علي بوحاجب، محمد بن ميلاد، سليمان بن سليمان، عبد العزيز الثعالبي.

وبعد التوقيع على المحضر التمس مني الحاضرون إذاعته في الصحف بإمضائي ففعلت ولم يطالعه الرأي العام حتى بدت على أسارير الناس علائم الابتهاج والفرح وتباشر الوطنيون بظهور طابع جديد في أفق البلاد التونسية

يبشر بانقشاع سحب المخاوف التي خيمت على الأمّة التونسيّة منذ ثلاث سنين. ولكن ما راعهم في الغد إلاّ أن قرأوا كلمة حول الوفاق نشرتها جريدة (البيتـي ماتان) بعددها الصادر يوم 5 أغسطس سنة 1937 قالت فيها: (اتصلنا بالديوان السياسي وسالنا عما تم في الوفـاق فرد علينا بأنه لم يتم شيء ولم يقع شيء) فادهشتني هذه المفاجأة من مكتب الديوان السياسي الذي يتمثل في شخصيّة السيد الحبيب بورقيبة وهو من الذين شاركونا في الاجتماع التمهيدي ووقع بإمضائه على ميثاقه فساءني هذا التقلب. لذلك دعوت السيد صالح بن يوسف واطلعته على تلك الكلمة فاستغربها ووعدني بأنه سيحمل ديوانه على نشر تكذيب لها في نفس الجريدة ومضت أيام دون أن يظهر التكذيب. وهل من سبيل لتكذيب الديوان نفسه؟ وهو يرمي بإذاعة تلك الكلمة إلى تضليل الرأي العام في الوفاق بدليل ما نشر في جريدة (العمل) بعد (البتي ماتان) بقلم السيد الطاهرة صفر في العمود الثالث من الصحيفة الثانية. عدد 68 ما نصه بالحرف الواحد «ولذلك إحقاقاً للحق وإيضاحاً لبرنامجنا نعلن للأمة التونسية ولكافة شعبنا. إن الاجتماع الذي عقدناه بمنزل الأستاذ الكبير وما دار أثناءه من المداولات والشروح. لم نحدث به أدنى حدث في الحزب ولم نغير به طريق سلوكه في الحاضر والمستقبل» وهو قول صريح في النبوّ عن الوفاق مؤكداً كلمة (البتى ماتان) فجماعة الديوان السياسي يظهرون لنا ميلهم إلى الوفاق على سبيل المصانعة ويتجافونه أمام الرأي العام. وقصدهم بذلك اكتساب الوقت لإنزال الضربة القاصمة لظهر المشروع الذي اضطلعت به أمام الشعب حتى يجرّوا إليهم بهذا الصنيع صغار الأحلام ومن إليهم من الهاتفين والمصفقين ويطمنوا بهم رغبات الاستعمار وأذنابه هنا وهناك.

اجتماع لجنة الاتصال

وبالرغم مما كان يبدو لي من الارتياب في سلوك هؤلاء الأحداث فقد جمعت لجنة الاتصال أصيل يوم الجمعة 28 جمادى الأولى 1357 وفق 6

أغسطس 1937 بمنزلي في حلق الوادي وبعد المداولة العنيفة اتفقنا على تقرير المبادىء الآتية:

أ - طي الماضي بحذافيره.

ب - أن يكون عمل الهيأتين المستقبل في السياسة التونسية جارياً على وتيرة مقررات مؤتمر 1933 وعلى غرار مبادئه كما كان في الماضي.

جـ - توحيد جهود الفريقين واستمرار التجانس في الفكر والتناسق في العمل فيما يخص سياسة البلاد. يكون ذلك بواسطة تأليف لجنة عليا تسمّى لجنة النظر والبحوث السياسية تتركب من ثمانية أعضاء تحت رئاستي. ينتخبون أيضاً من الهيأتين، وما تقرره هذه اللجنة يقع عرضه على مكتب كل هيئة لإعطائه الصبغة التنفيذية.

د - إجتناب المساس بتشكيلات الهيأتين للحزب وإجراء الأعمال فيهما طبق قيود المؤتمرات السابقة والتراتيب الخاصة بكل واحدة من الهيأتين.

هـ - لجنة النظر والبحوث السياسية، تتفاهم في جميع المسائل العليا التي تتعلق بالحكومة وإيفاد الوفود للمفاهمة فيها. وهنا لاحظ السيد الطاهر صفر أن تقييد ايفاد الوفود بلجنة النظر والبحوث السياسية يعتبر تحدياً شخصياً للحبيب بورقيبة. ولم نلاحظ أنه حدث خلاف بين أعضاء لجنة الاتصال في المقررات السابقة مع أن مآلها واحد، وهذا القيد تفسير لما أجمل منها. ويظهر أن مسألة الوفود لها أهميتها عند القوم، فقد علمت من الخبيرين بدخائل السياسة التونسية ومما نشرته بعض صحف تونس التي اطلعت عليها أخيراً، أنهم كانوا يبيّتون شراً للبلاد بوضع اتفاقية جديدة تقوم مقام معاهدة الحماية، يعترفون فيها بالحقوق المكتسبة، ووجود سيادتين في البلاد وتكون لهذه المعاهدة صبغة الرضا والاختيار من طرف الأمة التونسية. والأمة لا تدري ما يدور في الخفاء بشأن ما يبيّت لها من الكيد. فأحببت أن أتلافى الخلاف. فقلت: أي تحدٍّ يراه أي شخص في اقتراح يلتزم به الطرفان لبعضهما يضمن للبلاد التجانس في العمل؟ وما على الساعين لخدمة الأمة من

الناحية السياسية إلا أن يؤكدوا الضمانات التي تتطلبها القضايا العامة حتّى إذا كانت هناك حاجة ماسة لإرسال وفود في أي مسألة من المسائل فما على الذين يرونها إلا أن يبرهنوا عليها لبقية زملائهم من أعضاء لجنة النظر والبحوث السياسية لتقريرها. واللجنة متى رأت فائدة فيها فإنها لا تتردد في الموافقة عليها. فقال السيد الطاهر صفر: نحن لا نستطيع أن نتقيد بهذا الشرط فقلت، إذن تريدون أن تضربوا الوفاق ضربة قاسية تُسألون عنها. فقال الدكتور سليمان بن سليمان ووافقه على ذلك زميله: ينبغي للتفادي من وقوع هذه المشكلة أن تدمج الهيأتان في بعضهما بطريقة الانتخاب العام بواسطة كشف متحد، يعرض على مؤتمر عام، يدعو إليه الفريقان. فرفضت هذا الاقتراح وطابقني عضوا اللجنة التنفيذية على ذلك وقلنا: هذا اقتراح جديد بعيد عن المنهج الذي قررنا السير فيه. ومهما كان الاندماج حسناً في ذاته فإن وقته بعيد منا وينبغي لتقريبه أن نسعى أولاً في استئصال ما علق بالنفوس من جراثيم الأحقاد. وإقناع الشعب التي أفعمت صور رجالها بالخلاف بضرورة الاتحاد القومي. أما إذا شرعنا فيه قبل أن نعد له عدته فربما حدث عنه رد فعل لا تحمد عقباه. ويزداد به الخلاف اشتداداً ورسوخاً.

ولمّا لجّ الخلاف حول هذه النقطة الضعيفة قررنا إرجاء البت فيها إلى ما بعد عرضها على الهيأتين للوقوف على رأيهما وإذا تعذر قبولها من أحد الطرفين يمكن استدعاؤهما معاً للبتّ فيها. وقبل غلق المحضر اتفقنا على استئناف عقد هذا الاجتماع يوم 2 جمادى الآخرة 1352 وفق 10 أغسطس 1937 وفي الميعاد حضر السيد صالح فرحات والسيد علي بوحاجب المندوبان عن اللجنة التنفيذية وتخلف مندوباً الديوان السياسي بدون اعتذار فكتبت إلى المتخلفين محتجاً أدعوهما إلى اجتماع آخر عينته ليوم الخميس 4 جمادى الآخرة 1357 وفق 12 أغسطس 1937 فلم يلبيا الدعوة أيضاً. واعتذر السيد الطاهر صفر دون زميله بشغل طارىء. والظاهر أن القصد من التخلف كان لاكتساب الوقت لتحريك الأذناب والدعوة إلى التهويش وإفهام السوقة الذين لا تعلو أفهامهم إلى إدراك الدعوة البريئة على حقيقتها ومن

إليهم من المرتزقة الذين يعيشون بسياسة التقلّب على حساب الأمة، إنني أريد القضاء على كيانهم وادماجهم ضمن الهيئة التنفيذية فينقطع عنهم مورد الرزق. وبهذه الصورة دفعوهم إلى العبث بعقول الدهماء ورمي دعايتي إلى الوفاق بما لا تحتمله. وأنّي للبسطاء والأغرار أن يفهموا مكايد الدعاية، وهم سرعان ما يقعون في حبالة الدجل والكيد، ويصدقون اسماعهم بكل ما يلقى فيها من الهذيان. خصوصاً وقد ضامّهم كتّاب السفاهة والنفاق وصحف الخيالة والتضليل التي لم تنشأ إلاّ لحرب الأمة، وبذر بذور الفتن والانشقاق فيها، ومد سلطان الاستعمار القائم عليها. ولها في هذا المضمار باع طويل وماض كريه. فجمعوا حولهم لمامة قذرة لفظتها الأمّة من قبل ونبذها الشرف. فأخذوا يحتجون بأسمائهم النكرة على الدعوة إلى الوفاق باسم الأمّة. وما الأمة في زعمهم غير أنفسهم، لكنهم لا يبالون بالكذب وهم دائبون عليه لا تندى وجوههم ولا يشعرون بحمرة الخجل. وهكذا كانوا يغرقون في الافتراء والبهتان وأحدثوا حولي ضجيجاً من الإشاعات والأقاويل كانوا يتوهمون أنها ستخيفني، وتصدّني عن المضيّ فيما شرعت فيه في عقد أواصر الوفاق بين التونسيين، ورأب صدوع وحدتهم التي فرقها الدساسون والكائدون، وما زالوا يسعون في تفريقها، ويزعمون فيما يسوّدون به الوجوه لا القراطيس أنهم ديموقراطيون لا يستطيعون الافتيات على شرذمتهم بإبرام وفاق بينهما وبين الشعب قبل أن يأخذوا رأيها فيه، وهو دجل مفضوح لا يروج على الأمة الرصينة التي أعمل لتوحيدها، كما ينطلي على المأجورين. وإلا فأي مسلم يتنكب عن الوفاق مع إخوانه وهو حق مفروض عليهم بقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وقوله في البراءة من المفرّقين: ﴿الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ [11] وقوله عليه الصلاة والسلام في أمثال هؤلاء وهو مفسر لمعنى الآية:

(11) ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً * لست منهم في شيء * إنما أمرهم إلى الله * ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ [سورة الأنعام، الآية 159].

﴿ليس منا من دعا إلى عصبية﴾ والمراد من العصبية تقسيم الأمة إلى شيع يضرب بعضها بعضاً وقد جعل الله وشيجة الإيمان صلة الوصل بين المسلمين فقال جل من قائل ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[12] ناهيك باخوة يؤكدها الله بالحصر لكن أعداء أنفسهم وانصار الجريمة يشحذون مواضيهم لقطع ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض فيدعون المسلمين إلى عصبيّة أنكى من العصبية الجاهلية عصبية الفناء في الغير. عصبية الديموقراطية. وهذا لعمر الله من أشد ضروب البغي على الأمّة، وحكم الباغي معلوم. وقد حاولنا أن ننصح هؤلاء البغاة، ونستصلحهم ونرشدهم إلى سواء السبيل كما أمرنا الله بذلك فلجوا في العتوّ والنفور واستنكفوا أن يحتكموا إلى كتاب الله ورجحوا عليه تحكيم الغوغاء ومن إليهم من أبناء الشوارع ومعاودي الإجرام الذين اتخذوهم جنوداً للباطل يطالعوننا بهم في كل بلد زرناه لكي نرفع فيه منار الحق والهدى والكتاب المنير، استرهاباً لنا وخداعاً للفكر العام حين يندسون بين جموع الأمة التي تخرج للقائنا، ثم يميلون على اعجاز الوريقات الورهاء[13] المتصابية إن الأمة تتكلم بمواضعهم بما يصعد إليها من بواطنهم الخبيثة، وما درى أحداث السياسة وصبيان الجرائم، أننا لا نخاف في إقامة الحق الضائع تهديداً. ولا نرهب وعيداً. وإنهم لا يخدعون بزيفهم المكشوف غير أنفسهم الأمّارة.

اجتماع لجنة الاتصال الأخير

لما آيسني سوء سلوك المنشقين في أمر الوفاق وبدا لي منهم ما كانوا يضمرونه من سوء النية في صحف البذاء والقذف وما هي إلا اسطار مكررة تخطها الأيدي الملوثة بالاثم من صدور تتقد بالضغينة، ولا تقيء إلا صديداً.

---

(12) ﴿إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم * واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ [سورة الحجرات، الآية 10].

(13) (الورهاء): الحمقاء. من (وره) بكسر الراء: حمق.

دعوت الهيأتين رغم ذلك إلى عقد جلسة أخرى لمشروع الوفاق، فحضر من قبل اللجنة التنفيذيّة السادة. صالح فرحات وعلي بوحاجب والطيب الجميل والمنصف المستيري ومحمد المهيري ومن الديوان السادة سليمان بن سليمان. الطاهر صفر صالح بن يوسف فتقدمت إلينا كل هيأة بقرار حزبها في الوفاق.

قرار اللجنة التنفيذيّة

إن اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي بعد إطلاعها على ما دار في الجلسة الأولى للجنة الاتصال أثناء اجتماعها الأول المنعقد بدار الزعيم الجليل الشيخ عبد العزيز الثعالبي تحت رئاسته توافق تمام الموافقة على ما أبداه مندوباها باللجنة المذكورة وتقبل بالفكر التي وافقت عليها اللجنة القاضية بتكوين لجنة عليا (لنة النظر والبحوث السياسية) مؤلفة من ثمانية أعضاء ينتخب كل واحد من الطرفين نضفهم، ويرأسهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي وتكون مأمورية هذه اللجنة العليا النظر في جميع ما يتعلّق بالسياسة العليا للحزب ومباشرة العلائق بين الشعب والحكومة وإيفاد الوفود وتنظيم المعارضة في البلاد، ورد عوادى الزجر وتهيئة النتائج المثمرة وغير ذلك. على أن يكون وجود هذه اللجنة وعملها المتواصل خطوة موفقة في سبيل تمتين أواصر العلائق والروابط بين الطرفين، ونبذ أسباب الخلاف والشقاق بصورة نهائيّة، وتقريب ساعة الاتحاد والامتزاج تحت إشراف مؤسس الحزب الجليل الشيخ عبد العزيز الثعالبي. وفق الله الجميع إلى الاعتصام بحبل الله المتين. الإمضاءات: علي بوحاجب، الطيب الجميل، محمد بن ميلاد، محي الدين القليبي، المنصف المنستيري، عز الدين الشريف.

قرار الديوان السياسي

بعد أن اجتمع الديوان السياسي للحزب الحر الدستوري التونسي واستعرض جملة أعمال لجنة الاتصال التي يرأسها الشيخ الجليل زعيمنا المحبوب الأستاذ عبد العزيز الثعالبي وما حررته بمحضر الجلسة المؤرخ 28 جمادى الأولى 1357 وفي 6 أغسطس 1937 وبعد المداولة والبحث والنظر في رغائب الشعب التي يتركب منها الحزب قرر ما يأتي:

حيث أن الاتحاد المرغوب فيه هو اتحاد العناصر والشعب الدستورية مع بعضها اتحاداً حقيقياً متيناً لا اجتماع أشخاص الهيأتين فقط في صعيد واحد. وحيث أن الحل الذي ارتأته اللجنة لا يمكن أن يعتبر حلاّ حاسماً لأنه لا ينشأ عنه ذلك الاتحاد العميق المشار إليه. فاللجنة العليا التي فكرت في تكوينها لجنة الاتصال لا يمكن لها أن تستمد القوة والنفوذ اللازمين لعملها إلاّ بواسطة الانتخاب من سائر الشعب. أما إذا رُكّبت ذلك التركيب المزجي من دون انتخاب فإنها من دون شك تكون محل أخذ ورد وسير التجاذب كذي قبل كما تدل على ذلك الطلائع في هذه المدة وهي أصدق نبأ.

وحيث أن الصورة التي عرضها رفاقنا باللجنة ولم تحظ بموافقة الأغلبيّة هي في نظرنا أحسن وسيلة لحل المشكل وأنجع طريقة. إذ يتكون منها حل حاسم لا سبيل لنقده والاعتراض عليه. وذلك بعرض الهيأتين وغيرهما ممن يفترض فيه الصلاحية على مؤتمر عام متركب من مجموع الشعب بالآيالة المنتمية للهيأتين واللجنة التي يقع انتخابها وتكون من دون شك لجنة مشتركة تكلف بإدارة دفة الحزب بصورة منظمة، ويكون لها إذ ذاك من النفوذ الأدبي ما لا يمكن بحال أن تتمتع به اللجنة العليا التي عرضت لجنة الاتصال تكوينها.

وحيث أن أنظمة الحزب وقوانينه تمنع الديوان السياسي من إحداث أي حدث بالحزب وإدخال أي تغيير عام على برنامجه أو أوضاعه من دون استشارة المؤتمر، لذلك يرى الديوان السياسي:

أولاً: عرض عموم المسألة على المؤتمر الذي سيعقد في الشهر ا
بحول الله بمناسبة تجديد انتخاب الهيأة.

ثانياً: إن أنجح طريقة لقطع مادة الخلاف والوصول إلى الاتحاد ال
المرغوب لا إلى اتحاد موقت أو سطحي، هو توحيد الهيأتين بواسطة انت
عام من مؤتمر تشارك فيه الشعب المنتمية لهما معاً.

تحريراً في 16 جمادى الثانية 1357 وفق 23 أغسطس 1937: صالح
يوسف، البحري قيقة. الحبيب بورقيبة، سليمان بن سليمان، الطاهر صفر

ملاحظات على القرارين

والذي نلاحظ به على القرارين أن قرار اللجنة التنفيذية تبدو ء
نصاعة البراءة وحسن القصد، مع الاطمئنان التام للوفاق مع أبناء ا
الواحدة والاستبشار بعقده. وتصديق مقررات لجنة الاتصال، وموافقتها ا
على تأليف لجنة النظر والبحوث السياسية لتوحيد واجهة العمل السيا
لمصلحة البلاد وشدة التأميل في تقريب ساعة الاتحاد، والامتزاج. و
جماع الرغبات التي تطلبها الأمة البريئة وتريد انتظامها بنفاذ صبر.

أمّا قرار الديوان السياسي فهو يدور على نبذ الوفاق وابعاد الرغبة
والتلاعب بالكلمات لكي يستخرج منها أن الاتحاد أصناف وألوان وأشكال
يترتب عنها أن منها ما هو مرغوب فيه ومرغوب عنه. ذلك مع أننا لم نتك
فيه إلا عرضاً وقد جعلناه غاية لا وسيلة على أن كل الأمم والشعوب ال
حدث بينها خلاف في مجاري السياسة الداخليّة ثم رأت لزوم توحيد صفو
وتوجيه قوتها وجهة واحدة أنجزت ذلك دون أن ترجع فيه إلى استشا
مؤسساتها الحزبيّة بل تعتمد في إجراء كل ذلك على رجالها السياسيين الذ
يتمتعون بثقة الجموع فيها. على أننا لم نر الديوان السياسي يقيم لشعبه وز

ويرجع إلى رأي تلك المؤسسات إلا في إنجاز هذه المصلحة المتأكدة وهي توحيد جهود أبناء هذه الأمة وإنقاذها من خطر الشقاق فقد أحدث أحداثاً جُلّى منافية لمبادىء الحزب دون أن يستشير فيها شُعب الحزب ولا مؤتمراته العامّة فمن ذلك اتحادهم مع الواجهة الشعبية أو إعانة الجمهورية الإسبانية، والدخول في محادثات مبهمة مع وزارة الخارجية الفرنساوية، أو توقيع اتفاقية جديدة تقوم مقام المعاهدة السابقة. وهذه من أوكد المسائل التي تتطلب أخذ رأي الشعب التونسي بأكمله لا حزباً واحداً من أحزابه كل ذلك يقع، إلا أحداث وفاق بين التونسيين فإنه لديهم من أعقد المشاكل التي لا تحل إلا بالمؤتمرات القائمة على أساس المناورات المكشوفة الممثلة للأعوان والأنصار لا للأمة البرئية، لذلك أرادوا تحطيم مشروع الوفاق على صخرة الاستشارة المدخولة، حفظاً لمصالحهم الذاتية ولضمان هذه النتيجة النكراء أخذوا في المدة الأخيرة التي تخلفوا فيها عن حضور لجنة الاتصال يكثرون من تعداد إنشاء الشعب داخل المدن بل وفي القرى والبوادي حتى إذا وافقناهم على قبول تحكيم مؤتمرهم في أمر الوفاق يتقدمون إلينا بنواب مئات من الشعب التي لا يتجاوز عدد أعضائها أصابع اليد وهم إذا قورنوا بأعضاء اللجنة التنفيذية الذين يمكن ضمهم إلى المؤتمر واللجنة. ليس لها إلا مائة وخمسة وعشرون شعبة مع أن كل شعبة منها قد يبلغ أعضاؤها بضعة آلاف من جميع طبقات الأمة. كانوا أكثر منهم عدداً عند الاقتراع فتكون النتيجة انتخاب من يريدونه وإسقاط من لا يرغبون في وجوده في الهيأة وذلك هدفهم الذي يرمون إليه.

زعموا أن الاتحاد بين أشخاص الهيأتين لا يضمن اتحاد العناصر والشعب الدستوريّة لأن مآتي الشقاق والخلاف من صفوف الأمة لا من المنشقين الذين خرجوا عنها متكالبين على الزعامة الخاوية، مع أن الخلاف لم يكن معروفاً من قبل بل هو طارىء على الأمة. نشره هؤلاء بين صفوفها بما كانوا يذيعونه بين بعض الشبان المبتسرين الذين ليست لهم دراية بحال البلاد السياسية وتاريخها الحديث، فكيف بنقد الأبطال ومعرفة مقادير الرجال

ولو كانت لهم خبرة بما ذكرنا لما غرهم المنشقون وانجذبوا إليهم بل كانوا يفرون منهم فرار الحملان الوديعة من الذئاب القارمة[14].

وقبل فض الاجتماع الأخير للجنة الاتصال أردت أن أعذر لعصبة الشقاق أو (الديوان السياسي) كما يسمون أنفسهم ليتدبروا عاقبة أمرهم فامهلتهم شهراً كاملاً لإذاعة هذا البيان لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويبرمون الوفاق لكنهم لم يتريثوا بل شرعوا يوحون إلى كتاب الدجل وصحف الهزيمة والتعويق بتضليل الأمّة فيما يكتبون وينشرون من السموم الناقعة حول الدعوة إلى الوفاق وكانت تلك الأوراق المعروفة بثمرات الاثم مصدراً لظهور تلك الأقذار، ما حمل المشفقين على سمعة البلاد وحماية الأدب العام أن يدعوني إلى التحلل من وعدي والخروج من الصمت الذي ألزمته إلى البوحان لتنوير الفكر العام بالحقائق من الآعيب جماعة الحواة[15] فقلت لا تعجلوا فإنّ لكل نبإ مستقراً. وبياني لا يصدر إلا في الميعاد الذي ضربته ولست الرجل الذي ينقض كلمته أو يحل ما أبرمه بتأثير التهويش. فذلك شأن غيري من ضعفاء الإيمان.

اجتماع أخير مع عصبة الديوان السياسي

زارني الحبيب بورقيبة ومعه أعوانه: الطاهر صفر، البحري قيقة، صالح بن يوسف، سليمان بن سليمان، الصادق بوصفارة، لإقناعي بوجهة نظرهم في الوفاق فعرضوا على أنهم يقبلون بإيجاد لجنة عليا تكون وسطاً بين الهيأتين بشرط أن تقصي اللجنة التنفيذية أربعة من أعضائها وهم: علي بوحاجب، محي الدين القليبي، الشاذلي الخلادي، المنصف المستيري.

---

(14) (القارمة): الجائعة المفترسة.

(15) (الحواة): هي من العامية التي درجت على الألسن وفي الشرق خاصة. ومفردها (الحاوي) وهو مروض الحيات.

فقلت لقد كنت سمعت من أعضاء اللجنة التنفيذية مثل هذه الرغبة في اقصاء أربعة منكم عن الديوان السياسي وأقنعتها بوجوب العدول عن مثل هذا الطلب الذي لا يبعد أن يعيدنا إلى ما نريد الخروج منه من شقاق وشغب ووقع الاتفاق على الاتحاد بين الهيأتين دون اقصاء أي أحد منهما. فلماذا تريدون هدم ما بنيتموه بأيديكم من قبل. فقال: كنا يومئذ أقلية والآن وقد تكاثرنا وبلغ الداخلون في حزبنا خمسين ألف نسمة يسعنا أن نستغني عنهم كلهم فضلاً عن البعض منهم فقلت: وكيف تستطيعون أن تستغنوا عن 200000 نسمة المنضوين تحت لوائهم وما أنتم إلا أقلية بجانبهم؟ فقال الحبيب: هذا رقم غير صحيح وليس لهم مائتي رجل ويمكنك أن تقف على ذلك بنفسك يوم تخرج لزيارة البلاد التونسية فتجد الناس جميعاً واقفين تحت ألويتنا فقلت: أود أن أرى ذلك. فاتفقنا على الابتداء بزيارة مركز وسط في البلاد التونسية واتفقنا على أن تكون هذه الزيارة إلى عمل (السواسي) وجعلنا موعد هذه الزيارة يوم السبت 4 سبتمبر 1937 بشرط أن يكون اتباع كل من الهيأتين منفصلين عن بعضهم كل في ناحية حتى نتبين الأقلية من الأكثريّة،

والتمس الحبيب بأن لا تقتصر هذه الزيارة على عمل السواسي بل نتبعها بزيارة أنحاء أخرى من البلاد التونسية فوافقته على ذلك واقترحت تعيين يوم قبل الخروج يجتمع فيه أعضاء الهيأتين لتقرير المراكز التي نزورها في هذه الرحلة فأبى الحبيب أن يوافق على هذا الاجتماع فقلت لا أرى لي منه بداً. وهنا التفت الدكتور ابن سليمان إلى الحبيب وقال له لنجتمع بهم ونسخر منهم فانتهرته وأنكرت عليه ذلك وقلت أهذه آدابك: تأتي إلى بيتي لتتخذ من أكابر القوم سخريّة لك. فأخذ رفاقه يعتذرون له وأنكروا أن ذلك كان منه عن سوء قصد. ثم قام هو يستسمحني ويعتذر عما فرط من لسانه من الهراء فاكتفيت بذلك. وقد امتد هذا الاجتماع في تلك الليلة إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وقبل منصرفهم ذكّرت الحبيب بموعد السفر الذي اتفقنا عليه فقال سأكون لديك في الساعة الثانية بعد زوال اليوم لنسافر مبكرين ونمر بسوسة وسألني أن أخبر السيد صالح فرحات بهذا الموعد ثم انصرف مع رفقائه.

وبدلاً من أن يصدق وعده وينتظر الموعد. خف إلى السفر للجهات التي سنقصدها وأخذ يثير فيها فكرة المعارضة للوفاق، وأرسل الديوان السياسي منشوراً إلى شعبه يستثيرها فيه للتوقيع على نصوص احتجاجات كتبها لها وطلب منها التوقيع عليها وأرسلها إلى الصحف وقد شاهد الناس ما تحمله وما تشتمل عليه من صيغ متشابهة وأمثلة متحدة تدل على وحدة المصدر وسوء الأدب. وتقدمت سفرنا هذه العاصفة الهوجاء ضد الاتفاق وجاء موعد السفر وانتظرنا الحبيب بورقيبة من الساعة الثانية المتفق عليها إلى الرابعة فلم يأت. ولم يعتذر. وسافرنا إلى حمام سوسة ومساكن وسوسة وكركر والسواسي فكان يعترضنا في كل جهة قصدناها بعصابة من فلتاء المنستير ينقلهم في سيارات لتهتف ضدنا خارج كل بلد قصدناها وتقذف سياراتنا بالحجارة لايهامنا بذلك أن الأمة التونسية في كل مكان ناقمة على الدعوة إلى الوفاق بينما الأمة تحتشد في كل مكان نمر به تحيينا وتهتف لما ندعوها إليه.

وأخيراً زرت ماطر وفيريفيل ومررت بطبرية والجديدة وغيرها فلم أجد إلا أمة واحدة متضامنة تستمع لدعوة الحق وتستجيب لداعي الواجب ولا أقول هذه المرة إن وسائل الديوان السياسي في مصادمة دعوة الوفاق لم تتغير، بل إنها تطورت في ماطر إلى جموع مسلحة سيقت إليها من باجة وبنزرت وسوق الأربعاء وسوق الخميس من المجرمين الذين اصطفتهم عصابة الديوان السياسي لنشر عهد إجرام دام في هذه البلاد وفتح باب شر مستطير على الأمة وكانت هذه العصابات المسلحة تحتل الطرق وتمنع المارة وتترقب السيارة التي أركبها لأنها مأمورة بالفتك بي والقضاء عليّ، وحدثت تلك الكارثة الدامية عشية يوم السبت 25 سبتمبر سنة 1937.

خاتمة

كنت أودّ أن أختم هذا البيان بكلمة حاسمة عن عصابة الديوان السياسي التي حرّضت على قتلي ببلد (ماطر) ولكن لما وقع ما وقع منها ضدي رأيت من الكرامة أن أمسك عنها، وأتركها للأمة التي أصبح واجباً عليها تلقاء كرامتها التي مُسّت في شخصي، ومنزلتي منها، وجهادها المقدس الذي اضطلعت بحمل لوائه طيلة هذه السنين. فهي صاحبة القول الفصل والحكم النزيه العادل على الذين نكبوها في سياستها وطعنوها في سمعتها وضحوا بمصلحتها العليا في سبيل شهواتهم الدنيئة. وليس أنجع في مثل هذه المواقف من حكم الشعوب نفسها، على المارقين منها، والعاقين لها. وحسبنا الله ونعم الوكيل. نعم المولى ونعم النصير[16].

تحريراً في 30 سبتمبر سنة 1937

عبد العزيز الثعالبي

---

(16) نشرت (الكلمة الحاسمة) أو (بيان الأستاذ الثعالبي إلى الشعب التونسي) كما عنونتها (الرابطة العربية) على ثلاث حلقات في ثلاثة أعداد ابتداء من العدد (72) حتى العدد (74) أكتوبر 1937.

ونشرت (الكلمة) في جريدة (الإرادة) عدد (250) 29 رجب 1356 هـ 3 اكتوبر 1937م. تحت عنوان بـارز (بيان عام إلى الأمة التونسية. كلمة الزعيم الأوحد الحاسمة).

أما جريدة (العمل) فقد ردّت على (الكلمة الحاسمة) بافتتاحية بعنوان (ردّاً على مزاعم وافتراءات) عدد (37) 10 اكتوبر 1937.



(إبراهيم أطفيش 1886 ـ 1965)



صورة للمؤلف مع الشيخ (أطفيش. أبو إسحاق) في حديقة منزله بالمطرية من ضواحي القاهرة وعلى يسار الصورة (محمد شريفي) خطاط المصحف الشريف بالخط الشرقي رواية عن ورش عن الإمام نافع.



عبد الرحمان اليعلاوي
بعد نفيه من تونس إلى عنابة سنة 1925

أسفل: صورة للمؤلف مع عبد الرحمان اليعلاوي ضمن الوفد الجزائري إلى المؤتمر الإسلامي في القدس سنة (1960) الواقفون من اليسار إلى اليمين:
- الدكتور (ابن ثامي).
- عبد الرحمان اليعلاوي بطاقيته. - وراءهما جالساً صالح الخرفي. - أحد رجال الأمن الأردنيين. - إمام مسجد (الخليل) والصورة أخذت في فنائه. - أبراهيم مزهودي.
- ضابط الأمن المرافق للوفد الجزائري.



الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

د/10/2

حضرة الأستاذ الأجل الملاذ الأعظم سيدي عبد العزيز الثعالبي

دام مجده وسناه

سلام عليك وتحية وثناء يشملانك وجميع الأحبة والأصدقاء

* وبعد فإن البصير متى دقق النظر في مسارب الإصلاح وأمعن فكره

* في تطورات الأحوال تجلت له مظاهر الأمور وأدرك بعض الحقائق

والعمل حيثما قرن بالإخلاص لا بد له ونتائج لا يستهان به ولقد جلت

ببصري وبصيرتي أثناء التوجه إلى الوطن المحبوب وحركت بعض نبوض

× فانبعث كمونا للإحساس المتكون ومجاري الأمور......

وأرى في الواجب عدم إهمال ذلك الإحساس من وجهة العاملين [illegible]

متى لم يتعهد بالتحريك فهو آيل إلى الانعدام وأقل يوما ما الإبلاغ

ولقد أخذني العجب والأجانب لا يهملون نقطة ووجوه التأثير

إلا سلكوا منها ولا حركة لغايتهم إلا استعدوا إليه ونحن بالأسف

متى توجهت فكرتنا إلى نقطة إلا أغفلناها وتغافلنا في نقطة عديدة

والتهديد البلشفي بالشعب الشعوب حاجة إلى الأعمال الكثيرة نحن

إن الأعمال جارية هنالك على طرق شتى منها المرضي ومنها المستحسن

ومنها المستضعف وكل ذلك في ظاهره نظامية واحدة لكن تلك الأعمال

حيث كانت لسعادة فلا جرم أن الحق حيثما كان يقتضي ذلك الأثر بدون

× ما توقع ولا بتور وضعف العزيمة لا يتقدم إلا بباطنك فوري

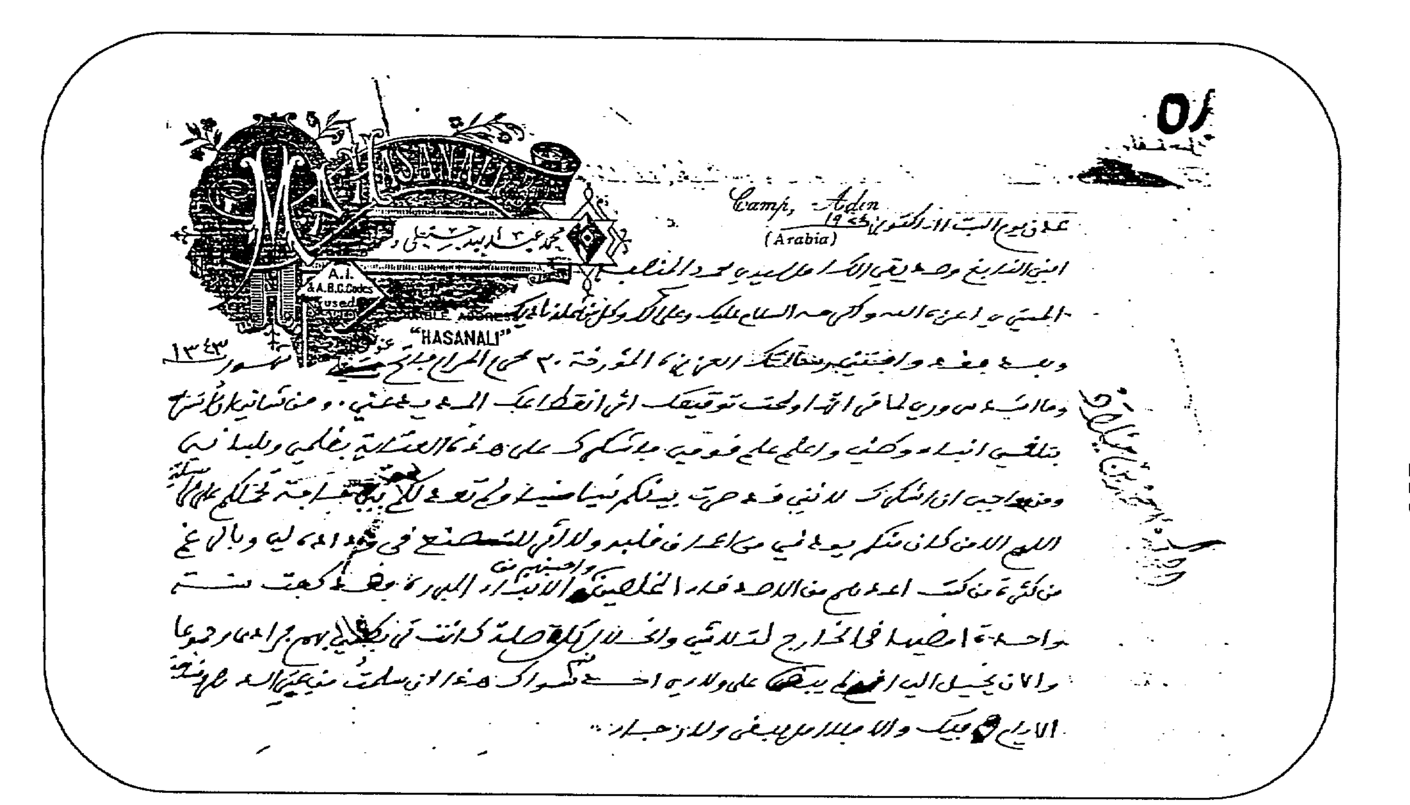
إذ لا يستطيع التلاعب مع طوارئ الحوادث غير أن الواجب على كل

عامل صادق اللهجة صالح الطوية حسن النية عمومي الإصلاح لا يذهل

عن ملاحظة المستصرخ العادي في أي صقع كان وإلا عد ذلك قصورا فادحا

أو تقصيرا

رسالة خطية رمزية إلى الشيخ عبدالعزيز الثعالبي من الشيخ إبراهيم أطفيش بتاريخ (1939/12/17).



مستهلّ الرسالة التي وجّهها (الثعالبي) إلى (محمد المنصف المنستيري) والتي اقتطفنا منها (كلمة الغلاف) والرسالة بتاريخ (11) أكتوبر (1924) من عدن وهي حافلة بمعاناة (الثعالبي) المعنوية والمادية بعد خروجه من تونس.

نصّ القصاصة المصوّرة من رسالة
(الثعالبي) إلى (المستيري)

«عدن يوم السبت 11 أكتوبر 1924.

ابني النابغ وصديقي الكامل محمد المنصف المستيري. أعزه الله وأكرمه.

السلام عليك وعلى آلك وكل من شمله ناديك.

وبعد. فقد وافتني رسالتك العزيزة المؤرخة 30 محرم الحرام فاتح شهور 1343. وما أشدّ سروري لما قرأتها. ولمحت توقيعك إثر انقطاعك المديد عنّي. ومن شأني أن لا أسرّ بتلقي أبناء وطني، وأعلم علم قومي. فأشكرك على هذه العناية بقلمي وبلساني، ومن واجبي أن أشكرك، لأنّني قد صرت بينكم نسياً منسيّاً. ولم تعد لكم بي حاجة تحملكم على مراسلتي. اللهم إلا من كان منكم يودّني من أعماق قلبه. ولا أثر للتصنّع في وداده لي. وبالرغم من كثرة من كنت أعدّهم من الأصدقاء المخلصين، وأحسبهم من الأبناء البررة، فقد كفت سنة واحدة أمضيها في الخارج، لتلاشي وانحلال كل صلة كانت تربطني بهم، فرادى وجموعاً. والآن يخيّل إليّ أنه لم يبق علي ولائي أحد منهم سواك. هذا إن سلمت من غير الدهر ومناصبة (أو منافسة)؟ الأيام فيك، وإلا. فلا أمل يبقى ولا رجاء».

(محمد المنصف المنستيري) في صورة له مع الأستاذ (أحمد توفيق المدني) الجالس في الوسط بالبدلة والطربوش بينما وقف الأستاذ (المنصف) في يسار الصورة بعصاه رقم (5) وعلى يمينها أخوه (محمد) رقم (1) نجلا السيّد (حمودة المنستيري) أمين مال الحزب الحرّ الدستوري. والصورة في الجزائر بتاريخ (1926/6/11) من كتاب (حياة كفاح) للأستاذ (المدني).

دفاعاً عن الإسلام
في الهند

بعثة الأزهر إلى الهند
تقرير نفيس للزعيم العربـي الكبير
السيد عبد العزيز الثعالبـي

ألفت مشيخة الأزهر بعثتها إلى الهند من حضرات العلماء أصحاب الفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ إبراهيم الجبالي والشيخ محمد العدوي وقد بات في حكم المقرر أن تسافر قريباً إلى بنباي وقد وضع سعادة الزعيم العربـي الكبير الأستاذ عبد العزيز الثعالبـي تقريراً قدمه إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر رسم به الخطة التي يجدر بالبعثة السير عليها في الهند وهذا هو[1] :

ينبغي لرسالة وفد الأزهر أن تصرح في إعلانها عن المهمة التي تريد أن تضطلع بها في الهند أينما حلت، بأنها مهمة إنسانية محضة ذات صبغة عالمية

---

(1) رحلات (الثعالبي) إلى الهند من أهم الرحلات التي قام بها في حياته، تكراراً وسعة إطلاع، وتراثاً علمياً لم ير النور لحد الآن، فمخطوطة رحلاته إلى الهند، ربما تكون أوسع المخطوطات التي تركها الثعالبـي بعد وفاته. وقد صدر من هذه الرحلات كتابه. (مسألة المنبوذين في الهند).

وتكليف الأزهر للثعالبـي للقيام نيابة عنه برحلة إلى الهند والخروج منها بتقرير يكون رائداً لبعثة الأزهر إلى المنطقة، إنما يدل على المكانة العلمية والإسلامية التي كان يتمتع بها الثعالبـي في نظر أعرق مؤسسة علمية إسلامية كالأزهر الشريف.

تقوم على خدمة قضايا تاريخية معينة، لتحقيق أبحاث اجتماعية يريد الأزهر أن يساهم في حلها بوجه مرضٍ قد يكون فيه ما يبعث على إزالة عوامل القلق المتفشية بين أصحاب الأديان الكبيرة السائدة في الهند. وقد يصيرون بفضل رسالة الأزهر بناة سلام ودعاة وفاق حين يفهمون جميعاً رسالة الإسلام إلى العالم على وجهها الصحيح لا المستعار الذي خلفته القرون، فرآه غير السامين كالحاناشفا.

فرسالة الأزهر السلمية قد تحمل إلى الهند عهد الرسالة المحمدية الأولى بلا لبس ولا كفاح، وما هي إلا النور والإشراق عن طريق الإقناع والبحث التحليلي، وعند سطوع النور الإلهي تختفي أشباح الضلال وتلين قساوة الطباع، وتهتدي النفوس الحائرة إلى الطريق الحق، فإذا كل خصومة تنتهي إلى وفاق، وكل نفور ينقلب إلى ائتلاف.

نوجد في الهند أحوال متناقضة يجدر للبعثة أن تتفرغ لدراستها بفكرة هادئة فهناك خصومة سياسية بالغة أشدها في المدن بين المسلمين والهندوس، تصل أحياناً إلى إزهاق الأوراح البريئة، ثم تنقلب إلى ترات، بينا نرى الوفاق سائداً بينهما في الحقول والمزارع، بل وفي كل ربع يأويان إليه تكون مساكنهم فيه الخصاص، حتى لا يكاد أحد يشعر بأن بينهما فارقاً إلا في أوقات العبادة، فهذا يقوم بشعائره، وذلك يمارس طقوسه، وما هم في الحقيقة إلا عجار[2] الهند، ومادة الحياة فيه، إذن فبادية الهند تكون أخصب بقاعه للقيام بالدعاوة للإسلام قبل المدن.

وعلى البعثة أن تتعمق في تفهم سر العطل في إقبال الهندوس عن اعتناق الإسلام، وتحليل العوارض النفسية التي قد تبدو في ذلك لهم، تحليلاً علمياً مقنعاً هل كانت منبعثة عن الغرور بعقائدهم وتقاليدهم المشبعة لغرائزهم المادية، أم لشعورهم بتأثيرها السحري القائم على الخوف والرهبة

---

(2) لعله يقصد، وما هم إلا فقراء الهند. أو الطبقة البائسة في الهند.

من المآل الذي يثبتونه في منقلب الأرواح بعد حياة الأجساد، أم هو ناشىء عن اعتزازهم بالقومية والمغالاة في حب الذات، أم لانخفاض مداركهم عن إدراك حقائق الإسلام التي تسمو كثيراً عن مذاق روح التأقلم التي يتشبع منها أعيان الهندوس.

وهنا يخلق بـي ألا أغفل الكلام عن الإشارة بدراسة العقائد الهندوسية في مظانها، وتتبع ما حدث عنها من تفرعات وتطورات وأساطير لكي ننتقل منها إلى تفهم النفسيات، وما تفرغه عليها من قوة وضعف، أو قناعة وشك، حتى نوازن بين عقلية الهنادكة وبين ما نلقيه عليهم من تعاليم الإسلام.

وبسلوك هذه الطريقة الاستنتاجية للتعمق في فهم هذه المسائل تهتدي البعثة إلى أن تضع مما تستنبطه من المقارنات والملابسات أسلوباً جديداً للدراسة العلمية المشتركة بين التبشير وتاريخ الأديان. وفلسفة العقائد.

وقد تكون أسباب العطل خارجة عن آفاق الهندوس، ولا يستبعد أن تكون من تلقاء المسلمين أنفسهم، فيجب أن يبحث عنها من هذه الناحية أيضاً.

فإن المسلمين مع شدة حرصهم على حمل غير المسلمين على اعتناق دينهم، قد لا يفطنون إلى الملاءمة بين قابلية من يدعونهم إلى الإسلام، والإسلام الذي يريدون أن يحملوه إليهم في أوضاع فقهية جافة لا يعرفون سواها. وهي قد تكون سبباً لنفرة من يدعونهم إليه. وربما لا تكون متصلة بجوهر الدين، وإنما قد تتصل بأدب الفطرة وقد يكون منها ما هو محل للتعارض عند أصحاب الفروع من أهل المذاهب، فلا يرتاح لقبولها من يدعونه بها للإسلام، فتكون صارفة له عنه. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها مسألة الختان التي يجعلونها شرطاً في اعتناق الإسلام، وخصوصاً بعض المسنين المحتشمين، فإنهم يجعلون مساق الختان معادلاً للنطق بالشهادتين في صحة الدخول في الإسلام، حتى كان ذلك سبباً جوهرياً في صرف كثيرين عن اعتناق هذا الدين من وجهاء الهندوس.

وهناك مسائل أخرى تتعلق بتنظيم العقد الاجتماعي، منها مسألة النكاح وشرط الكفاءة فيه. فإن المسلم الناشيء في الإسلام يشعر في نفسه بماله من السابقة في الإسلام أنه أكفأ من المسلم الحديث، فلا يمكنه من مصاهرته وطالما كانت هذه الكفاءة حائلاً دون الإقبال على الإسلام، لاعتبارها من العوائق الملابسة لمذهب القائلين بأن لا مساس. فقد علمت أثناء رحلتي الأولى إلى الهند سنة 1913 أن كبيراً من الهندوس من ذوي الثروة والجاه شرح الله صدره للإسلام، فأسلم، ولكن زوجته الهندوسية أصرت على البقاء على دينها فبانت منه، وقد حاول عبثاً أن يبني بامرأة أخرى مسلمة فلم يجد واحدة منهنّ من بين العامّة، فكيف بالخاصة ذلك بسبب فقد الكفاءة، وبقي المسكين أعزب. حتّى وفق الله إحدى الهندوسيات إلى الإسلام، فتزوجها ولولاها لساءت حاله.

وقد أوردت هذه الأمثلة للتنبيه بها على العوائق التي أحدثها المتفقهة، فأصبحت عقبة كأداء في سبيل انتشار الإسلام للسعي في تلاقيها.

وهناك فروع كثيرة قد تعرض للناس في العبادات والمعاملات والاقتصاد والتوفير، وهي جديرة لأن تخرج تخريجاً حديثاً يتطابق مع مصلحة الإسلام الحديث.

ولتوفير النظر في هذه الأمور أرى من الأوفق أن يضمّ للبعثة عالم شافعي ليكون أقرب إلى إقناع طائفته في الهند، أسوة بغيرها من الطوائف الأخرى الممثلة في البعثة، أحنافاً وسلفيين.

وينبغي لتحقيق هذه المأموريّة على الوجه الأكمل أن يزور الوفد أهم عواصم الهند ومرابع العلم، وأن يجتمع مع أكابر العلماء وزعماء الطوائف والفرق الدينية والمذهبية والسياسية، لبت الرأي في الموضوع، فيبتدىء بزيارة السند، ثم البنجاب، فالكوجرات، فاور، فدلهى، فبهار، فالبنغال،

فمدارس، فحيدر آباد، وفي نهاية الرحلة يدعو نخبة المسلمين إلى عقد مؤتمر في البقعة التي يختارها الهنود أنفسهم للنظر والمداولة في تقرير الحالة، وما تحتاج إليه المهمة من الوسائل والذرائع المادية، والأدبية، ويكون بذلك فصل الختام[3].

(3) نشرت بمجلة (الرابطة العربية) عدد (19) سبتمبر 1936.

الهند التي أحببتها

«عزم الأستاذ الثعالبي على زيارة الهند وبعض بلدان الشرق الأدني قبل عودته إلى تونس. وقد سأله مندوبنا عن سر شغفه ببلاد الهند، الذي يحمله على زيارتها للمرة الخامسة «فابتسم» وقال، إنه سحر الهند الذي لا سر فيه!!»[4].

الهند بلاد جميلة، والجمال نوع من السحر الذي لا سر فيه.. لقد ذهبت إلى الهند في رحلاتي إلى الشرق الأقصى خمس مرات، وكنت في كل مرة أعود منها، أشعر بنوع من الحنين إليها، والشغف بالرجوع إليها عند أول فرصة سانحة. وعلى كثرة من شاهدت من الأحياء، وما شاهدت من الأشياء، لم أجد بيئة تجتمع فيها الغرائب، وتضطرم فيها العقائد، وتنصهر فيها النفس البشريّة مثلما وجدت في الهند... ملايين الناس، وآلاف البيئات، ومئات اللغات، كل هذا ينتظر زائر الهند، فهي عالم بكل ما في كلمة عالم من معنى!

وطبيعة الهند نفسها، هي المسؤولة عن إيجاد هذا التناقض العجيب في طبائع الناس، وصفات الأشياء... فيها الجبال السامقة، التي لا مثيل لها في أي مكان آخر، وفيها الهضاب العالية، المنقطعة الصلات بأي مكان آخر، والتي تعيش فيها كائنات أقرب إلى فطرة الحياة الأولى منها إلى حياتنا

---

(4) تكون هذه زيارته الأخيرة للهند.

الحاضرة. وفيها السهول الفسيحة، والمنخفضات الغائرة العميقة، وفيها الأنهار الجارية، والأمواه الدافقة. وفيها الحرارة التي تصهر الأبدان وتشويهاً، وفيها البرودة التي تجمد الأطراف والحواس. وفيها تعيش تقريباً جميع أجناس البشر، كما تعيش جميع أنواع البهائم والهوام. ولهذا الاختلاف من النقيض إلى النقيض، وجدت في الهند الثروات التي تضرب بها الأمثال في استحالة الحصر والعد، كما وجد فيها الادقاع الذي لا نظير له في أي مكان آخر. وليس هذا هو آية ما في المهند من عجب، ولكن عقائد الناس، هي عالم بذاته، فحميع الأديان من الوثنية التي تؤمن بالأحجار، إلى الصوفية التي تفني في ذات الله.. وإلى طبيعة البلاد، يرجع نظام الطبقات في الهند، ويجد المؤمنون بهذا التقسيم إيماناً أعمى، وليسوا قلة بين الناس، ولكنهم جميع الناس هناك.

والبرهمية دين أغلب الهنود. نسبة إلى برهما. واتباعه يؤمنون بالتثليث، فـ (برهما) عند قوم الإله أو الأب، و (فيشنو) ابنه البكر، و (سيفا) وهو الروح القدس. ولكن قوماً آخرين ـ من البراهمة ـ يختلفون في صفة هذا المعبودات فينسبون صفة الأبوة أو الإلهية إلى أحد الإثنين التاليين لبرهما. وكلهم جميعاً يتفقون على أن الابن البكر نزل يوماً «ما» في أحد آبار بنارس، وتردى فيها، فلما هم الناس بانقاذه وجدوه استحال إلى بقرة، فقدسوا البقرة من ذلك الوقت، لأن روح الابن البكر حلت فيها. ويعتقد الهندوكيون أن برهما ظهر على الأرض عشرين ألف مرة، في صور بشرية لكي يرد الناس إلى الأمن والعدل، بعد أن ساروا صوب الجور والظلم... وكان يتزيا في كل مرة بزي، فهو تارة عالم، وتارة ملك. وأخرى قائد. وآخر مرة ظهر فيها كان في صورة المحارب راما كريشنا.

وكما أن الأشخاص من دين غير دين البراهمة يعدون أنجاساً كذلك كل طبقة من طبقات البراهمة الأربعة تتقي الطبقة التي فوقها خشية

التنجسس فطبقة المحاربين، وطبقة المنبوذين (الشودرا) نجسة بالنسبة للجميع.

وقد حدث مرة أني دعيت لمؤتمر جميعة العلماء في بنارس، فأخذت القطار من بمباي، وسار بـي إلى وسط الهند وفي بعض المحطات التي كان يقف فيها كنا نجد جموع المسافرين من الهندوسيين، تمد أيديها في النوافذ بأكواب لكي ينالوا جانباً من الماء الذي يصبه السقاة من البراهمة وهم يركضون، وذلك لأن كل هندوكي يخشى إن هو استبقى ماء معه في رحلته أن تصله نجاسة من شخص قريب منه باللمس أو الظل أو النظر، فيحرم عليه، ولذا يفضل أن يبقى ظمآن على الرغم من شدّة الحر حتى ينال جرعة ماء طاهر من الساقي.

وكان مفروضاً أن يصل القطار إلى بنارس في منتصف الليل، ولكن مشقة الرحلة اضطرتني إلى الإغفاء، فأغلقت باب الديوان ونمت، وحين جاء وفد جميعة العلماء إلى محطة بنارس وبحث عني لم يهتد إلى مكاني، فسار بـي القطار حتى مدينة جواديا. وهذه المدينة مركز الدعاية البوذية وفيها يعيش نفر كبير من أتباع كهنة جوتاما بودا وهو الأمير الذي كفر بالمظالم التي تحل بالناس، فهجر الملك وأعلن الجحود المطلق.

ولم يكن هناك سبيل إلى البقاء في هذه البلدة فأخذت القطار العائد إلى بنارس، وعند وصولي أسلمت متاعي إلى عربة، إذ لم يكن أحد بانتظاري، وطلبت من السائق الذهاب بـي إلى أكبر فنادق المدينة، فسارت العربة نحو ساعة. وأنا قلق من هذه الرحلة الطويلة التي لا أفهم لها سبباً، وإذا بها تقف، وإذا بأربعة رجال يأتون من بناء مقابل، ويحملون حقائبـي، فظننت أنهم من خدم الفندق الذي أريده، فلما تبعتهم ودخلت هذا البناء وجدت نفسي في مسجد كبير، وكان الوقت موعد صلاة الصبح فما أن انتهيت من الصلاة حتى وجدت المصلين ضربوا حلقة حولي وسألني أحدهم أنت سيد (أي من الأشراف) فقلت أجل. فطأطأ الجميع رؤوسهم قليلاً، وأخذوا يحدقون فيّ

وهم صامتون كأنما هم حول معبود من معبودات الهند الكثيرة، وبلغت مني الحيرة أي مبلغ، ولم ينقذني إلا وصول الشيخ عبد المجيد مندوب جمعية العلماء. الذي علم بقدوم زائر مسلم غريب إلى المدينة.. فأخذني من بين القوم، وأمر بحقائبي فحملت إلى منزله، وسار بي إلى مقر الضيافة عنده.

وبعد أن استرحت مدة، واستقبلت بعض الزائرين أحسست بحركة غريبة، في المنزل، فقد كان كثيرون يأتون إلى الشيخ عبد المجيد ويسرون في إذنه كلاماً، وكان هو كثير الاضطراب، ويذهب ويعود، وكنت أسمع ضجة في الخارج حسبتها أول الأمر عارضة ولكن تكرارها في ساعات متعاقبة حملني على أن أذهب إلى شرفة لأرى ما هنالك. وقد وجدت شيئاً عجباً... آلاف من الناس تجتمع أمام المنزل وتسد الطرقات، ويصيح بعضها صياحاً منكراً. فلما استفهمت عن جلية الخبر قيل لي إن هؤلاء المتظاهرين من فريق المسلمين السلفيين أي الذين يؤمنون بالكتاب والحديث ويرفضون ما بعدهما، وإن الشيخ عبد المجيد من فريق الشافعية وكلا الفريقين يخالف الآخر خلافاً عنيفاً يصل إلى درجة التكفير، وقبولي ضيافة الشيخ، تكفي لرميي بما يرمي به فريقه، ولذا فهم مستاؤون من أني ذهبت إلى مسجدهم، وقد طهروا المسجد مراراً ودامت هذه الفتنة أربعة أيّام، لم أتمكن خلالها إلاّ من زيارة بعض كبار الهندوسيين وعلى الأخص الفيلسوف بهواندا‌س، وبعض معالم الهندوسية هناك ثم عدت بعد هذه الأيام الأربعة حتى تعود السكينة إلى المدينة. وكان من أهم الأماكن التي رأيتها في بنارس المسجد ذا القبلة الذهبية وكان قديماً معبداً هندوسياً، فانتزعه الملك أورانجزيب من كهنته وحوله إلى مسجد، فبنى الهندوس هيكلاً صغيراً وأقاموا عليه قبة ذهبية مثل قبة المعبد القديم، واختاروا موضعه أمام البئر المقدسة التي تردى فيها الابن البكر واستحال بقرة!

وهكذا أخذ نظام الطبقات والعصبية المذهبية الشديدة تسري إلى الدين الإسلامي ولكنها تختلف في مظاهر كثيرة عما هي عليه عند الوثنيين. فهي هنا ماثلة عند المسلمين في الطبقة الأخيرة، وكثرتها من المنبوذين وغيرهم

من الهندوس الذي يسلمون، ولا تزال تجري في دمائهم الفروق التي أورثتها لهم الأجيال الماضية أما المتعلمون، والطبقة المتنورة فلا يظهر بينها خلاف يتشكل في هذه الأشكال.

وأهم فارق بين ديانتي الهند الكبيرتين البرهمة، والبوذية، أن اتباع براهما يعاونون الطبيعة على البناء فهم يحترمون العمل، ويحضون على التناسل. أمّا البوذيون فيدينون بمذهب يغاير مذهب البراهمة. لأنهم يعاكسون نمو الطبيعة، ويساعدونها على الفناء المطلق، رغبة في التخلص من آلام الحياة، ولذا يدينون بمذهب (النرفانا) أي مذهب العزلة الكاملة. وكما توجد في الهند ديانات تأخذ أتباعها بمنتهى الشدّة والعنف، وتقيدهم بأقسى القيود حتى لتوجد هناك خوارق في تعذيب البدن وإرهاقه، كذلك توجد مذاهب تعبد اللذة البدنية وتقدسها، وتعدها مثلها الأعلى في الحياة. كيف إذن لا نعود إلى الهند، لنلقي عليها نظرة أخيرة قبل العودة إلى الوطن، ولنلقى هناك أصدقاءنا القدماء، وتتم في فترة شهور ثلاثة بعض الدراسات التي بدأناها في زياراتنا المتعاقبة لها.

---

(5) نشرت بمجلة (الرابطة العربية) العدد (24) نوفمبر 1936.

كيف دخل الإسلام في الهند؟ وكيف نشأت قضية المنبوذين؟

هذا ما استطعنا التقاطه من المحاضرة النفيسة التي ارتجلها مساء يوم الأربعاء الماضي في دار جمعية الشبان المسلمين الزعيم العربي الكبير عبد العزيز الثعالبي قال[6]:

ليست الهند قطراً أو مقاطعة صغيرة ليسهل وصفها وتحديدها وإنما هي قارة من القارات الكبرى الواسعة الأكناف الفسيحة الجنبات، الجماعة لكثير من الأمم والشعوب والخصائص والمزايا.

وسكان الهند الأصليون هم هؤلاء الذين يطلقون عليهم اليوم اسم المنبوذين غزاهم الآريون القادمون من إيران قبل خمسة آلاف سنة على الأرجح واكتسحوا بلادهم. نعم إن كتب البراهمة تقول إن هذا الغزو كان من ثمانية آلاف سنة ولكن هذه الكتب ليست مما يعول عليه كثيراً من الوجهة التاريخية العلمية لأنها موضوعة في الأصل لأغراض دينية.

وقسّم الغزاة الفاتحون سكان الهند إلى طبقات أقاموا بينها الفواصل

(6) لعلها تكون المحاضرة العامة الأخيرة للثعالبي في القاهرة في شهر مايو 1937 قبل عودته إلى تونس، ومغادرته القاهرة إلى الإسكندرية في (26) يونيو / حزيران، ومغادرة ميناء الإسكندرية إلى مرسيليا في (30) من الشهر. بالرغم من أنه وعد الحاضرين بمحاضرة ثانية في الموضوع بعد عودته من القدس وقبل سفره إلى تونس.

والحواجز. فالبراهمة أو رجال الدين الهندوسي هم رجال الطبقة الأولى وهي أرفع الطبقات وأعلاها عندهم. ثم طبقة الملوك والأمراء. فطبقة الأشراف والأعيان، فطبقة الشعب. أما السكان الأصليون فنبذتهم الشريعة البرهمية وحاربتهم وجعلت مرتبة الحيوان الأعجم تفضل مرتبتهم. ولعل شر استعمار عرفه التاريخ هو الاستعمار الآري في الهند فليس أفظع ولا أظلم منه.

وعمل (المروانيون) لفتح الهند فأرسل الحجاج بن يوسف الثقفي حملة بقيادة محمد بن القاسم في أواخر القرن الأول للهجرة دخلت السند ووصلت حتى حدود الملتان. والملتا هو النهر الذي يفصل بين الهند والسند فاستولت على هذه المقاطعة وصالحت سكانها على الجزية وأبقت لها نظمها وتقاليدها وعاداتها وحكامها، وليس كالفاتحين المسلمين في التساهل ومعاملة الشعوب المغلوبة بالعدل والإنصاف. فقد جروا على الإكتفاء بأخذ الجزية منها وترك كل شيء لها مما ساعد على انتشار الإسلام وامتداده فشمل معظم أجزاء العالم في خلال مدة قصيرة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً.

وشغل المسلمون بعد ذلك في شؤونهم الداخلية وبالأحداث التي حدثت بينهم فتوقفوا عن الفتوحات في أواخر العهد الأموي وأوائل الدولة العباسية. ثم كان ما كان من قيام حكومات الطوائف في أواسط آسيا وقد تم على يد هذه الحكومات فتح الهند فقد غزاها صلاح الدين سبكتكين في القرن الرابع للهجرة فقاومه راجاً راجبوت فانتصر عليه وهزمه وشتّت جيوشه وكانت النتيجة التي تعرفونها أي أنه صالحه بعد ذلك وأبقاه على عرشه واكتفى منه بالجزية وترك كل قديم على قدمه فلم يلبث هذا أن ثار على المسلمين ونقض عهده وجمع قوى كبيرة لحربهم استمدّها من أقيال[7] الهند الذين ناصروه وأيّدوه.

ولا يعرف بالضبط كيف كان نظام الهند السياسي في ذلك العهد وهل

(7) (أقيال) ملوك مفرده (القيل) وأطلق على ملوك حمير.

كانت مقاطعاتها متحدة أو منفصلة لأن تاريخها في تلك الحقبة شبه مجهول. كما قلت. لم يعن البراهمة بتدوينه وضبطه وتدل الدلائل أنها كانت مجزأة متفرقة. يؤيد ذلك وجود هذه اللغات الكثيرة العدد فلو كانت موحدة متفقة لما كانت هذه اللغات ولا هذه اللهجات.

وسيّر ناصر الدين سبكتكين القوى لقتال الراجا الناكث بالعهد، وما كان عدد جنوده يزيد على العشرين ألفاً. نازلت نحو ٢٠٠ ألف من الهنود وهزمتهم، وقتل في هذه المعارك الراجا الثائر وكانت النتيجة التي تعرفونها أي أن المسلمين نصبوا ابنه مكانه وصالحوه وفي خلال هذه المعارك ظهر نبوغ محمود الغزنوي وتفوقه وعلى يده تم فتح الهند وإخضاعها بعد ذلك.

وتاريخ الهند بعد ذلك هو تاريخ الإسلام فقد أنشأ المسلمون المساجد والجوامع والتكايا والزوايا والمدن والقرى فكل ما يقع عليه النظر هنالك هو من آثار العهد الإسلامي ومن عمل المسلمين فهم الذي نهضوا بالبلاد وأصلحوها.

ولعلكم تستغربون إذا قلت إن الدول الإسلامية المتعاقبة لم تعن بنشر الدين الإسلامي في الهند العناية اللازمة الكافية ولذلك ما كان عدد المسلمين هنالك يزيد على عشرين مليوناً حين الفتح البريطاني وقد تم على يد الإنكليز تقويض الإمبراطورية المغولية المسلمة سنة1858.

ونما المسلمون في خلال القرن الأخير وازداد عددهم زيادة كبيرة وقد كان للطرق الدينية فضل كبير في ذلك. ويقول بعض كبار المسلمين وذوي الرأي منهم أن عدد مسلمي الهند لا يقل عن (١٢٠) مليوناً، نعم إن الإحصاءات الرسمية للحكومة البريطانية تجعلهم نحو ثمانين مليوناً ولكن زعماء المسلمين هنالك لا يؤمنون بهذا التقدير. ويقولون أن عاملين جوهريّين عملا في تنقيص عدد المسلمين. الأول ما ركب في نفوسهم من الرغبة في عدم تسجيل نفوسهم فمن عادة الواحد منهم أن يقول بان عدد عائلته خمسة أشخاص، في حين أنهم ثمانية أو عشرة وذلك خوف «العين»

والثاني هو تعمد موظفي الإحصاء وأكثرهم من الهنادكة تقليل عدد المسلمين ليثبتوا أن الأكثرية لهم؛ فإذا قال المسلم إن عدد عائلته خمسة سجلوا أربعة أو ثلاثة وقد رفعت قضايا كثيرة من بعض المسلمين على هؤلاء الموظفين وجوزي بعضهم.

والأكثرية المطلقة في الهند هي للمسلمين وتأتي بعدهم طبقة المنبوذين وعددهم نحو مئة مليون ثم الهنادكة وعددهم ٩٥ مليوناً. نعم إن الإحصاءات الرسمية للحكومة البريطانية تجعل هؤلاء 146 مليوناً ولكن الخبيرين من المسلمين يطعنون في صحة هذا الرقم ويقولون إن الهنادكة يبالغون كثيراً في تقدير نفوسهم ليبثبتوا أن الأكثرية لهم مع أنها للمسلمين كما قلت. وعندي أنه آن الأوان للمسلمين خاصة وللعرب عامة أن يعنوا بقضية الهند، فإن مساعدات يبذلونها لإخوانهم هنالك تفضي إلى تأسيس دولة إسلامية كبيرة في تلك القارة الواسعة. ويجب أن يفهم العرب تماماً بأنه لن يتم لهم ما يسعون إليه من تأسيس دولتهم الكبرى إلا إذا استقلت الهند وصارت الكلمة العليا فيها للإسلام.

وأمر المنبوذين سهل وغير صعب وإدخال هذا العدد الضخم في الإسلام لا يحتاج إلى كبير عناء ولا مشقة فيكفي المنبوذ أن ينطق بالشهادتين ليرتفع من درجة الحيوان الأعجم إلى درجة الإنسان فيكون له ما للمسلم من حقوق وليصبح عضواً في هيئة اجتماعية من أرقى الهيئات له مالها، وعليه ما عليها وليس كالإسلام دين يساوي بين الطبقات والأشخاص «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ولا أسهب في الكلام عن حالة المنبوذين وأظنكم قد عرفتم الشيء الكثير عنهم وعن المعاملة التي يعاملهم بها الهنادكة. فالشريعة البرهمية تقضي بأن يصب الزيت المغلي في أذن كل منبوذ يحاول الدخول إلى الهياكل وسماع كتب البراهمة الدينية. وحجتهم في هذا أن الأرواح الطاهرة تفر من الهياكل إذا اقترب منها منبوذ. وبذلك تفسد على المصلين صلاتهم. وتقضي

هذه الشريعة أيضاً بقطع جانب من ألية المنبوذ إذا لمس هندوكيا أو أكل من طعامه أو شرب بآنيته. ونظام الطبقات في الهند كما قلت من أقسى الأنظمة وأشدها ظلماً وأبعدها عن الروح الإنساني.

ويعيش المنبوذون حتى الآن وتحت الراية الانكليزية عيشة الذل والعبودية فلا يجوز لهم دخول الهياكل ولا غشيان المدارس الحكومية ولا الحضور مع الهنادكة في حلقات الدرس ولا دخول الصفوف، وكل ما فعلوه لأبناء المنبوذين أنهم يسمحون لهم بالتجمع في فناء المدرسة الخارجي فيلقي عليهم مدرّس منهم الدروس المقررة. أما في المدارس والمعاهد العليا فيقفون وراء الأبواب يستمعون إلى محاضرات الأساتذة وتقريراتهم من دون أن يكون لهم الحق بغشيان الصفوف. ويعيش معظمهم في أخصاص قذرة في أطراف المدن والقرى الأمر الذي يسهّل دخولهم في الإسلام متى توفر المال اللازم لإنشاء ما يحتاجون إليه من مدارس ومستشفيات لتعليمهم وتهذيبهم. ومما يجب ذكره بارتياح أنه رغم هذا الإقبال الزائد الذي يلقاه الإسلام ورغم نموه وانتشاره فإن الفشل محيق بجمعيات التبشير المسيحية انجيلية أو كاتوليكية فلا يزيد عدد المنتصرين من الهنود في خلال هذه الثمانين سنة أي منذ ابتداء الإحتلال البريطاني حتى الآن عن خمسة ملايين نسمة. وحسبكم أن تعلموا أن ميزانية هذه الجمعيات للنفقات تبلغ 227 مليون روبيه أو نحو 32 مليون جنيه سنوياً.

وحالة مسلمي الهند السياسية والإجتماعية والإقتصادية لا تسر المسلم الغيور ولا ترضيه فقد زرت الهند خمس مرات في خلال الربع قرن الأخير جئتها للمرة الأولى قبل الحرب سنة 1913 ثم زرتها سنة 1925 ثم سنة 1930 ثم سنة 1936 وفي كل مرة أجد ثروة المسلمين في تناقص وعدد الذين يشتغلون منهم بالتجارة في تدنّ. فقد كانت جميع المخازن المحيطة بالمساجد في شتى المدن الهندية للمسلمين في إبان زيارتي الأولى ثم أخذ هذا العدد في التناقص تدريجياً حتى أنّ عدد مخازن المسلمين اليوم لا يزيد

عن 4 و 5 بالمئة حول المساجد أما المخازن الأخرى فانتقلت إلى الهنادكة وانتقلت معها الثروة وتوشك الأراضي الزراعية أن تنتقل إليهم أيضاً ولا يزيد ما يملكه المسلمون منها اليوم عن 16 بالمئة بعدما كان 35 حتى السنين الأخيرة.

ومصدر هذا البلاء الذي نزل بالمسلمين وأفقدهم ثروتهم هو الجهل لا سواه فقد أصدر بعض علمائهم عقب الاحتلال الإنكليزي فتاوي بمقاطعة الإنكليز وعدم تعلم لغتهم والدخول في مدارسهم فأخذ سواد المسلمين بهذه الفتاوي وأعرضوا عن المدارس وقاطعوها فأقبل عليها الهنادكة فتعلّموا وتثقّفوا ونبغوا وخرج منهم القادة والزعماء والتجار والمفكّرون فتغلّبوا على المسلمين في الميدان الاقتصادي والتجاري والصناعي والزراعي وانتزعوا منهم الثروات والتجارة والأراضي والصناعات. على أنّ الحال أخذ يتحول في العهد الأخير فشعر المسلمون بأن إعراضهم عن العلم يكاد يودي بهم فأقبلوا عليه وأنشأوا المدارس والمعاهد الخاصة بهم ورحلوا إلى أوروبا لطلب العلم فظهر منهم الجيل الجديد الذي يقود الحركتين الوطنية والسياسية.

ثم تكلم الأستاذ بعد ذلك عن موقف المسلمين من الحركة الوطنية وعن سياسة غاندي فأماط اللثام عن كثير من الأسرار والخفايا وسنلخص الجزء الأخير من هذه المحاضرة النفيسة في العدد المقبل(8).

وأقبل الحاضرون بعد الختام على الأستاذ يشكرونه على هذه الخدمة العظيمة ويرجونه أن يضرب موعداً لمحاضرة أخرى فوعدهم بأن يكون ذلك في نهاية هذا الشهر وبعد رجوعه من زيارته للقدس وقد سافر إليها يوم السبت ويرجى أن يعود غداً أو بعده ثم يسافر في الأسبوع القادم على الأرجح إلى تونس وتستعد لإستقباله استعداداً عظيماً(9).

---

(8) لم أعثر على هذا الجزء الأخير من المحاضرة، أو لم تنشره (الرابطة العربية) وإنما نشرت المقالة التالية في عددها (53).

(9) نشرت بالرابطة العربية عدد (51) مايو 1937.

قضية المنبوذين على وجهها الصحيح

«هذا هو الجزء الثالث من الحديث الممتع الذي تفضل الأستاذ الثعالبي فخص به مجلة الرابطة العربية عن رحلته الأخيرة إلى الهند»[10].

وبعد دراسة هذه المسائل جميعها ومقارنتها بعضها بالبعض الآخر ظهر لي أنّ المنبوذين مقبلون على الإسلام سواء اعتنى المسلمون بالتبليغ (الدعاية والتبشير) أم لم يعتنوا. فقد شاهدت بنفسي في مسجد فتح بدري في دهلي وهو من مراكز الدخول في الإسلام أنّ عدد الداخلين بواسطته يزيد عن ستة عشر ألف شخص.. هذا في مسجد واحد، فكيف الحال في بقية مساجد دهلي، وفي بقية بلاد الهند. لذا لا نحتار في تعليل هذه الزيادة المطردة في عدد المسلمين. وأهم المناطق التي يدخل أهلها الإسلام هي مدارس والبنغال ودخولهم في الأول منهما أظهر وأكبر. فهم هناك لا يسلمون أفراداً، بل بيوتاً بيوتاً تصل إلى خمسين ومئة.

ففي بلدة ايكور ألفا بَيْت من المنبوذين، ويبلغ سكان هذه البيوت نحو

---

(10) (هذا هو الجزء الثالث) ربما يشير التعليق إلى العناوين الآتية:
- الهند التي أحببتها؛
- كيف دخل الإسلام إلى الهند؛
- قضية المنبوذين على وجهها الصحيح.

ثمانية آلاف، عرضوا دخولهم في الإسلام وهم لا يطلبون شيئاً غير المساواة والتكافؤ في الزواج. وكتب رجل من أساتذة المدارس العالية، وأصله من المنبوذين المتنصرين إلى مولانا الأستاذ أمير بدهاشاه أحد وجوه مدينة مدارس يقول له أنّ له ولدين يتعلّمان في مدرسة دار المعلمين، وهو يريد اعتناق الإسلام، لكنه يخاف من طائفته لئلا يمتنعون عن تزويج بناتهم من ولديه فإذا وعد المسلمون بتزويجهما من بناتهم ترك النصرانية واعتنق الإسلام مع أولاده وأسرته. وقد يجر معه خمسين بيتاً من الهنود المتنصرين ذكر أسماء أصحابها، وعناوينهم لكي تخابرهم جمعية التبليغ المدراسية في أمر إسلامهم.

وفي بلدة «بيتيا ساجرا بندجرم» ثلاث مئة بيت يسكنها أكثر من ألف نسمة يبدون رغبتهم في الإسلام وقد أسلم زعيمهم، وتسمى عبد الأحد، وهم لا يطلبون منا طعاماً ولا شراباً، وأكثرهم مزارعون وأصحاب أملاك وإنما يطليون قرضاً لإنقاذ أراضيهم المرتهنة بيد المرابين الهندوك لأنهم إن أظهروا الإسلام قضوا عليهم بإخراجها من أيديهم نكاية بهم.

ويقول أحد وجهاء مدينة «تنكاس» الواقعة في جنوب مدراس واسمه عبد الرحمٰن راورتر، إذا وجدنا الأموال الكافية لشراء الملابس للنساء والرجال الذين يسلمون فإنا نستطيع أن ندخل في كل سنة ألف نسمة في الإسلام في بلدتنا فقط.

وقبل ستة أشهر أسلم في (كمين) نحو أربعة آلاف وثني، وفي هذه البلدة نحو عشرة آلاف عرضوا علينا الدخول في الإسلام، ولكنا لم نجبهم إلى ذلك لتوقف الأمر على شراء الملابس اللازمة لهم. وكذلك بناء المساجد لإقامة الشعائر.

وفي قرية (دندكل) عرض نحو ثلاث مئة من المنبوذين إسلامهم على داعية مغربـي هناك اسمه الشيخ محمد علي، فكتب إلى جمعية التبليغ يطلب منها إرسال الملابس لقبول إسلامهم.

ويوجد في بلدة «فاهربتن» عالم من البراهمة يعد من أكابر الأغنياء يشتغل بتجارة الحجارة الكريمة أسلم وسمي بالمولوي عبد الله، وأسلم على إثره أخوه، وسمي عبد الحميد واختار له فتاة من قومه دعاها إلى الإسلام فأسلمت، وتزوجها وأسلم معها أبوها، وسمى نفسه دين محمد. وأسلم في البلدة نفسها خمسمائة بيت بإسلام هذا الوجيه المولوي عبد الله.

وعثرت في المدرسة الجمالية على تلميذ من قرية «تون بامبتي» أسلم حديثاً، وكانت سنه عشر سنوات. قلت له:

ـ كيف أسلمت؟

ـ عرفنا أن الإسلام هو الدين الصحيح دون أن يعرضه علينا مبلغ، فأسلمنا من تلقاء أنفسنا، ابتغاء مرضاة الله لا بهداية هاد، ولا بدعوة داع، وأسلم مع عائلتنا جميع سكان القرية، وعددهم من الرجال يزيد في تقديري عن ثلاث مئة. وأسلم النساء أيضاً، والأولاد. وسميت قريتنا بعد إسلامنا «مسلم نجوم». وقد بنينا فيها مسجداً ومدرسة لتعليم الدين واستظهار القرآن. أما أبـي فقد تسمّى شوكت علي، واختارت أمي اسم فاطمة.

ـ هل تحفظ شيئاً من القرآن؟

فاستحيا أن يقول أحفظ خشية التعثر في القراءة وقال:

ـ أنا لا أحفظ إلا قليلاً لأني حديث العهد بالإسلام والمدرسة. فألححت عليه بأن يقرأ شيئاً فقرأ سورة الضحى فأداها أحسن أداء بترتيل وغنة قلّ أن يحسنهما أبناء المسلمين في الهند.

واجب المسلمين

قلنا إن أكثرية المنبوذين يقيمون في القرى الزراعية والأرياف ولو كان أهل هذه القرى من المسلمين يريدون هدايتهم إلى الإسلام لما كلفهم ذلك كبير عناء فإنهم يستطيعون إدخالهم في الإسلام بأقل كلفة، وذلك بأن يحفروا لهم آباراً يستقون منها، ويغنوهم عن آبار الهندوك ويقتطعون لهم أراضي

يجعلونها ملجأ لهم يأوي إليها كل من يدخل في الإسلام، ويقيمون في هذه القرى المساجد والمدارس. وينشؤون في المدن معامل صناعية تكفي لتشغيل العدد العظيم، وأنا أضمن أن بعد سنوات قليلة إن لم يدخل 100٪ من المنبوذين في الإسلام، فلا أقل من أن يكون عدد الداخلين فيه منهم 70٪ مع دعاية يسيرة لإفهامهم الحقوق الاجتماعية التي كفلها لهم الإسلام. فالدعاية في الهند اليوم، لا تحتاج إلى التبسط في العقائد أو المناقشة فيها، وإنما يغنى عن كل ذلك أن تقول للمنبوذ إنّ لك حقوقاً في ديننا هي كيت، وكيت، وكيت من الناحية التي يفهمونها، وهي التي سلبها منهم الهندوك.

وحدثنا حضرة الخوجة حسن نظامي شيخ مشايخ الطرق الشيشتية في الهند، قال: دعيت مرة لحضور اجتماع عقد في الراجبوتانا للنظر في الدعاية إلى الإسلام، وقد حضر هذا الإجتماع زهاء 20 ألف نسمة للنظر في أي دين يتبعونه. الإسلام أم (أرياسماج) وجاء كثيرون من أنصار الدعايتين فخطب دعاة المسلمين خطباً شيقة عديدة، لكنها لم تؤثر في قلوب الناس ثم قام خطباء الآريا، وخطبوا أيضاً، وكانوا أمهر وأقدر على استمالة القلوب. وقد خفت خوفاً شديداً من أن يستهووا أفئدة السامعين ثم قام في آخرهم شاب صغير من أوساط المسلمين وقال:

ـ إن الدين الحق هو الذي يطبع معتنقيه بطابع لا يفارقهم. فما هو الطابع الذي يطبع به الدين الهندوكي أصحابه. هو تلك الخطوط التي ترسم بالأقلام على جباههم وبدونها لا يعرف ما هو دينهم. وبوضع الكف على هذه الخطوط تزول.. هذا الطابع البرهمي. أما الطابع الإسلامي، فهو الختان. وهذا لا يحول ولا يزول. فأصحّ الطابعين هو الطابع الخالد الباقي، أما الطابع الذي تمحوه الأكف فهو الطابع الباطل الفاني.

وهنا ضج الحاضرون استحساناً، وضاعت بلاغة الخطباء جميعاً، وفلسفة الفلاسفة، وقرر الحاضرون أن الإسلام له الرجحان، لأن طابعه أبقى وأدوم وبذلك انتهى الإشكال.

يقول محدثنا :

يجب على الدعاة أن يفقهوا عقلية الناس، أما الفلسفة والبلاغة فهي قشور لا تنفع. فبعد كلمات هذا الشاب لم أستطع أن أقول شيئاً للناس، لأنها كانت أنفع من كل كلام[11].

(11) نشرت بالرابطة العربية عدد (53) يونيو / حزيران (1937).

المنبوذون بين الإسلام والهندوكية

مؤامرات واسعة النطاق تحاك للإسلام

الخلاف بين المسلمين والهندوك في الهند قديم جداً، فقد كان قدماء الهنادكة ينفسون على المسلمين ما هم فيه من جاه ومناعة جانب، ولكنهم كانوا يخفون شعورهم حيال الإسلام خوفاً ورهبة، ولما تقدم بهم الزمن بدأوا يشعرون بذاتيتهم قبل المسلمين، حتى جاء عام 1885، الذي عقدوا فيه مؤتمرهم الوطني العام، وأسموه (المجلس الأعلى الوطني العام الهندي) وغايتهم منه أن يطالبوا بحقوق سياسية تبيح للأكثرية، أي لهم السيادة على الأقليات. وهم يرمون من وراء هذه الحركة إلى السيطرة على المسلمين.

وكانت هذه الحركة العدائية من الهندوك فاتحة خير للمسلمين، فنهضوا نهضة رجل واحد يدفعون عنهم الكيد الذي يهددهم لا في جاههم ورزقهم فحسب، بل في وجودهم نفسه، فأنشأوا المدارس الابتدائية في جميع أنحاء الهند، وأسسوا معهدين عاليين كبيرين هما كلية لاهور الإسلامية وندوة العلماء في لكنو، كما أنشأوا جامعة عليكرة. وأقاموا على رأس هذه المؤسسات العلمية مؤتمراً سنوياً يشرف عليها، دعوه «مؤتمر التربية والتعليم» يرجع إليه الأمر في رسم الخطط التي تكفل للمسلمين الاحتفاظ بكيانهم وإحباط مؤتمرات الهندوك ضدهم. وكان نطاق هذه الهيئة مقتصراً على القسم الثقافي من الحياة الإسلامية ومست الحاجة إلى إيجاد هيئة جديدة تعالج الأمر من ناحيته السياسة المباشرة.. ففي عام 1901 تألفت جمعية باسم «جمعية

المسلمين العامة في لكنو وبمباي» وأشرف عليها عدد من عظماء المسلمين الهنود، وجعلت غايتها المطالبة بحقوق المسلمين السياسية كوطنيين.

الحركة الاستقلالية

وقد بعث وجود هاتين الهيئتين المسلمتين على عمل برنامج وطني جرىء، لا يرمي إلى انتزاع الحقوق السياسية من المستعمرين فقط، بل يسعى إلى طرد هؤلاء واستقلال الهند استقلالاً تاماً.

وعمل كهذا إن ظهر، وعرف أمره يقابل من السلطات الحاكمة بأقسى أنواع العنف والقمع، ولذا ألف مولانا محمود الحسن المعروف «بشيخ الهند» جمعية سرية غير معروفة الاسم ولا المقر لها السيطرة العليا على خطط الأحزاب الإسلامية والجمعيات المختلفة في أنحاء البلاد.. وكان إنشاء هذه الجمعية في عام 1907 وظلت تنشط في عشر سنوات كاملات وتبث دعاياتها الخفية، وتتخذ مركزاً لحركاتها مدينتا عليكرة وريوباند. وقد أيقظت هذه الجمعية السرية الشعور الوطني في كل مكان، وأججت في صدور المسلمين شعورهم بسيادتهم وحقهم الكامل في الحياة الحرة الكريمة.. وما أن اشتعلت نيران الحرب العالمية حتى وجدت فيها الجمعية، فرصة لا تعوض في سبيل غايتها، فأوعزت إلى المسلمين للقيام في وجه انجلترا والمطالبة باستقلال الهند. وجاري الهندوك التيار، وقاموا هم أيضاً، يطالبون ـ ولكن على حدة ـ باستقلال الهند.

وفطن حاكم الهند وهو يومئذٍ «اللورد ريدنج» السياسي اليهودي الداهية، إلى أن مصدر هذه المتاعب ليس الهندوك، بل المسلمون.. وتمكن من أن يكشف رأس الحركة، فأوعزت حكومته إلى شيخ الهند مولانا محمود الحسن بمغادرة البلاد، إلى الحجاز، وما أن وصل إلى الحجاز حتى نقلته قسراً إلى مالطة وأبقته في معتقلاتها هناك. ثم أمر برقابة كل من يشتبه فيهم من المسلمين.. والذين يشتبه فيهم في مثل هذه الحالات هم كل الرؤوس

المفكرة في الهند (من المسلمين) ولكن الجمعية كانت في نظامها أكثر إحكاماً مما قدر لها اللورد ريدنج، فلم تكل أعمالها إلى الزعامات المعروفة التي توضع عادة هدفاً للقذائف الأولى. . ولذا ظلت أعمال الجمعية حتى بعد نفي رئيسها مستمرة، تقوم بدورها الرهيب على أتم ما يكون من القوة والحزم.

اتحاد المسلمين والهندوك

ولما أعلنت الهدنة في سنة 1918 أعلنت الحكومة البريطانية على لسان اللورد تشلمسفورد وزير الهند استعدادها لإصلاح النظام في الهند فلم يحقق هذا الوعد كل الآمال المنشودة، ثم إنه يمت إلى السياسة البريطانية بسبب، أي أنه وعد لا يطمأن إليه.

واجتمع الرأي عند ذاك على تأليف جبهة متحدة من المسلمين والهندوك لمقابلة هذه الحالة الجديدة واتفق الفريقان على عقد مؤتمر عام في لكنو، لاستنجاز الحكومة وعدها.

ووصلت إلى الهند في ذلك الوقت أنباء مؤتمر الصلح، وفيها دلائل قاطعة على أن الدول المؤتمرة في (فرساي) تنوي تمزيق الخلافة الإسلامية، فاكتسح الهند الإسلامية شعور عام بوجوب الاحتفاظ بهذه الزعامة الدينية، وتألفت جمعية للعمل على إنقاذ الخلافة وتمكين البلاد العربية التي تضم البقاع المقدسة من استقلالها حسب وعود الحلفاء القاطعة.

وفي 17 فبراير سنة 1920 أذيع في الهند نبأ تأليف (جمعية الخلافة) واتخذت مقراً لها مدينة بمباي واختير لرياستها عين من كبار أعيان كراتشي هو (مولانا غلام فتو) ودعت هذه الجمعية إلى الاكتتاب فانهالت التبرعات من المسلمين حتى وصلت إلى سبعة عشر مليون روبية في قول وأضعاف هذا المبلغ في قول آخر.

ظهور غاندي

وظهر في الهند في ذلك الوقت محام هندوكي كان يقيم في جنوب إفريقية وبلاد الناتال اسمه غاندي، أخذ يتقرب من المسلمين، ويدعو إلى تأييد جميعة الخلافة في مطالبها فخدع بحركته عدداً كبيراً من المسلمين رغم أن أصواتاً ارتفعت بالتحذير من هذه الداعية الجديد، ولكن نوايا المسلمين الطيبة لم تأبه إلى هذا التحذير ووجدت في مسلك الهندوكي ما يحملها على الاستماع لطلباته.. وكان رأيه أن تنضم جمعية الخلافة الإسلامية إلى المؤتمر الهندوكي (الكونغرس)، وهو يضمن أن يحشد الهند كلها بعد ذلك لتأييد الخلافة.

وهكذا انضمت جمعية الخلافة إلى المؤتمر وقد تألف في أواخر القرن الماضي لحرب الإسلام والقضاء على شوكته ثقة بغاندي وبوعوده.

مؤتمر ناجبور
وإعلان الحركة الاستقلالية

وفي مارس سنة 1920 عقد المؤتمر جلسة هامة في ناجبور حضرها خمسة وعشرون ألف مندوب أكثرهم من المسلمين، وعرضت اللجنة الإسلامية قانون المؤتمر وتنص مادته الأولى على استقلال الهند.

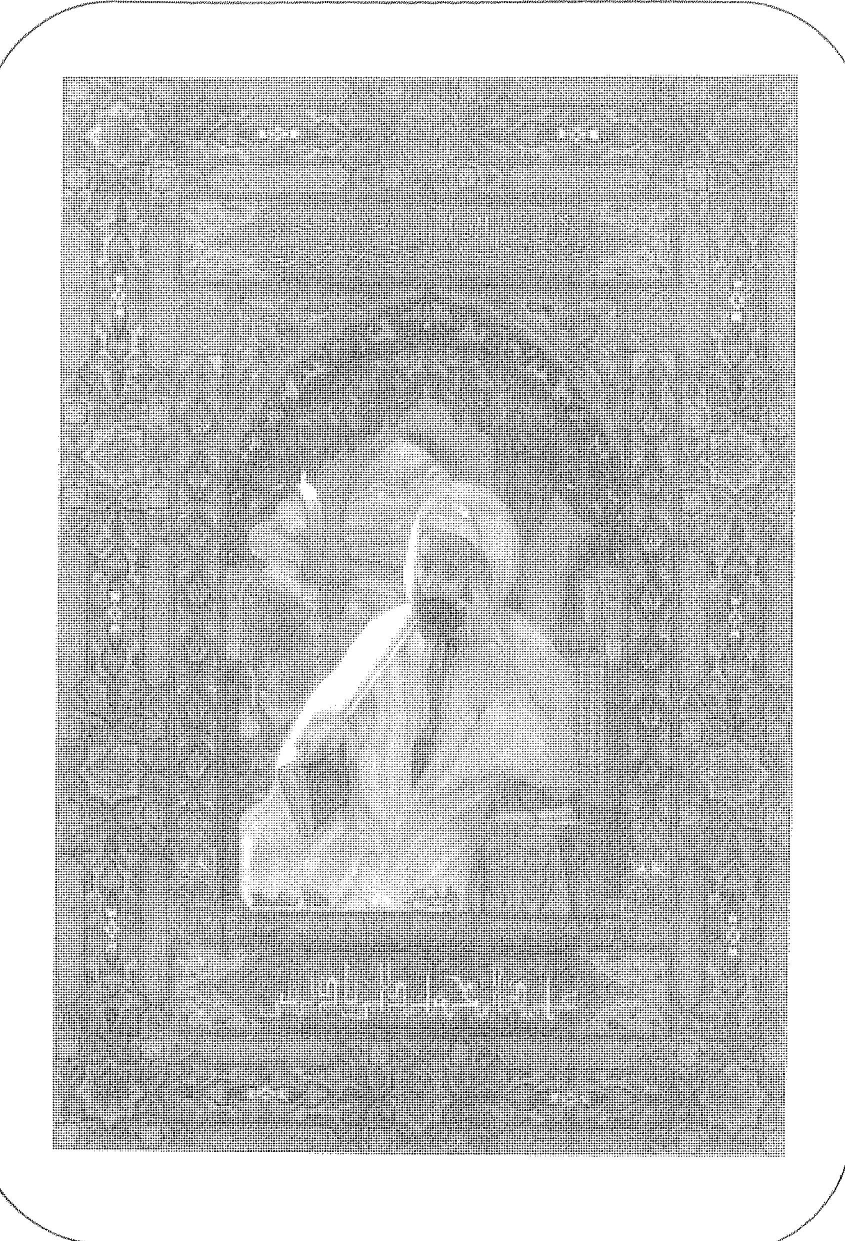
ولم يسع الهندوك إزاء هذا الاقتراح إلا الموافقة، ورأت الحكومة في انحياز الهندوك إلى هذه الآراء المتطرفة التي يدعو إليها المسلمون خطراً أي خطر على كيانها. فقبضت على زعماء مؤتمر ناجبور وزجتهم في السجون فدعيت اللجنة التنفيذية إلى مؤتمر آخر يعقد في دهلي.

وفي هذا المؤتمر عرض الزعيم الإسلامي (أبو الكلام أزاد) اقتراحاً باسم

الأعضاء المسلمين يتضمن إعلان الأمة الهندية بأن الحكومة الحاضرة غير مشروعة، ودعوة البلاد إلى مقاطعتها. فأقر المؤتمر الاقتراح، وعقدت جمعية الخلافة على الأثر اجتماعاً كبيراً في مدينة (ميرت) أعلنت فيه الموافقة على هذا القرار بالإجماع[12].

(12) نشرت بمجلة (الرابطة العربيّة) السنة (2) رقم (55) ربيع الثاني (1356) يونيو / حزيران (1937).

الثعالبي
بأقلام الكتاب والشعراء



العلامة الجزائري الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس
(1889 ـ 1940)
بريشة الرسام (البشير يلّس) مدير مدرسة الفنون الجميلة بالجزائر (سابقاً)

عبد العزيز الثعالبي

هكذا أذكره دون لقب أو صفة فإن هذا الاسم لم يبق علماً على ذات مشخصة تحتاج إلى صفاتها وألقابها بل صار في أذهان الناس علماً على الرجولة والبطولة والزعامة، وعلى التفكير والعمل والتضحية وعلى الإسلام والشرق والعروبة وعلى وحدة إفريقية. فإذا قلت عبد العزيز الثعالبي فقد قلت هذا كله.

أسرة الثعالبي جزائرية وهو مولود بالجزائر[1] وجده ممن شاهد بعضاً

---

(1) سبقت الإشارة إلى أن المصادر تتفق على ولادة الشيخ الثعالبي بتونس. وأنه هو نفسه يروي عن طفولته المبكرة الأولى في تونس غداة انتصاب الحماية الفرنسية على الإيالة التونسية سنة 1881 وعن دخول الجيوش الفرنسية إلى العاصمة. وقصته مع جده. على افتراض أن ولادته كانت سنة 1875، لا سنة 1879 كما تشير بعض المصادر. وتذكر مصادر أخرى إلى أن ولادته كانت في (14) شعبان 1293.

وتتضارب الكتب التي نشرت للثعالبي حتى اليوم في سنة ميلاده. فبينما يكتب على أغلفتها أو تحت صورته (1879 ـ 1944). نجد في صلبها ما يشير إلى ولادته في (1874) أو (1875).

عمر بن قفصية يذكر أن ميلاده كان سنة 1875.

أنو الجندي يحدد لميلاده (1874) وخير الدين الزركلي في (الأعلام) يذكر (1291هـ و 1874) محمد الشعبوني. ذكر (1875 أو (1879).

مجلة (الثريا) غداة وفاته أرخت لميلاده بـ (14) شعبان (1293) ولعل التأريخ الهجري لولادته أصح الأقوال، ويقابله 1876 لأن التاريخ الميلادي في تلك الفترة =

من معارك الجزائر في رد الحملة الفرنسية وأصيب برصاص العدو وبقيت آثاره في صدره فكان يكشف عن ذلك الصدر لعبد العزيز في صغره. ويذكر له الجزائر والاستيلاء عليها وهجرته هو وغيره من الجزائريين من ذلك الاستيلاء.

نشأ الثعالبي تونسياً ودرج للعلم زيتونياً وتعدّت به عبقريته دائرة الكتب الزيتونية الدراسية الضيقة. وأخذ يتناول كل ما تصل إليه يده من خزانة الجامع ومكتبة العبدلية وكانت مباءته بضع سنوات عدة. وكان ذهنه الحاد وحافظته القوية ورغبته الملحة مواهب أكسبته مما درس وقرأ نبوغاً في الفهم والتفكير والخطابة والكتابة. فبرز من جامع الزيتونة نابغة عبقرياً غريباً شاذاً بين أهل عصره شأن كل نابغة عبقري.

لقي عبد العزيز من الجامدين والمستبدين ـ وما زالا على الدهر متواليين ـ ما يلقاه مثله، فعوكس وأوذي وسجن ولكنه لم يتزحزح قيد شعرة عما حبس نفسه عليه من إصلاح المجتمع من جميع نواحيه.

رحل الثعالبي للأزهر وحضر دروس (البشري)[2] وعاد إلى تونس وقد فتحت له الرحلة عالماً آخر وابتدأ تكونه العالمي بعد الإقليمي ورحل إلى الجزائر والمغرب[3] فتم تكونه الإفريقي.

= لم يكن معمولاً به في المنطقة، أو بالأحرى لم يكن شائعاً في الأوساط الشعبية، وخاصة فيما يتعلق بتسجيل الولادات والوفيات، وتلك الأوساط لا تزال تعيش صدمة الغزو الأجنبي لبلادها. وكانت بعض الجرائد حتى فترة متأخرة من القرن الماضي، ومتقدمة من هذا القرن تعتمد التاريخ لأعدادها بالهجري دون الميلادي.

(2) (البشرى) سليم بن أبـي فراج: 1248 ـ 1335هـ 1867 ـ 1917م) شيخ الجامع الأزهر، ومن فقهاء المالكية، تعلم وعلم بالأزهر، وتولى نقابة المالكية، ومشيخة الأزهر مرتين.

(3) أشار (الثعالبـي) إلى رحلته إلى المغرب في سنة 1903 في الفترة التي زار فيها (محمد عبده) تونس، ولذلك لم يلتقيا. وزيارته للجزائر، التي لم يشر إليها، كانت في نفس الفترة، ذاهباً إلى المغرب وعائداً منه. =

أعطى الثعالبي تونس حقها ووضع لها كل أسس نهضتها ثم فارقها في رحلته الأخيرة ليعطي حق الشرق والعروبة والإسلام فكان نظام العقد وعنوان الوحدة وروح الاتصال، والعلم الإفريقي الخفاق الذي لفت أنظار الشرق إلى الشمال الإفريقي وإلى تونس عروس ذلك الشمال.

وكان الثعالبي في الشرق من جهة أخرى برهاناً ساطعاً ودليلاً متنقلاً على ظلم الاستعمار واستبداده، وما يلاقيه الأفارقة من كيده وبلائه، ويكذّب كل ما يتظاهر به الاستعمار هنالك حيث لم ترسخ قدمه ولم يتم سلطانه.

شعرت فرنسا ـ أخيراً ـ بعظيم ضرر ذلك على سياستها في الشرق العربي والإسلامي فأذنت للثعالبي في العودة لوطنه.

فالاستعمار هو نفي الثعالبي لمصلحته هنا والاستعمار هو رد الثعالبي لمصلحته هنالك. وأبى الله إلا أن يستفيد الشرق والعروبة والإسلام من الثعالبي هناك ويستفيد الشرق والعروبة والإسلام من الثعالبي هنا. فاعتبروا بأولي الأبصار.

عاد الثعالبي فاهتزت فرحاً إفريقيا الشمالية كلها وتونس وطنه والجزائر مسقط رأسه ووطن أسلافه. ورأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في قدومه اعتزاز الإصلاح الاجتماعي الإسلامي من ناحية الفكر والعلم والأخلاق والسلوك في الحياة ـ وهذا ما تعمل له الجمعية ـ فأبرقت تهنئته وتهني الأمة التونسية الشقيقة به ثم رأت أن تعرب عن سرورها بقدومه وإعجابها بمواهبه وتعظيمها لجانبه بذهاب رئيسها لتحيته وتهنئته بقدومه

= ويذكر (ابن ميلاد وإدريس) في (الثعالبي والحركة الوطنية).

«سافر الشيخ الثعالبي إلى المغرب في نهاية (1903) وكان يريد نشر جريدتين واحدة بالمغرب، والأخرى بالجزائر عند استحالة الأولى».

المرجع المذكور. صفحة (58).



صورة أخرى للثعالبي

وإبلاغه كل ما تحمله الجمعية والجزائر العربية المسلمة من الحب والاحترام والتعظيم لشخصه.

ذهبت يوم الخميس 14 جمادى الأولى إلى تونس وزرت الثعالبي في داره، وبلغته عن الجمعية رسالتها فقابلها بالشكر والثناء وتلقاها بالفرح والسرور وأي سرور هو؟ سرور من وقف نفسه على الإصلاح وفارق الشمال الإفريقي ولا دعوة للإصلاح فيه ثم جاءه بعد مدة من الدهر فوجد للإصلاح جنداً قوياً وقيادة منظمة وصوتاً علياً وكلمة نافذة وتقديراً لأمثاله من الرجال المصلحين.

انتهت بهذه المقابلة مهمتي كرئيس للجمعية وموفد من طرفها. وكانت بعد ذلك المجالس والاجتماعات والحفلات والزيارات في دار الشيخ وغيرها مع الشيخ ودونه ـ كانت وكنت فيها كجندي بسيط من جنود العروبة والإسلام. فما شئت من أنس، ونعيم نفس، وكل ما يغذي الروح ويحي الوجدان ويرضي العروبة والإسلام[4].

وحـــديـــث الـــذّه هـــو ممـــا تشتهيـــه النفـــوس يـــوزن وزنـــا
منطـــق صـــائـــب، وتلحـــن أحيـــا نا، وخير الحديث ما كان لحنا...

عبد الحميد بن باديس

---

(4) انظر (الشهاب) الجزء (7) المجلد (13) رجب 1356هـ سبتمبر 1937م.

جهود الأستاذ الثعالبي
في وطنه

سافر الأستاذ عبد العزيز الثعالبي (الشيخ كما يلقبه بنو وطنه) من القطر المصري إلى تونس منذ ثلاثة أشهر ولم نظفر من أخباره إلا بما جادت به علينا مجلة الرابطة وصحيفة البلاغ، وخطاب بعث به أديب مطلع إلى صديق من أهل الفضل، فكان من تلك المصادر المحدودة أن علمنا أن الشيخ الزعيم، أبى أن يستقل طائرة من مرسيليا إلى تونس، لا خوفاً من اعتلاء كاهل الريح أو التربع على بساط سليمان وهو الذي خاض أهوالاً لا يعد الطيران بجانبها خطراً مذكوراً، ولكن لأنه أبى أن يهبط أرض وطنه في مطار ينأى بطبيعة موضعه عن أبواب الوطن. وقال في خفة روحه المعهودة «أحب أن أدخل البيوت من أبوابها» فكان هذا القول الوجيز البليغ عنوان منهاجه السياسي. فالثعالبي لا يلتمس مداخل الأمور خلسة، ولا يتعجل الأفعال، ولا يسارع إلى العمل قبل الفحص والتمحيص. ثم قرأنا خطابه الذي ألقاه على الشعب أو على الأقل ملخصاً وجيزاً منه فاستبنّا لب خطته، وهو أنه عاد إلى وطنه ليكون حكماً ومرجعاً ومصدراً للنور. لم يعد ليسترد نفوذه فإن نفوذه زاد وعلا وأربى، ولم يعد ليحل المحل اللائق به فإن هذا المحل محفوظ له في قلوب الأمة وصدور بنيها. لا نظراً إلى كهولته أو جزاءً على سابق جهاده ومعاناته وصبره على الشدائد في سبيل الوطن، ولكن ليواصل خدمته لوطنه بذكائه الوافر ونظره الثاقب وخبرته الصادقة الطويلة. انتقل من الجهاد الأصغر في الاغتراب إلى الجهاد الأكبر في الميدان. فنال إعجاب

سامعيه بجدارة، والتفت حوله الأحزاب والشعب، ولبت نداءه العقول والقلوب فسر الأحباب وأكمد الخصوم (إن كان لهم وجود) دون أن يجدوا عليه مأخذاً أو يعثروا في خطبته بموضع نقد. فإنه ما زال ولن يزال كالسيف المثقوف المستعد أبداً للخروج من غمده ليكسب المعركة دون أن يحدث جرحاً أو يهرق دماً.

ولم يكد يفرغ من حفلات الاستقبال والترحيب برجال الحاضر والمستقبل وربات الحجال من بنات الجيل اللواتي نشأن على محبته وتمجيده حتى هرع إلى «حلق الوادي» حيث مصيفه، وحيث يجب أن يتنفس الصعداء في كنف الراحة المؤقتة محاطاً بعناية «أم التونسيين» ورعاية نجله حميد الدين، وحيده المحروس جعله الله قرة لعينه. ولكن هذه لم تكن راحة ولكنه تحفز للوثبة واستجمام لإعداد خطة الجهاد، والخطوة الأولى من ذلك الجهاد جمع الكلمة ولم الشمل وتوحيد الصفوف. ولم يلبث أن نجح في عمله وقد امتدت الأعناق، واتسعت الآذان وهدأت الأنفاس وتطلعت النفوس لرأيه، فأهل السياسة في تونس يحبون أن يتلقوا عنه كما تلقى قدماء الإغريق الوحي المقدس من «دلف» ولم يكن الثعالبي ليخيب رجاء أحد ممن وثقوا فيه وأولوه يقينهم بأمانته ووطنيته وهو الذي قضى فتوته وشبابه، وطوى رجولته وكهولته في خدمتهم، سائحاً ومستقراً، سارياً، ومبحراً، مقبلاً ومدبراً يعمل لشمال إفريقية ويخدم العرب، ويعلي كلمة الإنسانيّة، ويرفع راية الإخلاص، غير هياب ولا وجل.

لقد ظن كثيرون من النوكي والحمقى أن الثعالبي فقد نفوذه في وطنه لبعده خمسة عشر عاماً، وأنه بذلك يجهل الخلق التونسي ويغمط جميل العرب. وأهل تونس يعلمون قبل غيرهم أن الثعالبي لم يسجن ولم يغترب ولم يرض بالنفي إلا لأجلهم، ولو شاء أن يبقى بين ظهرانيهم معظماً مكرماً سعيداً ناعماً، بالتفريط في قليل من مبادئه، لأحلّه الآخرون المحل الأكرم، ولكنه يفضل العذاب مع الوفاء والإخلاص على الهناء في ظل التفريط. وأن هذا الرجل الماهر لم يقطع صلته بوطنه في لحظة واحدة. فقد كان سيل

الرسائل لا ينقطع وسيال الكهرباء لا يني ولا يقف. فكأنه يحكم عواطف وطنه ويوجه سير الوطنيين بقوة لا سلكية. وكان أثره في غيبته أقوى من أثر عشرة من الزعماء مجتمعين، لأن الصوت المقبل من بعيد أوقع في النفس، خصوصاً إذا كان معبراً عن الحق بالحكمة والإخلاص. ويخطىء كل سياسي تونسي أو إفريقي إذا ظن أن الثعالبي لم يكن مطلعاً أولاً بأول على كلّ الحركات والسكنات والأقوال والأفعال ولو أنهم صوروا له القلوب التي في الصدور والأعمال التي صدرت من الرجال على شاشة الصور المتحركة ورآها رأي العين لم يكن علمه بها ليزيد عما علم وفهم على البعد! فقد أوتي ذاكرة قوية لا تتغلب عليها طوارىء الحدثان، وخيالاً خصباً يجعل له الغائب حاضراً، وبصيرة نافذة في الأخلاق حتى ليفترض القول يقال، والعمل يتم من فلان أو علان أو ترنان، فلا يخطىء ظنه ولا يتعثر حدسه، ولا يطيش سهمه ولا تضلّ رميّته!.

ورد ذكره في مجلس من الأدباء المثقفين فشبهه أحدهم بعولس بطل الألياذة كما شبه نجله بتلماخوس وحرمه المصون تلك البطلة الجليلة (نيلوبيا) ولقد كان هو كعولس حقاً فإنه لا يغلب شجاعته إلا سعة حيلته، ولا يداني صفاء ذهنه إلا فصاحة لسانه، ولا يقرب من إدراكه إلا صبره الطويل وثبات عزمه وحزمه، وكما أبلى عولس في أول أمره في حروب طرواده (راجع ألياذة هوميروس) على مدى تسع سنين كذلك حارب الثعالبي في سبيل وطنه عشرات وكما قضى عولس عشر سنوات في العود إلى مسقط رأسه قضى الثعالبي مثله وازداد خمساً، وكما أن عولس تخلص من «كيركيه» ذات الجمال والدلال والقصر المسحور الزاخر بالكنوز والأموال، وتمكن من قهرها وفكاك أسر رجاله الذين سحرتهم و «سخطتهم» وسخرتهم لحراستها، كذلك تغلب الثعالبي على كل غواية طرأت له، ونفذ من كل حبالة حيكت له، فدخل الأقطار العربيّة وليس له فيها سوى أصدقاء معدودين وخرج منها وكلهم أحبابه ومريدوه، فمن شمال إفريقيا إلى تركيا ومن تركيا إلى مصر ومن مصر إلى بلاد العرب، ومن بلاد العرب إلى الهند والسند ومناطق

الأسود والنمور والأفيال إلى جاوه وصاندا وكراكاتو وبتاوفيا. ثم هونج كونج. وقبلها العراق والحجاز وفلسطين. وقبلها باريس عرين المستعمرين. فكان له في كل موطن خطة مثلى تجمع بين مبدئه وفائدة وطنه، فهو المحدّث الذي لا يُملّ، والجليس الذي لا يزهد فيه، والمرشد الأمين والصديق الوفي، والزعيم في أمور الدنيا والدين والمدرك لدقائق الأمور بغير حاجة إلى طويل تفهم، فالإشارة كافية، والتلميح يغني عن التصريح، والكلمة تؤدي واجب الجملة الطويلة لدى ذلك الدماغ المنظم بالفطرة والصدر المتحرق للمعرفة، حتّى يكاد يعلم ما يقال أمامه بلغة لا يعرفها.

لقد تمكن الثعالبي من القيام بدعاية لوطنه، أثناء نفيه، في خمس عشرة سنة، بما لم يكن يملكه لو أقام فيه خمسين سنة، وقد تمتع خلالها بحرية لا حدّ لها فهو يقول ويكتب ويخطب ويراقب الأشياء بدون أن يخضع لحساب القوي الذي يملك إسكاته أو الحدّ من حريته. والغريب في أمره أنه لا هو ولا أهل وطنه ولا أهل بيته ولا أصدقاؤه يرون أنه جاهد حتى كسب المعركة، وأنشأ جيلاً من الساسة والكتاب والخطباء، يحلون محله ويتمّون عمله ويتوّجون جهاده. وليس هذا ظلماً منهم عليه، أو نقصاً في الشفقة، ولكنه شعور بالحاجة إلى عقله وتدبيره، فهو في نظرهم كنز فطنة ونبع ذكاء ونهر دهاء (بأجمل معانيه) لا يفرغ ولا ينضب ولا يقف، وتونس بل الشرق أحوج ما يكون إليه بالذّات وإلى أمثاله، وهكذا على كل عبقري من معدنه أن لا يترك راية الجهاد ما دام فيه نفس يتردّد، فإنّه لم يولد لنفسه، ولم يخلق لذويه ولم يحرز علمه وأدبه واختباره ليمتع به أصدقاءه ولكنّه مخلوق للجميع سواء أقبل أم لم يقبل شب أو شاب، اكتهل أو شاخ، فهم يعتقدون أن عقله لا يشيب وقلبه لا يذبل وروحه لا يفقد خضرته الدائمة فوجب عليه أن يعمل أولاً وأخيراً وإلى آخر الحياة، كالجياد الكريمة التي تخوض المعارك ويشتد عودها وتصلب مرابعها وتشمّ أنوفها ويحتد بصرها كلما جرت وحاربت وسابقت فسبقت.

هذا ثمن النبوغ أيها الزعيم الشيخ. ودين المجتمع بل دين الإنسانيّة في

عنقك، وها أنت تستعد لترحل من جديد إلى فرنسا لتقوم بالمفاوضة التي لم تكن تخطر ببال أحد غير بالك، وها هو عملك أو شك أن يثمر ويتوج. فإلى مرحلة النّجاح الأخيرة، وكفاك فرحاً وراحة، أنك حظيت بلقاء (حميد) رجلاً وقد تركته طفلاً ووضعت حداً لوحدته السابقة التي جرت بها الأقدار، والسلام عليك حتى اللقاء على ضفاف النيل أو حلق الوادي أو أرض هاديز!![5].

محمد لطفي جمعة

(5) نشرت في (الرابطة العربية) عدد (69) سبتمبر 1937.

الأستاذ الثعالبي كما عرفته

إني لأقسم غير حانث، لو أن الثعالبي العربي وجد في غير قطر من أقطار الأرض غير العربية لكان اسمه الآن يدوي في الآفاق، ويدور على كل لسان، ولكن شعوبنا تعودت أن تهمل رجالها، وتنساهم، وخصوصاً إذا أكرهتهم الأحداث على الانتقال من ميدان إلى آخر، واضطرتهم إلى إبدال السلاح الذي يثير حماسة الجماهير بأسلحة أخرى قد تكون أشدّ مضاءً ولكنها أقل ظهوراً ولمعاناً.

وللثعالبي صاحب حديثنا هذا الأسبوع حظ أحسن بكثير من غيره من القادة الذين أكرهتهم الظروف على الانزواء فقد رزقه الله مجموعة من المزايا التي ينفرد به أمثاله من القادة، جعلته محور حركة وباعث تفكير أينما وجد...

كان بودي أن تتسع الصفحات المخصصة لهذا الموضوع فأتحدث قليلاً عن الحياة الشعبيّة في تونس منذ نصف قرن وأشير بصفة خاصّة إلى التأثير العظيم لجامع الزيتونة في الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة في شمالي إفريقية، ولعل في تشبيهه بجامع الأزهر ما يغني عن الإفاضة. ومن جامع الزيتونة، ومن أربعين سنة تقريباً تخرج شاب يافع لم تزد سنه عن ستة عشر عاماً، ولم يكن له هم بعد أن قضى سني الطلب إلاّ أن يهب من شبابه ووقته وثروة أسرته الموفورة أكبر قسط لوطنه.

ولم تكن السلطات الحاكمة في تونس لتسمح بإذاعة آراء هؤلاء الشبان «المتهورين»! أو نشرها، حرصاً على أمن الشعب ورفاهيته! فلم يجد دعاة

الوطنية بدأً من العمل في الخفاء، فتأسس أول حزب سياسي معارض في تونس سنة 1897[6] وكانت أعماله سرية ولم يطل عمره. وفي سنة 1906 تأسس حزب سري أيضاً اسمه (حزب الأحرار)[7] عاش فترة قصيرة وفي سنة 1908[8] تألف الحزب التونسي ونشط في أداء رسالته الوطنية إلى سنة 1911[9]، وجاءت الحرب فكانت سبباً في خفوت صوته.

---

(6) لم تكن هذه الفترة قد شهدت نشوء الأحزاب السياسية بمفهومها التنظيمي الحديث، ولكنها تجمعات وتيارات فكرية تستقطب هذه الجماعة أو تلك ممن يلتقون ويلتفون حول مفاهيم متقاربة نشأت عن الدراسة أو التأثر ببعض المصادر. ويلخص كتاب (الثعالبي والحركة الوطنية) هذه التيارات في ثلاثة:

1 ـ «تيار ينادي بالإصلاح الديني ونشر الثقافة الإسلامية»؛

2 ـ تيار ينادي بالإصلاح الديني مربوطاً بطموح سياسي؛

3 ـ تيار ينادي بحركة وطنية مشبعة بالأفكار الغربية.

وكان الثعالبي على رأس التيار الثاني.

(7) لم أعثر على ما يشير إلى حزب بهذا الإسم (حزب الأحرار). والذي تأسس سنة 1905 إنما هو (النادي التونسي) الذي أسسته النخبة التونسية التي تلقت دراستها في أوروبا. إنما هذه الفترة كانت حافلة بالجمعيات والنوادي التي ركزت نشاطها على المناقشات الفكرية والإصلاح الديني والإجتماعي، مثل (نادي غرناطة) و (مقهى توتة).

(8) (الحزب التونسي) وإليه نسبت جريدة (التونسي) وليس بالحزب كما سبق الذكر وإنما (نادي) أو (كتلة) أو (الشبيبة التونسية) وقد أصدر (علي باش حانبة) جريدته باللغة الفرنسية في (7) فيفري (1907) بالتعاون مع عبد الجليل الزاوش، وخير الدين مصطفى، والشاذلي درغوث.

وفي نوفمبر 1909 صدرت (التونسي) باللغة الغربية وكان عبد العزيز الثعالبي المحرر الرئيسي لها.

(9) هي السنة التي صدر فيها قرار قائد الإحتلال بتعطيل الصحافة التونسية، باستثناء جريدة (الزهرة) وكان هذا التعطيل بتاريخ (8) نوفمبر 1911، بعد أحداث (الزلاج التي وقعت في اليوم السابق للتعطيل، وقد ظل قرار التعطيل ساري المفعول حتى أول فيفري 1920.

ونبحث هنا، وفي الميدان الحزبي عن الشاب «عبد العزيز الثعالبي» فنجد أنه كان صلة الوصل بين هذه الحلقات والقطب الذي تدور حوله. فقد اعتقل للمرة الأولى في سنة 1905[10] مدة شهرين ثم أطلق سراحه، ليراقب، ويضيق عليه ثم لينفي من البلاد في سنة 1912[11].

ولقد استطاع هذا الشاب، بما جبل عليه من ذكاء وسخاء ونشاط أن يلفت إليه الأنظار في أنحاء البلاد، فما أن وضعت الحرب أوزارها حتى انعقد المؤتمر الوطني في تونس ممثلاً لجميع البلاد، وتقرر إيفاد الأستاذ الثعالبي إلى باريس سفيراً شعبياً يدافع عن حقوق تونس، ويدعو إلى تحريرها.

ولم تطق بلد الحرية والأخاء والمساواة من الثعالبي ما كان يبديه من نشاط عجيب. وأقلقها بوجه خاص تلك الصلات التي توثقت بينه وبين زعماء فرنسا زعماء فرنسا الأحرار وكبار كتابها ومفكريها، فجعل منهم دعاة لتونس، وحمل مؤتمراتهم الحزبية الكبيرة على إصدار قرارات حاسمة في شأن بلاده، فضاقت به الحكومة الفرنسوية ذرعاً، ولم تجد بداً من القبض عليه في 30 يونيو سنة 1920 متهمة إياه بالاتصال بالدول المعادية لفرنسا. واتخذت هذه التهمة ذريعة لإعادته إلى تونس وتقديمه للمحكمة العسكريّة هناك... وفي تونس وجهت إليه التهم الآتية:

أولاً ـ السعي لإثارة العناصر القاطنة في البلاد بعضها على البعض الآخر.

---

(10) كان إيقاف (الثعالبي بتاريخ 1904/06/28، وصدر قرار المحكمة بسجنه لمدة شهرين بتاريخ 1904/07/23 وقد تضافرت جهود الإقامة العامة، ودوائر الأمن، والمحافظون المناهضون للثعالبي من رجال الدين، على تلفيق تهم هذه القضية بدعوى التطاول على الأولياء والصالحين ومشايخ الطرق الصوفية.

للتوسع في هذه القضية. انظر (الثعالبي والحركة الوطنية) من صفحة 56 إلى 94.

(11) كان آلقاء القبض على (الثعالبي) ورفاقه في (الشبيبة التونسية) ليلة 14 مارس 1912.

ثانياً ـ التآمر على أمن الدّولة.

ثالثاً ـ الطعن في نظام الحكومة وإصدار كتاب (تونس الشهيدة) في باريس باللغة الفرنسية[12].

واستمرّ التحقيق سنة كاملة، وفي نهايتها فتحت أبواب السجن لإخراجه دون أن يقدم للمحكمة، فرفض الأستاذ أول الأمر الخروج من سجنه مدة ثلاثة أيام، مما سبب للسلطات هناك قلقاً كبيراً، وأخيراً اضطر السجين الحريص على سجنه إلى الخروج فخرج!!.

وزاد هذا الحادث لهيب الحركة الوطنيّة في تونس، ورأى الأستاذ الثعالبي أن يقوم برحلة في البلاد الشرقية داعياً لبلاده، فخشيت السلطة مغبة الإذن له بالسفر، ورفضت إعطاءه جواز مرور، فتوسط المسيو بوانكاريه في الأمر فنال ما أراده ولكنه ما كاد يغادر البلاد حتى صدرت الأوامر لجميع

---

(12) من المرجح، والثعالبي يكتب بالعربية حصراً، أن يؤلف كتاب (تونس الشهيدة) أولاً باللغة العربية، ثم يترجم إلى الفرنسية، ولكن النسخة العربية ضاعت ولم تر النور.

ويقول الأستاذ (حمادي الساحلي) مترجم (تونس الشهيدة) مؤخراً إلى العربية:

«وبما أنه لم يقع العثور إلى حد الآن على النسخة العربية من كتاب (تونس الشهيدة) التي لم يكتب لها الظهور، فقد تولينا تعريب النسخة الفرنسية التي صدرت بباريس في أوائل سنة 1920. وذلك بإشارة من صديقنا المحترم السيد الحبيب اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي.

وجدير بالذكر أن الذي ترجم النسخة العربية إلى الفرنسية سنة 1920 هو (أحمد السقا) مساعد (الثعالبي) في مهمته في باريس.

وجاء في كتاب (الثعالبي والحركة الوطنية):

«يذكر الكولونيل (بارون) في تقريره، أن أعوان الأمن عند تفتيش بيت الثعالبي في باريس، عثروا على النسخة العربية من كتاب (تونس الشهيدة)».

وقد يكون هذا سبب ضياع النسخة العربية.

القنصليات الفرنسوية في أنحاء العالم بأن تمتنع عن التصريح له بدخول بلدان فرنسا ومستعمراتها. ومنذ ذلك التاريخ، وزعيم الحركة الوطنية في تونس بعيد عن بلاده، محرم عليه زيارتها أو مشاهدة زوجه وابنه وآله فيها. ولقد مضى عليه إلى الآن ثلاث عشرة سنة وهو في هذا النفي الإجباري[13].

وإذا كانت الأمة التونسية قد اختلفت على أشياء كثيرة، فإنها ظلت منذ ثلث قرن متفقة على نقطة واحدة، وهي زعامة الثعالبي ورفعه إلى الذروة من حبها وعطفها. ولم تبن زعامته على ما ذكرناه من حبه للتضحية فحسب، بل بنيت أيضاً على أنه أوسع أهل بلاده علماً وثقافة، فهو لم يقصر بناء حياته العقلية على مطالعاته المتصلة في الكتب والورق، بل بناها على مطالعته للحياة حيث هي. فقد وجد أن كمال الرجولة في المعرفة، وإن معرفة التحقيق هي خير أنواع المعارف، فمنذ عهد الشباب أي من سنة 1898[14] وهو دائب على التجوال. ففي تلك السنة خرج من بلاده فزار جميع بلدان البحر المتوسط وشطوطه متعرفاً على معالمها، وناسها. فاستطاع بفضل رجاحة عقله، وسلامة منطقه، وكمال أدبه أن يفوز بتقدير زعماء هذه البلاد وقادتها.. فله في فرنسا وإيطاليا وتركيا وسورية ومصر أصدقاء من كبار رجالها.

واستغل فرصة نفيه في سنة 1912 فرحل رحلة طويلة في فرنسا وسويسرا فألمانيا فالنمسا فالمجر والصرب وبلغاريا فتركيا فمصر. ومن مصر سافر إلى جنوب الجزيرة فسيلان فافليم مدارس في الهند فبلاد البرتغال ثم الملايو وسنغافورة وسيام وجاوة والفلبين وشنغاي في الصين.

وعند خروجه من البلاد التونسية في المرة الأخيرة أي في سنة 1923

---

(13) الصحيح أربعة عشر عاماً.

(14) الصحيح سنة (1897) وفي شهر نوفمبر من هذه السنة.

قضى فترة متنقلاً بين مصر وفلسطين وشرقي الأردن والحجاز واليمن ثم سافر إلى الهند فبلدان الخليج الفارسي فبلوخستان فالعراق. وأقام في العراق من سن 1924 إلى سنة 1926 وعاد منها إلى مصر ليحضر مؤتمر الخلافة في شهر مايو من هذه السنة. وبعد المؤتمر عاد إلى الحجاز وذهب منه إلى اليمن ثم إلى الهند وعاد من الهند إلى العراق وأقام ببلاد الرافدين إلى سنة 1929 ثم اشتاق إلى الرحيل فذهب إلى إيران وعاد إلى بغداد. وفي أوائل سنة 1930 غادرها إلى فلسطين فمصر.

وفي هذه الرحلات جميعاً، كان يدرس حالة الشعوب الإسلامية دراسة عالم محقق ويعمل على توحيد سياساتها ما أمكنه بما يشير به على زعماء هذه البلاد. وهو من أكبر العاملين في السياسة الإسلامية العامة إلاّ أن اتساع محيط هذه السياسة رجع به أخيراً إلى الاقتصار على إيجاد سياسة عربية متحدة يمكن أن تكون نقطة ابتداء تتحول إلى إسلامية فشرقيّة.

وفي سنة 1933 عزم أن يرحل رحلة جديدة كبيرة، يختم بها رحلاته، ويفي بعهود صداقاته التي لا يدركها عد مع ملوك الشرق وأمرائه وزعمائه فسافر متنقلاً بين بلدان البحر الأحمر إلى الهند فبورما فسنغافورة فمانلا (الفيليبين) فهنكنج بالصين.

وهناك في أول رحلته إلى الصين حدث حادثان أولهما أن حكومة فرنسا أبلغته أنها رفعت الحظر عن دخوله إلى البلاد التونسية والثاني أن انشقاقاً حصل بين الوطنيين في تونس، وبلغ مجموع الرسائل التي وصلت إليه من الفريقين المتنازعين 150[15] رسالة فاضطر إلى أن يقطع رحلته، بعدما وطّد عزمه على اختراق الصين غرباً إلى تركستان ومنها إلى أفغانستان.

---

(15) كان (الثعالبي) رحمه الله. كثير التراسل. تلقيا ورداً. وقد يكون هذا العدد دون الواقع. لقد كان صاحب طاقة عجيبة في كتابة الرسائل، ذات المضامين الجادة، والقضايا الهامة، وكان لا يتوانى عن الكتابة ويخط اليد في أحرج الأوقات التي مر بها. وأضيق الظروف العصيبة التي أحاطت به، من كثرة التنقل، وقلة ذات اليد، وتعدد الرحلات، كان يكتب من كل موطىء قدم يطأ. كانت الكتابة متنفسه الوحيد =

عاد إلى مصر ركضا، وجمع حقائبه وأمتعته، وأعد عدته للسفر، وحجز مكانه في الباخرة، وفي دقيقة الإبحار أبلغ أن المقيم العام في تونس مانع في ذهابه إلى تونس ومن ذلك الوقت، أي من سنة 1933 وهو مقيم بين مصر وفلسطين. .

هذه لمحة سريعة، لا أزعم أنها تعطي صورة تقريبية للأستاذ الثعالبي، فمن المنكر أن تاريخ حركة وطنية، لامة مجاهدة، وحياة حافلة بأروع وأوسع ما تحفل به حياة تترجم في هذه السطور القليلة، ولقد كان بودي أن أحلل شخصيته، وأذكر نماذج من ثقافته، ولكني سأعود إلى هذا قريباً، وبذا أستطيع أن أشعر أن بعض دين الأستاذ على كاتب هذه السطور قد وفى، وأمّا الباقي، فلا سبيل إلى وفائه، لأنه فوق الوفاء[16].

(ص)

= عما يختلج في صدره، ويمور في أفكاره من قضايا العالم العربي والإسلامي، والقضية التونسية بصفة خاصة.

كان دقيقاً في صياغة رسائله، كثير التشطيب لجمله، حتى يستقر على اللفظ الصحيح الذي يعبر عن مقصده.

وإذا قدرنا أن الإرث الذي بقي من رسائل (الثعالبي) إنما يجسم الرسائل التي كان يتلقاها. وأن الرسائل التي كان يبعثها، وهو حريص على الرد على كل رسالة مهما تكن قيمتها، والتسجيل في ذيلها بالرد أو انتظار الرد ـ إذا تصورنا أن الرسائل الموجهة من الثعالبي قد توزعت وتلاشت عند أصحابها وما أكثرهم مشرقاً ومغرباً، إفريقياً وآسيوياً. فإنه يمكن لنا أن نتخيل (دائرة المعارف) التي تجسمها هذه المراسلات.

وقد بدأ الدكتور أحمد بن ميلاد والأستاذ محمد إدريس في نشر مجاميع من هذه الرسائل في (المجلة التاريخية المغاربية). كان القسم الأول منها خاصاً برسائل (الأمير شكيب أرسلان). والقسم الثاني، يخص رسائل (محمد شقرون) إلى (الثعالبي) في الفترة من (1922 ـ 1936) وقد ضم هذا القسم (41) رسالة في (72) صفحة.

(16) نشرت المقالة بإمضاء (ص) الحرف الأول من لقب (محمد صبيح) في العدد (13) من الرابطة العربية) أغسطس (1936).

الحمد لله

الأمة التونسية

المكتب الخاص بالزعيم الشيخ

عبد العزيز الثعالبي

نهج ابي الشوك الصغير عدد ٢٠

تونس

واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة

الحكيم أحمد بن ميلاد

تونس في

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

الحزب الحر الدستوري

التونسي

الدائرة المينة

المقابلات الخاصة والمخابرات

ابني الأعز الأستاذ صبيح !

أبثك إشواقي وتحياتي

وبعد فقد نزل علي كتابك اللطيف بعد احتجابه نزول [illegible] على العليل ، [illegible]

[illegible] ، وكان [illegible] ، [illegible] ، [illegible] الاحتجاب جريدة [illegible] ،

منذ أبريل سنة ١٩٣٨ وكنت أشيم فيها [illegible] أنفاسك ، [illegible] ، [illegible]

من رسائلك . [illegible] وإذا بها تنقطع [illegible] انقطاع [illegible]

[illegible] ،

وكنت أيضا [illegible] بقراءة [illegible] الشيقة [illegible] في الرابطة العربية المنشورة [illegible] حين [illegible]

[illegible] بهذا [illegible]

[illegible] البلاد الحبيبة أفل .

[illegible] الدكتور زكي مبارك ثم تواريت عني ولم أقف لك على أثر [illegible]

[illegible] تتفقد لك [illegible]

[illegible] رسالتك [illegible] بعيد [illegible]

[illegible] تطول [illegible]

أكثر من [illegible] كل حساب [illegible]

[illegible]

لك الله يا حبيبي كم أشفق عليك وأنت في ذلك البرد [illegible] الذي لا يطيق [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(مسودّة رسالة من الشيخ الثعالبي إلى محمد صبيح)

من مكتبة الحكيم أحمد بن ميلاد

أمّة اجتمعت في إنسان

بمناسبة سفر الأستاذ الثعالبي إلى الهند لدرس قضية المنبوذين والعناية بشؤون المسلمين فاضت نفس أحد أصدقائه الأوفياء بهذه القطعة النفيسة الرائعة يصف بها جهوده وخدماته للعروبة والإسلام قال:

في الحياة صور، ولها ألوان، وجلها يستوقف نظر الرائي حينا من الزمن يطول ويُقصر، ولكن أقل هذه الصور والألوان، ما يبقى في الذاكرة على مر الأيّام، له جدته الباقية، كأنه قطعة من الخلود أو الخلود بذاته. ولا أكاد أظفر بين من عرفت من الأحياء، وما شاهدت من الأشياء ما أجزم بأنه احتل في ذاكرتي الواعية مكاناً ثابتاً باقياً مثل زعيم العروبة الأستاذ الثعالبي، فلقد اجتمعت في شخصه دنيا كاملة، فيها ما يرضي كل ذوق ومزاج، وما يحير كل عقل وإدراك. وإلاّ فماذا تقول في واحد من الناس شارف سنه على الستين، وله من بسطة الجسم ما قد يعوقه عن الحركة النشيطة، ثم تراه في يوم وليلة يحزم حقائبه، ويجمع أمره ليسافر، لا إلى رحلة يستريح بعدها بعض الشيء ولكن ليكد أثناءها، وبعدها، ويجد. فهو ذاهب إلى الهند.. ويعلن عن عزمه هذا تماماً كما يعلن أحدنا عن عزمه على الذهاب إلى ضاحية من الضواحي، أو غرض من الأغراض يهون أمره، وتقل كلفته... وكان يستطيع ـ وليس عليه جناح ـ أن يستقل أول باخرة إلى تونس، إلى بلاده العزيزة، إلى زوجه وابنه وبقية آله، إلى بني وطنه وأصدقائه، وأحبابه...

ولكنه آثر أن يرضي كبرياءه، ويحقق أملاً من أعز آماله. . آثر أن يقدم لعقيدته الدينية . . بل للإنسانية جمعاء خدمة أخيرة، فذهب إلى الهند ليبحث قضية المنبوذين، ويرى كل ما يمكن عمله من أجلهم لكي يرتادوا حياض الإسلام، وينهلوا من مواردها. . ذهب وهو فرد، ومن ورائه زوجة وابن، وأصدقاء، وأمة كاملة تريده، إلى الشرق الأوسط، في رحلة من ورائها المشاق الجسام لكي يجاهد جهاداً كبيراً، فهلا تعجبون له كما أعجب؟!

منذ ثلاثة عشر سنة خرج الثعالبي من بلاده لآخر مرة، وقد أغلقت من ورائه الأبواب فقدم إلى مصر ثم رحل فطاف بلاد العرب الآسيوية، وبلغ الشرق الأقصى حتى شارف بلاد الصين، وعاود الرحلة مرات، ومع هذا لم يمل السفر ولم يزهد في التجوال، ولم يمل الاطلاع على تاريخ البشرية الحاضر في كتابها المفتوح، وها هو ذا يحزم حقائبه ليلقى ببذور جديدة في أرض خصبة. وإن الباحث ليحار في السبب الذي يحدو بزعيم تونس إلى إيثار التنقل على شيء آخر من متع الحياة. . . أهو المال الكثير يرغب في صرفه على الأسفار وما تحتاجه من باهظ النفقة؟ لا أظن بل ولعلي أستطيع أن أجزم أن سنوات نفيه استنفدت فائض ثروته، وكانت كثيرة، فهو الشخص الذي يدفع ولا يأخذ، ومع هذا لا يفكر في عاقبة الأنفاق المتصل. . ! أم هو رغبة في الاستزادة من علم ومعرفة؟ لا أظن أيضاً. فرحلة تكفي للتعرف على أحوال البلدان، ورحلتنا تكفيان. أما خمس رحلات فلا يمكن أن تكون الرغبة في المعرفة المجردة هي الباعث الوحيد عليها. . ! إذن فليكن نشاط الشباب وتوثب الهمة. ولكن لا. فقد ذكرت لكم أن الأستاذ الثعالبي طويل القامة، مترامى أنحاء البدن، ومن كان في مثل وزنه يرهقه الخطو، فكيف الضرب في أفاق الأرض. . لا هذا، ولا ذاك، ولا ذلك، وإنما هو إحساس نفسي عميق، وإيمان خالط الدماء، وامتزج بالروح، بأن المسلمين لم يذلوا في حاضرهم إلا لأنهم غفلوا عن أسرار دينهم، وابتعدوا عن أهدافه الرفيعة، بقدر ما اقترب منها غيرهم، فعز غيرهم، وهانوا هم. . . فهو في كل مكان يفسر للناس فلسفة العقيدة الإسلامية، ويحلق بهم في آفاقها البعيدة، ويلتمس

في طياتها الحل لأدواء الشرق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية. . وهو لهذا قرأ كتب الأوائل، وتفقه فيها فقهاً واسعاً، ونظر في فلسفاتهم ووقف على خفاياها، ثم شاهد عن كثب ما يعانيه الشرق من أوصاب وآلام، وتبين في أناة وروية كافة أسبابها، وراح يصف الدواء، بعد أن يشرح الداء. . وقد وهبه الله ذاكرة لا تكل، ولا تمل. وخلع عليه دقة في الملاحظة يندر أن تخلع على شخص آخر، فلا تفوته الحركة الطارئة، ولا الخلجة الخفيفة، ولا النأمة البسيطة. ووهبه مولاه إلى جانب هذا كله ذكاء وطلاقة لسان، وسلامة منطق. . . فهو إذا تحدث فاض بعذب الكلام، وعزز آراءه بمشاهداته التي أنفق أربعين عاماً كاملة على جمعها. . فهو آية من آيات الله، وأمة اجتمعت في إنسان، ولئن كان بعض أبائنا الأقربين يفخر بالشيخ جمال الدين، وبمحمد عبده، فأنا أعتقد أن جيلاً قريباً سيفتخر بالثعالبي. ولست أقول هذا القول مجاملاً، أو مسرفاً، ولكن هو الحق، الذي اعتقد ولست أقوله، طمعاً في رضا الثعالبي نفسه، فهو الآن في الطريق إلى الهند وقد لا يقرأ هذا الكلام، وقد تباعد الأيام بينه وبين كاتب هذه السطور فلا يلتقيان!؟[17]. .

في أعداد ماضية من هذه المجلة نشرتُ مقالات عن الأستاذ الثعالبي، وذكرتُ طرفاً من تضحيات الرجل في سبيل وطنه تونس، وفي سبيل الشمال الافريقي كله، وفي سبيل المسلمين في كل مكان. ويهمني الآن أن أذكر بعض ما أعلم عن عقيدته الوطنية. من أين يستمدها، وكيف يفلسفها، إلى أين يريد أن يسير بها. .

ليست عقيدة الثعالبي الوطنية مجرد حب للوطن، ورغبة في إنقاذه فيكون مثلها كمثل العاطفة التي تجيش في نفوس الأفراد، ولكنها عاطفة منبعثة عن فقه عميق بتاريخ بلاده، وإحساس قوي بحقها في الحرية، والاستقلال، والرفعة. فقد قرأ كل ما كتب عن شمال إفريقية بجميع الألسن تقريباً، ووعت ذاكرته أمجاد قومه الماضية، ورأى أن أولئك الذين أسسوا

---

(17) سبقت الإشارة إلى أن هذه الزيارة للهند هي زيارة الثعالبي الأخيرة لهذا القطر.

ملكاً ضخماً على دعائم من الحضارة الذهنية والماديّة ليسوا منقطعي الصلة بأبنائهم الذين يسكنون اليوم أراضيهم ويتسمّون بأسمائهم، ويعيشون بدمائهم ويرثون تاريخهم.. وهو لكي يعيد هذا التاريخ سيرته الأولى، يريد أن يبدأ من أول الطريق، فيشعل في نفس قومه (من حدود طرابلس إلى المحيط الأطلنطي) حمية قومية، وأنفة، وكبرياء. ثمّ يبدأ الطريق من أوله، فيدرس اقتصاديات البلاد، وحالتها الاجتماعية دراسة وافية، ثم يشرع في العمل على صد الغارات التي يوجهها الغرب إلى ثروات البلاد، بتدعيم الاقتصاد القومي، ويدرس إلى جانب هذا حالة البلاد الفكرية، وأخلاق أفرادها، ونظم طبقاتها، واستعداد هيئاتها، ويُعدّ العالمين لخدمة الجاهلين، والقادرين لخدمة العاجزين، والكبار لخدمة الصغار حتى يشبوا.. وهكذا. وأذن فطريقته لخدمة بلاده ترمي إلى إنهاضها من كل ناحية، وإلى تدعيم هذه النهضة بأسس من العقيدة الدينية والنظم الاقتصاديّة والعلمية والأخلاقيّة ولقد حاربه أعداؤه وأقصوه عن ميدان نشاطه. ولكنا نعتقد أن من حملوا العداء له لا بد سيعاونونه على استئناف السير حين يعود إلى بلاده بعد أن يفرغ من عمله في الميدان الذي اختاره[18].

(محمد صبيح)

---

(18) نشرت بالإمضاء الصريح لمحمد صبيح في (الرابطة العربية) عدد (29) 25 رمضان 1355هـ 9 سبتمبر 1936.

ماذا أعدت الأمة لاستقبال الثعالبي

قال لي صاحبي وهو يهمس في أذني ألم يبلغك النبأ الخطير؟

قلت وما عساه أن يكون؟

قال إن الثعالبي سيعود إلى تونس بعد يومين على ما أعتقد.

سمعت هذا النبأ وتطلعت في الوجوه التي حولي لأرى تأثير النبأ فيها. . . فلم أجد شيئاً يدل على ذلك!

والتفت إلى صاحبي مرة أخرى وقلت له: والله لو كان الثعالبي قادماً إلى بغداد أو دمشق أو القاهرة لرأيت الناس يشخصون بأبصارهم صوب الناحية التي سيفد منها قبل أسبوع من مقدمه. فالثعالبي ليس زعيماً تونسياً فحسب بل هو زعيم عربي إسلامي. عرفت منزلته الأقطار العربية والبلاد الإسلامية جمعاء فأحلته المكانة العالية التي يستحقها. ففي الهند للثعالبي كلمة مسموعة. وفي جاوا له صوت داو. وفي مصر تراه يتربع في صدر مجالسها العلمية والسياسية. فيبث نصائحه الخالدة. وفي فلسطين يرى وهو إلى جانب المفتي الأكبر يبحث برزانته المعروفة قضية فلسطين فيثير في العالمين العربي والإسلامي روح العطف على فلسطين الدامية. . . !

وفي العراق ـ أي نعم في العراق ـ كان الثعالبي نجماً ساطعاً في سماء الرافدين فأضاء بنوره معاهدها، فاهتدى أبناء دجلة والفرات بذلك النور وراح (فيصل) العرب العظيم يقول لخليفته (غازي) ولشعبه: احتفظوا بالثعالبي فهو الرجل العالم. هذا هو الثعالبي الذي سيدخل تونس وطنه الأول قريباً، بعد أن غاب عنه حقبة من الزمن، كان فيها أعظم داعية لبلاده فرفع من رأسها ونشر صيتها في الآفاق: ـ فماذا أعدت الأمة لاستقبال صاحب فيصل العظيم وصديق سيد الجزيرة العظيم والزعيم الإسلامي الكبير؟

هذا الرجل الفذ الذي سار اسمه المقرون باسم تونس في مشارق الأرض ومغاربها. هل أعدت الأمة اللجان والوفود والمواكب للحفاوة به وتكريمه؟

أيها القوم. إن الثعالبي أعجوبة العرب والإسلام في القرن العشرين، فالتفوا حوله وأجعلوه في (الطليعة) واحتفظوا به، وتذكروا قول فيصل العظيم لخليفته ملك العراق: احتفظوا بالثعالبي فهو الرجل العالم(*)!

يونس بحري: السائح العراقي

(الإرادة) عدد (233) 29 ربيع الأول 1356 / 9 جوان 1937

(*) مع قرب عودة (الثعالبي) إلى تونس، نشر الديوان السياسي للحزب الحرّ الدستوري التونسي البلاغ التالي في: جريدة (الزهرة) التونسية عدد (9243) 20 ربيع الثاني 1351 / 30 جوان 1937.

حول رجوع الشيخ عبد العزيز الثعالبي

بلاغ إلى كافة الهيئات التونسية

إن الحزب الحر الدستوري التونسي سيقتبل عما قريب مؤسسه الأول الشيخ عبد العزيز الثعالبي بما يليق بمقامه الجليل ومكانته العظيمة في الحركة التونسية والإسلامية عامة من الابتهاج والتعظيم فلا يخفى على مواطنينا الكرام الظروف التي بارح من أجلها بطلنا الديار التونسية وما لحقه من الشدة والضيق.

فعلى الأمة التونسية جمعاء وحزبها الممثل لها أحق تمثيل أن يقتبل شيخنا المفضال أجمل اقتبال عسى أن يمحو من ذهنه ما أدركه من الألم والأسف عندما غادر بلاده المحبوبة.

فلقد اعتاد الحزب الحر الدستوري التونسي أن يقوم بهذا الواجب نحو مؤسسه على أنه رأى أن لا يحرم كافة الهيئات التونسية من المشاركة في اقتبال الأستاذ فهو يدعو من ينوب عنها للحضور بالاجتماع التحضيري الذي سيقع يوم السبت في 3 جويلية على الساعة 9 مساءً بنادي الحزب الحر الدستوري التونسي بتونس نهج التريبونال عدد 29 لتنظيم ذلك الاقتبال. من الديوان السياسي للحزب الحر الدستوري التونسي.

الرئيس

محمود الماطري

الزعامة الحقة ومظاهرها

يذهب بعض الناس إلى أن الزعيم هو الذي يخلق الشعب ويبعثه من مرقده ويوقظ فيه روح المقاومة والجهاد. ويرى البعض الآخر أن الشعب هو الذي يكوّن الزعيم ويمهد أمامه سبل الزعامة. وهذه مسألة طال فيها البحث بين أمم الشرق.

وبعد الاستقراء والتتبع وجدنا أن الزعامة تتوقف على شخص يخلق الله فيه بعض المؤهلات كالإخلاص وقوة الإرادة والثبات والتفاني في سبيل الصالح العام. وبعد توفر هذه الصفات يمكنه أن يكون زعيماً، إذا وجد شعباً يقدر قيمة الرجال العاملين، ويميز بين الخبيث والطيب. وبعبارة أوضح إما أن يقتل فيه الشعب هذه المؤهلات أو يرعاها بتأييده ويسقيها بتعضيده فتنمو وتزداد في صاحبها حتى يصبح عظيماً من العظماء فيخلد لنفسه ولأمته تاريخاً ماجداً وسيادة قوية عزيزة الجانب. أمامنا زعيم ألمانيا الذي لم يكن شيئاً مذكوراً منذ أمد قريب، فلما تبين فيه الإخلاص والتفاني في خدمة أمته أطبق الشعب على حبه ورفعه فوق الرؤوس وأفرط في تعظيمه. حتى لو كان خائناً لأجبرته هذه المظاهر من الشعب على أن يكون أعظم الناس إخلاصاً لبلاده وقومه. وما يقال في هتلر يقال في موسوليني ومصطفى كمال وسعد زغلول ومن شابههم من زعماء الأمم الشرقية والغربية. وبعد هذه المقدمة يجدر بنا أن نتعرض إلى الزعامة في تونس لنعرف من هو الذي حرم الأمة منها وهل وجدت مؤهلاتها في شخص، أم لم توجد؟ ومن الذي سيسجل عليه التاريخ

صفحة سوداء وتلعنه الأجيال القادمة لأنه حرم البلاد من زعيم أصبح الدهر عقيماً بمثله.

مرت عصور عديدة على الأمة التونسية لم يخلق الله فيها زعيماً تفاخر به غيرها ولم تجد في ماضيها القريب رجلاً واحداً يذكره التاريخ في مصاف عظماء العالم. وهذه حقيقة لا يجب أن تنكر، وإن كانت مرة فإذا بالزمن يتعاقب والأيام تتمخض فولدت لنا زعيماً لم يجمع الله فيه بعض المؤهلات فحسب، بل جمع فيه كل مؤهلات الزعامة دون مبالغة أو غلو. كما أجمعت الشعوب الشرقية عامة على ذلك ولم ينكر عليه إلا من تعوّد الصيد في الماء العكر من أبناء قومه الذين تسيطر عليهم حب المصالح الشخصية. ومما لا شك فيه أن زعيم تونس من الذين تغلبوا على الخطوب وهزأوا بالكوارث، حتى أذعن لهم الدهر وأطاعهم الزمان فبات قوي الإرادة مختبراً حياة الأمم، عالماً بمجريات السياسة. عاقلاً حكيماً، عبقرياً، قطباً من أقطاب الشرق غير مدافع، أضف إلى ذلك إخلاصه النادر الذي لم يختلف فيه اثنان، بل يقره حتى خصومه الألداء.

بيد أن هذا الزعيم الذي فاق الزعماء في إخلاصه ومؤهلاته بعثه الله بين أناس خلقوا لمقاومته وصرف جهوده فيما لا يعود على الأمة بالنفع فأخذ يسعى لتعبيد الطريق، ووجه همته لتمهيد السبيل من جديد فذهب جزء كبير من قوته ومواهبه في أمور، لا تخلد لنا تاريخاً ولا تحقق لنا آمالاً وأماني، أضف إلى ذلك المدة التي أضاعها علينا الأجنبي من حياة هذا العبقري الفذ.

فيتلخص من هذا كله أن الأستاذ الثعالبي خلقه الله ليكون زعيماً تباهي به تونس الأمم وترفع به رأسها أمام الشعوب. ولكي يبني لأمته قصور مجد تناطح السحاب. فلما شرع في البناء جاءه الأجنبي وهدم شيئاً مما بناه من هذه القصور.

فأراد الثعالبي أن يعيد الكرة ليتمم ما بدأ به شأن العظماء الذين لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سبيلاً.

فاصطدم بأبناء قومه مرة ثانية وأخذوا يهدمون كل ما يبنيه، ولو تركوه لبنى لتونس أعظم مجد عرفه التاريخ وأعاد لها تراثها الغابر ومجدها الداثر ولكنهم حاربوه وناهضوه، فحرمهم الله من ذلك المجد الشامخ وسجل لهم التاريخ صفحة سوداء، وستلحقهم لعنة الأبناء. ولولاهم لجعل الزعيم كل فرد من أفراد الأمة ثعالبياً ليترك للأمة رجالاً يهتدون بهديه ويقتفون أثره. وعلى كل، فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

دمشق **محمد الكامل التونسي**

(الإرادة) عدد (265) 1 ذو القعدة 1356 / 14 جانفي 1938

إلى الأستاذ الجليل
تحيـة وذكـرى

وودت ـ لو أسعدني الحظ ـ أن أكون في زمرة مقتبليك المستبشرين برجوعك مثلما كنت ضمن صحبك الذين شيعوك وقلوبهم دامية يوم بارحت البلاد آسفاً حزيناً بعد أن جاهدت أعواماً وصبرت صبر أولي العزم على ما لحقك من الإذاية من طرف ماجوري الأقلام الذين أرادوا طعن الحركة الوطنية في الصميم في شخص مبتكرها.

ولا يمكننا أن لا نعترف بأنهم توصلوا في وقت ما إلى تفكيك أوصال الأمة، وبث سموم التفرقة بين أفرادها حتى تنكرت للعاملين وانفضت من حولهم ـ شأن الأمم الجاهلة تنقاد بسرعة للأباطيل وتكون عوناً لجلاديها على بنيها الذين يريدون لها الخير والفلاح.

عدت والعود أحمد ـ إلى وطن خدمته بكل قواك ومواهبك فابتهجت أمة بأسرها برجوعك وهتف لك عشرات الآلاف من بنيها الذين أتوا للقائك إجابةً لصوت الواجب ـ لا امتثالاً لأمر آمر ولا تبعاً لأي شخص كان.

فالأمة التي تنكرت لك بالأمس وجهلت مقامك وأنت ابنها البار. تكَفِّر اليوم عن ذنبها وتعرب لك عن رجائها فيك وثقتها بالمستقبل.

وبالمقارنة بين منظر سفرك ـ وحولك نفر قليل بقوا في المعمعة بجانبك إلى آخر لحظة ـ ومنظر اقتبالك اليوم تستنتج منه أن بذور الوطنية التي زرعتها في القلوب. وسقيتها بماء الإخلاص. وكلفت بالسهر عليها خيرة أصحابك

قد أينعت وآتت أكلها. وهي نتيجة لا شك أنها أفعمت قلبك سروراً وأبانت لك أن عملك لم يذهب سدى.

إن منظر ذلك الوداع المؤلم لم يزل منقوشاً بالذاكرة، وإن نسينا فإننا لا ننسى رباطة جأشك في ذلك الموقف الرهيب ـ موقف فراق كل عزيز عليك ـ وتلك الحكم البالغة التي أسديتها لنا وكانت عدتنا في العمل بعدك.

سافرت فعم الحزن البلاد، واستولى اليأس على القلوب، إلا من عصم ربك. أما الأعداء فكان سرورهم عظيماً. ومن الغد صدرت جرائدهم (بعض هذه الجرائد يتغنى اليوم بمدحك لحاجة في نفس يعقوب) مفعمة بأغاني النصر وكلها تضرب على نغمة واحدة مفادها.

إن آخر حجر في هيكل (الدستور) تقوض واستراحت البلاد. إلخ. ولكن الأيام تكفلت بتكذيب أحلامهم لأنك ألقيت مقاليد الأمور بعدك إلى رجال سبرت غورهم في السراء والضراء وعلمت صدق وطنيتهم فقاموا بالمهمة وأدوا الأمانة حق أدائها.

لم يفت في ساعدهم بعدك عنهم، لأنك وإن بعدت جثماناً فصورتك ماثلة أمامهم، وتعاليمك هي رائدهم ـ ولم تثن عزمهم الصعوبات الجمة التي اعترضتهم في طريقهم ـ بل عكفوا على العمل لتقويم الحالة السياسية وإفهامها لأمة أوقعها في الغلط الخونة والنفعيون. ولم تمض مدة يسيرة حتى تردد صدى الدعاية الوطنية في البلاد من أدناها إلى أقصاها فاقبل الشعب عليها أفواجاً وتوحدت الكلمة وصار الناس ينظرون بأمل إلى المستقبل.

ويمكنني أن أحقق لكم، ولا أخشي معارضاً أن الحركة الوطنية بلغت إذ ذاك مبلغاً من الانتشار لم تصله قبل ـ إذ أنها تغلغلت في البادية بعد أن عمت المدن والقرى وصار الشعب عارفاً بمرماها مدركاً السعادة التي تناله من فخامها.

قام أصحابك بهذه الأعمال في جو ملؤه التهديد والوعيد وظروف غير ملائمة. وثابروا على خطتهم طيلة أعوام مضحين بالنفس والنفيس في سبيل

الغاية العظمى وبذلك ﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾.

لم يكن هذا العمل ليرضى المتسيطرين على البلاد فعمدوا إلى وسائل الإرهاق والزجر وأنزلوا بالعاملين من القساوة ما تندك له الجبال فتحمل هؤلاء ما أصابهم في سبيل وطنهم بتجلد وثبات، فما ضعفوا وما استكانوا.

تضحيات ثقيلة أصابت في الجسم والمال عدداً غير قليل من العاملين ـ مواقف مشهودة وقفها أبطال مجهولون تثير الإعجاب والاعتراف الأبدي. من لي بتعدادها وهي تربو عن العد؟ هل أذكر العشرات السنين سجناً التي أرهق بها إخواننا ﴿المطويون﴾ وفي مقدمتهم أصدقاؤنا الشيخ حميدة وعمر بن قفراش ومن معهم؟ أم أذكر ما نزل بأحرار ﴿ماطر﴾ وفي مقدمتهم صديقنا حمودة بن الميهوب وما لحق أحرار (غار الملح ورأس الجبل والفحص وسليانة والدهماني والسرس) وقابس وكثير من مدن الساحل والجنوب وغيرها مما يطول شرحه؟

وإذا ذكرنا هؤلاء فهل يجمل بنا أن لا نذكر العاملين ـ وهم كثير ـ الذين شردوا في أراضي المنفي خارج البلاد وداخلها.

أليست كل هذه الإجراءات النفسية دليلاً على عظم الأعمال التي وقع القيام بها؟

ويقيني أن البلاد كانت تحرز على أنشودتها لو بقيت وحدتها ـ بعد هذه التضحيات ـ كاملة. ولكن عوامل طرأت على هذه القوة فصد عنها وأعطت للعدو سلاحاً فاستعمله للفتك بها.

* * *

ليس غرضي من كتابة هذه الكلمات التي أثارتها ذكريات الماضي ـ الافتخار بعمل هو واجب مفروض ـ، وإنما للتذكير بحقيقة ثابتة وهي أن الحركات التحريرية عبارة عن جهود متواصلة ومستمرة تتوارثها الأجيال خلفاً

عن سلف وأنه لولا الأساس الذي بنيته لنا، أنت ومن تقدمك، لما كان لعملنا نتيجة تذكر.

وبهذا تسقط دعوى باردة، من أن الحركة الوطنية ابتدأت بنفر، وأنها لم تكن قبلهم شيئاً مذكوراً.

ففي أمثالهم قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم

لندعهم في خوضهم يلعبون، فالتاريخ محتسب عادل، يضع للناس أماكنها، ويعطي كل ذي حق حقه. والآن!

جبت أيها الأستاذ مختلف البلاد، ودرست أحوال الأمم وصراعها للحصول على مركز يضمن لها حياة حرة سعيدة. ورأيت الوسائل التي استعملت في تلك الأقطار لبلوغ الغاية.

ولنا الثقة التامة في أن تجاريبك ستكون رائدك في درس الحالة التي وجدت عليها البلاد والنهوض بقضيتها.

فالبلاد تجتاز أزمة سياسية منعتها من الاستفادة من مشاكل الحالة السياسية العالمية وهل السياسة الحكيمة غير اغتنام الفرص؟

إن الأنظار متجهة نحوك، ونود أن نرى شيئاً جديداً يطرأ على الأسلوب السياسي المتبع لحد الآن. وأن سياسة «يوماً فيوم» ستعوض بسياسة أوسع دائرة. دعامتها ربط القضية التونسية بالقضايا الدولية العامة وبسطها في الأماكن المعدة لذلك.

ويقيني أن برنامجاً كهذا تؤيده الأمة جمعاء، وأن العاملين الذين أقاموا الدليل على وطنيتهم وتجردهم عن المنفعة الذاتية سيكونون غداً بجانبك مثلما كانوا بالأمس.

* * *

هذه كلمة تذكير. رأيت لزاماً علي أن أسطرها. وإني أعتذر إن هي لم تكس صبغة اللياقة المطلوبة في هذا المقام، مقام الترحيب بأستاذ عزيز علينا، كان ولم يزل لنا مثالاً حياً لنكران الذات في سبيل الصالح العام. فغرضي الوحيد إلفات النظر إلى خطورة الحالة الحاضرة وتأثيرها على مستقبل البلاد. فإن صادفت كلمتي قبولاً، فحبذا، وإلا فأكون قد قمت بواجب نحو قضية لا ينكر أحد فيما أظن أنني خدمتها بإخلاص.

إليك يا حضرة الأستاذ الجليل تحيتي وأشواقي، والله يحفظك ويبقيك للملة والوطن.

الداعي لك
عبد الرحمان اليعلاوي
باريس 1937/7/29

جريدة (الإرادة) عدد (240) 4 أوت 1937

عبد العزيز الثعالبي
في الشعر العربي

جمع الشاعر الراحل (محمد الشعبوني) بعض ما قاله الشعراء العرب، في (عبد العزيز الثعالبـي) ونشرت هذه النصوص (بيت الحكمة) تحت عنوان (عبد العزيز الثعالبـي في الشعر العربي) سنة 1991.

وجاء في مقدمة الكتاب للشاعر (الشعبوني):

«إن الشعراء الذين نظموا القصائد في (الثعالبـي) كثيرون، وإن الناشرين أكثر من ذلك بكثير، ويصعب حصرهم، والتعليق على كتاباتهم. وما أثبتناه من الشعر والشعراء في هذا الكتاب ليس هو كل ما قيل حول شخصية جذابة كشخصية الثعالبـي. وقد اهتم الشعراء بطول نضال الثعالبـي، وفصاحة لسانه، وسحر بيانه، وسمو نظرته للحياة الإجتماعية والإقتصادية، ودعوته للوحدة والإصلاح، حتى سماه بعضهم: (نبـي السلام والوفاق)».

ووجدت بين يدي قصيدين لم تشملهما هذه المجموعة، أو بالأحرى، لم تشمل أولهما، ونشرت الثاني مقتضباً بصورة مخلة.

أما الأول فهو للشاعر (أبي اليقظان) بعنوان (تحية الشيخ الرئيس). استقبل به (الثعالبي) غداة خروجه من السجن سنة (1921).

وأما الثاني فهو للشاعر (مقدي زكرياء) بعنوان (الشمال الإفريقي يتحد) استقبل به (الثعالبـي) غداة عودته من الشرق إلى تونس سنة (1937).

نشر (الشعبوني) مقطوعة من خمسة عشر بيتاً من هذا القصيد بعنوان (عودة الشيخ الثعالبـي إلى تونس). نقلاً عن جريدة (الصباح) التي نشرت هذه المقطوعة في (24) أفريل (1988). والنص الأصلي للقصيد ينتظم قريباً من سبعين بيتاً.



صورة للمؤلف مع الوفد التونسي إلى المؤتمر الرابع للأدباء العرب بالكويت (ديسمبر 1958) من اليسار إلى اليمين: صالح الخرفي، أحد أعضاء الوفد المغربي، الشيخ الراحل محمود الباجي، الشيخ الراحل محمد الفاضل بن عاشور، الأستاذ محمد مزالي، الشاعر الراحل محمد الشعبوني. الأستاذ حسن الزين صاحب (دار الكتاب اللبناني). أحد أعضاء الوفد اللبناني.

رأيت من الوفاء للراحلين جميعاً، (الثعالبي وأبي اليقظان وزكرياء والشعبوني) استكمال هذه الصورة الرائعة من الوفاء بين الزعامة الأصيلة، والشاعرية المرهفة.

وللمرحوم (الشعبوني) ذكرى غالية في نفسي، يوم جمعتنا رفقة تاريخية في المؤتمر الرابع للأدباء العرب بالكويت في ديسمبر (1958) وكنت رئيساً للوفد الجزائري في المؤتمر بينما ضم الوفد التونسي الأجلاء الراحلين (الشيخ الفاضل بن عاشور والشيخ محمود الباجي، ومحمد الشعبوني). والأستاذ محمد مزالي رئيساً للوفد.

(أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى: 1888 ـ 1973)

العالم المصلح، والوطني المناضل، والصحافي الرائد، والكاتب الشاعر.

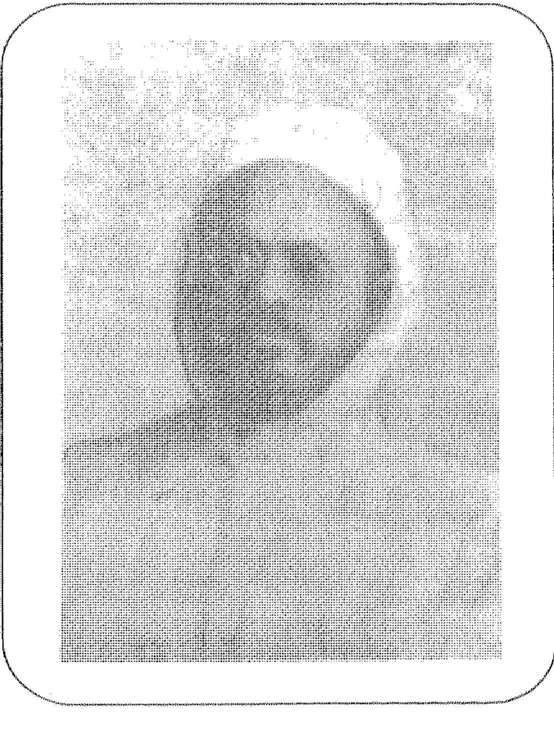
(أبو اليقظان) الرائد، رائد في أكثر من مجال من مجالات النهضة العربية الحديثة في المغرب العربي. رائد تأسيس المدارس العربية العصرية الحرة في الجزائر سنة (1913) في (تبسة) ورائد البعثات العلمية الجزائرية إلى تونس الخضراء سنة (1914) وسنة (1918) وأحد رواد النضال السياسي في المغرب العربي بمعية الزعيم عبد العزيز الثعالبي بعد تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي سنة (1920). فهو شاعر الحزب، والداعية له، واتهم من السلطات الفرنسية بجمع الأموال له في الجزائر. وأحد رواد الصحافة الوطنية في الجزائر عند إصداره (وادي ميزاب) سنة (1926) واستمرار نضاله الصحافي عبر ثماني جرائد حتى سنة (1938) وأحد الرواد في بعث الطباعة العربية في الجزائر بتأسيسه (المطبعة العربية) سنة (1931).

وعلاقة (أبي اليقظان) بـ(الثعالبي) سبقت تأسيس حزب الدستور بسنوات. فهو يروي بداية علاقته به كما يلي:

«في أواخر الحرب العالمية الأولى. في سنة (1917) أنشأ الشيخ عبد



محمد عبد العزيز الثعالبي
(1876 ـ 1944)



أبو اليقظان إبراهيم
(1888 ـ 1973)

العزيز الثعالبـي في تونس (جمعية سرية فدائية) غرضها إحداث حركة تحريرية في المغرب الكبير كله. تونس والجزائر والمغرب وليبيا. وكان للجمعية رموزها واصطلاحاتها ولها فروع في الجزائر وليبيا والمغرب الأقصى. وفي تونس كان رئيسها هو الشيخ الثعالبـي ومعه خمسة أعضاء وكان للشيخ صالح بن يحيى عضو اللجنة المركزية فرع من الميزابيين في تونس، يتركب من ستة، أولهم (أبو اليقظان).

وكان القائد التركي (جمال باشا) عازماً على احتلال مصر، ثم يتجه غرباً إلى الجزائر والمغرب الأقصى، وكان المغرب الكبير يستعد لوصوله، ويمني نفسه بالتحرر. فأنشأ في أنحائه كلها فروعاً لهذه الجمعية السرية، فصارت تستعد لوصوله، لتثير المغرب كله على فرنسا، إذا طرقت جيوش الدولة العلية أبوابه بقيادة جمال باشا. فلما أخفقت خطة (جمال) لاحتلال مصر، . ألغيت هذه الجمعيات السريّة».

يشير (أبو اليقظان) إلى الحملة التي كانت محاورها المخطّطة والمحرّكة تتمثل في (علي باش حامبة) في الأستانة و (سليمان الباروني) في طرابلس، و (عبد العزيز الثعالبـي) في تونس، و (محمد الخضر حسين) و (محمد باش حامبه) في برلين.

كان (علي باش حامبه) مدير دائرة التشكيلات الشرقية في وزارة الحربية التركية بعد تعيين (أنور باشا) وزيراً لها، عند قيام الحرب العالمية الأولى.

(سليمان الباروني باشا) كان في هذه الفترة في الأستانة. عضواً في مجلس الأعيان، تقديراً لجهوده في الحرب الطرابلسية، فطلب منه (أنور باشا) العودة إلى طرابلس الغرب، واستئناف الجهاد.

يقول (سليمان الباروني) عن هذا المخطط:

«كان (علي بك) يقصد (باش حامية) يعلق على انتصاراتنا في طرابلس آمالاً عظيمة، نحو وطنه تونس الخضراء، حتى أنه عزم على زيارتنا أخيراً في

غواصة، لما تقرر إجراء الترتيبات على الحدود الغربية الطرابلسية، استعداداً للزحف على تونس».

أما حملة (جمال باشا) على مصر فقد كانت بتاريخ (20) نوفمبر 1914 كما يذكر (محمد فريد) يوم تعيينه (جمال) قائداً لهذه الحملة، وكان والياً على الشام آنذاك، ولكن هذه الحملة تعثرت بسبب تمديد سكة حديد من القدس إلى العريش. لنقل المؤونة والعتاد، وكانت أول مناوشة لها على الضفة الشرقية لقناة السويس سنة (1916) وفي أغسطس (1916) قامت بهجوم آخر فاشل على القناة. كان من نتائجه أسر أربعة آلاف من الجيش العثماني، والسير بهم في شوارع القاهرة تحت حراسة الإنجليز.

كان الصراع على أشده في هذه الفترة لاقتسام الإمبراطورية العثمانية، التحالف الألماني التركي من جهة، والتحالف الإنجليزي الفرنسي من أخرى، وكانت أساطيل الحلفاء، فرنسا وإنجلترا متجهة لاحتلال عاصمة الخلافة.

في نوفمبر (1918) دخل الفرنسيون والإنجليز، الدردنيل والبوسفور، واحتلوا الأستانة.

ويضيف (الباروني):

«وكان علي بك باش حامبة، ينتظر خبر الشروع في الترتيب انتظار الهلال ولو تأخر سقوط (القسطنطينية) في يد الحلفاء شهراً ونصفاً فقط، لتم الترتيب وبوشر الزحف، وعمت المملكة التونسية، ثورة لا ينطفيء لهيبها. وتحرج مركز فرنسا في المغرب كله إلى المحيط، لأن تونس كانت إذ ذاك كأنها على الجمر.

لما بلغه (باش حامبة) خبر فتح أبواب الدردنيل لأسطول الحلفاء لاحتلال دار الخلافة وهو في مقر وزارة الحربية، اعترته حمى حادة، ونقل بالسيارة إلى منزله ولم يخرج من فراشه إلا إلى مضجعه الأخير، قبل وصول الحلفاء إلى الأستانة بيومين أو ثلاث. وسبحانه الحي الدائم، الذي لا يموت».

أما علاقة (أبـي اليقظان) بالدستور، بعد انهيار حلم تحرير شمال إفريقيا بانهيار الدولة العثمانية في وجه الأسطول الإنجليزي الفرنسي. الدولتان المستعمرتان لهذا الشمال، فيرويها كما يلي:

«كنت والشيخ إبراهيم اطفيش. والشيخ محمد الثميني، أعضاء عاملين في حزب الدستور، وكان للحزب لجان، منها لجنة الدعاية، وكنت عضواً فيها، فكنت أقوم بالدعوة للحزب، وأشرح مبادئه لمن اتصل بهم من الإخوان، وفي رسائلي الكثيرة إلى إخواني الكثيرين في أنحاء الجزائر، وكان رئيس لجنتنا على ما أذكر هو الأستاذ (عثمان الكعاك).

واستمرت علاقتي وعلاقة البعثة (الميزابية) وثيقة بالشيخ الثعالبـي حتى هاجر إلى المشرق، آيساً غاضباً في عام (1923) وقبل مغادرته تونس خطب في دار بعثتنا في الطلبة الميزابيين كلهم، خطاباً حاراً، أودعه آماله في البعثة ونهضة الجزائر المباركة، وآلامه ولوعته، ومرارة فؤاده. وكان خطاباً مؤثراً، فجّر الدموع من عيون البعثة، وأثر فيّ شخصياً كل التأثير، وأبكاني بكاء مراً».

والبعثات العلمية الجزائرية من أبناء (وادي ميزاب) في جنوب الجزائر، إلى تونس الخضراء. لم تنقطع منذ أوائل الحرب العالمية الأولى حتى غداة استقلال الجزائر في أوائل الستينات. وكان لرؤساء هذه البعثات، والقائمين عليها، إسهامهم في الحياة الفكرية والوطنية التي عاشتها تونس. وكانت لهم صدارتهم في صفوف الحزب الحر الدستوري منذ تأسيسه. أمثال (اطفيش) و (ابن يحيى) و (أبو اليقظان) و (الثميني). وكانت مقار هذه البعثات في (بئر الحجار) أو (المدرسة السليمانية) أو (ابن خلدون) أو (العبري) مزاراً للشخصيات العلمية والأدبية والسياسية والثورية في المغرب العربي. ومن بين الشخصيات البارزة التي التقت بهذه البعثات، وأشادت بها، وكتبت عنها، وتيمّنت منها خيراً للمنطقة. (عبد الحميد بن باديس) و (سليمان الباروني) و (عبد العزيز الثعالبي: وكذلك (حسن حسني عبد الوهاب) و (نور الدين بن

محمود) ومشائخ جامع الزيتونة ومن بينهم (محمد الزغواني) و (محمد المختار بن محمود) و (محمد الفاضل بن عاشور).

وزارها في أواسط الخمسينات بطل الثورة الجزائرية الشهيد (زيغوت يوسف) وأثنى على نظامها، وأوصى طلبتها بالتفرغ للعلم والاستعداد لبناء الجزائر الحرة المستقلة.

أما (الثعالبي) كما روي (أبو اليقظان) فكان كثير التردّد على مقر البعثة في (12) بئر الحجار، يملي فيها أبحاثه ومقالاته، ويحكم خططه واتصالاته، ويطّلع على الجرائد، ويعقب عليها، ويمضي سحابة يومه بين إخوته وبنيه. وأهله وذويه وكانت البعثة آخر من ودّع (الثعالبي) الوداع الجماعي، بتلك الصورة المؤثرة التي ذكرها (أبو اليقظان) قبل نزوح (الزعيم الدستوري) إلى المشرق سنة 1923.

وفيما يلي فقرات مضيئة عن هذه البعثات:

(نهضة جزائرية بالحاضرة التونسية)

«إن الشعور الوطني إذا أفعم القلوب، لا بد أن تظهر ثمراته في الأعمال حتى تبلغ به الأمم غاية الكمال، فهو كالماء تحت الجماد، لا بد أن ينبعث فتتشقق له الحجارة، وتتفجّر منه الأنهار. وها هم أولاء إخوتنا الميزابية. سرى فيهم شعور صحيح، فولعوا بالتقدم، فأخذوا يتمسّكون بأسبابه، بجد واجتهاد. أخذوا في طريق التجارة، حتى ملكوا أزمتها، وصاروا العضو القوي الإسلامي بالجزائر فيها. وها هم اليوم يسعون في طريق العلم، ويرحلون في طلبه، وأخلق بهم أن ينالوا منه ما يريدون».

عبد الحميد بن باديس

(بعد زيارة للبعثة)

جريدة (النجاح) عدد (44) 19 ديسمبر 1921

هم أعين الأجيال

فلا عجب، إن قيل (تونس) أصبحت ... محط رجال العلم. منهلها عذب
لقد أمّها من (مصعب) الغرب، ثلّة ... شباب صغار، لا يعدّ لهم ذنب
رأوا للعلا رأياً، فتاقت نفوسهم ... إلى نهجه، واستسهلوا ما هو العصب
أتتني رسالات، تشف عن الذكا ... وعن همم عليا. وروح لها صوب
فهم عدّة. بل للطوارى أسنّة ... وهم أعين الأجيال. بل هم، هم القلب

سليمان الباروني

مرسيليا (22) فيفري (1924)

(البعثة الميزابية بالكلية الزيتونية)

«وتبودلت الأحاديث حول مشاهدات مديرنا، وعلى روح النهضة المتجلّية في (وادي ميزاب) والتقدم العلمي المشاهد في تلك الربوع العزيزة علينا، ثم أسدى للطلبة بعض النصائح، وأبلغهم تطلّع أوليائهم لأبنائهم، وترقّبهم لنجاحهم.

و (الأسبوع) تشكر المحتفلين بمديرها أحرّ الشكر، وتتمنّى أن تقوم بواجب تهنئتهم في القريب بنجاحهم في الامتحانات القادمة».

(الأسبوع) عدد (199) 27 مارس 1950
في أعقاب زيارة (نور الدين بن محمود)
إلى (وادي ميزاب)

● ● ●

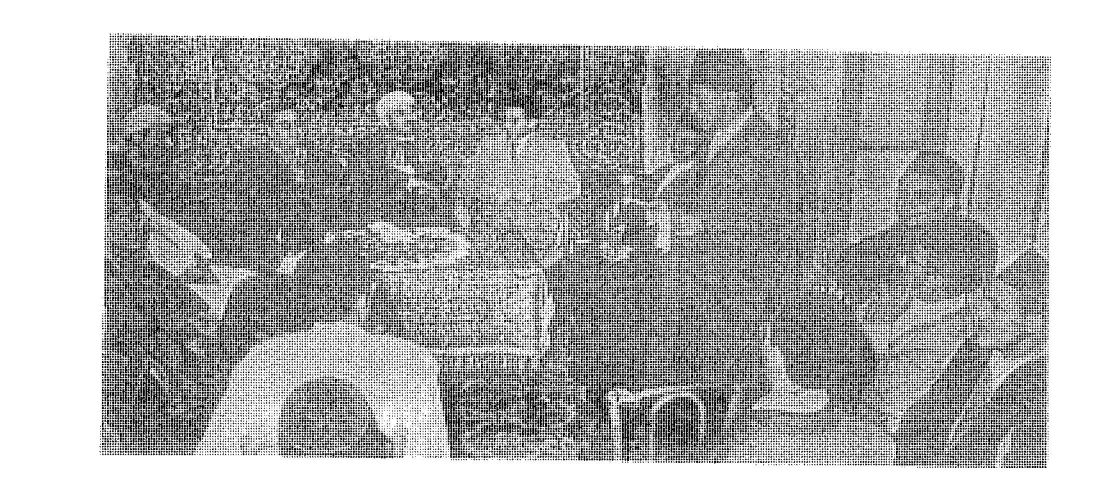
ولأبي اليقظان أكثر من قصيدة في الحزب الحر الدستوري التونسي. منها قصيدة بعنوان (الدستور) نشرها في جريدة (مرشد الأمة) سنة (1921). أما هذه القصيدة فقد ألقاها (أبو اليقظان) تحية للثعالبي بعد خروجه من السجن في شهر مايو / أيار (1921) في الجماهير التي كانت تتوافد للتهنئة في دار (علي كاهية) بنهج (الباشا). وقد نشرت القصيدة في جريدة (المنير) وفي ديوان (أبي اليقظان) تحت عنوان (جسر المجد والعظمة)، وأرخ في الديوان لإلقائها بـ (16) رمضان (1339).

المراجـع :

ديوان (أبـي اليقظان) (1350) (1931م) المطبعة العربية. الجزائر. (سليمان الباروني باشا). أبو اليقظان. المطبعة العربية. الجزائر. 1956. (أعلام الإصلاح في الجزائر) محمد علي دبّوز. الجزء (3) مطبعة البعث. قسنطينة الجزائر (1978).

(أوراق محمد فريد) مذكراتي بعد الهجرة (1904 ـ 1919). المجلد (1) المصرية العامة للكتاب. (1978) القاهرة.

(الثعالبـي ومحمد لطفي جمعة) مخطوط.



البعثة الجزائرية من (وادي ميزاب) في أواسط الخمسينات في مقرها بـ(17) نهج (ابن خلدون) باب المنارة وهي تحتفي بالشيخ (محمد الفاضل بن عاشور) بعد عودته من رحلته إلى المشرق في يوم (5) فبراير (1956) يتصدر الحفل (الشيخ محمد الفاضل بن عاشور) وعن يمينه الشاعر الراحل (مفدي زكرياء) فالشيخ (محمد الحبيب بلخوجة) وعن يسار المحتفي به الكاتب الجزائري (محمد الحاج الناصر) ثم (محمد العساكر) رئيس البعثة. بينما وقف الشاعر (المؤلف) صالح الخرفي بلبسته الزيتونية يلقي قصيد الاحتفاء بالشيخ الفاضل.

تحية الشيخ الرئيس

تبسم ثغر الكون واستبشر الدهر وتاه الزمان الغض بل ضحك العصر
وقرت عيون المجد والفضل والعلا وغنى لسان العز والوقت مخضر
وهذا الربيع ازدان بالنور وازدهى فيا نعم ذاك الورد والنور والزهر
تلفت أنظاراً إلى أفق سؤدد إذا بشعاع بعده طلع البدر
فضاء جبين الحق عن متهلل وأشرق وجه العدل بل عمه البشر

* * *

ومادت به «الخضراء تيها وبهجة وأنسا، كما مادت بـ(زغلولها)[1] مصر

---

(1) (سعد «باشا» زغلول: 1273 ـ 1346هـ 1857 ـ 1928م).

«زعيم نهضة مصر السياسية، وأكبر خطبائها في عصره. انتخب سنة 1919 رئيساً للوفد المصري لمطالبة الإنجليز بالإستقلال، انفرد بقيادة الحركة الوطنية وتنظيمها بين سنتي 1919 و 1927، فكان رجل مصر، ولسانها، وموضع ثقتها وقبلة أنظارها».

وترامى صيته في مشرق العالم العربي ومغربه، وتطلعت إلى مواقفه التاريخية في سبيل استقلال مصر، شعوب تعاني من الإستعمار مثل شعوب المغرب العربي، فسرى ذكره على الألسنة، وعلى صفحات الجرائد، ولمع اسمه في قصائد الشعراء وكان عبد العزيز الثعالبي في تلك الفترة يستقطب أنظار المغرب العربي، والدستور في انطلاقته الخالدة، والجهود الوطنية في عنفوان نشاطها، والثعالبي حديث عهد بالخروج من السجن، وضحية سجن ونفي سابقين، شأنه شأن (زغلول) الذي نفاه الإنجليز غير مرة، وسجنوه. ويوم ألقي القبض على (الثعالبي) ورفيقيه (محمد =

وقد حفلت محتفة بـ (عزيزها)[2] كما طربت فخراً، وحق لها الفخر
وقـاعـات ذاك الإحتفـال قلـوبهـا وأرواحهـا، والسـر يتبعـه الجهـر
تسـابقـت الأسـلاك فيـه. عـروقهـا مكهـربـة، لمـا استضـاء بـه الفجـر
فغنـت بـه الآفـاق، واهتـز عطفهـا سـروراً وأفـراحـاً، وفـاح بهـا نشـر
وشاركها في أنسها، العالم الذي تـرأسـه، إذ كـان فيـه لـه ذكـر

* * *

= الرياحي) و (الشيخ صالح بن يحي) وأطلق سراح الإثنين، وبقي (الثعالبي) سجيناً، تطلعت الأنظار إلى إطلاق سراحه ويوم تم ذلك، نشرت جريدة (الأمة) التي يديرها الحاج علي بن مصطفى، وعبد العزيز المحجوب في صفحتها الأولى صور الثلاثة وكتبت تحت صورة الثعالبي الأبيات الآتية:

بمثلـك تـدرك (الخضـراء) قصـداً وتبلـغ عـاجـلا، تلـك المهمـة
وتبلـغ مـن مطـالبهـا الأمـانـي وتـرقـي فـي العـلا، بعلـوّ همـة
ألا. يا (سعد) تونس، يا مناها ومـن رد الخطيـب المـد لهمّـة
تلقيـت الشـدائـد، بـاصطبـار كمـا استصغـرت هـاتيـك الملمّـة
لـذلـك، لاح رسمـك فـي جلال يتـوّج بـالفضـائـل صـدر (أمّـة)

والأبيات لأمير الشعراء وشاعر الحزب (محمد الشاذلي خزنة دار).

ومما جاء في افتتاحية الجريدة بمناسبة إطلاق سراح (الثعالبي):

«فما (سعد) مصر ولا (رفيق) ـ لعل المقصود (رفيق العظيم) ـ ولا شيخ الهنديين ـ يقصد (غاندي) ـ ولا نصير الأعاجم بأجلّ منك قدراً، ولا أكثر خبرة، ولا أعظم جهاداً، ولا أبلغ حجة، ولا أفره دراية بغوامض السياسة، وأفكار الساسة أيها (العزيز).

(2) (العزيز) في البيت يحتمل أكثر من معنى، الإسم المباشر للثعالبي، و «عزيز مصر» ملكها أو الذي كان على خزائن مصر، وهو الذي اشترى يوسف عليه السلام. ورباه في بيته، وإليه تشير الآية الكريمة: «وقال نسوة في المدينة، امرأة العزيز، تراود فتاها عن نفسه». والعزيز لقب كل من ملك مصر والإسكندرية في القديم.

وقد استعمل (مفدي زكرياء) نفس التعبير في قصيده اللاحق.

بعودته عادت لـ «تونس» روحها … فـأعجب ببر روحه ذلك البحر
بـأوبته آبـت لهـا العـزة التـي … أتاها لها الإسلام والأسـد الغـر[3]
وآب بـه مـا قـد فقـدنـا بفقـده … فتم نصاب الأنس، وانجبر والكسر
بطلعته شمـس السـرور تشعشعت … على أفق الإسلام، وابتسم الثغر
فـاعظـم بيـوم كـان عيـداً ونعمـة … على عالم الإسلام، فليعش البر[4]
سيجعـل عيـداً كـل عـام، مقـرراً … لدى سائر الأجيال. إن أنصف الدهر
ومـا هـذه الأفـراح للـذات، إنمـا … لـروح بهـا رمـز السعـادة، والسـر
لروح هي (الأكسير) والروح والغذا … لشخص هو (الدستور) فليعش الحر
لمجـد، لهمـات، لعلـم وحكمـة … لحـريـة، فـي طيهـا العـز، والنشـر
لابـرة (مغنـاطيـس) أرواح أمـة … لها في قلوب العالم، الذكر والشكر

* * *

أحلـت مـن الألبـاب أعظـم منـزل … وحق لها، إذ كان من بينها الحبر[5]
إذا قيل: من للمسلمين بقطرنا؟ … فقل علنا (عبد العزيز) لهم ذخر
ولا ينكر الشمس المضيئة غير من … بـه رمـد، والحـق فـي فمـه مـر
فيـا كعبـة الآمـال، قبلـة (تـونـس) … وآفاقها. عشتم، وتاجكم النصر
بذلتم ثمين العمر في أثمن المنى … ألا بلّـغ المـأمـول، وليطـل العمـر
قضيتـم لإصـلاح البـلاد حيـاتكـم … ولم يثن ذاك العزم، حر ولا قر
وخضتم من الأخطار أعظم لجّة … ولم يلوكم عن ذاك بر ولا بحر
رأيتم فنون الخسف في طلب العلا … لأكبـر مـرقـاة إلـى مـا بـه الفخـر

---

(3) (الأسد) بضم الهمزة والسين على أنه جمع، وإن كان الصحيح أن تسكّن السين. وكذلك (الغرّ) بضم الغين، جمع أغرّ. بياض الطلعة.

(4) (البرّ) بفتح الباء أو كسرها. فعلى الأول، المقصود: المطيع الفاعل للخيرات، ويعني الشاعر الممدوح. وعلى الثاني، المقصود الطاعة والإمتثال لأوامر الإسلام وخدمته وخدمة أهله.

(5) (الحبر) بفتح الحاء أو كسرها وسكون الباء: العالم الصالح.

حوادث هذا الدهر رتل[6]، ونفسكم ... لأجل نوال المجد منكم، لها جسر
فلو كان في جو السماء منا له ... لطرتم إليه مثل ما يفعل النسر
ولو كان في عمق البحار، لغصتم ... إليه. فلا جبن يعيق، ولا ذعر
تغلبتم عن كل شيء يصدكم ... وما درعكم إلا العزيمة والصبر
يقول لسان الحال منكم ترنما: ... (لنا الصدر بين العالمين أو القبر)[7]
ولا بدع في ذا، إذ تحمل جسمكم ... خلاصة فكر القرن، فليفخر الفكر
حياتكم أنموذج لحياتنا ... فمن شاء فليسلك، يحق له الصدر
تكهرب ذاك الجسم من وطنية ... وحرية ما إن يقاربه غر
تسربل ثوباً عائقاً سريانها ... رجال، فنالوا منه ما يبتغي القسر
فأضحى صريع السجن، عشر أهلة[8] ... وشهر به عام، ويوم به شهر
وما ذنبه إلا الرجا لبلاده ... هواء نقياً صافياً، ما به قذر[9]
وما شهمنا إلا محرر (تونس ... الشهيدة) لا إثم عليه ولا وزر
سجنتم فكان السجن أعظم راحة ... لكم من عنا ذاك الجهاد، فقد بروا
أجل. سجنوا الشعب العظيم بأسره ... بشخص، عظيم الشعب، فليعظم القدر
ولم تصنع الأقفاص قط لا رنب ... ولكن لأسد دابها النفخ والزأر
لئن سجنوا الشعب الكريم بشخصكم ... فقد أطلقوه اليوم. فليعش القطر[10].

أبو اليقظان

---

(6) (الرتل) عامية، المقصود (القطار) وقد يكون لها معنى في الفصيح بمعنى التناسق ولكنها تكون مفتوحة (التاء). ومنه (الترتيل) حسن تأليف الكلام، وتجويد قراءة القرآن.

(7) إشارة إلى بيت أبي فراس الحمداني:

ونحن أناس، لا توسّط بيننا ... لنا الصدر، دون العالمين، أو القبر

(8) وهي الشهور العشرة إلا قليلاً، التي قضاها الثعالبي في السجن.

(9) (القذر) الصحيح أن يكون بفتح (الذال).

(10) نشرت القصيدة في جريدة (المنير) للشاذلي المورالي. عدد (36) 29 رمضان 1339هـ 5 جوان 1921م بإمضاء (أبو اليقظان).



مصالي الحاج

(1888 ـ 1974)



مفدي زكرياء

(1908 ـ 1978)

(مفدي زكرياء: 1908 (بن يسجن) (وادي ميزاب. الجزائر) 1978 (تونس)

تفتحت طفولة (مفدي) المبكرة في أحضان الخضراء، حيث كان أعمامه يزاولون التجارة في الحاضرة في (سوق القماش) و (سوق الصوف). وفي (مدرسة السلام) القرآنية تلقى دراسته الابتدائية، ضمن البعثة (الميزابية) التي كان يشرف عليها المشايخ (إبراهيم أطفيش) و (أبو اليقظان) و (محمد الثميني) وكلهم أسماء بارزة في انطلاقة الحزب الدستوري التونسي، وفي فترته الحاسمة، بين تباشيره في أعقاب الحرب العالمية ومغادرة مؤسسه تونس سنة 1923 وهي الفترة التي كان فيها مفدي في (مدرسة السلام) وفي (المدرسة الخلدونية) وفي (جامع الزيتونة).

أما (صالح بن يحيى الشيخ) أو (الشيخ صالح بن يحيى) كما اشتهر، واقترن اسمه باسم (الثعالبي) وباسم (الدستور) وسجن بسببه مع (محمد الرياحي) في تونس العاصمة. يوم سجن (الثعالبي) في باريس. فهو عم مفدي زكرياء.

هذا المدخل يساعدنا على تصور الأجواء التي أحاطت بنشأة الشاعر: أمناء بعثة علمية، أعضاء عاملون في الدستور. ومعاهد تعليم. يديرها ويدرس بها دستوريون، مثل (الشاذلي المورالي) و (الشاذلي خرنة دار) و (الصادق النيفر). . وأجواء سياسية عامة، مشحونة بالعواطف والمشاعر

الملتهبة، إن صغر الشاعر عن الخوض فيها، فلن تصغر عن التأثير فيه، والارتسام في ذاكرته، ونقش مبادئها في شاعريته الكامنة. يقول الشاعر:

«كنت من بين أفراد البعثة العلمية التي قصدت تونس للاكتراع من مناهلها العلمية العذبة تحت رئاسة الأساتذة الأعلام المشائخ:

محمد الثميني، أبـي اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى، والعم الشيخ صالح بن يحيـى السلفي، والشيخ إبراهيم اطفيش، صاحب مجلة (المنهاج) بمصر، فدرست على هؤلاء دروساً دينية، وأخرى في الوطنية والتضحية في سبيل الوطن العزيز، والأمة المجيدة».

ودرس التاريخ الإفريقي والجغرافيا في (الخلدونية) التي حولها (البشير صفر) إلى قلعة وطنية، ولما تمض على وفاته إلا سنوات قليلة. سنة 1917 ودرس الشعر والعروض على (الشاذلي خزنة دار) شاعر الدستور، وأمير الشعراء.

وتخرج من هذه الأجواء بهذه الروح:

«ولقد شغفت حباً بالآداب طفلاً، وبتاريخ الأبطال من عظماء الأوطان. أما رأيي في النهضة، فأول عمل يجب هو استئصال العدو الداخلي من الخائنين والمنافقين قبل كل شيء».

وينتهي به القول، إلى مقولة تلقاها من الثعالبـي، يجعلها عماده في الحياة:

«وأن نجعل الدين عماداً، ونبني عليه كل شيء. كما قال الأستاذ الثعالبـي: كفانا، أن نحتفظ من ماضينا بالدين والأخلاق، وما عداهما، فإلى الدمار، إلى البوار».

ذاك (مفدي زكرياء) في أواسط العشرينات، طالب علم في الخضراء على عتبة التخرج، تنشر جريدة (النهضة) أول قصيدة له في عددها (595) 4 ذو القعدة 1343 هـ 26 ماي 1925 م.

و (مفدي) في أواسط الثلاثينات، شاعر حزب سياسي وأمينه العام، حزب يرفع مبدأ استقلال الجزائر، هو (حزب الشعب) بزعامة (مصالي الحاج). وخطيب منابر ومحافل وطنية، وداعية وحدة مغربية، وحبيس سجن سياسي، هو وزعيم الحزب يخرج منه بنشيد (أعصفي يا رياح). ومؤلف النشيد الرسمي للحزب.

فداء الجزائر روحي ومسالي ألا في سبيل الحرية

(مفدي) ابن (نجم شمال إفريقيا) و (اتحاد طلبة شمال إفريقيا).

يوم حوكم (مصالي الحاج) و (مفدي زكرياء) وصدر الحكم عليهما وعلى رفاقهما بسنتين سجناً، وحرمان المحكوم عليهم من حقوقهم المدنية والسياسية والعائلية. نشرت مجلة (الرابطة العربية) رسالة تلقتها من الجزائر بإمضاء (علي الصنهاجي) ومما جاء فيها عن الشاعر:

«هو شاب في العقد الثالث من حياته، ممتلىء فتوة ونشاطاً. ويفيض وطنية وحماساً، نشأ بـ (ميزاب) واحة في صحراء الجزائر، وتخرّج من (الجامع الأعظم) المعمور بتونس، ومدرسة الإمام ابن خلدون، قضى سن حداثته في الأوساط التونسية، مثالاً للذكاء النادر، والفكرة الوقادة بين زملائه، وكان ممتزحاً بالحركة الدستورية في أشد أيام ازدهارها، وتردد على منابرها، يرتجل الخطب الحماسية وينشد القصائد الوطنية، فكان محل إعجاب وتقدير.

شاعر فحل، تفجّر فؤاده بالشعر الوطني في الثانية عشرة من حياته، وهو اليوم يعد في طليعة شعراء شمال إفريقيا قاطبة، بشعره الجزل المتين المتدفق روعة، الملتهب روحاً وحياة. وقد خلع عليه (طلبة شمال إفريقية) في مؤتمرهم الرابع، المنعقد بتونس سنة (1934) لقب: (شاعر شمال إفريقيا)».

لعل هذه المقدمة تضع قصيد (الشمال الإفريقي يتحد) في إطاره الصحيح، وتعطي تفسيراً لإعجاب الشاعر بالزعيم (عبد العزيز الثعالبي). وهيام الشاعر بوحدة المغرب العربي. وحنين الشاعر، الدائم إلى (الخضراء) حتى النفس الأخير.

الشمال الإفريقي يتّحد(*)

ارفعـوا اليـوم للسمـاك البنـودا ... وافرشوا موضع التراب الخدودا
وامـلأوا الأرض عنبـرا، واغمـروا ... البحر عطورا، وبخّروا الكون عودا
وضعـوا الغار فوق هـامـة (قـرطا ... ج وغطـوا هـذي البطـاح ورودا
وتـرنح (شمـال إفـريقيـا) بشـري، ... وطـارح طيـورك التغـريـدا
واتـل للنيّـريـن عنـك نشيـدا، ... يحفـظ النيـران[1] عنـك النشيـدا
وابعـث الشعـر كـالـرسـول أمينـا ... يـذكـر الشعـر يـومـك المشهـودا

* * *

(*) ألقي هذا القصيد نيابة عن الشاعر في الحفل الذي أقيم ترحيباً بـ(الثعالبي) في (جمعية الشبان المسلمين) يوم الأحد (5) جويلية (1937). وقد ألقاه الأستاذ (محمد بن يوسف أطفيش) وهو من (بن يسجن) مسقط رأس الشاعر.

وقد سبقت القصيدة، برقية من (حزب الشعب الجزائري) هذا نصها:

«ثلاثة آلاف من المسلمين الجزائريين، اجتمعوا تحت إشراف الحزب الشعبي الجزائري يشاطرونكم بقلوبهم في هذا المهرجان العظيم الذي أقمتموه للإحتفال بقدوم الزعيم الكبير بشمال إفريقيا.

نشارككم بأرواحنا في فخركم بالشيخ الثعالبي.

الإمضاء: (مصالي الحاج. مفدي زكرياء).

المرجع: جريدة (الوزير) للطيب بن عيسى. السنة (18) العدد (484).

20 جمادى الأولى 1356. (9) جويلية 1937.

(1) (النيّران): النجمان يُهتدى بهما، كالفرقدين.

أيها النازلون في كنف الله، ... وفودا، تتلو الغداة وفودا
الميامين من سلالة (قحطان، ... و (ديدون)[2] والكرام جدودا
بين بشرى تكسو البلاد رواء ... في نهار غدا لـ (تونس) عيدا
ورعيل هناك حول رعيل ... بات يرجو على الرصيف البريدا
فكان الخضم[3]حوض وهذا الشعب ... قد جاء حوضه الموروردا
وكان الجموع في (عرفات)... ... تتهادى خلف الإمام سجودا
وكان السفين[4] ليلة قدر ... أقبلت تحمل الهدى والخلودا
قد حداها (عبد العزيز) كما يحدو ... (سليمان) في البساط المريدا[5]

* * *

مرحبا بـ(العزيز)[6]ينزل من (مصر) ... وأهلاً ومستقراً سعيدا
نزلا، أيها الزعيم، كريما ... وقدوماً مباركاً محمودا
سر على الأرض أيها الشيخ هونا[7] ... وامش فوق التراب مشياً وئيدا
إن للأرض كالنفوس حنينا ... إن للترب كالعباد كبودا
صافحتك البلاد في نشوة النصر، ... كما صافح العرين الأسودا
وأحلتك، والحشاشات يذكّيها ... لهيب الرجا، زماناً بعيدا
وتلقتك بعد خمس وعشر[8] ... كن عهداً على البلاد شديدا

---

(2) (ديدون): الأميرة (عليسا ديدون) التي أسست مدينة قرطاجنّة.
(3) (الخضمّ): البحر.
(4) (السفين): جمع سفينة.
(5) (المريد): الشديد العتو والجبروت. إشارة إلى تسخير الله سبحانه وتعالى الريح والشياطين لخدمة (سليمان) عليه السلام: «فسخّرنا له الريح، تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغوّاص، وآخرين مقرنين في الأصفاد».
سورة ص، الآية 36 و 37.
(6) (العزيز) سبق تفسيرها في قصيدة (أبـي اليقظان).
(7) (هون): مشيا، هيّنا، ليّنا.
(8) (خمس وعشر) هي الفترة التي قضاها الثعالبـي بعيداً عن تونس من 1923 إلى 1937.

أمة. كنت حولها العين والسمع ... وكنت الأب الرحيم الودودا

أمة. كنت تنفخ الروح فيها ... وطنياً وكنت فيها الشهيدا

فغدت تفتح الطريق إلى المجد، ... على همة تفل الحديدا

صرخت صرخة الحياة على الموت، ... وثارت تفكّ عنها القيودا

وغدوت الزعيم في الشرق تحدو ... في بني الشرق للجهاد جنودا

وتنادي بني العروبة للعزّ ... وتدعو إلى الكتاب الهنودا[9]

فليفاخر (شمال إفريقيا) بالرجل ... الفذ، وليباكر عهودا

ولتفاخر بشعبك اليوم يا شيخ ... على الدهر، صار شعباً رشيدا

من شباب مدربين عظام ... أرسلوها بوارقا ورعودا

طفحت بالفداء منهم عروق ... تتلظى دماً شريفاً عتيدا

وشيوخ محنكين كرام ... فتلوا بالعراك دهراً كنودا

رسخت باليقين منهم قلوب ... ملئت حكمة ورأياً سديدا

* * *

أيها الشعب والتهاني توالي[10] ... والمسرات ينتظمن عقودا

يا زعيم الشمال والشرق. يا من ... ملأ الشرق والشمال جهودا

إن شعب (الجزائر) اليوم قد جاء، ... يهنّي لواءك المعقودا

ويهنيك باسمه (حزب شعب)[11] ... في المبادي قد كان منك وليدا

فهو من روحك العظيمة جزء ... فتقبل من بعضك التمجيدا

---

(9) إشارة إلى رحلات (الثعالبي) إلى الهند وإلى اهتمامه بمسلمي الهند، وإيفاد (الأزهر) له لدراسة قضية (المنبوذين) في الهند، والعمل على إدخالهم إلى الإسلام. وسبق التعرض لهذا الموضوع في القسم الخاص بالهند من هذه الصفحات.

(10) (توالى): أصله تتوالى.

(11) (حزب الشعب) هو وريث (نجم شمال إفريقيا) الذي أسسه (مصالي) في فرنسا سنة 1924 هذا الحزب شهد ميلاده بالإسم الجديد سنة (1937) كان (مصالي الحاج) زعيم الحزب. و (مفدي زكرياء) شاعره وخطيبه، ومؤلف أناشيده الخالدة.

وعن (مصالي الحاج) قال الأمير (شكيب أرسلان):

«هو من خيرة الفتيان، ونخبة الشبان، ولو كانت الشبيبة الإسلامية كلها على =

وارع أرضاً غدوت فيها زعيما تـرتجي في جهادها التأييدا
لم تزل برّة بعهدك فيها والرجا لا يزال فيك وطيدا
قسموها خديعة لثلاث[12] كذبوا لن تزال شعباً وحيدا
وأقاموا على الهضاب عصيا لقبوها - يا للنفاق - حدودا
والجراحات بينها والأماني والأمانات، لا تزال شهودا

* * *

وطني بالدم الزكي أفديك، يميناً شريفة وعهودا
وطني أنت جنة الخلد في الأرض فهيهات في الورى أن تبيدا
وطني إننا ضحاياك في السلم، وفي الحرب، بغية أن تسودا
فاتخذنا إذا أردت سيوفا واحترقنا إذا أردت وقودا
نحن قوم، جدودنا ملكوا الدنيا فهيهات أن نعيش عبيدا
صيد[13] في الدماء من نشوة الملك ينادي بنا العلا والصعودا

= نمطه، لتحرر الإسلام من زمن بعيد، ليس في ذلك مبالغة. بل أقول ما أعتقد. والله على ما أقول وكيل. فقد خبرت بنفسي مدة ستة أشهر بالإجتماع الدائم، حقيقة (مصالي الحاج) في أخلاقه وآدابه، وعلو نفسه ونصاحة رأيه، فلم أجد شيئاً ينقصه. وغاية متمنّاي، أن يحفظه الله، ويكثر من أمثاله، والناسجين على منواله».

المرجع: مجلة (الرابطة العربية).

(12) (قسّموها لثلاث) يقصد الشاعر ما هو واقع تحت سيطرة الإستعمار الفرنسي من أقطار المغرب العربي. (تونس والجزائر والمغرب). و (عبد الحميد بن باديس) يتوسع في مدلول الإستعمار الغربي للمنطقة. فيقول في نفس السنة (1937):

«حيثما توجهنا إلى ناحية من نواحي التاريخ، وجدنا هذا المغرب العربي (طرابلس، تونس، الجزائر، مراكش) يرتبط بروابط متينة، روحية ومادية تتجلى بها وحدته للعيان. ولسنا نريد هنا أن نتحدث عن التاريخ القديم، وإنما نريد أن نعرض صفحة من التاريخ الحديث الجاري.

المرجع: مجلة (الشهاب ج (5) المجلد (13) جمادى الأولى 1356 يوليو / تموز 1937.

(13) (صيد) بفتح الصاد والياء، عزة وأنفة، ومنه (الأصيد) ذو الرفعة والشأن. جمع (صيد) بكسر الصاد.

في ثنايا الضلوع، للصحب خلد نـــا، قبـــوراً زكيـــة، ولحـــودا
«عقبة»[14] يصرخ: النجاة و«موسى»[15] و «ابـن زيـاد»[16] سجـداً وقعـودا

* * *

يـــا فـــرنســـا لا تجهلينـــا فـــإنـــا قـــد نهضنـــا، فـــلا نطيـــق الـــركـــودا
قـــد كـــرهنـــا حيـــاة ظلـــم وجـــور وسئمنـــا الخـــراب والتبـــديـــدا
ما لها تزدري بنا (جبهة الشعب)[17] وتجـــزي هـــذي البـــلاد صـــدودا
مـــا لهـــا تحقـــر الضعيـــف وفيـــه مهجـــة حـــرة تفـــل الحـــديـــدا

---

(14) (عقبة بن نافع الفهري 1 ـ 63هـ 621 ـ 683م) فاتح إفريقية، وباني مدينة (القيروان) والمسجد الجامع أول مسجد في إفريقية، الذي حمل اسمه. وكان ذلك سنة (55)هـ (674)م ودفين بلدة (سيدي عقبة) بـ (الزاب) شرق الجزائر.

(15) (موسى بن نصير 19 ـ 97هـ من صفوة رجال الدولة الأموية كفاءة واقتداراً، ولاه عبد الملك، وأعان الأمن والإستقرار إلى المنطقة واتجه إلى الأندلس لمتابعة الفتوحات وتوسعت فتوحاته في أوروبا حتى فكر في اكتساح أوروبا كلها والعودة إلى المشرق عن طريق القسطنطينة. لم يهزم له جيش قط.

(16) (طارق بن زياد 50 ـ 102هـ 670 ـ 720م) القائد المسلم البربري. فاتح الأندلس. ومخلد اسمه على (جبل طارق) سنة (92)هـ (710)م. وصاحب القولة المشهورة بعد إغراق مراكبه يخاطب جنده:

«سيروا على بركة الله. لا وقاء لكم بعد اليوم إلا تحت ضباة السيوف. العدو قبلكم والبحر وراءكم، فإما النصر وإما الموت. حرقاً أو غرقاً. فاختاروا منها لأنفسكم ما شئتم». وقد استطاع (طارق) و (موسى) في سنة واحدة فتح ما بين جبل طارق وسفوح جبال البرانس.

(17) تمكنت أحزاب اليسار في فرنسا سنة (1936) من تأسيس حكومة ائتلافية تحت اسم (الجبهة الشعبية) ومع وصول اليسار إلى الحكم في باريس انتعشت الآمال في شمال إفريقيا في تحقيق بعض المطالب الوطنية التي غدرت بها الحكومات السابقة. ولكن سرعان ما تنكر (اليسار) لمبادئه، وخاب الظن فيه وفي اللجان المتوافدة على المنطقة لذرّ الرماد في الأعين. بعد موجة من التفاؤل الخادع. قال شاعر الجزائر (محمد العيد) يخاطب فرنسا سنة (1936)):

فاز فيك (اليسار) فاليوم. لا عسر. أليـس (اليســار) فـــألاً حميـــداً؟!
فاز فيك (اليسار) فالأمة، اليوم ستفـــدى بمـــا عســـى أن يفيـــدا

أمطرتنا على الحساب لجانا — قد سئمنا وعودها والوعيدا
ورأينا اللجان كيف تغني — و «فيوليت»[18] يستعيد القصيدا
أمن العدل يا (فرنسا) لشعب — أن يرى فوق أرضه موؤودا؟
أمن البر أن تشع (فرنسا) — وتجازي على الجميل الجحودا؟
نحن جدنا حيالها بالدم الغالي[19] — ، فماذا يضرّها أن تجودا!

= فاز فيك (اليسار) فاقتربت — منك، وناطت بك الرجاء الوطيدا
ليس حقاً. أن تحرمي الشعب حقاً — لقي النار دونه، والحديدا
يا فرنسا. ردي الحقوق علينا — وأقلي الأذى، وكفّي الوعيدا
نحن. رغم الطغاة، في الأرض — أحرار. وإن خالنا الطغاة عبيدا

(18) (موريس فيوليت) كان والياً عاماً على الجزائر سنة (1927). وعاد إليها سنة (1931) على رأس لجنة من مجلس الشيوخ للتحقيق في مشاكل الجزائر. وكان مشروعه يشترط الجنسية الفرنسية لنيل الحقوق. وكان هذا الشرط سبباً للقضاء على مشروعه الذي رفضته الأوساط الوطنية.

(19) إشارة إلى عشرات الآلاف من أبناء الشمال الإفريقي المسلمين الذين ماتوا ضحايا الدفاع عن العلم الفرنسي المثلث الألوان في الحرب العالمية الأولى، أملاً في نيل بعض الحقوق لقاء هذه الضريبة من الدم.

كتب الزعيم الوطني المصري (محمد فريد 1868 ـ 1919) في (مذكراته) عن زيارته للأسرى من أبناء شمال إفريقيا الذين أسرتهم القوات الألمانية في الحرب العالمية الأولى.

كانوا (3046) كلهم من عرب تونس والجزائر وقليل من المغاربة، بينهم نحو مائة من القبائل. تكلمنا مع كثيرين منهم على حدة، فكانت خلاصة الحديث.

إن الحاكم العام استدعى آباءهم وقال لهم: إنكم تزعمون الإخلاص لفرنسا وتطلبون منها دائماً المساواة مع الفرنسيين في الحقوق والمرافق. فها الفرصة قد ظهرت لإظهار هذا الإخلاص، ولا يكون ذلك إلا بإرسال أولادكم طوعاً إلى الجيش. وقال آخر: إنهم تطوعوا في أمل أن فرنسا تبر بوعودها العديدة وتعطيهم بعض الحقوق. على أنهم متفقون على شيء واحد، وهو أنهم لا يحبون فرنسا قلباً. بل قلبهم دائماً مع الخليفة في الأستانة، ويودّون الخدمة في جيوشه».

(مذكراتي بعد الهجرة: 1904 ـ 1919) محمد فريد. الهيئة المصرية العامة للكتاب (1978). الصفحة (219 و 220).

إن تنــاسـت وأنكــرت، ذكــروهــا جثث الشعب تملأ الأخدودا[20]

* * *

ضاق صبر البلاد يا (جبهة الشعب) فهــل تنتجيــن شيئــاً مفيــدا
لــن تفيــد الــوعــود فينــا فــإنــا (جبهة الشعب) قد مللنا الوعودا
أيها الشعب! خلّ عنك الأماني وأركــب العــزم واتــركــن الجمــودا
واستبــق للحيــاة، وابــن مــع العز على النيرين، قصراً مشيدا[21]
وعلــى النفــس فــاعتمــد وتقــدم واقتحم في الحياة عصراً جديدا
كل من يعتمد على الغير، أضحى بيــد الغيــر فــي الحيــاة مســودا
كــل مــن يــرتضــي حيــاة هــوان عاش في أرضه الشريد الطريدا
صــرخــات مــن شــاعــر وتحــايــا مــرحبــاً مــرحبــاً، قــدومــاً سعيــدا

(مفدي زكرياء)

(20) (الأخدود): الشق العظيم المستطيل في الأرض. ومنه الآية الكريمة في سورة (البروج) الآية 4 ﴿قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود﴾.

(21) (القصر المشيد): عال مرتفع.

بعـــد الرحيـل

(لا ثعالبي بعد اليوم)

نص الخطاب التأبيني الذي ألقاه السيد (محمد الحبيب شلبي) أمام جثمان الزعيم التونسي الكبير عبد العزيز الثعالبي يوم 2 أكتوبر 1944 بمقبرة الزلاج.

أيها الزعيم التونسي الكبير.
ويا أيها البطل العربي العظيم.
بل يا أيها المجاهد الإسلامي الخالد.
لقد فجعت فيك تونس ونكب بك الإسلام.
فيا للفجيعة العظمى.
ويا للرزء الجلل.
ويا للنكبة الفادحة.

فلقد كنت تمثل آمال أمة، وعبقرية جنس، وسموّ دين.

هذه المعاني السامية الثلاثة كانت تتجلى في شخصك العظيم وحياتك الحافلة، حية قوية رائعة، ترينا كيف تتجسّد المعاني وتتجسّم الفكر وتنشق من مادة الأرض الفانية روح السماء الخالدة. أجل. لم تعش كما يعيش غمار الناس ولم تحي كما يحيا الأكثرون، مرتبطاً بالأرض أسير المادة، عبد المطامع والحاجات! بل عشت حراً طليقاً محلقاً في الأجواء كالنسور القشاعم، تنشد المثل الأعلى الذي كرست له حياتك ووقفت عليه جهودك. وكانت حياتك الطويلة المباركة سلسلة من الجهاد والكفاح. والإيثار

والتضحية. فلقد فتحت عينيك على دنياك ونظرت فيما حولك فأبصرت وطناً نكب بالاستعمار، وأمة أصيبت بالتفرق والخذلان. وديناً علاه صدأ البدع والضلالات. فلم تشأ نفسك الكبيرة الأبية، وروحك العظيمة الحرة، أن تركن إلى الخضوع والخنوع. والرضى والتسليم. بل فارت في عروقك دماء الوطنية وثارت في رأسك النخوة العربية. وجاشت في صدرك الحمية الإسلامية. فانطلقت في الميدان رافعاً راية الجهاد، مكافحاً لأجل الوطن. منافحاً عن العروبة. مجاهداً في سبيل الإسلام، ثابتاً على الحق ثبوت الرواسي. ماضياً في الجهاد قدماً مضيّ السهم لم تتردد ولم تنكص. ولم تعي ولم تكل. ولا فترت لك همة. ولا خبا لك نشاط. حتى ألحّت عليك العلة. وثقل عليك الداء، واخترمتك المنون، فمضيت لربك راضياً مرضياً طاهر الذيل، نقيّ الضمير.

فمن منبىء عنا أبناء عمومتنا بمصر والعراق. وسوريا ولبنان. ونجد والحجاز. واليمن وفلسطين ومن مخبر إخواننا المسلمين بتركيا وإيران. وجاوه والأفغان. والهند والصين. أن عبد العزيز الثعالبي قد قضى.

فيا لها كلمة أليمة.

بل يا لها طعنة نجلاء، وصاعقة نزلت بأرض المغرب فاهتزت لها أرجاء المشرق.

فرحماك يا رب. رحماك.

ومن مبلغ عنا (جمعة) و (النحاس)، و (الأتاسي) و (الصلح)، و (الحسيني) و (الهاشمي)، و (أبا الكلام) و (غاندي) ونخبة العروبة والإسلام أن ذلك الصوت الجريء الجهير، الذي طالما سمعوه مجلجلاً في سماء الشرق، مدوياً في القاهرة وبغداد. ودمشق والقدس. وكلكتا وبومباي. قد صمت صمته الأبدي. . . وأن ذلك الزعيم الكبير الذي عرفوه. والمجاهد العظيم الذي شهدوه. قد اختفى شبحه إلى الأبد، ألا قولوا لإخواننا العرب والمسلمين المنتشرين في أنحاء المعمورة. المتطلعين إلى النبإ العظيم الذي

ـه الآفاق، وأدلهمت له سماوات المشرق والمغرب. قولوا لهم. إن
، اليوم لمأتماً، قولوا لهم إن تونس المسكينة، تونس البائسة، تونس
خرجت اليوم بشيبها وشبابها إلى (الزلاج) لتحتفل. بل لتبكي، بل
نها البار، وبطلها المغوار، وفارسها الكرار، الذي طاحت به المنايا
ـو يحمل الراية في الميدان، فما أعظم الخطب، وما أفدح المصيبة!

ـحانك اللهم، لا اعتراض على قضائك...

ـندما انتظمت الصفوف ورفعت الرايات، وانفسح الميدان، وتهيأ
ـيز) للعمل، تطحنه العلة، ويسحقه الداء، وتخترمه المنون...

لتعس حظك يا تونس... ويا لجدك العاثر...

ـا لله وإنا إليه راجعون.

ـكن... مهلاً... فإذا كانت الأدواء قد سطت على جسمك فأذوته،
الردى قد غال جسدك، وسلك به بطن الأرض فاختفى عنا.

ـ روحك العظيمة النبيلة المنبثقة من صميم الحياة الأعلى ونبعها
باقية بيننا حية، قوية، رائعة تشرق علينا بنورها. وتوحي لنا المثل
ـالمبادىء السامية التي سلخت شبابك وشبيبتك تبشر بها وتدعو

ـا عليها ـ بحول الله ـ لحافظون، وإنا عليها لثابتون.

ـ يا (عبد العزيز) أن تراثك الروحي لا يضيع، وإن الغرس الذي
يثمر.

ـك لم تكن في دعوتك إلى الحق بالمرائي المخادع. أو الواهن
ولم تكن تصدر في ذلك من الاعتبارات الزائلة، والقضايا العابرة.

كنت نفساً حرة ممتلئة إيماناً، وروحاً عربية مضطرمة حماساً،
ـياً رائعاً، صادراً من أعمق أعماق ضمير الأمة العربية، منحدراً إلينا

من خلال القرون وثنايا التاريخ، يحدثنا عن مجد العرب وسؤدد العرب ومدنية العرب الضارية بجذورها في أعماق الماضي البعيد، وأحشاء الزمن الغابر. فتثير فينا ذكريات عزيزة، حبيبة إلى قلوبا، وحنيناً لاهباً إلى مغاني العروبة الزاهرة في سالف مجدها وماضي عزها، وتوقظ فينا ذلك الشعور العربي الحي الذي أتى بالمعجزات في صدر الإسلام.

أجل، لترقد أيها الرجل العظيم في جدثك الطاهر، ومثواك الأخير، هانئاً مطمئناً، فإنك قد أديت الرسالة وبلّغت الأمانة، وإن الشعور الذي أيقظته في المغرب والمشرق لن ينام. والروح اللاهبة التي بثثتها وأوقدتها لن تخبو أو تموت.

وثق يا (عبد العزيز) أنك حي في قلوبنا، وإن ذكراك العزيزة علينا، بجسمك الضخم وهامتك العظيمة وطلعتك الرائعة، التي تذكرنا بأبطال العرب الغابرين، لا تزايل أذهاننا ما حيينا، ولسوف ننهج نهجك، ونثبت على مبدأك ونسير قدماً إلى الأمام، غير وجلين ولا مترددين.

وأنتم، يا إخوان الفقيد، وصحابته الذين سبقوه بالإيمان إلى الدار الآخرة.

يا فيصل العراق، وزغلول مصر، ويا محمد علي الهند، ويا ياسين الهاشمي، وجعفر العسكري، وأحمد زكي، ومحمد محمود، ويا قروم العروبة، وأبطال الإسلام.

ها هو ذا صاحبكم الكريم، يقدم عليكم اليوم، فتقبلوه عنا أحسن القبول، وبوّؤوه مقاماً محموداً بينكم في عليين، فانه أمل أمة، ورجاء شعب.

وأنت، يا أيها الشعب الذاهل الملتف حول هذا الجثمان، الحاني عليه حنو الابن البار ليودعه الوداع الأخير، فعزاء لك اليوم في عبد العزيز.

ولا ثعالبي بعد اليوم...

(خلود زعيم عربي)

نقلت الأنباء الفرنسية إلى الشرق العربي نبأ هلعت له القلوب، واتخلعت له الأفئدة، فقد نعت إلينا المرحوم (الشيخ عبد العزيز الثعالبي) في أوائل العقد الثامن من عمره بعد مرض أليم طويل في العزلة والوحدة، فسكن ذلك القلب الكبير الذي ما عرف السكون طول حياة صاحبه، وانقطع نبض الحياة في تلك النفس الكبيرة الجياشة، وسكت ذلك اللسان الذرب الفصيح، وانطفأت شعلة الذكاء والفطنة في تلك الرأس الضخمة المنيرة، التي كانت أشبه بسراج وهاج تستضيىء به روح وثابة، وتستحث بقوة نوره همة عالية، وإرادة قوية، وغريزة وثابة إلى المعالي، وصدر رحب لا تشغله منفعة مادية ولا مصلحة ذاتية. بل يستثيره النفع العام، والإصلاح الشامل للشرق والعروبة وسائر الأوطان المغلوبة على أمرها.

وكل من عرف الشيخ الجليل أثناء حياته في وطنه، أو في منفاه، عرف يده الطائلة في الخيرات، وهمّته في اصطناع المكرمات، وثباته على مبدئه مع شرف المقاصد. وحرية الضمير، والمروءة بالفعل، والشجاعة في الأقوال والأعمال، وتحمل المكاره في وطنه وغير وطنه، وبذل المال والعمر حتى التضحية بالمال الموروث والمكتسب بالحلال. والولد والأهل، وراحة البدن، وملذات الروح والبدن، المباحة في سبيل المثل العليا، والآمال السامية التي لا ينال صاحبها في الشرق العربي خاصة، سوى الآلام والتعذيب والحرمان والاضطهاد والحسد والنميمة والإهمال، وكل هذا أو هذه، وهو

يتجلد للشامتين، ويحتال على خصوم أوطانه، ويبدو عظيم الجانب، عريض الجاه، رفيع العماد، طويل النجاد، لا يبالي بكل ما يلقاه في سبيل غرضه الأسمى، ويسير في الحياة كمن أدركه السكر الإلٰهي، والجذية الوجدانية، مشغولاً عن كل شيء مما يشغل سواه من معاصريه.

(لطفي جمعة)

جريدة (الدستور) القاهرية

4 أكتوبر 1944

(تأبين الثعالبي)
في جمعية الشبّان المسلمين بالقاهرة
1944/11/9

وبعد ظهر اليوم المذكور توجهت إلى الجمعية فوجدت عبد الستار الباسل ومنصور فهمي ومحجوب ثابت وعبد اللطيف دراز ولفيفاً صغيراً من أصدقاء المرحوم الثعالبي، وكان بعض التونسيين وعلى رأسهم بن قايد، وسارت الحفلة آلياً، فتكلم محمد حامد المليجي نيابة عن محمد علي علوية باشا وقرأ كلمته، ثم تكلم منصور فهمي على طريقته الارتجالية العائمة.

وكان الخطباء يحيلون الكلام عليَّ باعتبار أنني كنت ألصق أصدقائه أثناء إقامته في مصر، فلما جاء دوري وكنت متعباً منهوكاً، وفي غاية الغم، تكلمت كلاماً قليلاً، ذكرت فيه مناقب الشيخ وجهاده في سبيل وطنه وأوطان الإسلام، وأنه كان مظلوماً ومغبوناً ومهضوماً، وأن حظه حظ الزعماء في الشرق الذين يلقون الضيم، إذا تجردوا لخدمة أوطانهم.

كان الحاضرون لا يزيدون على خمسين شخصاً، وليس فيهم شاعر ولا خطيب، ولا صديق حميم، غير منصور فهمي ودراز ومحجوب، ولكن واحداً منهم لم يستعد للكلام ولم يهتم قبل الاحتفال. بل قضى مأموريته، ولم يكن الثعالبي ليستحق هذا الإهمال من بلد الخطباء والعظماء، الذين طالما احتفل بهم وعاشرهم وأخلص لهم وصافاهم، فكانت صورة محزنة لنكران الجميل، وإهمال حقوق العظماء، كا هي العادة في الشرق عامة، وفي مصر خاصة.

لقد كانت الحفلة فاشلة، لأن أصدقاء الثعالبي اعتذروا عن الحضور، وهكذا أرى أصدقائي من حولي يموتون ويقعون كأوراق الشجر في الخريف؛ محمد عبده ومصطفى كامل وطنطاوي جوهري وأمين ريحاني وفرح أنطون والثعالبي وقاسم أمين وعشرات آخرون، حتى أني أشعر بالاغتراب والعزلة وأرى الحياة لا طعم لها بعد موت هؤلاء العظماء.

يوميات لطفي جمعة

أكتوبر 1944

(مخطوطة)

كشـاف الأعلام

ـ أ ـ

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

- غ -

- ف -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس الوثائق والصور

فهرس

الثعالبي بأقلام الكتاب والشعراء



الدكتور صالح الخرفي
(بطاقة تعريف)

الشهـادات العلميـة:

- دكتوراه الدولة بـ(مرتبة الشرف الأولى) من قسم اللغة العربية، كلية الآداب جامعة القاهرة سنة 1970 بأطروحة عن (الشعر الجزائري الحديث).
- الماجستير بتقدير (امتياز) سنة 1966م برسالة عن (شعر المقاومة الجزائرية). جامعة القاهرة
- ليسانس في اللغة العربية وآدابها سنة 1960م. جامعة القاهرة

الوظائف العلمية والإدارية وطنياً وقومياً:

- مدير إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم (1976ـ1992) بترشيح من الجزائر وانتخاب من المجلس التنفيذي للمنظمة في دورته السابعة عشرة.
- رئيس تحرير (المجلة العربية للثقافة) الصادرة عن إدارة الثقافة بالمنظمة منذ سنة 1981م.
- رئيس تحرير مجلة (الثقافة) التي صدرت عن وزارة الإعلام والثقافة الجزائرية، من أول صدورها سنة 1971 ـ 1976م.
- رئيس (دائرة اللغة والأدب العربـي) بجامعة الجزائر من سنة (1971 ـ 1976م).

ـ أستاذ الأدب العربي والأدب الجزائري الحديث بدائرة اللغة والأدب العربي بجامعة الجزائر متدرجاً من (مساعد) سنة 1964 حتى (أستاذ) سنة 1976.
ـ مسؤول العلاقات الثقافية بين الجزائر والبلاد العربية في أوّل وزارة للتربية بعد الاستقلال سنة 1962 ـ 1964م.
ـ تولى منذ سنة 1984 حتى 1990م مسؤولية المدير العام المساعد بالإنابة لقطاع الثقافة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس.

العضوية العلمية والفكرية والأدبية:

ـ عضو مؤازر بـ (مجمع اللغة العربية الأردني) سنة 1989م.
ـ عضو مراسل بـ (مجمع اللغة العربية) بدمشق سنة 1986م.
ـ عضو اللجنة الوطنية للتعريب في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بالجزائر من سنة (1971 ـ 1976 م).
ـ عضو لجنة إصلاح التعليم العالي بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الجزائر سنة (1971م).
ـ عضو مؤسس لـ (اتحاد الكتّاب الجزائريين) سنة 1964م.
ـ عضو المجلس الإداري (اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين) فرع تونس سنة 1956م.

النشاط الفكري والأدبي والوطني:

ـ حاضر في (معهد البحوث والدراسات العربية) في القاهرة سنة 1969م. وفي جامعة الكويت. قسم اللغة العربية سنة 1975م. وفي (الدوحة) وفي (دمشق) وفي (الرباط) و (تونس) و (بغداد).
ـ نشر في الدوريات العربية، مشرقاً ومغرباً، ومن بينها (المعرفة) السورية، و (الأقلام) العراقية، و (الفكر) و(اللغات) التونسية و (العربي) الكويتية

و (الدوحة) القطرية و (دعوة الحق) المغربية و (مجلة العالم العربي) القاهرية، والدوريات الجزائرية: (المعرفة) و (الأصالة) و (الثقافة) و(الجيش) و(مجلة مجمع اللغة العربية الأردني) ونشر في جريدة (المقاومة الجزائرية) أثناء الثورة.

- محرر صفحة ثقافية في الدورية الجزائرية (المجاهد) الأسبوعي مدة سنتين (1966 ـ 1968).
- أثناء الثورة التحريرية. مثّل الجزائر في المؤتمرات الأدبية والمهرجانات الشعرية في الوطن العربي.
- ترجمت مختارات من شعره، إلى الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والروسية.
- نشر في الصحافة التونسية وأذاع في الإذاعة التونسية، وساهم في المحافل الأدبية في تونس من سنة 1953 ـ 1957م بكنية (أبو عبد الله صالح) وسافر إلى المشرق بجواز سفر تونسي باسم (حمودة الحبيب). وشارك بهذا الاسم في بعض المحافل الأدبية في المشرق العربي.
- في سنة 1961م وبتكليف من وزارة الداخلية في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تولي مهمة (التعبئة السياسية) في أوساط اللاجئين الجزائريين في تونس، في المنطقة الرابعة (منطقة الكاف) حتى إعلان استقلال الجزائر.
- شارك بالتحرير والصياغة والإعداد في العديد من الكتب الصادرة عن إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من بينها:
  - مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية 1985م.
  - العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية 1985م.
  - من قضايا اللغة العربية المعاصرة 1990م.

الجوائز والأوسمة وشهادات التقدير:

- (شهادة تقدير) من رئيس الجمهورية الجزائرية لمؤلفاته ونضاله في خدمة الثقافة الوطنية في الذكرى الخامسة والعشرين لاسترجاع الاستقلال والسيادة الوطنية الجزائرية سنة 1987م.

- (وسام المقاوم) أثناء حرب التحرير الوطني، في الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة الجزائرية من وزارة المجاهدين 1984م.
- الوسام الثقافي من رئيس الجمهورية التونسية، تقديراً لجهوده في سبيل تمتين الأواصر الثقافية بين الشعبين التونسي والجزائري سنة 1972م.
- (جائزة الشعر الأولى) في الذكرى العاشرة للاستقلال من وزارة الإعلام والثقافة الجزائرية سنة 1972م.
- (جائزة الشعر) من (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب) في القاهرة سنة 1959م.

السيـرة الذاتيـة:

- من مواليد سنة 1932م بـ (القرارة). ولاية (غرداية) جنوب الجزائر.
- سنة 1938م التحق بـ (مدرسة التربية والتعليم) من مدارس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في مدينة (باتنة) شرق الجزائر.
- استكمل دراسته الابتدائية في (مدرسة الحياة) بالقرارة من مدارس (الحركة الإصلاحية) في جنوب الجزائر.
- سنة 1946 وقبل سن التكليف، استكمل حفظ كتاب الله العزيز واستظهره على إمام مسجد القرارة، والتحق بـ (هيئة حفاظ كتاب الله) في البلدة.
- استكمل دراسته الثانوية بـ (معهد الحياة) في القرارة. أقدم المعاهد الثانوية الحرة في الجزائر.
- سنة 1953م التحق بـ (جامع الزيتونة) و (المدرسة الخلدونية) في تونس.
- سنة 1957م التحق بقسم اللغة العربية، بكلية الآداب جامعة القاهرة.

النشر العلمي والفكري والأدبـي:

في الأبحاث والدراسات:

1 - (شعراء من الجزائر) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة،

1969م.

2 ـ (صفحات من الجزائر) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1974م.

3 ـ (الشعر الجزائري الحديث) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1975م.

4 ـ طبعة ثانية م. و. ك، الجزائر، 1984م.

5 ـ (الجزائر والأصالة الثورية) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1978م.

6 ـ (شعر المقاومة الجزائرية) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1982م.

7 ـ (في ذكرى الأمير عبد القادر الجزائري) م. و. ك، الجزائر، 1984م.

8 ـ (في رحاب المغرب العربي) دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

في الشعر:

9 ـ (صرخة الجزائر الثائرة) وزارة المعارف. الدوحة، قطر، 1958م.

10 ـ (نوفمبر) وزارة المعارف. الدوحة، قطر، 1961م.

11 ـ (أطلس المعجزات) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1967م.

12 ـ طبعة ثانية م. و. ك، الجزائر، 1982م.

13 ـ (أنت ليلاي) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1974م.

14 ـ (من أعماق الصحراء) بيروت 1992 م.

في سلسلة الأدب الجزائري الحديث:

15 ـ (المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث) ش. و. ن. ت. 1983.

16 ـ (عمر بن قدور الجزائري) م. و. ك، الجزائر، 1984م.

17 ـ (حمود رمضان) م. و. ك، الجزائر، 1985م.

18 ـ (محمد السعيد الزاهري) م. و. ك، الجزائر، 1986م.

19 ـ (محمد العيد خليفة) م. و. ك، الجزائر، 1986م.

20 ـ (الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو) في الحجاز: (1935 ـ 1945م)، بيروت، 1992م. دار الغرب الإسلامي.

21 ـ عبد العزيز الثعالبي: من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب (دار الغرب الإسلامي)، بيروت، 1995.

استدراكات

صفحة	
13	الهامش رقم 3 يكون رقم 5 .
14	الهامش رقم 5 يكون رقم 3 .
19	الهامش رقم 8 الأول هو تابع للهامش رقم 7 من صفحة 15 .
35	الهامش رقم 18 سطر 3 - الخطأ : أوق / الصواب : أرق .
52	تلغى : بمناسبة إلقاء القبض عليهم وإيداعهم السجن سنة (1920) .
	تقرأ : عدد (11) ماي 1921 بمناسبة إطلاق سراح الثعالبي .
66	السطر الثاني من آخر الصفحة - الخطأ : علي باشا / الصواب : علي باش .
67	السطر الخامس - الخطأ : باشا / الصواب : باش .
68	السطر الرابع من آخر الصفحة - الخطأ : علي باشا / الصواب : علي باش .
153	الهامش 25 سطر 3 - الخطأ : المساحة والهندسة والمساحة / الصواب : الهندسة والمساحة .
162	السطر الثاني - الخطأ : الكناني / الصواب : الكتاني .
171	السطر الرابع من آخر الصفحة في هامش 2 - الخطأ : وأفرع / الصواب : وأفرغ .
177	السطر الثاني من الهامش - الخطأ : الثكنة / الصواب : النكتة .
	السطر السادس من الهامش - الخطأ : للأصدقائه / الصواب : لأصدقائه .
180	السطر الثاني - الخطأ : 1921 / الصواب : 1922 .
182	السطر الثالث من آخر الصفحة في هامش 12 - الخطأ : دفجّر / الصواب : فجّر .
231	الهامش 15 السطر الأول - الخطأ : 1276 - 1359 هـ - 1940 م / الصواب : 1276 - 1359 هـ / 1860 - 1940 م .

صفحة

233 الهامش 20 السطر الأول – بعد (منصور فهمي) يضاف : (1886 – 1959)
من أصل مغربي .
يضاف في آخر الهامش : ومدير دار الكتب المصرية ، ومدير جامعة الإسكندرية ، وأمين سر المجمع من سنة 1934 حتى وفاته .

237 الهامش 25 – الخطأ : مؤتمر عمربي / الصواب : مؤتمر عربي .

299 الهامش 24 سطر 4 – الخطأ : عوته / الصواب : عودته .

316 الخطأ : يمينه ، ومحمود الماطري عن يساره /
الصواب : يساره ، ومحمود الماطري عن يمينه .
يضاف إلى السطر الأخير : من مكتبة محمد الحبيب شلبي .

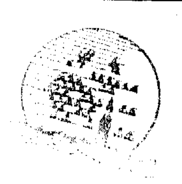
336 الهامش 10 – الخطأ : 1902 – / الصواب : 1902 – 1994) .

350 الهامش 15 يقرأ كما يلي: (الحاوي) هو مروض الحيات ، وفي لسان العرب :
رجل حواء وحاو : يجمع الحيات . وتحوت الحية ، تجمعت واستدارت .



دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء، بناية الأسود
تلفون البناية: /340131 تلفون مباشر: 350331 ص. ب. 5787-113 بيروت، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN



الرقم 290 / 1000 / 11 / 1995
التنضيد: كومبيوتايب للصف الطباعي الالكتروني
الطباعة: دار صادر، ص. ب. 10- بيروت

Le Cheikh
ABDELAZIZ THAALBI

(Extraits de ses écrits et aperçus de son action en Orient et au Maghreb, illustrés par 50 photos et documents)

Présentation et commentaire
de
SALEH KHARFI



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI